وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

سلسلة
وقفات تربوية
في ضوء القرآن الكريم

المجلد الثالث عشر

ويتضمن الرسائل:

وضع الميزان

[سورة الرحمن: ٨]

الميزان
في الحكم على الأعيان

عبدالعزيز بن ناصر الجليل

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إلا لمن أراد طبعه وتوزيعه
مجانًا
بعد أخذ الإذن من المؤلف

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ

رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٧٥٠٣

ISBN: 798-977-430-226-8

القسطاوي
للطباعة والتجليد
٠٠٢٠١٠١٩٩٩٥٥٥

وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

وَوَضَعَ الْمِيزَانَ

[سورة الرحمن: ٨]

عبد العزيز بن ناصر الجليّل

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا، **أما بعد:**

فإن أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده، وأعظم رحمة أنزلها على عباده هي هذا القرآن العظيم الذي بلغه الناس أفضل رسله محمد ﷺ؛ هذا القرآن الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم، والذي هو نور ورحمة وهدى وميزانُ قسط وعدل؛ قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسراء: ٩]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝١٧﴾ [الشورى: ١٧].

فهنيئًا لمن جعل الكتاب والسنة دليله وميزانه ومرجعه الذي يستضيء به في طريقه، وميزانه الذي يزن به الأقوال والأعمال والأخلاق والأشياء.

وتبًا وخسارة لمن أعرض عن هذين النورين والميزانين العدلين، واستبدل بهما موازين البشر الظالمة الجاهلة القاصرة.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوقَ كل ضرورة إلى معرفة الرسول ﷺ وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر؛ فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح ـ لا في الدنيا، ولا في الآخرة ـ إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على

التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضا الله البتة إلا على أيديهم؛ فالطيِّب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزانُ الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم تُوزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظمُ من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فُرِضتْ، فضرورةُ العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير.

وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديُه وما جاء به طرفة عين فسد قلبُك، وصار كالحوت إذا فارق الماء، ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظمُ، ولكن لا يُحِسُّ بهذا إلا قلب حي، وما لجرح بميت إيلام»(١).

وحينما يفتقد الناس الميزان الحق الذي لا تتأرجح به الأهواء، ولا يغيب عنه شيء فإن الناس يتخبطون ويكونون في أمر مريج؛ لأنهم يرجعون في وزنهم للأشياء إلى أهوائهم وإلى ما كان عليه آباؤهم الظالمون الجاهلون، وحينئذ تأتي هذه الموازين الجاهلية بالعجب في: تناقضها، وظلمها، وقصورها، وجهلها، وتقلبها، واعوجاجها؛ يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ: «فلا بد إذن من ميزان ثابت ترجع إليه بالأعمال، ولا بد من قيم معترف بها نقيس إليها المعروف والمنكر. فمن أين نستمد هذه القيم؟ ومن أين نأتي بهذا الميزان؟

من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم وشهواتهم، وهي متقلبة لا تثبت على حال؟ إننا ننتهي إذن إلى متاهة لا دليل فيها، وإلى خضم لا معالم فيه!

فلا بد ابتداء من إقامة الميزان، ولا بد أن يكون هذا الميزان ثابتًا لا يتأرجح مع الأهواء. هذا الميزان الثابت هو ميزان الله»(٢).

ومن المتأمل اليوم في أحوال كثير من الناس والمجتمعات يجد اضطرابًا

---

(١) زاد المعاد ١/ ٦٩.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٥٠.

شديدًا، وخللًا بينًا في موازينهم ومعاييرهم؛ إذ يغلب عليها موازين الجاهلية التي تصدر عن الدنيا وما يدور في فلكها من النظريات المادية التي لا تحسب للدين والدار الآخرة حسابًا.

وهذا الاضطراب والخلل في الموازين من الوضوح بحيث لا يحتاج المسلم فيه إلى مزيد عناء في اكتشافه. وهذا الخلل قد يوجد على المستوى الفردي كما يوجد على المستوى الجماعي والأممي، وقد يكون عن جهل أحيانًا، وأحيانًا عن خبث وهوى وعلم؛ ذلك لأن جهودًا منظمة موجهة تبذل لإنشاء موازين وقيم وتصورات لمجتمعات المسلمين غير تلك التي يريدها الله ﷻ، وتسعى هذه الجهود الخبيثة لإقامة أسس للحياة والارتباطات غير تلك التي أقامها الله سبحانه، ولتوجيه الناس والحياة والأخلاق وجهة غير التي قررها الله ﷻ؛ ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال سبحانه: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ۝١٣٨﴾ [البقرة: ١٣٨].

ومن أجل بيان الميزان الإلهي الحق والدعوة إليه، وبيان ما يضاده من موازين البشر الجاهلية الجائرة، والتحذير منها ومن مفاسدها وما تؤول إليه من الشرور والفتن، تأتي هذه الرسالة الجديدة من الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم، والموسومة بقوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧].

أسأل الله ﷻ أن ينفع بها كاتبها وقارئها، وأن يرزقني فيها السداد والإخلاص.

ولبيان أهمية هذا الموضوع أسوق النقاط التالية التي فيها ذكر بعض الدوافع التي دفعت إلى كتابة هذا الموضوع؛ ومنها:

أولًا: بيان نعمة الله ﷻ على عباده بهذا الدين القويم، والميزان المستقيم الذي يكفل لمن اتبعه الحياة الكريمة السعيدة المطمئنة في الدنيا والآخرة، ويجازي من أعرض عنه بالحياة النكدة الضنك المضطربة التي ما لها من قرار تستقر عليه ولا ميزان عدل تتحاكم إليه؛ قال الله ﷻ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ

هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طـه: ١٢٣ ـ ١٢٦]. وقال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]. ويقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٦].

وأداءً لشكر هذه النعمة فإنه يجب على مَنْ منَّ الله عليه بها أن يفرح بهذه الهداية العظيمة أشد الفرح؛ فإنه لا يضره ما فاته من الدنيا ما دام يهنأ بهذه النعمة، كما يجب عليه أن يحافظ عليها، ويتجنب أسباب زوالها، ويسأل ربه سبحانه الثبات عليها. كما يجب عليه الدعوة إلى هذا المنهج الحق والميزان العدل، وإيصاله إلى من حُرمه حتى ينعم به في الدنيا والآخرة.

ثانيًا: بيان سبيل المجرمين القائم على الهوى والظلم، وبيان موازينه المعوجة، الجائرة المضطربة، المتهافتة المتناقضة، وبيان خطورتها على أهلها في الدنيا والآخرة، وتحذير المخدوعين بها وما تجره عليهم من الشرور والفساد والفتن.

ثالثًا: التحذير من جهود المفتونين المُلبِّسين الذين يعرضون أفكارهم وموازينهم المضطربة الظالمة في قوالب مزخرفة؛ ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه العذاب، مما يكون سببًا في خداع الناس، وقبولهم لمصطلحات هؤلاء المُلبِّسين الذين يتلاعبون بالمصطلحات، ويقلبون على الناس الحقائق، فيظهرون الحق بمصطلحاتهم البراقة في صورة باطل، والباطل في صورة حق. فكان لزامًا على أهل الميزان الحق فضح هؤلاء، وبيان تلبيسهم، وكشف زيفهم. وسيأتي إن شاء الله تعالى مبحث خاص بالمصطلحات وخطورة التلاعب بها وخداع الناس بها.

رابعًا: انفتاح الدنيا اليوم على الناس بصورة لم يسبق لها نظير؛ حيث تنافس فيها أكثر الناس، وركنوا إليها، وأصبحت هي الشغل الشاغل والغاية المنشودة عندهم، مما كان له أكبر الأثر في اضطراب المعايير، وفساد الموازين؛ حيث أصبح ميزان الدنيا والمادة هي الغالبة على كثير من المواقف والحكام، واستبعد ميزان الله ﷻ والدار الآخرة. ولا تسأل بعد ذلك عن ما يترتب على ذلك من الفتن والظلم والفساد والشرور.

خامسًا: سريان الخلل في الموازين، حتى دخل على بعض المنتسبين إلى العلم والدعوة ـ وما أبرئ نفسي ـ وليس ذلك من عدم العلم بالموازين الشرعية والقناعة بها، بل نحن مؤمنون بها، ولكن الخلل إنما يظهر في الواقع والتطبيق؛ إذ تطغى بعض الموازين الأرضية في بعض المواقف؛ إما عن غفلة، أو عن تأويل واجتهاد خاطئ، أو عن شهوة وهوى.

فلعل في هذه الدراسة نصح وموعظة لنفسي وإخواني الدعاة إلى أهمية محاسبة النفس في الالتزام بميزان الله ﷻ علمًا وعملًا وحالًا.

وبعد هذه الإلمامة السريعة ببعض الأمور التي تشير إلى أهمية الموضوع فإنه يمكن توزيع هذه الدراسة على الفصول التالية:

الفصل الأول: **إشكالية المصطلحات وخطورة التلاعب بها.**

الفصل الثاني: **خصائص الميزان الإلهي.**

الفصل الثالث: **تطبيقات من الواقع تظهر الفرق بين ميزان الله ﷻ المستقيم وموازين البشر المعوجة.**

الخاتمة: وفيه مجمل البحث وخلاصته.

❑ ❑ ❑

الفصل الأول

إشكالية المصطلحات وخطورة التلاعب بها

الفصل الأول

إشكالية المصطلحات وخطورة التلاعب بها

الاصطلاح في اللغة: مصدر اصطلح بمعنى اتفق؛ وذلك كما يقول الجرجاني ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه التعريفات: «الاصطلاح عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقله عن موضعه الأول. وقيل: هو إخراج اللفظ عن معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما. وقيل: الاصطلاح: اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى، وقيل: الاصطلاح لفظ معين بين قوم معينين»[(١)].

ومع ما في المصطلحات من فائدة كبيرة في كونها وسائل للتفاهم بأقصر طريق، وأوضح دلالة، وأقل مجهود؛ ما دامت مقيدة بالكتاب والسنة ـ كما رأينا ذلك عند علماء الأصول والأحكام ـ إلا أنها ظلمت عند قوم تلاعبوا بها ووظَّفوها في التلبيس على الناس وإضلالهم، فشوَّهوا بها الحق، وزيَّنوا بها الباطل.

ويصف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ـ رحمه الله تعالى ـ هذا التلاعب فيقول: «إن ظلم الكلمات بتغيير دلالاتها كظلم الأحياء بتشويه خلقتهم؛ كلاهما منكر، وكلاهما قبيح، وإن هذا النوع من الظلم يزيد على القبح بأنه تزوير للحقيقة، وتغليط للتاريخ، وتضليل للسامعين، ويا ويلنا حين نغتر بهذه الأسماء الخاطئة، ويا ويح تاريخنا إذا بُني على هذه المقدمات الكاذبة»[(٢)].

---

(١) التعريفات ص٢٨.

(٢) عيون البصائر، نقلًا عن حمدي عبيد (المصطلح وإشكالية الاصطلاح)، مجلة البيان، العدد (١٤٠)، ص١١٢.

والمصطلحات إذا لم تحرر ولم تضبط فإنها تؤدي إلى انحراف في الفهم والإفهام، ونلمس هذا من تحذير الرب ﷻ الصحابة الكرام رضي الله عنهم من استعمال لفظ يحمل أكثر من دلالة في خطابهم للنبي ﷺ، ناهيًا لهم أن يتشبهوا باليهود في مقالهم الذي أرادوا منه المعنى السيِّء؛ يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾ [البقرة: ١٠٤]. ذلك أن لفظ **(راعنا)** يحتمل معنى **(انظرنا)** ـ وهذا معنى حسن ـ كما أنه يحتمل اشتقاقه من **(الرعونة)** ـ وهو مراد اليهود ـ لذا وجَّه الله سبحانه إلى استعمال مفردة جديدة صريحة في دلالاتها على الإنظار والإمهال، لا تحتمل المعنى الآخر؛ وهي قوله: **(انظرنا)**.

«**والمصطلحات** من أشد العناصر الثقافية أثرًا وفتكًا في ثقافات الشعوب. ومع أن المصطلح لا يتجاوز كلمة أو كلمتين أو ثلاث، ولا يتعدى ذلك إلا نادرًا، إلا أن هذه الكلمة قادرة على أن تفرغ العقول والقلوب وتملأها. ولها مفعول السحر الذي يستعصى فهمه على المنطق وقوانين العقل. وغالبًا ما تكون بعيدة عن المحاكمات المحددة، ملتبسة بأثر العواطف والغرائز، وتكتسب ـ من خلال استعمالها بين شعب وشعب، وظرف وظرف ـ ظلالًا، ويصبح لها في مسيرها تضاريس ناتئة، وانهدامات غائرة، وتنعكس عليها آثار النفوس من حقد وحسد وضغينة وانتقام، وتصرخ من بين حروفها الأهواء والعواطف الملتوية التي تغلف التواءها بكثير من الادِّعاء والتطاول وحب التغلب والسيطرة.

والمصطلح باختصار هو (حبة) أو (جرعة) سحرية، يتناولها فرد أو جماعة، فتحول اتجاه تفكيره أو تفكيرهم من جهة إلى جهة، إن لم تفقده التفكير أصلًا»(١).

ويقول الأستاذ سعد آل عبد اللطيف: «تشهد الساحة الإسلامية في المجال الفكري فوضى في الاصطلاحات؛ فهذا يجعجع بالمصطلحات

---

(١) مجلة البيان، العدد (٩)، الافتتاحية.

المحدثة نابذًا خلفه المصطلحات الشرعية، وذاك يستتر بباطله خلف المصطلحات الشرعية لتزيين الباطل وترويجه بين الناس، والآخر يرفض جميع الاصطلاحات المحدثة ولو كانت ذات معنى صحيح.

إن تحديد الاصطلاحات وتوضيح مدلولاتها يساعد كثيرًا على إزالة الإشكال في الفهم، وحسن الظن بالآخرين، والوصول إلى الحق، وتضييق دائرة الخلاف، ويغلق الباب أمام سيل جارف من الشرور والفساد، ويحول دون تسلسل دعاة الزندقة وأهل الأهواء إلى الساحة بترويج أباطيلهم وبدعهم»[١].

ويفرق شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ بين المصطلحات القرآنية والألفاظ الحادثة فيقول: «والتعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن أولى من التعبير عنها بغيرها؛ فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها، وهي تنزيل من حكيم حميد، والأمة متفقة عليها، ويجب الإقرار بمضمونها قبل أن تفهم، وفيها من الحكم والمعاني ما لا ينقضي عجائبه، والألفاظ المحدثة فيها إجمال واشتباه ونزاع، ثم قد يجعل اللفظ حجة بمجرده وليس هو قول الرسول الصادق المصدوق، وقد يضطرب في معناه، وهذا أمر يعرفه من جربه من كلام الناس. فالاعتصام بحبل الله يكون بالاعتصام بالقرآن والإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ومتى ذُكِرتْ ألفاظ القرآن والحديث وبُيِّن معناها بيانًا شافيًا: فإنها لا تنتظم فقط جميع ما يقوله الناس من المعاني الصحيحة، بل فيها زيادات عظيمة لا توجد في كلام الناس، وهي محفوظة مما دخل في كلام الناس من الباطل؛ كما قاله ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]»[٢].

ويشير ـ رحمه الله تعالى ـ إلى خطورة الاصطلاحات المجملة التي تحمل حقًا وباطلًا، فيقول: «ثم التعبير عن تلك المعاني إن كان في ألفاظه اشتباه أو إجمال عبر بغيرها أو بيَّن مراده بها، بحيث يحصل تعريف الحق

(١) مجلة البيان، العدد (٨٦)، ص٢١.
(٢) النبوات ص٣٣٣، ٣٣٤.

بالوجه الشرعي؛ فإن كثيرًا من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ومعاني مشتبهة»(١).

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «وأما الاشتباه في المعنى فيكون له وجهان: هو حق من أحدهما، باطل من الآخر، فيوهم إرادة الوجه الصحيح ويكون مراده الباطل، فأصل ضلال بني آدم من الألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة، ولا سيما إذا صادفت أذهانًا مخبطة. فكيف إذا انضاف إلى ذلك هوى وتعصب؟ فسل مقلب القلوب أن يثبِّتَ قلبك على دينه، وأن لا يوقعك في هذه الظلمات»(٢).

ويقول في موطن آخر: «فإياك ثم إياك والألفاظ المجملة المشتبهة التي وقع اصطلاح القوم عليها؛ فإنها أصل البلاء، فإذا سمع ضعيف المعرفة والعلم بالله تعالى لفظ: اتصال وانفصال، ومسامرة ومكالمة، وأنه لا وجود في الحقيقة إلا وجود الله، وأن وجود الكائنات خيال ووهم، وهم بمنزلة وجود الظل القائم بغيره: فاسمع منه ما يملأ الآذان من حلول واتحاد وشطحات. والعارفون من القوم أطلقوا هذه الألفاظ ونحوها، وأرادوا بها معاني صحيحة في أنفسهم، فخلط الغالطون في فهم ما أرادوه، ونسبوه إلى إلحادهم وكفرهم، واتخذوا كلماتهم المتشابهة تُرسًا لهم وجُنَّة»(٣).

ويرسم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ المنهج الصحيح للتعامل مع المصطلحات الحادثة التي لم يرد بها كتاب ولا سنة، فيقول: «وأما الألفاظ التي تنازع فيها أهل الكلام، فلا تُتلقى بتصديق ولا تكذيب حتى يُعرف مراد المتكلم بها، فإن وافق ما قاله الرسول كان من القول المقبول، وإلا كان من المردود، ولا يكون ما وافق قول الرسول مخالفًا للعقل الصريح أبدًا، كما لا يكون ما خالف قوله مؤيدًا ببرهان العقل أبدًا»(٤).

ويقول أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما مخاطبة أهل اصطلاح باصطلاحهم ولغتهم

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢/ ١١٤.
(٢) الصواعق المرسلة ٣/ ٩٢٧.
(٣) مدارج السالكين ٣/ ١٥٨.
(٤) درء تعارض العقل والنقل ٥/ ٥٨.

فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك وكانت المعاني صحيحة؛ كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم؛ إن هذا جائز حسن للحاجة»(١).

ثم يقول بعد ذلك: «والسلف والأئمة الذين ذموا وبدَّعوا أهل الكلام في الجوهر والجسم والعرض تضمن كلامهم ذم من يدخل في المعاني التي يقصدها هؤلاء بهذه الألفاظ في أصول الدين؛ في دلائله، وفي مسائله؛ نفيًا وإثباتًا.

فأما إذا عرف المعاني الصحيحة الثابتة بالكتاب والسنة، وعبَّر عنها لمن يفهم بهذه الألفاظ ليتبين ما وافق الحق من معاني هؤلاء وما خالفه، فهذا عظيم المنفعة، وهو من الحكم بالكتاب بين الناس فيما اختلفوا فيه؛ كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وهو مثل الحكم بين سائر الأمم بالكتاب فيما اختلفوا فيه من المعاني التي يعبِّرون عنها بوضعهم وعرفهم، وذلك يحتاج إلى معرفة معاني الكتاب والسنة، ومعرفة معاني هؤلاء بألفاظهم، ثم اعتبار هذه المعاني ليظهر الموافق والمخالف»(٢).

والحاصل أن إلمام المسلم بميزان الكتاب والسنة المبرء من الخلل والشطط هو الذي يؤهله ليكون أبعد الناس عن الانسياق وراء الشعارات والمصطلحات المضللة مهما كان بريقها، ومهما كان مكر الأعداء في التلاعب بها. وفي واقعنا المعاصر يظهر لنا خبث أعداء هذا الدين من الكفار والمنافقين؛ وذلك في التلاعب بالمصطلحات، والتلبيس على الناس بها، ونشرهم ذلك في وسائل الإعلام المختلفة التي يتحكمون بها، والتي ما تفتأ تُبدئ وتعيد في طرح المصطلحات الغامضة والتلاعب بها في إضلال الناس وغسل أدمغتهم، وجعلها مع الوقت والتكرار أمرًا مسلمًا ومقبولًا لا يحتمل النقاش. ولنضرب مثالًا لذلك مصطلح: **التسامح والسلام**؛ حيث حُوِّل من معناه الشرعي الصحيح إلى أن يكون أداة لهدم عقيدة الولاء والبراء، وإبطال

---

(١) مجموع الفتاوى ٣/٣٠٦ ـ ٣٠٨.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٥/٥٨.

شعيرة الجهاد في سبيل الله ﷻ. ومثال آخر مصطلح: **التجديد** الذي ظاهره الرحمة وباطنه فيه تبديل الدين وتفريغه من ثوابته ومضامينه، وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكر مزيد من الأمثلة عند الحديث عن بعض المصطلحات والفرق فيها بين ميزان الله ﷻ وموازين البشر؛ وذلك في فصل مستقل.

❏ ❏ ❏

الفصل الثاني

خصائص الميزان الإلهي

الفصل الثاني

خصائص الميزان الإلهي

يحسن قبل ذكر هذه الخصائص أن نلم إلمامة سريعة ببعض أقوال المفسرين عند قوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾، والتي سيتبين لنا فيها أن ﴿ٱلْمِيزَانِ﴾ يراد به العدل في كل شيء، وليس محصورًا في وزن الأشياء المحسوسة في كفتي الميزان؛ خاصة إذا تدبَّرنا هذه الآية في سياقها، ووصلناها بما قبلها وما بعدها من الآيات.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمٰن: ٧ ـ ٩].

يقول الإمام ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العدل؛ كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾ [الرحمٰن: ٨] أي: خلق السمٰوات والأرض بالحق والعدل لتكون الأشياء كلها بالعدل. ولهذا قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ أي: لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط؛ كما قال سبحانه: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥]»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذلك أنزل الله سبحانه الميزان في القلوب؛ لمَّا بينت الرسل العدل وما يوزن به عرفت القلوب ذلك، فأنزل الله على القلوب من العلم ما تزن به الأمور حتى تعرف التماثل والاختلاف، وتضع من الآلات الحسية ما تحتاج إليه في ذلك؛ كما وضعت

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٧٠.

موازين النقدين وغير ذلك. وهذا من وضعه تعالى الميزان؛ قال تعالى: ﴿وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝﴾، وقال أكثر المفسرين: هو العدل، وقال بعضهم: هو ما يوزن به ويعرف العدل، وهما متلازمان»[(١)].

ويقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآيات: «وإلى جوار هذه العظمة في رفع هذه السماء الهائلة الوسيعة (وَضَعَ الْمِيزَانَ): ميزان الحق؛ وضعه ثابتًا راسخًا مستقرًا، وضعه لتقدير القيم: قيم الأشخاص والأحداث والأشياء؛ كي لا يختل تقويمها، ولا يضطرب وزنها، ولا تتبع الجهل والغرض والهوى. وضعه في الفطرة، ووضعه في المنهج الإلهي الذي جاءت به الرسالات وتضمنه القرآن؛ ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ فتغالوا وتفرطوا، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝﴾ ومن ثم يستقر الوزن بالقسط بلا طغيان ولا خسران»[(٢)].

ويقول القاسمي ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: الاستقامة في الطريقة، وملازمة حد الفضيلة ونقطة الاعتدال في جميع الأمور وكل القوى»[(٣)].

ويقول الشيخ السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ: «﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي: العدل بين العباد في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء، والمقادير والمساحات التي يضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل فيها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم»[(٤)].

ويقول البقاعي ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره لهذه الآية: «﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي: العدل الذي دبَّر به الخافقين؛ من الموازنة، وهي: المعادلة لتنظيم أمورنا»[(٥)].

---

(١) الرد على المنطقيين ١/ ٣٨٤.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٤٩.
(٣) محاسن التأويل ١٥/ ٢٨٢.
(٤) تفسير السعدي ٥/ ١٤٨.
(٥) تفسير البقاعي ١٩/ ١٤٨.

ويقول ابن عاشور ـ رحمه الله تعالى ـ في التحرير والتنوير: «والميزان هنا مراد به العدل؛ مثل الذي في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ لأنه الذي وضعه الله ـ أي: عيَّنه ـ لإقامة نظام الخلق، فالوضع هنا مستعار للجعل، فهو كالإنزال في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾. ومن ذلك قول أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه: «وإن أحبَّ أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله» أي: اجعلها وعينها لما يدُلُّك الله عليه؛ فإطلاق الوضع في الآية بعد ذكر رفع السماء مشاكلة ضدية، وإيهامُ طباق مع قوله: ﴿رَفَعَهَا﴾ ففيه محسِّنان بديعيان.

وقرن ذلك مع رفع السماء تنويهًا بشأن العدل بأن نُسِبَ إلى العالم العلوي، وهو عالم الحق والفضائل، وأنه نزل إلى الأرض من السماء؛ أي: هو مما أمر الله به، ولذلك تكرر ذكر العدل مع ذكر خلق السماء؛ كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٥]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]. وهذا يصدِّق القول المأثور: «**بالعدل قامت السماوات والأرض**». وإذ قد كان الأمر بإقامة العدل من أهم ما أوصى الله به إلى رسوله ﷺ قُرن ذكر جعله بذكر خلق السماء، فكأنه قيل: ووضع فيها الميزان... وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ عطف على جملة ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾ على احتمال كون المعطوف عليها تفسيرية... والمعنى: اجعلوا العدل ملازمًا لما تقوِّمونه من أموركم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وكما قال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨]، فيكون قوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ ظرفًا مستقرًا في موضع الحال، أو الباء للسببية؛ أي: راعوا في إقامة التمحيص ما يقتضيه العدل»[(١)].

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٣٨ ـ ٢٤٠ باختصار.

والآيات التي فيها ذكر الأمر بالقيام بالعدل ووزن الأمور والأشياء به كثيرة؛ من ذلك: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله ﷻ: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥].

هذا هو ميزان الله ﷻ الذي يجب أن توزن به الأمور والأشياء، وأن يكون هو الحاكم، والمصدر الذي ينطلق منه المسلم في وزنه وتقويمه ومواقفه كلها؛ لأنه الميزان العادل الشامل، المبرء من الجهل والهوى والنقص والظلم، وأما ما يقوله الناس ويفعلونه ويصطلحون عليه مما يخالف ميزان الله ﷻ فلا يجوز بحال أن يُلتفت إليه أو يحسب له حسابٌ؛ لأنه يأتي منصبغًا بصبغة البشر المتمثلة في النقص والجهل والظلم والهوى؛ ومحدودية الزمان والمكان، والنظرات الجزئية، وفي ذلك يقول سيد قطب رحمه الله: «فالإنسان لأنه أولًا محدود الكينونة من ناحية الزمان والمكان؛ إذ هو حادث في زمن؛ يبدأ بعد عدم، وينتهي بعد حدوث، ومتحيز في مكان ـ سواء كان فردًا أو كان جيلًا أو كان جنسًا ـ لا يوجد إلا في مكان، ولا ينطلق وراء المكان ـ كما أنه لا يوجد إلا في زمان ولا ينطلق وراء الزمان ـ ولأنه محدود الكينونة من ناحية العلم والتجربة والإدراك، يبدأ علمه بعد حدوثه، ويصل من العلم إلى ما يتناسب مع حدوث كينونته في الزمان والمكان، وحدود وظيفته كذلك.

ولأنه فوق أنه محدود الكينونة ـ بهذه الاعتبارات كلها ـ محكوم بضعفه وميله وشهوته ورغبته، فوق ما هو محكوم بقصوره وجهله.

الإنسان وهذه ظروفه، حينما يفكر في إنشاء تصور اعتقادي من ذات نفسه، أو في إنشاء منهج للحياة الواقعية من ذات نفسه كذلك، يجيء تفكيره محكومًا بهذه السمة التي تحكم كينونته كلها... يجيء تفكيره جزئيًا...

يصلح لزمان ولا يصلح لآخر، ويصلح لمكان ولا يصلح لآخر، ويصلح لحال ولا يصلح لآخر، ويصلح لمستوى ولا يصلح لآخر.. فوق أنه لا يتناول الأمر الواحد من جميع زواياه وأطرافه، وجميع ملابساته وأطواره، وجميع مقوماته وأسبابه؛ لأن هذه كلها ممتدة في الزمان والمكان، وممتدة في الأسباب والعلل، وراء كينونة الإنسان ذاته، ومجال إدراكه.. وذلك كله فوق ما يعتور هذا التفكير عن عوامل الضعف والهوى، وهما سمتان إنسانيتان أصيلتان!»(١).

ويقول أيضًا: «إننا نحسب حسابًا لما يقول الناس، ولما يفعل الناس، ولما يملك الناس، ولما يصطلح عليه الناس، ولما يتخذه الناس في واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازين؛ لأننا نغفل أو نسهو عن الأصل الذي يجب أن نرجع إليه في الوزن والقياس والتقويم: إنه منهج الله وشريعته وحكمه؛ فهو وحده الحق، وكل ما يخالفه فهو باطل؛ ولو كان عرف ملايين الملايين، ولو أقرَّته الأجيال في عشرات القرون!

إنه ليست قيمة أي وضع، أو أي عرف، أو أي تقليد، أو أي قيمة أنه موجود، وأنه واقع، وأن ملايين البشر يعتنقونه، ويعيشون به، ويتخذونه قاعدة حياتهم.. فهذا ميزان لا يعترف به التصور الإسلامي. إنما قيمة أي وضع، وأي عرف، وأي تقليد، وأية قيمة أن يكون لها أصل في منهج الله، الذي منه ـ وحده ـ تُستمد القيم والموازين»(٢).

وبعد هذه المقدمة الإجمالية لخصائص الميزان الإلهي نأتي لذكر بعض مفردات هذه الخصائص التي تُبيِّن عظمة هذه الخصائص وكمالها وعدلها وشمولها. وفي ذكرها بيان لما يضادها من الموازين البشرية القاصرة الجاهلة الظالمة المعوجَّة.

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ص١٥٤، ١٥٥.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٢٠.

فمن خصائص الميزان الإلهي ما يلي:

الخاصية الأولى: الربانية:

هذه هي الخاصية الكبرى التي تستلزم جميع الخصائص الأخرى التي تنبثق منها؛ لأن خاصية الربانية تتضمن صفات الكمال والجمال والجلال والعدل والحكمة والرحمة واللطف، والتي هي صفات للرب العظيم، الإله الحق، الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا، والذي كل ما في هذا الكون من خلق وتكوين، ومن أمر وشرع، فإنما هو مقتضى أسمائه ـ سبحانه ـ الحسنى وصفاته العليا.

ووصفنا للميزان الحق بأنه رباني يعني أنه يتَّسم بصفات واضعه سبحانه من الكمال، والعدل، والشمول، والتوازن، والثبات، والبراءة من صفات النقص والعيوب؛ قال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾، وقال سبحانه: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ١٣٨].

الخاصية الثانية: التوحيد:

وهذه الخاصية هي صلب الميزان الإلهي، وهي من لوازم ربوبية الله ﷻ؛ حيث إنه الملك الحق، الخالق الرزاق، العليم الحكيم، له الأسماء الحسنى والصفات العلا، ويلزم على هذا أن لا تُصْرف العبادة إلا له سبحانه لا شريك له.

وإذا صح توحيد العبد لربه سبحانه وانقاد لأمره، وتبرَّأ من الشرك وأهله، ووالى حزب الله وأولياءه وتعبَّد لله وحده بأسمائه وصفاته صحَّت حينئذٍ موازينه، وصحَّت معاييره التي يزن بها الناس والأشياء والقيم؛ لأنه ينطلق من توحيده سبحانه ويزن كل شيء حسب قربه وبعده من التوحيد، وحسب تقواه لله ﷻ.

أمَّا إذا ضعف التوحيد، وقلَّ وازع الدين فإن الموازين المادية تغلب

ويكون لها الاعتبار في وزن الأمور، ولا تسأل عندئذ عن اضطراب الموازين، وتناقضها، وظلمها، وقصورها، وانحرافها.

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عن خاصية التوحيد وأثرها في الانضباط والاستقامة والعدل في الموازين: «إن التوحيد يُنشئ في العقل والقلب آثارًا منفردة، لا ينشئها تصور آخر؛ كما أنه ينشئ في الحياة الإنسانية مثل هذه الآثار كذلك.

إنه ينشئ في القلب والعقل حالة من «الانضباط» لا تتأرجح معها الصور، ولا تهتز معها القيم، ولا يتميَّع فيها التصور ولا السلوك.

فالذي يتصور الألوهية على هذا النحو، ويدرك حدود العبودية كذلك: يتحدَّد اتجاهه، كما يتحدَّد سلوكه، ويعرف على وجه الضبط والدقة من هو؟ وما غاية وجوده؟ ما حدود سلطاته؟ كما يدرك حقيقة كل شيء في هذا الكون، وحقيقة القوة الفاعلة فيه. ومن ثَمَّ يتصور الأشياء ويتعامل معها في حدود مضبوطة، لا تميُّع فيها ولا تأرجح. وانضباط التصور يُنشئ انضباطًا في طبيعة العقل وموازينه، وانضباطًا في طبيعة القلب وقيمه. والتعامل مع سنن الله بعد ذلك والتلقي عنها يزيد هذا الانضباط ويحكمه ويقوِّيه.

ندرك هذا حين نوازن بين المسلم الذي يتعامل مع ربه الواحد الخالق الرزاق القادر القاهر المدبر المتصرف، وبين غيره من أصحاب التصورات التي أشرنا إليها؛ سواء من يتعامل مع إلهين متضادين: إله للخير وإله للشر! ومن يتعامل مع إله موجود ولكنه حالٌّ في العدم! ومن يتعامل مع إله (المادة) الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يثبت على حال! إلى آخر الركام الذي لا يستقر العقل أو القلب منه على قرار.

وإن هذا التصور لينشئ في القلب والعقل «الاستقامة»؛ فالإنسان الذي يدرك من حقيقة ربه، ومن صفاته، ومن علاقاته به ذلك القدر «المضبوط» لا شك يستقيم في التعامل معه بقلبه وعقله، ولا يضطرب ولا يطيش!

والمسلم يعرف من تصوره لربه، وعلاقته به ما يحب ربه وما يكره منه،

ويستيقن أن لا سبيل له إلى رضاه إلا الإيمان به، ومعرفته بصفاته، والاستقامة على منهجه وطريقته»[١].

الخاصية الثالثة: الثبات:

وهذه الخاصية منبثقة من الخاصية الكبرى: **(الربانية)**؛ فبما أنه ميزان رباني، صادر عن الله ﷻ، العالِم بما كان وبما يكون، ويستوي عنده الماضي والحاضر والمستقبل، فإنه ميزان ثابت لا يتغير بتغير الزمان والمكان، ولا يضطرب ولا يتناقض. ودور العقل البشري إزاء هذا الميزان هو التلقِّي والاستجابة والتطبيق في واقع الحياة. وتظل التغيرات في الحياة وأشكال الأوضاع في ظاهر الحياة محكومة بالمقومات والقيم الثابتة لهذا الميزان الثابت، وتكون الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت.

وهذه الخاصية في هذا الميزان هي التي تضمن ثبات المبادئ والقيم والأخلاق مهما تغيَّر الزمان والمكان، وهي التي تبث الطمأنينة في الضمير السليم في المجتمع السليم؛ لأن الطمأنينة إلى ثبات هذا الميزان هي التي تضمن الراحة النفسية للفرد، وتضمن للمجتمع الإسلامي مبادئ وموازين ثابتة يتحاكم إليها هو وحكامه على السواء؛ فلا تناقض في الميزان، ولا معايير مختلفة تحكمها الأهواء.

وثبات هذا الميزان ينشأ من أن هناك حالتين اثنتين للحياة البشرية، ولا علاقة بالزمان أو المكان في تقدير هاتين الحالتين، بل هما ثابتتان في كل زمان ومكان؛ لأنهما في ميزان الله ثابتتان لا تتغيران. وهاتان الحالتان تتعاوران في الحياة البشرية على مدى الزمان واختلاف المكان: حالة الهدى وحالة الضلال مهما تنوَّعت ألوان الضلال؛ حالة الحق وحالة الباطل مهما تنوَّعت ألوان الباطل؛ حالة النور وحالة الظلام مهما تنوَّعت ألوان الظلام؛ حالة الكفر وحالة الإيمان مهما تنوَّعت ألوان الكفر. والانطلاق من هاتين

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ص٣٢٦، ٣٢٧ بتصرف يسير.

الحالتين الثابتتين وما يتولد عنهما من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة هو الميزان الثابت الذي تُحاكم إليه أحوالُ البشر ومواقفهم وقيمهم وتقديراتهم[١].

والحمد لله الذي هدانا لهذا الميزان الثابت الحق العدل، الذي أنزله الله ﷻ على عباده: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ: «وإذا كانت التصورات والمذاهب والأنظمة التي يضعها البشر لأنفسهم ـ في معزل عن هدى الله ـ تحتاج دائمًا إلى التطور في أصولها، والتحور في قواعدها، والانقلاب أحيانًا عليها كلها حين تضيق عن البشرية في حجمها المتطور! وفي حاجاتها المتطورة... إذا كانت تلك التصورات والمذاهب والأنظمة التي هي من صنع البشر تتعرَّض لهذا وتحتاج إليه فذلك لأنها من صنع البشر! البشر القصار النظر! الذين لا يرون إلا ما هو مكشوف لهم من الأحوال والأوضاع والحاجات في فترة محدودة من الزمان، وفي قطاع خاص من الأرض... رؤية فيها ـ مع هذا ـ قصور الإنسان، وجهل الإنسان، وشهوات الإنسان، وتأثرات الإنسان.

أما التصور الإسلامي ـ بربانيته ـ فهو يخالف في أصل تكوينه، وفي خصائصه، تلك التصورات البشرية. ومن ثَمَّ لا يحتاج ـ في ذاته ـ إلى التطور والتغير. فالذي وضعه يرى بلا حدود من الزمان والمكان، ويعلم بلا عوائق من الجهل والقصور، ويختار بلا تأثير من الشهوات والانفعالات. ومن ثم يضع للكينونة البشرية كلها، في جميع أزمانها وأطوارها أصلًا ثابتًا تتطور هي في حدوده وترتقي، وتنمو وتتقدم دون أن تحتك بجدران هذا الإطار!... وهو ـ من ثم ـ كامل متكامل، لا يقبل تنمية ولا تكميلًا، كما لا يقبل «قطع غيار» من خارجه؛ فهو من صنعة الله، فلا يتناسق معه ما هو من صنعة غيره. والإنسان لا يملك أن يضيف إليه شيئًا، ولا يملك أن يُعدِّل فيه شيئًا؛ إنما هو جاء ليضيف إلى الإنسان، لينمِّيه ويعدِّله ويطوِّره ويدفع به دائمًا إلى الإمام؛

(١) انظر: خصائص التصور الإسلامي ص٦٧.

جاء ليضيف إلى قلبه وعقله، وإلى حياته وواقعه، جاء ليوقظ كل طاقات الإنسان واستعداداته، ويطلقها تعمل في إيجابية كاملة، وفي ضبط كذلك وهداية، وتؤتي أقصى ثمراتها الطيبة، مصونة من التبدد في غير ميدانها، ومن التعطل عن إبراز مكنونها، ومن الانحراف عن طبيعتها ووجهتها، ومن الفساد بأيٍّ من عوامل الفساد»[١].

الخاصية الرابعة: خاصية الشمول والتوازن:

ويقال هنا أيضًا ما قيل في الخصائص السابقة؛ فما دام أنه ميزان رباني المصدر فلا جرم يقال هنا أيضًا: إنه ميزان شامل لكل نواحي الكينونة البشرية، ولكل نواحي الحياة، وهو شمول متوازن، عدل لا يطغى فيه جانب على جانب، وسط بين الإفراط والتفريط؛ ذلك لأنه من الله العليم الرحيم الخبير اللطيف الحكيم القوي العزيز، الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا.

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ: «وهو ـ من ثَمَّ ـ شامل، متوازن، منظور فيه إلى كل جوانب الكينونة البشرية أولًا، ومنظور فيه إلى توازن هذه الجوانب وتناسقها أخيرًا، ومنظور فيه كذلك إلى جميع أطوار الجنس البشري، وإلى توازن هذه الأطوار جميعًا؛ بما أن منزله هو صانع هذا الإنسان: الذي خلق، والذي يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير. فليس أمامه ـ سبحانه ـ مجهول بعيد عن آفاق النظر من حياة هذا الجنس، ومن كل الملابسات التي تحيط بهذه الحياة. ومن ثم فقد وضع له التصور الصحيح الشامل لكل جوانب كينونته، ولكل أطوار حياته.. المتوازن مع كل جوانب كينونته، ومع كل أطوار حياته.. الواقعي المتناسق مع كينونته ومع كل ظروف حياته.

وهو ـ من ثَمَّ ـ الميزان الوحيد الذي يرجع إليه الإنسان في كل مكان، وفي كل زمان، بتصوراته وقيمه، ومناهجه ونظمه، وأوضاعه وأحواله،

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ص٦٦ ـ ٦٨ باختصار وتصرف يسير.

وأخلاقه وأعماله.. ليعلم أين هو من الحق، وأين هو من الله. وليس هناك ميزان آخر يرجع إليه، وليس هناك مقررات سابقة ولا مقررات لاحقة يرجع إليها في هذا الشأن.. إنما هو يتلقى قيمه وموازينه من هذا التصور، ويكيِّف بها عقله وقلبه، ويطبع بها شعوره وسلوكه، ويرجع في كل أمر يعرض له إلى ذلك الميزان: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]»[١].

ويقول في موطن آخر: «لا يمكن أن تجيء فكرة بشرية، ولا أن يجيء منهج من صنع البشرية يتمثل فيه «الشمول» أبدًا... إنما هو تفكير جزئي، وتفكير وقتي، ومن جزئيته يقع النقص، ومن وقتيته يقع الاضطراب الذي يُحتِّم التغيير. ويتمثل في الأفكار التي استقل البشر بصنعها، وفي المناهج التي استقل البشر بوضعها دوام «التناقض» أو دوام «الجدل».

... فأما حين يتولى الله ـ سبحانه ـ ذلك كله فإنه التصور الاعتقادي، وكذلك المنهج الحيوي المنبثق منه، يجيئان بريئين من كل ما يعتور الصنعة البشرية من القصور والنقص والضعف والتفاوت... وهكذا كان «الشمول» خاصية من خصائص الميزان الإلهي»[٢].

الخاصية الخامسة: اعتبار الإيمان باليوم الآخر:

إن الانطلاق من الإيمان باليوم الآخر ليعد من أبرز سمات الميزان الإلهي؛ وذلك لما لعقيدة اليوم الآخر من أثر في وزن الناس والقيم والأغراض والربح والخسارة والتكريم والإهانة، وغير ذلك مما سيُفصَّل في ثنايا البحث إن شاء الله تعالى.

وإذا أردنا الوقوف على آثار الإيمان باليوم الآخر في تصحيح الموازين وانضباطها ودقتها وعدلها فلننظر إلى شخصين: **أحدهما**: قد استقر اليقين

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ص٦٨، ٦٩.

(٢) المصدر السابق ص١٥٥، ١٥٦ باختصار وتصرف يسير.

باليوم الآخر في قلبه، وظهر ذلك في أقواله وأعماله وأحواله، **وآخر**: لا يؤمن باليوم الآخر من الكفرة والمشركين، أو كان غافلًا عن ذلك كحال أكثر المسلمين اليوم. ثم نقارن بينهما في وزنهما للأمور، وحكمهما على الأشياء، ومواقفهما وأحوالهما؛ إننا سنجد عند المقارنة البون الشاسع، والتباين الكبير في موازينهما ومواقفهما وانضباطهما واستقامتهما.

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ: «والغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل، وتؤرجح في أكفهم ميزان القيم؛ فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصورًا صحيحًا، ويظل علمهم بها ظاهرًا سطحيًا ناقصًا؛ لأن حساب الآخرة في ضمير الإنسان يغير نظرته لكل ما يقع في هذه الأرض، فحياته على الأرض إن هي إلا مرحلة قصيرة من رحلته الطويلة في الكون، ونصيبه في هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من نصيبه الضخم في الوجود، والأحداث والأحوال التي تتم في هذه الأرض إن هي إلا فصل صغير من الرواية الكبيرة، ولا ينبغي أن يبني الإنسان حكمه على مرحلة قصيرة من الرحلة الطويلة، وقدر زهيد من النصيب الضخم، وفصل صغير من الرواية الكبيرة!

ومن ثَمَّ لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظر ما وراءها؛ لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة، ولا يتفقان في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشؤون؛ فلكل منهما ميزان، ولكل منهما زاوية للنظر، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال. هذا يرى ظاهرًا من الحياة الدنيا، وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن، ونواميس شاملة للظاهر والباطن، والغيب والشهادة، والدنيا والآخرة، والموت والحياة، والماضي والحاضر والمستقبل، وعالم الناس والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء»(١).

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٥٩.

وقد ضرب الله ﷻ لنا في القرآن أمثلة وقصصًا ظهر لنا فيها أثر الإيمان باليوم الآخر من عدمه في وزن الأمور، ومن هذه الأمثلة:

أولًا: قصة قارون مع قومه:

قال الله ﷻ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠].

يذكر الله سبحانه في هذه القصة صنفين من قوم قارون: **الصنف الأول** الذي يمثله قارون في عتوّه واستكباره، وركونه إلى الدنيا، وغفلته عن الآخرة، فكان ميزانه ميزان الدنيا الهابط السافل: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، فلم ينسب النعمة والعطاء إلى الله ﷻ، بل جحد ذلك، وخرج على قومه فرحًا بطرًا. وهذا هو شأن أهل الدنيا وموازينهم.

ويتبع قارون في هذه المواقف الهابطة أولئك الذين انخدعوا بزينته، وتمنّوا مكانه، فقالوا: ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ حيث جعلوا ميزان الحظ والنصيب هذه الدنيا الفانية.

أما الصنف الثاني: فيمثل أهل الآخرة الذين صحت موازينهم، وربطوها بنظرتهم لهذه الدنيا وفنائها، وبالآخرة ودوامها، وأنها أكبر درجات وأكبر تفضيلًا، فقالوا لقارون مقولتهم الكريمة: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ﴾... الآيات [القصص: ٧٦، ٧٧].

كما ظهر هذا الميزان النظيف في نصيحة أهل العلم من قوم قارون لمن اغتر بزينة قارون، فقالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

المثال الثاني: قصة موسى ﷺ مع سحرة فرعون:

وقد قص الله سبحانه هذه القصة في أكثر من سورة من القرآن؛ قصها في سور: الأعراف، يونس، طه، الشعراء، وغيرها.

وقد ظهر لنا في هذه القصة العظيمة أثر الإيمان باليوم الآخر في النظرة إلى الحياة الدنيا ووزنها وقيمتها وأعراضها، فكان من سحرة فرعون موقفان متضادان تمامًا:

الموقف الأول: قبل إيمانهم بالله والدار الآخرة؛ فكانت موازينهم واهتماماتهم موازين الدنيا وزخرفها، وفكرهم فيها وحدها؛ قال تعالى عن حالتهم هذه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢]، فهمُّهم قبل الإيمان المنصب والأجر، هذا كل اهتماماتهم.

الموقف الثاني بعد وضوح الحق وإيمانهم بالله سبحانه والدار الآخرة؛ حيث كان لهم شأن آخر وميزان آخر، ألا وهو ميزان الآخرة، والطمع في مغفرة الله والثواب الجزيل في جنات النعيم؛ قال تعالى عن موقفهم من فرعون عندما هدَّدهم بالقتل والصلب بعد سجودهم لله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٢، ٧٣] فكانوا في الصباح سحرة فجرة وفي المساء أتقياء بررة. وما ذاك إلا من تحوُّلهم عن الكفر بالله واليوم الآخر إلى الإيمان بالله واليوم الآخر.

❑ ❑ ❑

الفصل الثالث

بين ميزان الله المستقيم
وموازين البشر المعوجة

الفصل الثالث

بين ميزان الله المستقيم وموازين البشر المعوجة

وهذا الفصل يمثل صلب البحث وأكثره؛ إذ إنه يتضمن أمثلة واقعية يتبيَّن فيها الفرق بين ميزان الله ﷻ العدل المستقيم، وبين موازين البشر الظالمة القاصرة الجاهلة المعوجَّة.

وقبل الدخول في مباحث هذا الفصل يحسن التذكير بخاصتين كبيرتين ـ سبق ذكرهما ـ من خصائص الميزان الإلهي وهما اللتان تميزانه عن موازين البشر وتفردانه بالكمال والجمال، والشمول والثبات، ألا وهما:

١ ـ توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

٢ ـ الإيمان باليوم الآخر.

وإن أيَّ خلل واعوجاج في موازين البشر إنما منشؤه فقدُ هاتين الخاصتين، أو الغفلة عنهما وعدم جعلهما مصدرًا للنظر والوزن والحكم على الأشياء.

وتحت هذا الفصل تقع المباحث التالية:

المبحث الأول

ميزان التكريم والإهانة

نبدأ ببعض ما ذكره الله ﷻ في كتابه من موازين الجاهلية المنكرة في التكريم والإهانة، ثم نتبعها ببعض ما ضمَّنه الله ﷻ في كتابه من ميزانه الحق المستقيم في حقيقة التكريم والإهانة.

قال الله ﷻ عن موازين الجاهلية:

* ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧].

* وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٥].

* وقال ﷻ: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣].

* وقال سبحانه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص: ٧٩].

* وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧].

* وقال سبحانه عن قوم نوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٧].

ومن خلال الآيات السابقة تتضح لنا بجلاء موازين الجاهلية في التكريم والإهانة، حيث إنها تقوم على معايير الدنيا وأعراضها الزائلة؛ فالمكرم في هذه الموازين هو الحائز على نصيب كبير من الدنيا؛ سواء كان ذلك مالًا، أو جاهًا وحسبًا، أو رئاسة، أو أولادًا وقوة وسلطانًا، أو غيرها من أعراض الدنيا الزائلة.

أما ميزان الله عز وجل في التكريم والإهانة:

فإنه يقوم على أن الكريم من أكرمه الله عز وجل، والمهان من أهانه سبحانه. ومن أهانه الله عز وجل فلا مكرم له؛ قال سبحانه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]. والله تبارك وتعالى لا يكرم إلا أهل توحيده وتقواه، ومن سواهم فهو المهان الوضيع. ومن الآيات الواردة في ذلك:

الأولى:

قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

يقول الإمام ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «يقول تعالى مخبرًا الناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ـ وهما آدم وحواء ـ وجعلهم شعوبًا ـ وهي أعم من القبائل ـ وبعد القبائل مراتب أخر؛ كالفصائل، والعشائر، والعمائر، والأفخاذ، وغير ذلك، وقيل: المراد بالشعوب بطون العجم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل.

وقد لخَّصتُ هذا في مقدمة مفردة جمعتها من كتاب الأشباه لأبي عمر بن عبد البر، ومن كتاب «القصد والأَمَم في معرفة أنساب العرب والعجم»،

فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله تعالى، ومتابعة رسوله ﷺ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضًا منبهًا على تساويهم في البشرية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣] أي: ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ أي: إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب، وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ؛ قال البخاري: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا عبدة، عن عبيد الله، عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: «**أكرمهم عند الله أتقاهم**». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**فأكرم الناس يوسف؛ نبي الله ابن نبي الله بن نبي الله ابن خليل الله**»، قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**فعن معادن العرب تسألوني؟**» قالوا: نعم. قال: «**فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**»[1][2]. اهـ.

ويربط سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ بين هذه الآية والآيات التي قبلها، فيقول عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]: «وفي التعبير إيحاء خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم، ويراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية التي يوزن بها الناس. فهناك قيم أخرى، قد تكون خافية عليهم، يعلمها الله، ويزن بها العباد. وقد يسخر الرجل الغني من الرجل الفقير، والرجل القوي من الرجل الضعيف، والرجل السوي من الرجل المؤوف، وقد يسخر الذكي الماهر من الساذج الخام، وقد يسخر ذو الأولاد من العقيم، وذو العصبية من اليتيم... وقد تسخر الجميلة من القبيحة، والشابة من العجوز، والمعتدلة من المشوهة، والغنية من الفقيرة.. ولكن هذه

---

(١) رواه البخاري (٤٦٨٩)، مسلم (٢٣٧٨).
(٢) تفسير ابن كثير ٤/٢١٧.

وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس؛ فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين»[١].

ثم يقول عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ . . .﴾ الآية: «يا أيها الناس، يا أيها المختلفون أجناسًا وألوانًا، المتفرقون شعوبًا وقبائل: إنكم من أصل واحد؛ فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بددًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم من ذكر وأنثى، وهو يطلعكم على الغاية مِنْ جَعْلِكم شعوبًا وقبائل؛ إنها ليست التناحر والخصام، إنما هي التعارف والوئام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف، والوفاء بجميع الحاجات، وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله. إنما هناك ميزان واحد تتحدد به القيم، ويعرف به فضل الناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ . . .﴾ والكريم حقًا هو الكريم عند الله. وهو يزنكم عن علم، وعن خبرة بالقيم والموازين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان.

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض، وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد. كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله. وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض،

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٤٤.

والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت، وكلها من الجاهلية وإليها؛ تتزيَّا بشتى الأزياء، وتُسمَّى بشتى الأسماء، وكلها جاهلية عارية من الإسلام!

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها؛ ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة: راية الله.. لا راية الوطنية، ولا راية القومية، ولا راية البيت، ولا راية الجنس؛ فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام»(١).

ويقول في موطن آخر: «إن الميزان الذي أنزله الله للناس مع الرسل ليقوِّموا به القيم كلها هو: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ..﴾ هذه هي القيمة الوحيدة التي يرجح بها وزن الناس أو يشيل! وهي قيمة سماوية بحتة، لا علاقة لها بمواضعات الأرض وملابساتها إطلاقًا.

ولكن الناس يعيشون في الأرض، ويرتبطون فيما بينهم بارتباطات شتى؛ كلها ذات وزن، وذات ثقل، وذات جاذبية في حياتهم. وهم يتعاملون بقيم أخرى؛ فيها النسب، وفيها القوة، وفيها المال. وفيها ما ينشأ عن توزيع هذه القيم من ارتباطات عملية.. اقتصادية وغير اقتصادية.. تتفاوت فيها أوضاع الناس بعضهم بالنسبة لبعض. فيصبح بعضهم أرجح من بعض في موازين الأرض.

ثم يجيء الإسلام ليقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، فيضرب صفحًا عن كل تلك القيم الثقيلة الوزن في حياة الناس، العنيفة الضغط على مشاعرهم، الشديدة الجاذبية إلى الأرض، ويبدل من هذا كله تلك القيمة الجديدة المستمدة مباشرة من السماء، المعترف بها وبدورها في ميزان السماء»(٢).

ويقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ: «وقد أجمع المسلمون على أن من كان أعظم إيمانًا وتقوى كان أفضل ممن هو دونه في الإيمان والتقوى، وإن كان الأول أسودَ حبشيًا والثاني علويًا أو عباسيًا»(٣).

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٣٤٨.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٢٣، ٣٨٢٤.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٥٤٣.

وقال أيضًا: «إن تعليق الشرف في الدين بمجرد النسب هو حكم من أحكام الجاهلية الذي اتبعتهم عليه الرافضة وأشباههم من أهل الجهل؛ فإن الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال النبي ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أبيض، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى؛ الناس من آدم وآدم من تراب**»[١]؛ ولهذا ليس في كتاب الله آية واحدة يَمدح فيها أحدًا بنسبه، ولا يَذم أحدًا بنسبه، وإنما يمدح الإيمان والتقوى، ويذم الكفر والفسوق والعصيان. وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «**أربع من أمر الجاهلية في أمتي لن يدعوهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة، والاستسقاء بالنجوم**»[٢]. فجعل الفخر بالأحساب من أمور الجاهلية... ولهذا لم يكن لأبي لهب مزية على غيره، ولمَّا عرف كفره كان أحق بالذم من غيره، ولهذا جعل لمن يأتي بفاحشة من أزواج النبي ﷺ ضعفين من العذاب، كما جعل لمن يقنت منهن لله ورسوله أجرين من الثواب، فذووا الأنساب الفاضلة إذا أساءوا كانت إساءتهم أغلظ من إساءة غيرهم، وعقوبتهم أشد عقوبة من غيرهم، فكفر من كفر من بني إسرائيل إن لم يكن أشد من كفر غيرهم، وعقوبتهم أشد عقوبة من غيرهم، فلا أقل من المساواة بينهم؛ ولهذا لم يقل أحد من العلماء أن من كفر وفسق من قريش والعرب تخفف عنه العقوبة في الدنيا أو في الآخرة، بل إمَّا أن تكون عقوبتهم أشد عقوبة من غيرهم في أشهر القولين، أو تكون عقوبتهم أغلظ في القول الآخر؛ لأن من أكرمه بنعمته ورفع قدره إذا قابل حقوقه بالمعاصي، وقابل نعمه بالكفر

---

(١) أحمد ٥/ ٤١٤، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، انظر: الفتح الرباني للساعاتي ١٢/ ٢٢٧.

(٢) الترمذي (٩٢٢) وصححه الألباني بلفظ مغاير في صحيح الترمذي (٧٩٩)، وأصله في مسلم (٦٧).

كان أحق بالعقوبة ممن لم ينعم عليه كما أنعم عليه»[١].

وقال في موطن ثالث: «فالاعتبار العام هو التقوى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فكل من كان أتقى كان أفضل مطلقًا، وإذا تساوى اثنان في التقوى استويا في الفضل، سواء كانا ـ أو أحدهما ـ غنيين أو فقيرين، أو أحدهما غنيًا والآخر فقيرًا، وسواء كانا أو أحدهما عربيِّين أو أعجميِّين، أو قرشيِّين، أو هاشميِّين، أو كان أحدهما من صنف والآخر من صنف آخر. وإن قدِّر أن أحدهما له من سبب الفضيلة ومظنتها ما ليس للآخر، فإذا كان ذاك قد أتى بحقيقة الفضيلة كان أفضل ممن لم يأت بحقيقتها، وإن كان أقدر على الإتيان بها؛ فالعالم خير من الجاهل، وإن كان الجاهل أقدر على تحصيل العلم، والبرُّ أفضل من الفاجر، وإن كان الفاجر أقدر على البرِّ، والمؤمن الضعيف خير من الكافر القوي، وإن كان ذاك يقدر على الإيمان أكثر من المؤمن القوي، وبهذا تزول شبه كثيرة تعرض في مثل هذه الأمور»[٢].

الآية الثانية:

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧].

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «أي ليس كل من أعطيتُه ونعمته وخولته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليَّ، ولكنه ابتلاء مني، وامتحان له: أيشكرني فأعطيته فوق ذلك؟ أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخوِّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقَدَر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه عليّ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سَعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط.

(١) دقائق التفسير ٢/ ٢٢، ٢٣.
(٢) منهاج السنة ٤/ ٦٠٨.

فردَّ الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليَّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليَّ. فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره؛ فإنه سبحانه يوسِّع على الكافر لا لكرامته، ويُقَتِّر على المؤمن لا لإهانته. إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته. فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهو الغني الحميد»(١).

ويقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «فهذا هو تصور الإنسان لما يبتليه الله به من أحوال، ومن بسط وقبض، ومن توسعة وتقدير؛ يبتليه بالنعمة والإكرام بالمال أو المقام فلا يدرك أنه الابتلاء تمهيدًا للجزاء؛ إنما يحسب هذا الرزق وهذه المكانة دليلًا على استحقاقه عند الله للإكرام، وعلامة على اصطفاء الله له واختياره. . . ويقيس الكرامة عند الله بعَرَض هذه الحياة! ويبتليه بالتضييق عليه في الرزق، . . . ويرى في ضيق الرزق مهانة عند الله؛ فلو لم يرد مهانته ما ضيق عليه رزقه.

وهو في كلتا الحالتين مخطئ في التصور، ومخطئ في التقدير؛ فبسط الرزق أو قبضه ابتلاء من الله لعبده؛ ليظهر منه الشكر على النعمة أو البطر، ويظهر منه الصبر على المحنة أو الضجر. والجزاء على ما يظهر منه بعد، وليس ما أُعطي من عَرَض الدنيا أو مُنِعَ هو الجزاء. . وقيمة العبد عند الله لا تتعلق بما عنده من عَرَض الدنيا. ورضى الله أو سخطه لا يستدل عليه بالمنح والمنع في هذه الأرض؛ فهو يعطي الصالح والطالح، ويمنع الصالح والطالح. ولكن ما وراء هذا وذاك هو الذي عليه المعول؛ إنه يعطي ليبتلي، ويمنع ليبتلي، والمعول عليه هو نتيجة الابتلاء!

غير أن الإنسان ـ حين يخلو قلبه من الإيمان ـ لا يدرك حكمة المنع والعطاء، ولا حقيقة القيم في ميزان الله. . فإذا عمر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ما هنالك، وخفَّت في ميزانه الأعراض الزهيدة، وتيقَّظ لما وراء

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٨٠.

الابتلاء من الجزاء، فعمل له في البسط والقبض سواء، واطمأن إلى قدر الله به في الحالين، وعرف قدره في ميزان الله بغير هذه القيم الظاهرة الجوفاء!»[(١)].

الآية الثالثة:

قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٧].

يقول الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «اختلف أهل التأويل عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى، إلا من آمن وعمل صالحًا؛ فإنه تقربهم أموالهم وأولادهم بطاعتهم الله في ذلك، وأدائهم فيه حقه إلى الله زلفى دون أهل الكفر بالله.

وقد يحتمل أن يكون **(مَنْ)** في موضع رفع، فيكون كأنه قيل: ما هو إلا من آمن وعمل صالحًا... فهؤلاء لهم من الله على أعمالهم الصالحة الضعف من الثواب؛ بالواحدة عشر»[(٢)].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «أي لا قريب عنده إلا من آمن وعمل صالحًا ـ سواء كان له مال وولد أو لم يكن له ـ والانقطاع فيه أظهر؛ فإنه تعالى نفى قرب الناس إليه بأموالهم وأولادهم، وأثبت قربهم عنده بإيمانهم وعملهم الصالح، فتقدير **(لكن)** هاهنا أظهر من تقدير الاتصال في هذا الاستثناء»[(٣)].

الآية الرابعة:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٥ باختصار. (٢) تفسير الطبري ٢٢/ ١٠٠، ١٠١.
(٣) بدائع الفوائد ٣/ ٥٧٩.

﴿أَعْجَبَكُمْ أُولَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١].

قال في نظم الدرر عند هذه الآية: «فإن المشركات شرٌّ محضٌ. ﴿وَلَأَمَةٌ﴾ رقيقة ﴿مُّؤْمِنَةٌ﴾ لأن نفع الإيمان أمر ديني يرجع إلى الآخرة الباقية ﴿خَيْرٌ﴾ على سبيل التنزيل ﴿مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ حرة ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي المشركة؛ لأن نفع نسبها ومالها وجمالها يرجع إلى الدنيا الفانية... ﴿وَلَا تُنكِحُواْ﴾ أيها الأولياء ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: الكفار بأيِّ كفر كان... ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ فإن الكفار شر محض ﴿وَلَعَبْدٌ﴾ أي: مملوك ﴿مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ﴾ على سبيل التنزيل ﴿مِّن مُّشْرِكٍ﴾ حر ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أي: المشرك. وأفهم هذا خيرية الحرة والحر المؤمنين من باب الأولى مع التشريف العظيم لهما بترك ذكرهما إعلامًا بأن خيريتهما أمر مقطوع به لا كلام فيه، وأن المفاضلة إنما هي بين من كانوا يعدُّونه دَنيًّا فشرَّفه الإيمان، ومن يعدُّونه شريفًا فحقَّره الكفران، وكذلك ذكر الموصوف بالإيمان في الموضعين ليدل على أنه ـ وإن كان دَنِيًّا ـ موضع التفضيل لعلو وصفه، وأثبت الوصف بالشرك في الموضعين مقتصرًا عليه لأنه موضع التحقير وإن علا في العرف موصوفه»(١).

الآية الخامسة:

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾ [الواقعة: ١ ـ ٣].

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «وقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾ أي: تخفض أقوامًا إلى أسفل سافلين في الجحيم ـ وإن كانوا في الدنيا أعزاء ـ وترفع آخرين إلى أعلى العليين؛ إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وضعاء»(٢).

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢ باختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٨٢.

ويقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عن الواقعة التي هي يوم القيامة، وما فيها من الأهوال العظيمة، ومنها أنها ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾: «وإنها لتخفض أقدارًا كانت رفيعة في الأرض، وترفع أقدارًا كانت خفيضة في دار الفناء؛ حيث تختل الاعتبارات والقيم، ثم تستقيم في ميزان الله»(١).

الآية السادسة:

قوله سبحانه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾ [عبس: ١ ـ ١١].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآيات: «يجيء هذا الرجل الأعمى الفقير إلى رسول الله ﷺ وهو مشغول بأمر هؤلاء النفر ـ لا لنفسه ولا لمصلحته، ولكن للإسلام ولمصلحة الإسلام ـ فلو أسلم هؤلاء لانزاحت العقبات العنيفة والأشواك الحادة من طريق الدعوة في مكة، ولانساح بعد ذلك الإسلام فيما حولها، بعد إسلام هؤلاء الصناديد الكبار.. يجيء هذا الرجل فيقول لرسول الله ﷺ: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله(٢). ويكرر هذا وهو يعلم تشاغل الرسول ﷺ بما هو فيه من الأمر. فيكره الرسول قطعه لكلامه واهتمامه، وتظهر الكراهية في وجهه ـ الذي لا يراه الرجل ـ فيعبس ويعرض؛ يعرض عن الرجل المفرد الفقير الذي يعطله عن الأمر الخطير؛ الأمر الذي يرجو من ورائه لدعوته ولدينه الشيء الكثير، والذي تدفعه إليه رغبته في نصرة دينه، وإخلاصه لأمر دعوته، وحبه لمصلحة الإسلام، وحرصه على انتشاره!

... وهنا يجيء العتاب من الله العلي الأعلى لنبيه الكريم، صاحب الخلق العظيم، في أسلوب عنيف شديد. وللمرة الوحيدة في القرآن كله يقال

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٤٦٢.

(٢) الترمذي (٣٣٣١)، والحاكم ٢/٥٥٨، وصححه، ووافقه الذهبي.

للرسول الحبيب القريب: **(كلا!)**. وهي كلمة ردع وزجر في الخطاب! ذلك أنه الأمر العظيم الذي يقوم عليه هذا الدين!

. . . هذا هو الميزان: ميزان الله؛ الميزان الذي توزن به القيم والاعتبارات، ويقدر به الناس والأوضاع. . وهذه هي الكلمة: كلمة الله؛ الكلمة التي ينتهي إليها كل قول، وكل حكم، وكل فصل.

وأين هذا؟ ومتى؟ في مكة، والدعوة مطاردة، والمسلمون قلة. والتصدي للكبراء لا ينبعث من مصلحة ذاتية، والانشغال عن الأعمى الفقير لا ينبعث من اعتبار شخصي، إنما هي الدعوة أولًا وأخيرًا. ولكن الدعوة إنما هي في هذا الميزان، وإنما هي هذه القيم، وقد جاءت لتقرر هذا الميزان وهذه القيم في حياة البشر. فهي لا تعز، ولا تقوى، ولا تنصر، إلا بإقرار هذا الميزان وهذه القيم.

ثم إن الأمر ـ كما تقدم ـ أعظم وأشمل من هذا الحادث المفرد، ومن موضوعه المباشر. إنما هو أن يتلقَّى الناس الموازين والقيم من السماء، لا من الأرض، ومن الاعتبارات السماوية لا من الاعتبارات الأرضية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ والأكرم عند الله هو الذي يستحق الرعاية والاهتمام والاحتفال، ولو تجرَّد من كل المقومات والاعتبارات الأخرى، التي يتعارف عليها الناس تحت ضغط واقعه الأرضي ومواضعاتهم الأرضية. النسب والقوة والمال. . وسائر القيم الأخرى، لا وزن لها حين تتعرَّى عن الإيمان والتقوى. والحالة الوحيدة التي يصح لها فيها وزن واعتبار هي حالة ما إذا أنفقت لحساب الإيمان والتقوى.

. . . لقد كان ميلادًا جديدًا للبشرية كميلاد الإنسان في طبيعته، وأعظم منه خطرًا في قيمته؛ أن ينطلق الإنسان حقيقة ـ شعورًا وواقعًا ـ من كل القيم المتعارف عليها في الأرض إلى قيم أخرى تتنزل له من السماء منفصلة منعزلة عن كل ما في الأرض من قيم وموازين وتصورات واعتبارات وملابسات عملية، وارتباطات واقعية ذات ضغط وثقل، ووشائج متلبسة باللحم والدم

والأعصاب والمشاعر. ثم أن تصبح القيم الجديدة مفهومة من الجميع، مسلمًا بها من الجميع، وأن يستحيل الأمر العظيم الذي احتاجت نفس محمد ﷺ كي تبلغه إلى التنبيه والتوجيه، أن يستحيل هذا الأمر العظيم بديهية الضمير المسلم، وشريعة المجتمع المسلم، وحقيقة الحياة الأولى في المجتمع الإسلامي لآماد طويلة في حياة المسلمين.

إننا لا نكاد ندرك حقيقة ذلك الميلاد الجديد؛ لأننا لا نتمثل في ضمائرنا حقيقة هذا الانطلاق من كل ما تنشئه أوضاع الأرض وارتباطاتها من قيم وموازين واعتبارات ساحقة الثقل، إلى الحد الذي يخيل لبعض أصحاب المذاهب (التقدمية!) أن جانبًا واحدًا منها - هو الأوضاع الاقتصادية - هو الذي يقرر مصائر الناس وعقائدهم وفنونهم وآدابهم وقوانينهم وعرفهم وتصورهم للحياة! كما يقول أصحاب مذهب التفسير المادي للتاريخ في ضيق أفق، وفي جهالة طاغية بحقائق النفس وحقائق الحياة!

إنها المعجزة؛ معجزة الميلاد الجديد للإنسان على يد الإسلام في ذلك الزمان.

ومنذ ذلك الميلاد سادت القيم التي صاحبت ذلك الحادث الكوني العظيم.. ولكن المسألة لم تكن هينة ولا يسيرة في البيئة العربية، ولا في المسلمين أنفسهم.. غير أن الرسول ﷺ قد استطاع - بإرادة الله، ثم بتصرفاته هو وتوجيهاته المنبعثة من حرارة انفعاله بالتوجيه القرآني الثابت - أن يزرع هذه الحقيقة في الضمائر وفي الحياة، وأن يحرسها ويرعاها، حتى تتأصل جذورها، وتمتد فروعها، وتظلل حياة الجماعة المسلمة قرونًا طويلة.. على الرغم من جميع عوامل الانتكاس الأخرى.

كان رسول الله ﷺ بعد هذا الحادث يهش لابن أم مكتوم ويرعاه، ويقول له كلما لقيه: «**أهلًا بمن عاتبني فيه ربي**»(١)، وقد استخلفه مرتين بعد الهجرة على المدينة.

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس (٦٨٠٥) من حديث أنس رضي الله عنه وهو ضعيف.

ولكي يحطم موازين البيئة وقيمها المنبثقة من اعتبار الأرض ومواضعاتها زوَّج بنت خالته زينب بنت جحش الأسدية لمولاه زيد بن حارثة، ومسألة الزواج والمصاهرة مسألة حساسة شديدة الحساسية، وفي البيئة العربية بصفة خاصة.

وقبل ذلك حينما آخى بين المسلمين في أول الهجرة، جعل عمه حمزة ومولاه زيدًا أخوين، وجعل خالد بن رويحة الخثعمي وبلال بن رباح أخوين!

وبعث زيدًا أميرًا في غزوة مؤتة، وجعله الأمير الأول، يليه جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة الأنصاري، على ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار، فيهم خالد بن الوليد.

وخرج رسول الله ﷺ بنفسه يشيعهم.. وهي الغزوة التي استشهد فيها الثلاثة رضي الله عنهم.

وكان آخر عمل من أعماله ﷺ أن أمَّر أسامة بن زيد على جيش لغزو الروم، يضم كثرة المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر وزيراه، وصاحباه، والخليفتان بعده بإجماع المسلمين، وفيهم سعد بن أبي وقاص قريبه ﷺ ومن أسبق قريش إلى الإسلام.

وقد تململ بعض الناس من إمارة أسامة وهو حدث. وفي ذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما: بعث رسول الله ﷺ بعثًا أمَّر عليهم أسامة بن زيد رضي الله عنه، فطعن بعض الناس في إمارته، فقال النبي ﷺ: **«إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ، وإنَّ هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده»**[(١)].

ولما لغطت ألسنة بشأن سلمان الفارسي، وتحدَّثوا عن الفارسية والعربية، بحكم إيحاءات القومية الضيقة، ضرب رسول الله ﷺ ضربته الحاسمة في هذا الأمر فقال: **«سلمان منَّا أهل البيتُ»** فتجاوز به ـ بقيم السماء

---

(١) البخاري (٣٧٣٠)، مسلم (٢٤٢٦).

وميزانها ـ كل آفاق النسب الذي يستعزون به، وكل حدود القومية الضيقة التي يتحمسون لها. . وجعله من أهل البيت رأسًا!

إما إسلام فهي قيم السماء وموازين السماء، وإما جاهلية فهي قيم الأرض وموازين الأرض»(١).

ثانيًا: ذكر بعض الأحاديث الواردة في بيان الميزان الإلهي للتكريم:

الحديث الأول:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ سُئل: أي الناس أكرم؟ فقال: «**أتقاهم**». فقالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**»، قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**أفعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»(٢).

الحديث الثاني:

عن أبي نضرة، حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ وسط أيام التشريق فقال: «**يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلَّغتُ؟**». قالوا: بلّغ رسول الله ﷺ. . . الحديث(٣).

الحديث الثالث:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكنه ينظر إلى قلوبكم، وأشار بأصابعه إلى صدره**»(٤).

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٢٤ ـ ٣٨٢٨ باختصار.
(٢) البخاري (٣٣٥٣)، مسلم (٢٣٧٨).
(٣) رواه أحمد في المسند ٥/ ٤١٤، وقال الساعاتي في الفتح الرباني ١٢/ ٢٢٧: أورده الهيثمي في المجمع وقال: رجاله رجال الصحيح.
(٤) مسلم (٢٥٦٤).

الحديث الرابع:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**بينا امرأة ترضع ابنها إذ مر بها راكبٌ وهي تُرضعه، فقالت: اللهم لا تُمت ابني حتى يكون مثل هذا. فقال: اللهم لا تجعلني مثله. ثم رجع في الثَّدْي. ومُرَّ بامرأةٍ تجرَّرُ ويُلعَبُ بها، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثلها. فقال: اللهم اجعلني مثلها. فقال: أما الراكبُ فإنهُ كافر، وأما المرأةُ فإنهم يقولون لها: تزني؛ وتقول: حسبي الله، ويقولون: تسرق، وتقول: حسبي الله**»(١).

الحديث الخامس:

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنه قال: «مر رجل على رسول الله ﷺ، فقال لرجلٍ عنده جالس: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال: رجل من أشراف الناس؛ هذا والله حريٌّ إن خَطبَ أن يُنكح، وإن شفع أن يُشفَّعَ. قال: فسكت رسول الله ﷺ. ثم مرَّ رجل، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال: يا رسول الله: هذا رجلٌ من فقراء المسلمين؛ هذا حَريٌّ إن خَطبَ أن لا يُنكح، وإن شفع أن لا يُشفَّع، وإن قال أن لا يُسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خيرٌ من مِلءِ الأرض مثل هذا**»»(٢).

ورُوى الحديث بلفظ آخر عن أبي ذر رضي الله عنه قال: بينما أنا مع رسول الله ﷺ في المسجد إذ قال: «**انظر أرفعَ رجلٍ في المسجد في عينيك**». فنظرت، فإذا رجل في حلةٍ، جالس يُحدِّث قومًا، فقلت: هذا. قال: «**انظر أوضع رجل في المسجد في عينيك**». قال: فنظرت فإذا رويجل مسكين في ثوب له خلق، قلت: هذا، قال النبي ﷺ: «**هذا خير عند الله يوم القيامة من قرار الأرض مثل هذا**»(٣).

---

(١) البخاري (٣٤٦٦). (٢) البخاري (٦٤٤٧).

(٣) رواه أحمد ٥/١٥٧، ١٧٠ ورواه ابن حبان في صحيحه، وصحَّح إسناده الأرناؤوط في الإحسان ٢/٤٥٦ (٦٨١).

الحديث السادس:

عن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعسفان ـ وكان عمر يستعمله على مكة ـ فقال: من استعملت على أهل الوادي؟ فقال ابن أبزى. قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا. قال: فاستخلفت عليهم مولى؟! قال: إنه قارئٌ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض. قال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين**»(١).

الحديث السابع:

عن ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ «أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة فقال: «**يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وتعاظمها بآبائها؛ فالناس رجلان: بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب؛ قال الله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]»(٢).

الحديث الثامن:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء. مؤمن تقي، وفاجر شقي؛ أنتم بنو آدم وآدم من تراب. ليدعنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن**»(٣).

ذكر بعض ما يتفرع عن هذا الميزان المستقيم من موازين أخرى:

بعد ذكر هذه الآيات البيِّنات من كتاب الله عز وجل، والأحاديث الصحيحة

---

(١) مسلم (٨١٧).

(٢) الترمذي (٣٢٧٠)، وابن حبان في صحيحه [الإحسان ٩/ ١٣٧ ـ (٣٨٢٨)].

(٣) أبو داود (٥١١٦)، وحسَّنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٢٦٩).

والصريحة من السنة النبوية في بيان هذا الميزان المستقيم للرفعة والتكريم؛ نأتي إلى ذكر بعض ما يتفرع عن هذا الميزان من موازين أخرى، ومن ذلك:

أولًا: ميزان الحب والموالاة، وميزان البغض والمعاداة:

لما كان المكرَّم والمحبوب إلى الله ﷻ هو المؤمن التقي، والمهان المُبْعَد هو الكافر والمعرض عن الله ﷻ، فإن هذا يلزم عليه أن يكون الحب في الله والبغض والمعاداة في الله؛ فلا يُحَب ولا يُوالَى إلا المحبوبُ لله ﷻ من عباده المتقين، وما هم عليه من توحيد وطاعة. ولا يُبغض ويعادى إلا الممقوتُ عند الله ﷻ من عبيده المستنكفين عن عبادته سبحانه وطاعته، وما هم عليه من كفر ومعصية.

وهذا الميزان يقضي على كل ميزان آخر قد يتعارف عليه الناس، ويجعلونه أساسًا في حبهم وبغضهم، وولائهم وبرائهم؛ كالجنس، والوطن، واللون، والمال، والجاه، وغيره من أعراض هذه الدنيا الزائلة.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال لقبيلة قريبة منه: «**إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي، إنما وليي الله وصالح المؤمنين**»[(١)] فأخبر النبي ﷺ أن موالاته ليست بالقرابة والنسب، بل بالإيمان والتقوى. فإذا كان هذا في قرابة الرسول ﷺ فكيف بقرابة جنكسخان الكافر المشرك؟! وقد أجمع المسلمون على أن من كان أعظم إيمانًا وتقوى كان أفضل ممن هو دونه في الإيمان والتقوى، وإن كان الأول أسود حبشيًا، والثاني علويًا أو عباسيًا»[(٢)].

ولما سأل نوح ﷺ ربه لابنه وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥] قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ [هود: ٤٦]. يعلق سيد قطب رحمه الله على هذه الآيات فيقول: «.. فالأهل ـ عند الله وفي دينه وميزانه ـ ليسوا قرابة الدم، إنما هم قرابة العقيدة، وهذا الولد لم يكن مؤمنًا، فليس إذن

(١) مسلم (٢١٥)، البخاري (٥٩٩٠). (٢) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٥٤٣.

من أهله وهو النبي المؤمن. جاءه الرد هكذا في قوة وتقرير وتوكيد.. ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٦].

إنها الحقيقة الكبيرة في هذا الدين: حقيقة العروة التي ترجع إليها الخيوط جميعًا؛ عروة العقيدة التي تربط بين الفرد والفرد ما لا يربطه النسب والقرابة: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾، فهو مُنْبَتٌّ منك وأنت مُنْبَتٌّ منه، ولو كان ابنك من صلبك، فالعروة الأولى مقطوعة، فلا رابطة بعد ذلك ولا وشيجة»(١).

واقعنا مع هذا الميزان المستقيم:

إن النظرة السريعة إلى واقع كثير من الناس اليوم في ضوء الميزان الإلهي للحب والبغض، والولاء والبراء لتكْشِفُ لنا ذلك البعد الشديد عن هذا الميزان المستقيم، والاستعاضة عنه بموازين جاهلية جائرة، جعلوها معيارًا للحب والبغض، والولاء والبراء، ومن أخطرها:

١ ـ القومية العربية:

وذلك بجعل الجنس العربي هو ميزان الحب والبغض؛ فمن كان عربيًا ـ سواء فردًا أو مجتمعًا أو دولة أو ثقافة وفكرًا ـ فهو المكرم والمحبوب، وله الولاء والنصرة مهما كانت عقيدته وفكره، ولو كان نصرانيًا أو يهوديًا أو باطنيًا أو شيوعيًا ملحدًا؛ فما دام أنه عربي فله عندهم المحبة والنصرة عمومًا. وفي المقابل: فكل العداوة والكره لكل من ليس عربيًا، ولو كان مسلمًا صالحًا.

٢ ـ الوطنية:

وهذه أيضًا من موازين الجاهلية التي تجعل الانتماء إلى الوطن الواحد هو معيار وميزان الحب أو البغض؛ بحيث يكون الولاء والمحبة والنصرة لكل

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٧٩، ١٨٨٠.

من يعيش تحت مظلة الوطن الواحد ـ ولو كان كافرًا أو منافقًا ـ كما يكون له الرفعة والإكرام والتقديم على من سواه ممن ليس من أبناء الوطن ـ ولو كان مسلمًا صالحًا تقيًا ـ ولا يخفى ما في هذا الميزان الجاهلي من مصادمة للميزان الإلهي في المحبة والعداوة والتكريم والإهانة.

ومعيار الوطنية هذا هو ما تتبناه اليوم كل دولة مع شعبها، ويساهم الإعلام المضلل في إذكائها وتزيينها في عقول الناس وقلوبهم بحجة أن حب الوطن قد جُبِلَتْ عليه النفوس، وأن ذلك يثمر الوحدة والتماسك. وهذا حق أريد به باطل. نعم إن حب الوطن والمكان الذي نشأ فيه الإنسان لا يلام عليه أحد، ولكن ليس نزاعنا في هذه المسألة، وإنما النزاع المرفوض أن يكون الولاء للوطن مقدمًا على الولاء للإسلام والمسلمين، وأن تكون الوحدة على غير العقيدة. أما إذا كان المواطن مسلمًا صالحًا فهذا نور على نور، ولا تثريب على من وجد ميلًا أكثر إلى المسلم الصالح من قرابته؛ سوءًا كانت هذه القرابة أسرة أو قبيلة أو وطنًا. أما أن يجد ميلًا ومحبة إلى أهل الكفر والنفاق لأنهم من أبناء وطنه فهذا هو المرفوض في ميزان الله ﷻ؛ قال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وفي مقال بعنوان: «فقه المواطنة بين الأصول التاريخية وهدي الإسلام» يتحدث الدكتور: أحمد محمود السيد، فيقول: «في هذه الأيام يتردد لفظ (المواطنة) على ألسنة الساسة المهتمين بالعمل السياسي، ودعاة العلمانية، وأنصار المنهج العلماني بوجه عام، ولا غضاضة في هذا ولا عجب، حتى وإن ادَّعى هؤلاء أنه لا يتعارض مع الإسلام، أو أن الإسلام قد عمل به وأسَّسه، بل العجب كل العجب أن ينبري بعض الشيوخ وعلماء الشريعة لإثبات أنه مبدأ إسلامي أصيل، وأن مضمون هذا المفهوم مماثل لما جاء به الشرع الحنيف!

والأدهى من ذلك أن السيناريو نفسه يتكرر كما حدث في الستينيات مع الاشتراكية.

هناك من كتب عن «المواطنة في الإسلام»، و«المواطنة عند رسول الله»، و«المواطنة في الشريعة الإسلامية»، و«المواطنة مبدأ إسلامي أصيل»، و«مبدأ المواطنة أهم دروس الهجرة»، وهناك من استدل بآيات قرآنية وتفسيرات حاول أن يلوي فيها أعناق الآيات لكي تعبر عن مفهوم المواطنة الغربي، مؤكدًا تطابقها مع تفسير القرآن!

فهل عادت أيام الاشتراكية من جديد؟! وهل عاد الذين يجيدون تفصيل الإسلام على المقاسات والموديلات مهما اختلفت أنواع القماش وأحجام وأوزان الناس؟!

تعالوا معي نتفهم معنى المواطنة في دولة المنشأ لنعرف إن كانت تصلح كمبدأ إسلامي أم لا.

يُعرِّف قاموس المصطلحات السياسية «المواطنة» بأنها: مكانة أو علاقة اجتماعية تقوم بين شخص طبيعي، وبين مجتمع سياسي (الدولة)، ومن خلال هذه العلاقة يقدم الطرف الأول الولاء، ويتولى الطرف الثاني الحماية، وتتحدَّد هذه العلاقة بين الشخص والدولة بالمساواة أمام القانون «الوضعي» في ظل هيمنة الدولة القومية.

ويعبر مفهوم المواطنة بمعناه الحديث عن تطور شديد التعقيد، صاغته أوروبا الغربية في القرن التاسع عشر خلال عمليات تاريخية واجتماعية وسياسية تم فيها الانتقال من الحق الإلهي المقدس إلى حق المواطن، ومن هيمنة الكنيسة إلى هيمنة الدولة، وتحول الانتماء العرقي أو الديني إلى انتماء لمجتمع مدني سياسي يعتمد على الإرادة العقلانية.

والمواطنة كمفردة من مفردات النظام السياسي الغربي - الذي انتشر في أوروبا ومنها إلى أمريكا ثم بقية أنحاء العالم بعد ذلك - ترتكز على مجموعة عناصر أساسية أهمها:

١ - إحلال عبادة مفهوم الدولة بديلًا عن موضوع عبادة الإله.

٢ - إعلاء وتقديم الولاء للدولة على أي ولاء آخر، حتى ولو كان الدين.

٣ ـ إحلال الرابطة القومية محل الرابطة الدينية كأساس لتجانس الجماعة السياسية.

٤ ـ تحويل الفرد من مقولة دينية إلى مقولة سياسية.

٥ ـ فصل العلاقة السياسية عن العلاقة الدينية.

٦ ـ صبغ الوجود الديني بطابع النسبية والذاتية.

٧ ـ إخضاع التعامل السياسي للمنطق الفردي المطلق.

٨ ـ رفض القيم والأخلاق الكاثوليكية في عملية بناء الدولة أو رسم السياسة العامة.

٩ ـ رفض تدخل رجال الدين في كل ما له صلة بالسلطة الزمنية.

١٠ ـ إطلاق التسامح الديني، وحرية الاعتقاد طالما أنه لن يتدخل في شؤون الحكم.

١١ ـ الحرية هي القيمة العليا التي تعلو على سائر القيم، بما فيها حرية الارتداد عن الدين.

١٢ ـ تأكيد الكيان المستقل للفرد.

١٣ ـ إعلاء العقل على اللاهوت.

هذه العناصر تُظْهِر بوضوح الحل الذي وضعه الأوروبيون لإشكالية العلاقة بين الدين والدولة من خلال «المواطنة» وفكرة الدولة القومية، وهو الحل الذي شكَّل الأساس الذي قامت عليه ظاهرة الدولة القومية التي خلقها الأوروبيون أنفسهم كأداة للتخلص من طغيان السلطة الدينية وتجاوزات الكنيسة الكاثوليكية الغربية، ولذلك قامت الدولة القومية على مبدأ الفصل بين الدين والدولة بمعنى عدم توظيف الدين في خدمة السياسة، وعدم توظيف السياسة في خدمة الدين، ورفض تدخل المؤسسات الدينية في كل ما له صلة بالعلاقة بين الوطن والدولة، وجعل نشاط القوى الدينية قاصرًا على الجوانب الروحية دون الحياة السياسية، وتخليص النشاط الديني من الدوافع والمطالب السياسية.

لقد آثرت أن أرجع إلى الأصول التاريخية للمواطنة قبل أن أتعرض لتطبيقاتها في عصرنا الحالي حتى أوضح موقفها من الدين قديمًا، ثم أقارنه بما هي عليه حديثًا؛ لأن هذا المعنى للمواطنة قد تغيَّر فأصبح ظاهره عدم التمييز الديني، لكن باطنه التحيز الديني أو المذهبي للأغلبية الحاكمة، كما يحدث مع الأحزاب الديمقراطية المسيحية في أمريكا وفي الحكومات الأوروبية.

فعلى الرغم من هذا الفصل المعلن بين الدين والدولة في النظم العلمانية القائمة على المواطنة، إلا أن الدين في وقتنا الحاضر يلعب دورًا كبيرًا في الأنظمة العلمانية المعاصرة، وأكبر مثال على ذلك: النظام العلماني في إسرائيل، والنظام العلماني في الهند؛ فالإطار العلماني ـ القائم على الديمقراطية، والانتخاب الحر، والأحزاب، والمواطنة، والقومية، وغيرها من مفاهيم النظام السياسي العلماني بشعاراته البراقة والمزيفة ـ هو السائد، لكنه يحمل بين طياته التمييز الديني، أو المذهبي؛ فاليهود مواطنون من الدرجة الأولى في دولتهم؛ يتميزون في الحقوق والواجبات والمخصصات عن غيرهم من المسلمين والنصارى وبقية الأديان، ويظهر هذا بوضوح في القوانين الحاكمة للسياسة والمجتمع، فضلًا عن المكانة الطبقية لليهود التي تتجلى في الممارسات اليومية الحياتية داخل الدولة.

أما الهند فهي تتباهى بأن نظامها علماني قائم على المساواة بين مواطنيها، والحقيقة عكس ذلك؛ فالهندوس ـ أتباع الديانة الغالبة فيها ـ له كل الامتيازات والمخصصات والسيادة على مقاليد الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فضلًا عن التشريعات والقوانين التي لا تعبر إلا عن عقيدتهم، ولا تنتصر إلا لدينهم، ولا تُغلِّب إلا فكرهم.

فالمواطنة كمبدأ سياسي لا تعمل بعيدًا عن النظرية السياسية الغربية التي صاغتها، ولا يمكن أن تقطع من سياقها ليتم تفعيلها في نظام آخر مختلف عقائديًا واجتماعيًا وتاريخيًا؛ فالنظام السياسي الإسلامي يقوم على مجموعة مبادئ تعمل معًا لتحقيق مبادئ الإسلام وهديه من خلال منظومة من الآليات

مثل: الإمامة ـ أهل الحل والعقد ـ الشورى ـ الخلافة ـ . . إلخ، والتميز فيها يكون للمسلم فلا يستوي المؤمنون والكافرون، وإذا كان معيار التفضيل هو التقوى كما في الحديث: «**لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى**»، فإن هذه التقوى معناها الإسلام والإيمان الخالص، وهذا ليس معناه ظلم المخالفين في العقيدة، لكنهم في ظل الدولة الإسلامية يتعاملون من خلال العهود والمواثيق التي تحفظ لهم حقوقهم، وتحفظ للدولة الإسلامية ما تفرضه عليهم من واجبات.

تحت عنوان (فقه المواطنة)، يكتب أحد المحسوبين على العلم الشرعي ـ وكأن المواطنة بابٌ من أبواب الفقه ـ عن مصطلح «أهل الذمة»، فيلبس على الناس، ويزعم أن القصد كان «ذمة الله»؛ أي: أن أهل الكتاب هم في ذمة الله من ناحية الحكم عليهم، وأن مسألة الجزية قد انتهت تاريخيًا، وليس المعنى أن لهم في ذمة المسلمين عهدًا ألا يتحالفوا مع الأعداء ضد المسلمين، وأن يدفعوا الجزية مقابل حمايتهم ورعايتهم والدفاع عنهم؛ ثم يؤكد أنهم في الإيمان سواء بسواء مع المسلمين، وأنهم في المواطنة كذلك في الحقوق والواجبات، وأن هذا هو تفسير ما جاء في خطبة الرسول ﷺ بعد دخوله المدينة المنورة.

هكذا تأبى نفوس الذين تشرَّبوا فكر الغرب ورضعوا من علمانيته إلا أن يستبعدوا الإسلام من طريق سياسة الدنيا، ويستكثروا على أتباعه أن يحكموا بهديه ومبادئه، فتحاول هذه الفئة أن تلوي أعناق الآيات، وتغيِّر في مضمون التفسير لتوافق هواهم، وتوظِّف من منحتهم صفة: (المفكر الإسلامي) كي يؤكدوا أن الإسلام لا يتعارض مع تلك المصطلحات، بل يؤسس لها ويطبقها، وتباركها شهادات لبعض الشيوخ والعلماء، متصورة أنها بهذا التلبيس على الناس تكون قد ضمنت غسيل عقولهم، وتحويل انتمائهم إلى هذا الفكر. . ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾[1] [المطففين: ٤ ـ ٦].

---

(١) انظر موقع (أنا المسلم).

٣ ـ الجاه والشهرة والمال:

ما أكثر اليوم من يجعل الجاه والشهرة والمال موازين الحب والتكريم والرفعة والتعظيم، دون النظر إلى الدين والصلاح والأخلاق. وهذا هو ميزان الجاهلية الأولى الذي أخبرنا الله ﷻ عنه بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١].

يقول الأستاذ محمد فهمي: «كم من أعمال يقف لها الناس تقديرًا، ويجعلون صاحبها رمزًا عظيمًا من الرموز، ويمنحونه الألقاب والنياشين، ولكن حين نذهب ونبحث عن قيمة تلك الأعمال التي عظمها الناس في ميزانهم، ونقيسها بميزان الآخرة، نرى تلك الأعمال لا قيمة لها!

كثيرًا ما رأينا ونرى أفرادًا أهانوا دينهم، واستخفوا بساحة العقيدة، ولوَّثوا عقول الناس بنتاجهم الثقافي، أو أناسًا أمضوا حياتهم في الغي والمنكرات، وكانت أعمالهم سببًا في إفساد أجيال وأعداد كبيرة من الناس، ولم يعلنوا توبة أو تراجعوا عما عملوه أو قالوه. لكنهم على الرغم من ذلك يوصفون بأنهم عظماء ورواد! ويوضعون على قمة العظماء في المجتمع، ومكان القدوة الذي تدعى الأجيال للسير على نهجهم، واقتفاء أثرهم.

وانظر مثلًا في كثير من المجتمعات ـ حين يُشاد بمسيرة التقدم في بعض البلاد ـ من يوضع على رأس أعلام الصورة الحضارية المعاصرة للمجتمع؟ وسوف نجد كثيرًا من أهل المجون والغناء، أو المصابين بلوثات العلمانية والإلحاد، الذين امتلأت آراؤهم وأفكارهم وأعمالهم بالطعن واللمز والغمز في الدين وشرائعه والمتمسكين به.

لقد أصاب مقياس العظمة والعظماء لدى كثير من الناس خلل كبير، وانحراف خطير، يحتاج إلى وقفة ومراجعة من العقلاء ليعيدوا للمجتمع المعايير الصحيحة والحقيقة التي تحسب على أساسها العظمة، ويستحق على أساسها الأفراد أن يكونوا رموزًا في مجتمعاتهم المسلمة، أو عظماء يسجل تاريخهم ليقتدى بهم.

يأتي معيار العقيدة على رأس المعايير المهمة في تقدير العظماء، ووضع الأفراد في منازل القدوة والرفعة في المجتمع المسلم. وإهمال هذا المعيار أو إزاحته تؤدي إلى اضطراب في هوية المجتمع وأصالته وخصائصه وعوامل الانتماء فيه، وخصوصًا في هذا العصر الذي صار لكثير من الأفكار والتيارات الضالة تأثير كبير بسبب وسائل الاتصال الحديثة، وأقرب مثال على خطورة هذا المعيار على المجتمع هو رفع كثير من وسائل الأعلام لبعض الشيعة إلى منزلة التقديس والتعظيم، بل تجرَّأ بعض الناس على ميزان العقيدة، وكَسَرَ أصوله من أجل أن يسوِّغ لنفسه وضع بعض الشيعة في مكانة قد لا يعترفون بها لأحد من أهل السنة، وقد صار لهذا تأثير كبير في أوساط الناس البعيدين عن معرفة الفوارق العقدية بين أهل السنة وفرق الشيعة.

ومثل هذا الخلل الناتج عن إزاحة معيار العقيدة في تقدير العظماء يقع في الأوساط الثقافية والفنية؛ حين تجد في المجال الأدبي مثلًا من يتعرض لأصول العقيدة المجمع على قداستها وحرمتها في قصيدة أو رواية، وعلى الرغم من ذلك ينال الجوائز التقديرية، وجوائز الدولة والأوسمة من الدرجة الرفيعة.

ومعيار الحلال والحرام هو معيار آخر له دوره وأهميته في تقدير العظماء، أو تقدير أعمالهم؛ لما في ذلك من صيانة لأركان المجتمع المسلم الدينية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية وغيرها، وحماية لمثله العليا ومبادئه من الضياع، لقد تمَّ إهمال هذا المعيار شيئًا فشيئًا على مدى سنوات طويلة، حتى انقلبت الأوضاع وصار اليوم يُنكر علنًا على ما يحاول جعله معيارًا في وزن الأعمال والرجال، وتقدير مكانتهم في المجتمع، بدعاوى شتى خادعة؛ كأن يقال مثلًا: لا شأن للحرام والحلال بعملية الإبداع، أو يقال: إن الفن ليس حرامًا»[١].

---

(١) موقع المسلم (الركن العلمي).

٤ ـ الإنسانية:

هذه الدعوة الماكرة تريد إلغاء الدين في ميزان التفاضل والتكريم، وتريد فرض الروابط الجاهلية والانطلاق منها في الأخوة الإنسانية. وقد أجاد الأستاذ محمد قطب ـ حفظه الله تعالى ـ في بيان حقيقة الدعوة إلى الإنسانية وأهدافها الخبيثة، فكان مما قال: «الإنسانية ـ أو العالمية كما يدعونها أحيانًا ـ دعوى براقة، تظهر بين الحين والحين، ثم تختفي لتعود من جديد! يا أخي! كن إنساني النزعة.. وجه قلبك ومشاعرك للإنسانية جمعاء.. دع الدين جانبًا فهو أمر شخصي.. علاقة خاصة بين العبد والرب محلها القلب. لكن لا تجعلها تشكل مشاعرك وسلوكك نحو الآخرين الذين يخالفونك في الدين.. فإنه لا ينبغي للدين أن يفرق بين البشر.. بين الإخوة في الإنسانية! تعال نصنع الخير لكل البشرية غير ناظرين إلى جنس أو لون أو وطن أو دين!

دعوى براقة كما ترى.. يخيل إليك حين تستمع إليها أنها تدعوك للارتفاع فوق كل الحواجز التي تفرق بين البشر على الأرض؛ تدعوك لترفرف في عالم النور.. تدعوك لتكون كبير القلب، واسع الأفق، كريم المشاعر.. تنظر بعين إنسانية، وتفكر بفكر عالمي، وتعطي من نفسك الرحبة لكل البشر على السواء، بدافع الحب الإنساني الكبير!

أي رفعة، وأي سمو، وأي نبل، وأي عظمة في القلب والفكر والشعور!

ولكن مهلًا! انتظر حين يخفت الرنين الذي تحدثه الكلمات والعبارات، وفتش عن الحقيقة بعيدًا عن العواطف والانفعالات، وانظر أين تجد هذه الشعارات مطبقة في واقع الأرض؟! هل لها رصيد حقيقي من الواقع أم أنها شعارات زائفة لأمر يراد؟!

ثم انظر إلى تلك العبارة الماسونية: «اخلع عقيدتك على الباب كما تخلع نعليك»!

ألا ترى شبهًا بين هذه الدعوة وتلك؟ أما ترى أنهما قريبتان؟ بل شقيقتان؟!

وفي القديم، حين كان الدين قويًا لا يقوون على مواجهته، لم يكونوا يجرؤون على التلفظ بمثل هذه العبارة، بل كانوا ينافقون ليصلوا إلى أغراضهم من «إغواء» الآخرين.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤].

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٧٢].

ولكنهم اليوم آمنون، فلا حاجة بهم إلى التظاهر بالإيمان بما أنزل على المؤمنين.. بل إنهم لينشرون الإلحاد اليوم بجسارة في كل الأرض...

ولكن أناسًا قد يخدعون بدعوى الإنسانية لما فيها من بريق، فيؤمنون بها أو يدعون إليها غافلين عن الحقيقة التي تنطوي عليها، وقد لا يصدقون أصلًا أنها دعوى إلى التحلل من الدين يبثها الشياطين في الأرض لأمر يراد.

فلنصدق ـ مؤقتًا ـ أنها دعوى مخلصة للارتفاع بالإنسان عن كل عصبية تلون فكره أو سلوكه أو مشاعره، ليلتقي بالإنسانية كلها لقاء الصديق المخلص الذي يحب الخير للجميع..

فلنصدق ذلك في عالم المثل.. في عالم الأحلام.. فما رصيد هذه الدعوة في عالم الواقع؟!

ما رصيدنا في العالم الذي تجتاحه القوميات من جانب، والعصبيات العرقية والدينية والسياسية والاجتماعية من كل جانب؟

فلنأخذ مثالًا واحدًا من العالم المعاصر.. من المعاملة التي يلقاها المسلمون في كل مكان في الأرض يقعون فيه في حوزة غير المسلمين، أو في دائرة نفوذهم من قريب أو من بعيد.

فلننظر إلى «الإنسانية» التي يعاملون بها، و«السماحة» التي يقابلون بها، «وسعة الصدر»، و«حب الخير» الذي ينهار عليهم من كل مكان!

خذ مثال الحبشة: يبلغ المسلمون فيها ٥٥٪ على الأقل من مجموع

السكان؛ وذلك قبل ضم إرتريا ـ عنوة ـ إليها، وإرتريا كلها مسلمون، فكيف تعاملهم الدولة المسيحية المتسلطة عليهم!

لا يوجد في الدولة وزير مسلم واحد يمثل أغلبية السكان! ولا موظف واحد من كبار الموظفين! ومدارس الدولة لا تعلم القرآن لأبناء المسلمين، ولا تلقنهم مبادئ دينهم، وحين يفتح المسلمون «كتاتيب» لتعليم القرآن لأبنائهم على نفقتهم الخاصة، تظل الدولة تفرض عليها من الضرائب ما يثقل كاهلهم حتى يغلقوها! ويحرم عليهم أن يتلقوا أي معونات من المسلمين من الخارج! وإلى عهد غير بعيد كان المسلم الذي يستدين من مسيحي حبشي ويعجز عن وفاء دينه يسترق لدائنه! ووقف هيلاسلاسي عام ١٩٦٢م في هيئة الأمم المتحدة فألقى خطابًا ضافيًا أعلن فيه أنه في خلال اثني عشر عامًا لن يكون في الحبشة إلا دين واحد! ولم يرتفع صوت واحد في تلك المؤسسة الإنسانية يستنكر ذلك التصريح. . .

وفلسطين ظلَّت أربعة عشر قرنًا من الزمان أرضًا إسلامية، ثم جاء اليهود ليقيموا عليها دولة يهودية. . ولم يستنكر أحد من «الإنسانيين» طرد السكان الأصليين وإجلاءهم عن أرضهم بالقنابل والمدافع، بل بشق بطون الحوامل والتلهي بالتراهن على نوع الجنين، كما فعلت العصابات اليهودية التي كان رأس إحداها مناحم بيجن. . وإنما استنكرت من المسلمين أن يطالبوا بأرضهم، وألا يخلوها عن طيب خاطر للغاصبين!

ويطول الأمر بنا لو رحنا نستعرض أحوال المسلمين الواقعين في قبضة غير المسلمين، أو الذين يتعرضون لعدوان غير المسلمين في كل مكان في الأرض: في روسيا الشيوعية التي قتلت ما يقرب من أربعة ملايين من المسلمين، وفي يوغسلافيا التي قتلت ثلاثة أرباع مليون منهم، وفي أفغانستان التي تستخدم فيها الأسلحة المحرمة دوليًا وقانونيًا وإنسانيًا! وفي أوغندا، وفي تنزانيا، وفي. . وفي. .

فما بال الإنسانيين؟ ما بالهم لا يتحركون؟! ما بالهم لا يصرخون في وجه الظلم الكافر الذي لا قلب له ولا ضمير؟!

إنما توجه دعوى الإنسانية فقط ضد أصحاب الدين!

فمن كان متمسكًا بدينه فهو المتعصب ضيِّق الأفق الذي يفرق بين البشر على أساس الدين، ولا يتسع قلبه للإنسانية فيتعامل معها بلا حواجز في القلب أو في الفكر أو في السلوك!

أو قل على وجه التحديد: إن الذين يحارَبون اليوم بدعوى الإنسانية هم المسلمون!

يحاربون بها من طريقين، أو من أجل هدفين: **الهدف الأول**: هو إزالة استعلاء المسلم الحق بإيمانه الناشئ من إحساسه بالتميز عن الجاهلية المحيطة به في كل الأرض، لكي تَنْبَهِمَ شخصيته وتتميَّع. **والهدف الثاني**: هو إزالة روح الجهاد من قلبه ليطمئن الأعداء ويستريحوا!!...

فباسم الإنسانية يقال للمسلم الحق: يا أخي لا تعتزل الناس! إن الإنسانية كلها أسرة واحدة، فتعامل مع الأسرة كفرد منها، ولا تميز نفسك عنها! وشارك في النشاط الإنساني ومظاهر الحضارة الإنسانية!...

تلك هي القضية! إن تمسك المسلم بإسلامه شيء يغيظ أعداء الإسلام بصورة جنونية.. ولا يهدأ لهم بال حتى يذهبوا عنه ذلك التمسك ويميعوه ـ ومن وسائل ذلك كما أسلفنا دعوى الإنسانية والعالمية ـ فإذا تميَّع بالفعل، ولم تعد له سمته المميزة له، احتقروه كما احتقرت أوروبا الأتراك بعد أن أزال أتاتورك إسلامهم و«غرَّبهم»! بينما يقول أحد المبشرين في كتاب «الغارة على العالم الإسلامي»: «إن أوروبا كانت تفزع من «الرجل المريض» ـ وهو مريض ـ لأن وراءه ثلاث مائة مليون من البشر مستعدون أن يقاتلوا بإشارة من يده». وهذا النص الأخير يدخل بنا إلى النقطة الثانية أو الهدف الثاني من استخدام دعوى الإنسانية في محاربة المسلمين.

إن أشد ما يخشاه أعداء الإسلام من الإسلام هو روح الجهاد الكامنة فيه... ودعوى الإنسانية من أسلحة الحرب الموجهة ضد روح الجهاد عند المسلمين.

يا أخي! لقد تغيرت الدنيا! لا تتكلم عن الجهاد! أو إن كنت لا بد فاعلًا فتكلم عن الجهاد الدفاعي فحسب! ولا تتكلم عنه إلا في أضيق الحدود! فهذا الذي يتناسب اليوم مع «الإنسانية المتحضرة»! لقد كانت للجهاد ظروف تاريخية وانقضت! أمَّا اليوم فقد أصبحت الإنسانية أسرة واحدة! وهناك قانون دولي وهيئات دولية تنظر في حقك وتحل قضاياك بالطرق الدبلوماسية! فإذا فشلت تلك الهيئات في رد حقك المغتصب فعندئذ لك أن تقاتل دون حقك، ولكن لا تسمه جهادًا! فالجهاد قد مضى وقته! إنما سمه دفاعًا عن حقوقك المشروعة!

أما نشر الدعوة فإياك أن تتحدث فيه عن الجهاد! هناك اليوم وسائل إنسانية لنشر الدعوة فاسلكها إن شئت.. هناك الكتاب والمذياع والتلفاز والمحاضرة والدرس.. إياك إياك أن تتحدث عن الجهاد فتكون مضغة في أفواه المتحضِّرين!

والإسلام صريح في توجيه أتباعه إلى التميُّز عن أحوال الجاهلية، التميُّز بنظافة السمت، ونظافة الأخلاق، ونظافة السلوك، والاستعلاء بالإيمان على كل مصدر ليس إسلاميًا أو متعارض مع الإسلام، حتى لو لحقت بهم هزيمة مؤقتة أو ضعف طارئ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ومصدر التميز هو الإحساس بأنهم على الهدى وغيرهم على الضلال، وأن المنهج الذي يعيشون به هو المنهج الأعلى لأنه المنهج الرباني، والذي يعيش عليه غيرهم هو المنهج الأدنى لأنه منهج جاهلي؛ فهو ليس تميزًا مبنيًا على الجنس ولا اللون ولا الجاه ولا الغنى ولا القوة ولا أي معنى من المعاني الأرضية التي تعتز بها الجاهلية وتستعلي بها على الناس، إنما التميز المستمد من معرفة المنهج الرباني واتباعه...»[١].

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة ص٥١٠ ـ ٥٢٤ باختصار.

ثانيًا: ميزان العزة والذلة:

وهذا الميزان فرع عن ميزان الرفعة والتكريم، وميزان الإهانة والسفول السابق ذكره. وقد بيَّن الله ﷻ في كتابه الكريم ميزانه في العزة والذلة أوضح بيان؛ وذلك في تسفيهه لموازين المنافقين الجاهلية في العزة والذلة، ومن ذلك: قوله ﷻ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨]. وقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٣٨ ـ ١٤٠].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «والله ـ جل جلاله ـ يسأل في استنكار: لم يتخذون الكافرين أولياء وهم يزعمون الإيمان؟ لم يضعون أنفسهم هذا الموضع، ويتخذون لأنفسهم هذا الموقف؟ أهم يطلبون العزة والقوة عند الكافرين؟ لقد استأثر الله ﷻ بالعزة؛ فلا يجدها إلا من يتولاه، ويطلبها عنده، ويرتكز إلى حماه.

وهكذا تكشف اللمسة الأولى عن طبيعة المنافقين، وصفتهم الأولى؛ وهي ولاية الكافرين دون المؤمنين، كما تكشف عن سوء تصورهم لحقيقة القوى، وعن تجرد الكافرين من العزة والقوة التي يطلبها عندهم أولئك المنافقون. وتقرر أن العزة لله وحده؛ فهي تطلب عنده، وإلا فلا عزة ولا قوة عند الآخرين!

ألا إنه لسند واحد للنفس البشرية تجد عنده العزة، فإن ارتكنت إليه استعلت على من دونه. وألا إنها لعبودية واحدة ترفع النفس البشرية وتحررها.. العبودية لله. فإن لا تطمئن إليها النفس استعبدت لقيم شتى، وأشخاص شتى، واعتبارات شتى، ومخاوف شتى، ولم يعصمها شيء من العبودية لكل أحد، ولكل شيء، ولكل اعتبار.

وإنه إما عبودية لله كلها استعلاء وعزة وانطلاق، وإما عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة وأغلال. ولمن شاء أن يختار.

وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن، وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله. وما أحوج ناسًا ممن يدعون الإسلام، ويتسمون بأسماء المسلمين، وهم يستعينون بأعدى أعداء الله في الأرض، أن يتدبروا هذا القرآن.. إن كانت بهم رغبة في أن يكونوا مسلمين.. وإلا فإن الله غني عن العالمين!

ومما يلحق بطلب العزة عند الكفار وولايتهم من دون المؤمنين: الاعتزاز بالآباء والأجداد الذين ماتوا على الكفر، واعتبار أن بينهم وبين الجيل المسلم نسبًا وقرابة! كما يعتز ناس بالفراعنة، والأشوريين، والفينيقيين، والبابليين، وعرب الجاهلية اعتزازًا جاهليًا، وحمية جاهلية.

روى الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا أبو بكر بن عباس، عن حميد الكندي، عن عبادة بن نسي، عن أبي ريحانة: أن النبي ﷺ قال: **«من انتسب إلى تسعة آباء كفار، يريد بهم عزًا وفخرًا، فهو عاشرهم في النار»**(١).

ذلك أن آصرة التجمع في الإسلام هي العقيدة، وأن الأمة في الإسلام هي المؤمنون بالله منذ فجر التاريخ، في كل أرض، وفي كل جيل. وليست الأمة مجموعة الأجيال من القدم، ولا المتجمعين في حيز من الأرض في جيل من الأجيال»(٢).

ويقول شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى -: «فإن الله جعل العزة لمن أطاعه والذلة لمن عصاه؛ قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالى:

---

(١) أحمد (١٦٥٨) وإسناده ضعيف (١٧٢١٢)، الموسوعة الحديثية، مجموعة من المحققين.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٧٨٠.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ولهذا كان في كلام الشيوخ: الناس يطلبون العز من أبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله. وكان الحسن البصري يقول: «وإن هملجت بهم البراذين وطقطقت بهم البغال فإن ذل المعصية في رقابهم، يأبى الله إلا أن يذل من عصاه». ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومن عصاه ففيه قسط من فعل من عاداه بمعاصيه. وفي دعاء القنوت: «**إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت**»(١)»(٢).

ويتحدث ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ عن مصدر العزة والغلبة والنصر فيقول: «والله سبحانه إنما ضمن نصر دينه وحزبه وأوليائه القائمن بدينه علمًا وعملًا، لم يضمن نصر الباطل، ولو اعتقد صاحبه أنه محقٌّ، وكذلك العز والعلوُّ إنما هما لأهل الإيمان الذي بعث الله به رُسُله، وأنزل به كتبه، وهو علمٌ وعملٌ وحالٌ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] فللعبد من العلوِّ بحسب ما معه من الإيمان، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨] فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاته حظ من العلو والعزة، ففي مُقابلة ما فاته من حقائق الإيمان، علمًا وعملًا، ظاهرًا وباطنًا»(٣).

ثم يُحذِّر من أسباب المذلة وفقد العزة والكرامة ـ وذلك بميزان الشرع ـ فيقول عن آثار المعاصي والذنوب: «ومنها: أن المعصية تورث الذل ولا بد؛ فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] أي: فليطلبها بطاعة الله، فإنه لن يجدها إلَّا في طاعة الله»(٤).

وقال أيضًا: «ومن عقوباتها: أنها تصغر النفس وتقمعها، وتدسيها،

---

(١) أحمد (١٦٢٥)، وأبوا داود (١٢١٤٠)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٤٢٩).

(٢) مجموع الفتاوى ٢١/ ٢٥٨.

(٣) إغاثة اللهفان ٢/ ١٨١.

(٤) الجواب الكافي ص٨٥.

وتحقرها، حتى تكون أصغر شيء وأحقره، كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، والمعنى: قد أفلح من كبَّرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقَّرها وصغَّرها بمعصية الله».

وأصل التدسية: الإخفاء. ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩]، فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، يتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به، وقد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق، فالطاعة والبر تُكَبِّر النفس وتُعِزُّها وتُعْلِيها، حتى تصير أشرف شيء وأكبره، وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى. وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو؛ فما أصغر النفوس مثل معصية الله، وما كبَّرها وشرَّفها ورفعها مثل طاعة الله»[(١)].

وعن طارق بن شهاب قال: «لما قدم عمر ﷺ الشام، عَرَضَتْ له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع خفيه، فأمسكهما، وخاض الماء، ومعه بعيره. فقال: أبو عبيدة: لقد صنعت اليوم صنيعًا عظيمًا عند أهل الأرض. فصك في صدره، وقال: أوه؛ لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة؛ إنكم كنتم أذل الناس، فأعزكم الله برسوله، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله»[(٢)].

وعن داود الطائي قال: «ما أخرج الله عبدًا من ذل المعاصي إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال، وأعزَّه بلا عشيرة، وآنسه بلا أنيس»[(٣)].

والكلام عن ميزان العزة والذلة في الإسلام يقودنا إلى معرفة الميزان الذي نوقع به العزة والذلة؛ وذلك في قوله تعالى عن صفات أوليائه المؤمنين أنهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] واليوم نرى اختلالًا في تطبيق هذه الآية عند بعض المسلمين؛ حيث نرى العزة والغلظة على المؤمنين عند أدنى خطإٍ أو زلة، في الوقت الذي ترتفع فيه دعوات إلى

(١) الجواب الكافي ص١١٠.
(٢) حلية الأولياء ١/ ٤٧.
(٣) المصدر السابق ٧/ ٣٥٦.

التسامح مع الكافر قد تصل إلى التذلل له. وهذا خلل في ميزان العزة والذلة؛ يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عدَّاه بأداة «على» تضمينًا لمعاني هذه الأفعال؛ فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل، وإنما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول، فالمؤمن ذلول كما في الحديث: «**المؤمن كالجمل الذلول، والمنافق والفاسق ذليل**»[1]. وأربعة يعشقهم الذل أشد العشق: الكذَّاب، والنَّمام، والبخيل، والجبار.

وقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هو من عزة القوة والمنعة والغلبة. قال عطاء ﷺ: للمؤمنين كالوالد لولده، وعلى الكافرين كالسبع على فريسته».

كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]: «وهذا عكس حال من قيل فيهم:

كبرًا علينا وجُبنًا عن عدوكم   لبئست الخلتان: الكبر والجبن»[2]

ويقول الشيخ سفر الحوالي ـ شفاه الله ﷻ ورعاه ـ: «هاتان الصفتان لا بد أن تكونا مقترنتين، ولذلك كان أكبر خطأ يُخطئ فيه كثير من الناس أنهم يغلظون على المؤمنين، ومن أغلظ على المؤمنين فإنه يؤدي به الأمر إلى أن يتساهل مع الكافرين، وهذا أمر يجده كل إنسان من نفسه؛ فالله ﷻ جعل في نفس الإنسان هذان العاملان:

أحدهما: الحب؛ ومقتضاه: اللين، والرأفة، والرحمة، والذلة.

والآخر: البغض؛ ومقتضاه: العنف، والقسوة، والشدة، والمقاتلة... إلخ.

فلو أن الإنسان أخطأ في أحدهما، فإنه يخطئ في الآخر لا محالة، فنجد بعض من يلين القول مع الكفار يغلظ على المسلم، فإذا تعامل مع الكفار، ووادهم، وأحبهم، وخالطهم بحيث إذا جاء إنسان وتكلم في الكفار، وحذَّر منهم، وبيَّن أنهم أعداء الله، أغلظ وأنكر عليه.

---

(١) حلية الأولياء ٧/ ٣٥٦.
(٢) مدارج السالكين ٢/ ٣٢٧.

وكذلك لو أنه أغلظ على إخوانه المؤمنين وكان شديدًا عليهم، فإن هذا قسط من عداوته للكافرين صرفه وحوَّله إلى إخوانه المؤمنين.

فنجد من شغله الله بالطعن والعيب والعداوة للمؤمنين لا يجد وقتًا، ولا تجده يفرغ للطعن والحرب والعداوة لأعداء الله الكافرين، ولذلك يجب على المؤمن أن يحفظ هذا الميزان الدقيق، وأن يجعل نفسه كما أمر الله تعالى.

فقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] يجب أن نأخذ هذه الكلمة بكل ما تحمله من معنى، وليس في ذلك غضاضة؛ فإن ذل المسلم لأخيه المسلم عزٌّ له عند الله ﷻ، وهذا يورثه الدرجة العليا، وهي: أن يكون ممن يصطفيهم الله ﷻ، فأنت لا تنظر إلى أن أخاك المسلم أخطأ عليك، أو أخطأ في اجتهاد ترى أنه خالفك فيه، بل انظر إليه: هل هو ممن يحب الله ورسوله فتجتمعان في محبة الله أم لا؟»[١].

والعزة تصاحب المؤمن ولو كان محنة وابتلاء وقهر من الأعداء؛ لأنه هو الأعلى، ولأن النصر والاستعلاء على الحقيقة هو الاستعلاء بالإيمان، والانتصار على حب الدنيا وإيثارها على الأخرة، والانتصار على الحقيقة هو الانتصار على حب الحياة والثبات على العقيدة ولو مات في سبيلها، وظهر للناس أنه قتل أو هزم. وفي ذلك يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عن الانتصار العظيم والعزة السامقة التي ظهرت على أصحاب الأخدود وهم يحرقون ولا يتزعزعون عن عقيدتهم: «وتنتهي رواية الحادث في هذه الآيات القصار، التي تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعلة وفاعليها، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله، وما استحقه من نقمته وغضبه؛ فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد، ووراءه في حساب الله ما وراءه.

كذلك تنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة؛ روعة الإيمان المستعلي على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المتجرد من

---

(١) عن موقع الشيخ سفر الحوالي.

أوهاق الجسم وجاذبية الأرض؛ فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الدنيا بلا عقيدة وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد؟! إنه معنى كريم جدًا ومعنى كبير جدًا هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض. ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكبير الذي تزكيه النار. وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب، ولأعدائهم الطاغين حساب.. يعقب به السياق»[(١)].

❑ ❑ ❑

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٧٤.

المبحث الثاني

ميزان الدنيا والآخرة

سبق في مبحث خصائص الميزان الإلهي الكلام عن أهمية اليوم الآخر، وأنه من أهم خصائص هذا الميزان القويم، وأن اعتبار ووزن الأمور به مما يميز هذا المنهج الرباني؛ ذلك بأن النظرة إلى الآخرة على أنها هي الحياة الحقيقية الأبدية لا بد أن ينعكس أثرها على كثير من الموازين التي سيرد ذكرها لاحقًا ـ إن شاء الله تعالى ـ حيث لا تستوي موازين من يؤمن بالآخرة وموازين من لا يؤمن بها، ولا تلتقيان أبدًا.

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ: «ومن ثم لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها، ولا ينتظر ما وراءها؛ لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة، ولا يتفقان في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشؤون، فلكلٍّ منهما ميزان، ولكلٍّ منهما زاوية للنظر، ولكلٍّ منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال.. هذا يرى ظاهرًا من الحياة الدنيا، وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن، ونواميس شاملة للظاهر والباطن، والغيب والشهادة، والدنيا والآخرة، والموت والحياة، والماضي والحاضر والمستقبل، وعالم الناس والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء»(١).

وفي هذا المبحث سنتعرف ـ إن شاء الله تعالى ـ على الميزان الإلهي للدنيا والآخرة. وفي مقابله يتضح لنا ما يضاده من الموازين الأرضية والمادية للدنيا والآخرة.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن عند الآية (٧) من سورة الروم.

الميزان الإلهي للدنيا والآخرة:

أولًا:

ورد ذكر حقيقة الدنيا والآخرة ونظرة الشرع إليهما في آيات كثيرة من القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ. ورد في بعضها ذكر الدنيا والآخرة، وفي البعض الآخر ورد ذكر الدنيا مفردة أو الآخرة مفردة. وأكتفي من الآيات الواردة في ذلك بما يلي:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٢].

يقول الشيخ السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة: أما حقيقة الدنيا فإنها لعب ولهو؛ لعب في الأبدان، ولهو في القلوب؛ فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة. والهموم فيها معلقة والاشتغال بها كلعب الصبيان.

وأما الآخرة فإنها: ﴿ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ في ذاتها وصفاتها وبقائها ودوامها، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح، ولكنها ليست لكل أحد، وإنما هي للمتقين الذين يفعلون أوامر الله ويتركون نواهيه وزواجره. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول بها تدركون أي الدارين أحق بالإيثار؟»(١).

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٤، ٢٥].

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «شبَّه سبحانه

(١) تفسير السعدي ٢/١٧.

الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر، فتروقه بزينتها وتعجبه، فيميل إليها ويهواها اغترارًا بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سُلِبها بغتة أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها؛ فشبَّهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها، فتعشب ويحسن نباتها، ويروق منظرها للناظر، فيغتر به، ويظن أنه قادر عليها مالك لها، فيأتيها أمر الله، فتدرك نباتها الآفة بغتة، فتصبح كأن لم يكن قبلُ، فيخيب ظنه، وتصبح يداه صفرًا منها.

فهكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس. ولما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات والجنة سليمة منها قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٣٥] فسماها هنا دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا. فعم بالدعوة إليها، وخص بالهداية من يشاء، فذاك عدله، وهذا فضله»[1].

ويقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عند آية يونس أيضًا: «ذلك مثل الحياة الدنيا التي لا يملك الناس إلا متاعها، حين يرضون بها، ويقفون عندها، ولا يتطلعون منها إلى ما هو أكرم وأبقى.

هذا هو الماء ينزل من السماء، وهذا هو النبات يمتصه ويختلط به فيمرع ويزدهر. ها هي ذي الأرض كأنها عروس مجلوة تتزيَّن لعريس وتتبرَّج. وأهلها مزهوُّون بها، يظنون أنها بجهدهم ازدهرت، وبإرادتهم تزيَّنت، وأنهم أصحاب الأمر فيها، لا يغيرها عليهم مغير، ولا ينازعهم فيها منازع.

وفي وسط هذا الخصب الممرع، وفي نشوة هذا الفرح الملعلع، وفي غمرة هذا الاطمئنان الواثق ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

في ومضة، وفي جملة، وفي خطفة. وذلك مقصود في التعبير بعد الإطالة في عرض مشهد الخصب والزينة والاطمئنان.

(١) أعلام الموقعين ١/ ٢٠٣.

وهذه هي الدنيا التي يستغرق فيها بعض الناس، ويضيعون الآخرة من أجلها لينالوا منها بعض المتاع.

هذه هي: لا أمن فيها ولا اطمئنان، ولا ثبات فيها ولا استقرار، لا يملك الناس من أمرها شيئًا إلا بمقدار. هذه هي، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥].

فيا لبعد الشقة بين دار يمكن أن تطمس في لحظة، وقد أخذت زخرفها، وازيَّنت، وظن أهلها أنها قادرون عليها، فإذا هي حصيد كأن لم تغن بالأمس، ودار السلام التي يدعو إليها الله، ويهدي من يشاء إلى الصراط المؤدي لها حينما تنفتح بصيرته، ويتطلع إلى دار السلام»(١).

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «واليقين بلقاء الله ـ واستعمال ظن ومشتقاتها في معنى اليقين كثير في القرآن وفي لغة العرب عامة ـ واليقين بالرجعة إليه وحده في كل الأمور هي مناط الصبر والاحتمال، وهو مناط التقوى والحساسية. كما أنه مناط الوزن الصحيح للقيم: قيم الدنيا وقيم الآخرة. ومتى استقام الميزان في هذه القيم بدت الدنيا كلها ثمنًا قليلًا، وعرضًا هزيلًا؛ وبدت الآخرة على حقيقتها التي لا يتردد عاقل في اختيارها وإيثارها»(٢).

الآية الرابعة: قوله ﷻ حاكيًا قول مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩].

الآية الخامسة: قوله سبحانه عن متاع الدنيا: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧].

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٧٥.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٦٩.

الآية السادسة: قوله ﷻ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥].

وأما الأحاديث المبينة لحقيقة الدنيا والآخرة وميزانها عند الله ﷻ فكثيرة، أكتفي منها بما يلي:

الحديث الأول: عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»[1].

وفي رواية عند ابن ماجه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في ذي الحليفة فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها، فقال: «**أترون هذه هينة على صاحبها؟ فوالذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها قطرة أبدًا**»[2].

الحديث الثاني: عن قيس بن أبي حازم ـ رحمه الله تعالى ـ قال: سمعت مستوردًا أخا بني فهر وهو يقول: قال رسول الله ﷺ: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه ـ وأشار يحيى بالسبابة ـ في اليم، فلينظر بم ترجع**»[3].

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ معلقًا على هذا الحديث: «وهذا أيضًا من أحسن الأمثال؛ فإن الدنيا منقطعة فانية، ولو كانت مدتها أكثر مما هي، والآخرة أبدية لا انقطاع لها، ولا نسبة للمحصور إلى غير المحصور. بل لو فرض أن السماوات والأرض مملوءتان خردلًا وبعد كل ألف سنة طائر

(١) الترمذي في الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي (١٨٨٩).

(٢) ابن ماجه (٤١٠٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣١٨).

(٣) مسلم (٢٨٥٨).

ينقل خردلة لفني الخردل، والآخرة لا تفنى؛ فنسبة الدنيا إلى الآخرة في التمثيل كنسبة خردلة واحدة إلى ذلك الخردل»(١).

الحديث الثالث: عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: دخلت على رسول الله ﷺ وقد نام على رَمْلِ حَصير، وقد أثَّرَ في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتَّخذنا لك وطاءً تجعلُهُ بينك وبين الحصير، يقيك منه؟ فقال: **«ما لي وللدنيا؛ ما أنا والدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»**(٢).

ويعلق الإمام ابن القيم على هذا المثال بقوله: «فتأمل حسن هذا المثال، ومطابقته للواقع سواء؛ فإنها في خضرتها كشجرة، وفي سرعة انقضائها وقبضها شيئًا فشيئًا كالظل، والعبد مسافر إلى ربه، والمسافر إذا رأى شجرة في يوم صائف لا يحسن به أن يبني تحتها دارًا، ولا يتخذها قرارًا، بل يستظل بها بقدر الحاجة، ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق»(٣).

ثانيًا:

إن وضوح الميزان الإلهي لحقيقة الدنيا والآخرة من خلال الآيات والأحاديث السابقة لا يعني الرهبنة، وترك العمل، والزهد في طيبات الحياة الدنيا وتحريمها، بل المؤمن مأمور بتناولها بالطريق الحلال، وصرفها في الحلال، وطاعة الله ﷻ من غير مخيلة ولا إسراف.

قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧].

يقول السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره هذه الآية: «أي: قد

---

(١) عدة الصابرين ص٢٨١، ٢٨٢.

(٢) الترمذي (٢٣٧٨)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣١٧).

(٣) عدة الصابرين ص٢٨٣.

حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدَّق، ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات وتحصيل اللذات، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعًا، بل أنفق لآخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعًا لا يثلم دينك ولا يضر آخرتك»(١).

ويقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾... وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم؛ المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة، بل يحضه على هذا، ويكلفه إياه تكليفًا، كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها.

لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس، وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها؛ فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض. ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة؛ فلا ينحرفون عن طريقها، ولا يُشغلون بالمتاع عن تكاليفها. والمتاع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم، وتقبل لعطاياه، وانتفاع بها؛ فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسنى.

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة، التي لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة»(٢).

ومن الأحاديث التي تحث على العمل: قوله ﷺ: «**إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل**»(٣).

وقوله ﷺ: «**لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره، فيتصدق به ويستغني**

---

(١) تفسير السعدي عند الآية (٧٧) من سورة القصص.

(٢) انظر: في ظلال القرآن عند الآية (٧٧) من سورة القصص.

(٣) مسند أحمد (١٢٩٨١)، وقال محققو المسند: صحيح على شرط مسلم.

به من الناس خير له من أن يسأل رجلًا أعطاه أو منعه ذلك؛ فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»[١].

كما لا يعني الزهد في الدنيا تركها لأهل الفساد والمجرمين ليفسدوا فيها ويصدُّوا عن سبيل الله ﷻ، بل المؤمن مطالب في ضوء الميزان الإلهي العدل أن يصلح في الأرض، وينشر فيها التوحيد والإيمان، ويدافع الشرك والفساد بالدعوة والجهاد؛ قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وفي ذلك يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ: «والذين يفترون على عقيدة الآخرة فيقولون: إنها تدعو الناس إلى السلبية في الحياة الدنيا، وإلى إهمال هذه الحياة، وتركها بلا جهد لتحسينها وإصلاحها، وإلى تركها للطغاة والمفسدين تطلعًا إلى نعيم الآخرة.. الذين يفترون هذا الافتراء على عقيدة الآخرة يضيفون إلى الافتراء الجهالة؛ فهم يخلطون بين عقيدة الآخرة كما هي في التصورات الكنسية، وعقيدة الآخرة كما هي في دين الله القويم.

فالدنيا ـ في التصور الإسلامي ـ هي مزرعة الآخرة، والجهاد في الحياة الدنيا لإصلاح هذه الحياة، ودفع الشر والفساد عنها، ورد الاعتداء عن سلطان الله فيها، ودفع الطواغيت، وتحقيق العدل والخير للناس جميعًا؛ كل أولئك هو زاد الآخرة، وهو الذي يفتح للمجاهدين أبواب الجنة، ويعوضهم عما فقدوا في صراع الباطل، وما أصابهم من الأذى.

إن الناس إذا كانوا في فترات من الزمان يعيشون سلبيين، ويَدَعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا ـ مع ادعائهم الإسلام ـ فإنما هم يصنعون ذلك كله أو بعضه لأن تصورهم للإسلام قد فسد وانحرف، ولأن يقينهم في الآخرة قد تزعزع وضعف! لا لأنهم يدينون

---

(١) مسلم (١٠٤٢).

بحقيقة هذا الدين، ويستيقنون من لقاء الله في الآخرة، فما يستيقن أحد من لقاء الله في الآخرة، وهو يعي حقيقة هذا الدين، ثم يعيش في هذه الحياة سلبيًا أو متخلفًا أو راضيًا بالشر والفساد والطغيان، إنما يزاول المسلم هذه الحياة الدنيا وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى، ويستمتع بطيباتها أو يزهد فيها وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة، ويجاهد لترقية هذه الحياة وتسخير طاقاتها، وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة فيها، ويكافح الشر والفساد والظلم متحملًا الأذى والتضحية حتى الشهادة، وهو إنما يقدم لنفسه في الآخرة.. إنه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن ليس هنالك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا، وأن الدنيا صغيرة زهيدة، ولكنها من نعمة الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى»(١).

من ثمرات الأخذ بالميزان الإلهي للدنيا والآخرة

أولًا:

ما ذكر سابقًا بأن الأخذ بميزان الشرع الإلهي للدنيا والآخرة ينشأ عنه سلامة التفكير وانضباط الموازين في حياة المسلم، والسلامة من الاضطراب والتناقض والحيرة. كما هو مبين في الموازين الشرعية المذكورة في مباحث الكتاب السابقة واللاحقة.

ثانيًا: الزهد في الدنيا والحذر منها والصبر على شدائدها، وطمأنينة القلب وسلامته:

العبد إذا أكثر ذكر الآخرة، وكانت منه دائمًا على بال، ووزن جميع الأمور في ضوئها، فإن الزهد في الدنيا والحذر منها ومن فتنتها سيحلّان في القلب، وحينئذٍ لا يكترث بزهرتها، ومن ثم لا يحزن على فواتها، ولا يمُدَّن عينيه إلى من متعهم الله بها ليفتنهم فيها.

وهذه الثمرة يتولَّد عنها بدورها ثمار أخرى مباركة طيبة؛ منها: القناعة،

(١) اليوم الآخر في ظلال القرآن ص٦.

وسلامة القلب من الحرص والحسد والغل والشحناء؛ لأن الذي يعيش بتفكيره في الآخرة وأنبائها العظيمة لا تهمه الدنيا الضيقة المحدودة؛ إنها في نظره كالجحر الضيق، فكيف يتنافس مع غيره أو يحسد غيره على جحر ضيق زائل وهو يعيش في هذا الأفق الواسع الرحب: أفق الآخرة والحياة الأبدية فيها؟! قال أبو الدرداء ﷺ: «من أكثر ذكر الموت قل فرحه، وقل حسده».

كما يتولد أيضًا من هذا الشعور: الراحة النفسية، والسعادة القلبية، وقوة الاحتمال والصبر على الشدائد والابتلاءات؛ ذلك للرجاء فيما عند الله ﷻ من العوض والثواب، وأنه مهما جاء من شدائد الدنيا فهي منقطعة ولها أجل، فهو ينتظر الفرج ويرجو الثواب الذي لا ينقطع يوم الرجوع إلى الله ﷻ؛ قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

ثالثًا: التزود بالأعمال الصالحة وأنواع القربات، واجتناب المعاصي، والمبادرة بالتوبة والاستغفار:

سبق أن مر بنا أنه لا يمكن أن يوجد اليقين بالآخرة، وما أعد الله فيها من النعيم لأوليائه ومن العذاب لأعدائه، ثم مع ذلك يتخلف العمل الصالح الذي يثمر رضا الله ﷻ وجنته. ولو وجد تقصير في العمل الصالح، أو جرأة على ما يسخط الله سبحانه، فإنما يدل هذا على ضعف في اليقين والبصيرة، أو ضعف في الصبر والإرادة. أما من رجا النعيم في الدار الآخرة فلا بدّ أن يعد لذلك عدته؛ يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ «ومما ينبغي: أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها: محبة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني. والرجاء شيء

والأماني شيء، فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوت»(١).

ومن أعظم الأعمال الصالحة التي ينشئها الميزان العدل للدنيا والآخرة: الدعوة إلى الله ﷻ، والجهاد في سبيله سبحانه، ومدافعة الباطل وأهله، وعدم ترك الحياة الدنيا لأهل الفساد ليصدوا عن سبيل الله ﷻ؛ قال الله ﷻ: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة: ٤٤، ٤٥].

ومن المعاصي التي يسعى المسلم المنضبط بميزان الآخرة إلى اجتنابها: ظلم العباد والاعتداء على حقوقهم؛ لأن إيمانه بفناء الدنيا وبقاء الآخرة، والقصاص يوم القيامة يجعله يرتدع عن الظلم، ويؤدي حقوق العباد قبل أن لا يكون دينار ولا درهم؛ لأنه يخاف موازين الآخرة التي قال الله ﷻ عنها: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

رابعًا: تقصير الأمل وحفظ الوقت:

إن من أخطر الأبواب التي يدخل منها الشيطان على العبد: طول الأمل، والأماني الخادعة التي تجعل صاحبها في غفلة شديدة عن الآخرة، واغترار بزينة الحياة الدنيا، وتضييع ساعات العمر النفيسة في اللهث وراءها، حتى يأتي الأجل الذي يقطع هذه الآمال، وتذهب النفس حسرات على ما فرَّطت في عمرها، وأضاعت من أوقاتها.

ولكن اليقين بالرجوع إلى الله ﷻ، ووزن الأمور بميزان الآخرة، والتذكير الدائم بقصر الحياة الدنيا، وأبدية الآخرة وبقائها هو العلاج النافع لطول الأمل وضياع الأوقات.

---

(١) الجواب الكافي ص٥٧، ٥٨.

موازين البشر للدنيا والآخرة:

إن إغفال الميزان الإلهي لحقيقة الدنيا والآخرة الذي سبق ذكره يجعل الإنسان يهبط في تفكيره وموازينه واهتماماته إلى مستوى البهائم. ولا يدرك ذلك إلا من رأى وسمع أحوال الغافلين عن الآخرة؛ حيث فساد الموازين، واختلال المواقف واضطرابها، وهبوط الأخلاق، ودناءة الهمة. ولا يتوقع من الغافلين عن الآخرة إلا مثل هذا؛ فهم لا يرون إلا هذه الحياة الدنيا، فهم يتنافسون وينطلقون في جميع أمورهم من هذا الجحر الضيق؛ فإن وزنوا الناس فبميزان الدنيا يزنون، وإن اتخذوا مواقفهم وبنوا أحكامهم فهم من هذه الدنيا ينطلقون، وإن كان لديهم شيء من الأخلاق فهو بقدر ما يحقق لهم مصلحة في هذه الدنيا، فإن رأوا مصالحهم في الظلم والكذب والنفاق فهم إليه يهرعون، وإن فرحوا أو حزنوا فللدنيا، وإن أحبوا أو أبغضوا فللدنيا، وإن أكرموا أو أهانوا فللدنيا؛ فهم بموازين الدنيا يزنون، ومن أجلها يتحابون ويتعاونون، ويتقاتلون ويتحاسدون. وأكتفي هنا بمثالين اثنين قصَّهما الله ﷻ علينا في كتابه، يظهر من خلالهما الفرق بين موازين البشر المادية والميزان الإلهي لحقيقة الدنيا والآخرة، وقد سبق ذكرهما ولكن أعيدهما هنا للمناسبة:

المثال الأول: قصة قارون:

حيث ذكر الله ﷻ لنا أن قومه انقسموا في الموقف منه إلى فئتين:

الأولى: أصحاب الموازين المادية الذين هم في غفلة عن الآخرة؛ وهم الذين قالوا: عندما خرج عليهم قارون في زينته: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩﴾ [القصص: ٧٩].

الثانية: أهل العلم الذين وزنوا الدنيا والآخرة بالميزان الإلهي؛ حيث قالوا للفئة الأولى ناصحين لهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠﴾ [القصص: ٨٠].

المثال الثاني: سحرة فرعون وقصتهم مع موسى عليه السلام:

حيث ذكر الله ﷻ لهم موقفين متضادين:

الموقف الأول: قبل إيمانهم بالله والدار الآخرة، فكانت موازينهم واهتماماتهم موازين الدنيا وزخرفها، وفكرهم فيها وحدها؛ قال تعالى ـ عن حالتهم هذه ـ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢]؛ فهمُّهم قبل الإيمان المنصب والأجر، هذا كل اهتماماتهم.

الموقف الثاني: بعد وضوح الحق وإيمانهم بالله سبحانه والدار الآخرة؛ حيث كان لهم شأن آخر وميزان آخر؛ ألا وهو ميزان الآخرة، والطمع في مغفرة الله والثواب الجزيل في جنات النعيم؛ قال تعالى عن موقفهم من فرعون عندما هددهم بالقتل والصلب بعد سجودهم لله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

❑ ❑ ❑

المبحث الثالث

ميزان العقل والعقلاء

يختلف ميزان الله ﷻ المستقيم للعقل والعقلاء عن موازين البشر المادية المعوجة، كما هو الحال في ذلك الاختلاف في ميزان التكريم والإهانة، وميزان الدنيا والآخرة الوارد ذكرهما في المبحثين السابقين؛ ذلك لأن الميزان الإلهي قائم على العبودية لله وحده لا شريك له، وعلى الإيمان بالغيب، والتسليم لخبر الله ﷻ وأمره وشرعه، والإيمان باليوم الآخر، بينما لا اعتبار لهذه المقومات في الموازين المادية، وإنما الاعتبار فيها للمادة والمحسوس وقصر النظر على هذه الحياة الدنيا وزينتها؛ قال الله ﷻ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧].

ذكر بعض الصور لموازين الجاهلية للعقل والعقلاء:

أولًا: النظر إلى أهل العقول الكاملة والراجحة من الأنبياء وأتباعهم بعين الازدراء، ووصفهم لهم بالسفه والجنون والضلال وتحجُّر العقل:

قال الله ﷻ عن هود عليه السلام مع قومه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦﴾ [الأعراف: ٦٦]، وقالوا عنه أيضًا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤]. وأخبر ﷻ عن موقف المشركين من نبينا محمد ﷺ في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤﴾ [الدخان: ١٤]، وقال سبحانه عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: ١٣]، وأخبر الله سبحانه أن هذه سنة الجاهلية مع كل الأنبياء والمصلحين؛ قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: ٨٣].

وفي هذه المواقف وأمثالها تبرز لنا بعض موازين الجاهلية للعقلاء والعقل؛ حيث ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أهل العلم والعقل والحكمة، مع أنهم أهل السفه والضلال، ويرمون العقلاء والحكماء من المؤمنين بالسفه والجنون والجمود والتحجر. ويتكرر هذا الميزان الجاهلي في كل زمان، ويتلوث به بعض جهلة المسلمين؛ حيث يَتَّهمون المتمسك بدينه المتورع في قوله وفعله بخفة العقل والبلاهة والوسوسة.

يعلِّق سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ على قول قوم نوح عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فيقول: «وهكذا يبلغ الضال من الضلال أن يحسب من يدعوه إلى الهدى هو الضال، بل هكذا يبلغ التبجح الوقح بعدما يبلغ المسخ في الفطر!.. هكذا تنقلب الموازين، وتبطل الضوابط، ويحكم الهوى؛ ما دام أن الميزان ليس هو ميزان الله الذي لا ينحرف ولا يميل.

وماذا تقول الجاهلية اليوم عن المهتدين بهدى الله؟ إنها تسمِّيهم الضالين، وتَعِدُ من يهتدي منهم ويرجع بالرضا والقبول!.. أجل من يهتدي إلى المستنقع الكريه، وإلى الوحل الذي تتمرغ الجاهلية فيه!

وماذا تقول الجاهلية اليوم للفتاة التي لا تكشف عن لحمها؟ وماذا تقول للفتى الذي يستقذر اللحم الرخيص؟ إنها تُسمِّي ترفُّعَهما هذا ونظافتهما وتطهُّرَهما: رجعية وتخلفًا وجمودًا وريفية! وتحاول الجاهلية بكل ما تملكه من وسائل التوجيه والإعلام أن تغرق ترفعهما ونظافتهما في الوحل الذي تتمرَّغ فيه في المستنقع الكريه!

وماذا تقول الجاهلية لمن ترتفع اهتماماته عن جنون مباريات الكرة؛ وجنون الأفلام والسينما والتلفزيون وما إليه؛ وجنون الرقص والحفلات الفارغة والملاهي؟ إنها تقول عنه: إنه «جامد»، ومغلق على نفسه. إن الجاهلية هي الجاهلية.. فلا تتغير إلا الأشكال والظروف!»[١].

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٣٠٩.

ومما يحسن ذكره ههنا ما تنبأ به الرسول ﷺ من اختلال في الموازين، وانعكاس في المفاهيم؛ حيث قال ﷺ: «**سيأتي على الناس سنوات خدَّاعات؛ يُصدَّق فيها الكاذب ويُكذَّب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن ويُخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة**. قيل: وما الرويبضة؟ قال: **الرجل التافه يتكلم في أمر العامة**»(١).

كما يحسن أيضًا هنا ذكر حديث الرسول ﷺ في الأمانة، وفيه ذكر الخلل الذي يصيب بعض الناس في موازينهم؛ حتى أنهم يصفون الرجل بالعقل والحكمة وليس في قلبه إيمان ولا أمانة: روى البخاري في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه قال: «حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر؛ حدثنا: «**أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم عَلِمُوا من القرآن، ثم عَلِمُوا من السنة**»، وحدثنا عن رفعها قال: «**ينام الرجل النومة فتُقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل اثر الوَكْت، ثم ينام النومة فتُقبض فيبقى أثرها مثل المَجْل؛ كجمر دحرجته على رجلك فنفِطَ، فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شيء، فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلًا أمينًا، ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان**». ولقد أتى عليَّ زمان ولا أبالي أيكم بايعت؛ لئن كان مسلمًا ردَّه عليَّ الإسلام، وإن كان نصرانيًا ردَّه عليَّ ساعيه. فأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلانًا وفلانًا»(٢).

ثانيًا: الغرور بالعقل ووضعه في الميزان الذي لم يضعه الله عز وجل فيه:

وقد أدى هذا الميزان بأصحابه إلى أن جعلوه ندًا للوحي، بل مقدمًا عليه؛ وأبطلوا به كثيرًا من المغيبات والمعجزات لتعارضها مع العقل ـ زعموا ـ وقد برز هذا الميزان الجاهلي عند أهل الكلام والفلسفة من الزنادقة والمبتدعة في هذه الأمة، وامتدت آثاره إلى زماننا اليوم؛ حيث يتبناه اليوم من يسمون

---

(١) ابن ماجه (٤٠٣٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٨٧).

(٢) البخاري (٦٥٥٩)، مسلم (٢٠٦).

بأصحاب المدرسة العقلية أو بالعصرانيين والتنويريين. وقد دخل عليهم هذا الخلل من ظنهم وتوهمهم بوجود التعارض بين العقل والنقل، وحينئذٍ يُقدَّم عندهم العقل، ويُلتمس تأويلٌ للنص، وهذا وهم باطل وظن فاسد؛ إذ لا تعارض بين النقل الصحيح والعقل الصريح أبدًا، وإذا ظهر شيء من التعارض فإما أن يكون النقل ليس بثابت ولا صحيح، أو أن يكون العقل فاسدًا غير صريح. وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ:

«فإذا تعارض نص لفظ وارد	والعقل حتى ليس يلتقيان
فالعقل إما فاسد ويظنه	الرائي صحيحًا وهو ذو بطلان
أو ان ذاك النص ليس بثابت	ما قاله المعصوم بالبرهان
ونصوصه ليس تعارض بعضها	بعضًا فسل عنها عليم زمان
وإذا ظننت تعارضًا فيها فذا	من آفة الأفهام والأذهان»[(١)]

وسيأتي مزيد بيان في الرد على القوم عند الحديث عن الميزان الإلهي للعقل إن شاء الله تعالى.

ولأصحاب المدرسة العقلية أسماء مرادفة، من أشهرها تسميتهم لأنفسهم بالتنويريين تارة، وبالعصرانيين تارة آخرى. وهذه الأسماء وما شابهها من المصطلحات الغامضة المضللة؛ فإن القائمين عليها ينطلقون من موازين جاهلية؛ إذ كيف يوصف المقدِّس للعقل والمقدِّم له على النقل ـ بل هو الحاكم عندهم على النقل؛ يرفض ويقبل ما شاء، وخاصة فيما يتعلق بالغيبيات ـ كيف يوصف هؤلاء بأنهم عقلاء وحكماء مع أنهم في ميزان الله ﷻ هم السفهاء والحمقى؟! ولبيان ذلك نذكر هنا مصطلح **(التنوير)** الذي يتبجح به القوم؛ أصله ومنشأه، وماذا يعنون به؟

نشأ مصطلح **(التنوير)** نشأة غربية أوروبية؛ وذلك عندما ثار من يسمون أنفسهم بالإصلاحيين والتنويريين على الكنيسة، ورفضوا خرافاتها وأن تكون

---

(١) النونية لابن القيم ٢/ ٩٥.

وسيطًا بين الإله والبشر، ورفضوا عقائدها المعروفة وكتابها المقدس، واستخدموا فكر التنوير والعقل المادي، وتوجهوا به لنقد المسيحية والكنيسة ومؤسسات الحكم الطبقية في الغرب في ذلك الوقت. هذه ملابسات ما يسمى بالعقلانية أو التنوير!! وهذا يمكن فهمه في إطار هذه الملابسات التي أنشاته. أما أن يأتي من بني جلدتنا ممن ينتسب إلى الإسلام الحق الذي لم تخالطه أهواء البشر ولا تحريفات البشر، بل هو من عند الله ـ ﷻ، العليم الحكيم الخبير ـ ويطبق هذا المصطلح على شريعتنا الإسلامية النظيفة، المبرَّأة من الجهل والتحريف والهوى، التي تحترم العقل وتضع له حدوده، وتبين وظيفته، فهذا من الظلم البيِّن، والجهل المسيطر على عقول أهله، والهزيمة النفسية المحبطة.

يقول الأستاذ بندر العريدي: «أمَّا دعاوى التنوير التي تقوم على التجرُّؤ على القطعيات والثوابت الشرعية، ومواطن الإجماع النظري أو العملي المسلم به في تاريخ المسلمين، وتعمد إلى تحريف دلالات نصوص الوحي لتوافق أهواء أصحابها، وتدعو إلى التخلِّي عن الذات والإنسلاخ من الهوية والقبول المطلق للثقافة الغربية وقيمها ومنطلقاتها، واستنساخ مسيرتها كاملة دون تمحيص وانتقاء، والاكتفاء بمرحلة الانبهار والتصفيق لها وتقليدها، واستيراد قيمها مع منتجاتها، وجعلها (أي القيم الغربية) ميزانًا للقبول والرفض للمواريث الإسلامية.

أقول: إن تنويرًا هذا منهجه هو في الحقيقة تضليل عن هدايات الوحي المنقذ للبشرية من ظلمات الكفر والجهل والعمى بما يصلح للحياة، وجهل بتباين الظروف والبيئات، واختلاف المنطلقات بين المجتمعات الإسلامية والغربية، وتعامٍ عن الفرق بين الوحي المعصوم (الإسلام) ـ الذي شجع العلم وفضَّل العلماء وحثَّ على التفكير ـ وبين (النصرانية المحرفة) التي كان رجال الكنيسة فيها مُعادين للعلم وخانقين لصوت العقل، كما أن هذا التضليل سيجعل من مجتمعاتنا محلًا للنفايات الحضارية، ويكون سببًا في العطالة العقلية النقدية للوافد الغربي، وبالتالي شل الإمكانية، وتعطيل الدافعية، وتخدير محاولات السعي للشراكة الحضارية معه.

ملامح من منهج أدعياء التنوير وأساليبهم في ترويج أفكارهم:

١ ـ عندما رأى أدعياء التنوير أن نصوص الوحي المعصوم (الكتاب والسنة) ـ والتي يعظمها المجتمع ـ تتعارض مع كثير من منطلقاتهم ورؤاهم تباينت مواقفهم في التعامل معها: فمنهم من دعا إلى التجديد في صياغة الدين صياغة يستدعيها موقفهم القيمي، وإعادة قراءة نصوص الشرع قراءة جديدة تتوافق مع رؤاهم، وتلبسها لبوسًا شرعيًا يكسبها رواجًا وقبولًا في المجتمع، ونادى بضرورة فك احتكار فهم علماء الشريعة لدلالات الوحي ـ حسب زعمه ـ وبالتالي تصبح حِمًى مستباحًا يخوض فيها كل أحد مهما قل حظه من العلم الشرعي، وفقد أدوات البحث والاستنباط وأصول الاستدلال، وفقه تنزيل الأحكام في الشريعة، بل ربما خاض فيها من لا يجيد قراءة قصار السور، ولا يحسن الوضوء. **ومنهم** من فزع إلى التراث الإسلامي بحثًا عن آراء شاذة وأقوال غريبة توافق رايه وتصبغه صبغة تراثية. **ومنهم** من دعا إلى دراسة الوحي بصفته نصًا تراثيًا بمنهج عقلاني، يتمثَّل فيما وصل إليه الفكر المعاصر من أدوات نقدية، متحررًا من الشعور التقديسي للنص من جهة، ومن الضوابط التي صاغها العلماء المسلمون بصفتها منهجًا لدراسة النصوص الشرعية ومعرفة مرادات الله ـ سبحانه ـ فيها من جهة أخرى.

أما **الغلاة** من أصحاب هذا الاتجاه في العالم العربي فقد وصل بهم الحال إلى رفض نصوص الوحي والتشكيك بصحتها، بل وبصحة الدين كله، واعتباره إنتاجًا خياليًا تركته لنا الثقافة العربية، كما يقول صادق العظم.

٢ ـ نقدهم اللاذع للتيار السلفي ومناداتهم لأصحابه بـ**(الماضويين)** و**(التقليديين)**، ووصمهم بأوصاف التخلف والرجعية والجمود والتقليد، في الوقت الذي يزعمون لأنفسهم أنهم دعاة التنوير، ويصفون مناهجهم بالتقدمية والإبداع، ومواكبة العصر والتطورية، والعجب أنهم وقعوا فيما عابوا به أصحاب التيار السلفي؛ فدورهم ـ أي أدعياء التنوير ـ يقتصر في الغالب على ترجمة أفكار أساتذتهم الغربيين القدامى والمحدثين، واستعراض مقولاتهم

وأطروحاتهم؛ بمعنى أنهم لا يولِّدون الأفكار ولا يبتكرونها، بل هم يستخلصونها من الغير، ثم يحاولون فيما بعد فرضها على واقع عربي لم يتمكنوا من كسب ثقته، أما الماضي الذي يعيبون على غيرهم الرجوع إليه، فهو ماضي باعتبار زمن نزول الوحي على رسول الله ﷺ وتلقِّي الناس له، ولكن هذا الوحي متجرد عن حدود ذاك الماضي ومكانه؛ لأنه من عند الله الذي أمد خلقه به لحاضرهم ومستقبلهم إلى أن تقوم الساعة؛ إذ جعل محمدًا ﷺ خاتم النبيين؛ لتبقى هدايته هي الدين المرضي عند الله تعالى إلى يوم القيامة.

وفي المقابل نجد أنهم ـ أدعياء التنوير ـ وقعوا أسرى للماضي الأوروبي الذي مضى عليه أربعة قرون، وتجاوزه الواقع الأوروبي بمراحل، وأصابتهم حالة من الاستلاب للآخر الغربي الذي أصبح مرجعية سلطوية تحظى من القداسة والإيمان بما تحظى به نصوص الوحي عند المؤمنين به.

٣ ـ لكي يكسبوا مزيدًا من التلميع لأفكارهم والتشويه لمنهج (التيار السلفي) يقوم بعض أدعياء التنوير بتقسيم الفكر عند المسلمين إلى قسمين:

الأول: فكر عصراني عقلاني منفتح على الفكر المعاصر، متفاعل مع صوره المحدثة.

الثاني: فكر سلفي منغلق على ذاته، منكفئ على الماضي.

ولا شك أن هذه قسمة ضيزى وحكم جائر، وجهل واضح بحقيقة الفكر السلفي؛ فالحق أن التفاعل لدى الفكرين العصراني والسلفي، والاختلاف هو في نوعية الانفتاح وأسلوب التفاعل؛ فالفكر العصراني تشكَّلت شخصيته من خلال مؤثرات الفكر المعاصر الغربي، ثم عاد ليتفاعل معه تفاعل استمداد منه وتقليد له كي يصوغ حياة أمته وفق رؤى ذلك الفكر الذي فيه تشكَّل ومنه استمد. أما الفكر السلفي: فقد تشكَّلت شخصيته من خلال تلك المقومات التي استمدها من تعاليم الوحي: القرآن والسنة.

٤ ـ يستغل أصحاب هذا الاتجاه المنسوب للتنوير الأحداث والظروف

لترويج رؤاهم، ومن ذلك: انتهازهم لحوادث التفجير والتكفير التي حصلت في بعض بلدان المسلمين؛ فقد وجدوها فرصة سانحة لاستعداء الدولة والمجتمع على مخالفيهم من التيار السلفي، ومن ثم التفرغ لطرح مشاريعهم وتنفيذ أجندتهم التي كانوا يتربصون زمنًا طويلًا ويتحينون الفرصة المناسبة للعمل عليها(١).

ويقول الدكتور محمد يحيى: «إن ميراث التنوير الأوروبي هو العلمانية الغربية في شتى صورها، بل وفي أكثر صورها شراسة وعداء للدين، والعلمانية المنتشرة في البلاد العربية تنقل هذا الجزء الأخير من الميراث، لكنها تستره مرحليًا بدعاوى جذابة حول الحرية والديمقراطية والعلم والمعرفة، ولا تعمل في دنيا الواقع بأي من هذه الدعاوى.

إن الحل هو الإصرار على أن الإسلام دين التنوير بمعنى نور الإيمان والوحي في وجه ظلام الكفر والوثنية، وهو دين العقل المقارن الموحِّد المفكر، لا العقل الملحد الناقل بلا نقد لخرافات الأقدمين بعد إلباسها ثوب (التنوير) زورًا»(٢).

وهكذا تختل الموازين؛ حيث ينظر هؤلاء القوم إلى كل من تنكَّر لنصوص الكتاب والسنة والشريعة وحكَّم عقول البشر وأهواءهم على أنه العاقل والحكيم والمتنور، أما عقول المتدينين، الملتزمين بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة، فهي عندهم عقول متحجرة أسطورية غيبية جامدة.

ثالثًا: إلغاء العقل والانسياق وراء الخرافة والشعوذة:

وفي مقابل العقلانيين المغرورين بالعقل ووزنهم له بغير الميزان الذي وزنه الله ﷻ به يأتي في الطرف المقابل، أولئك الذين ألغوا عقولهم ونزلوا بها عن المكان اللائق بها، فأسلموا عقولهم للخرافة والشعوذات، وجعلوا

---

(١) انظر: مقال (التنوير بين الحقيقة والتزييف) بندر العريدي، نقلًا عن موقع الإسلام اليوم.

(٢) مجلة البيان، العدد (١٤٠)، ص١٠٨.

عقولهم تابعة منقادة لعقول غيرهم دون وعي ولا بصيرة؛ كما هو الحال عند أهل الخرافة وغلاة المتصوفة.

قال الله ﷻ عن أمثال هؤلاء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧٠، ١٧١].

الميزان الإلهي للعقل والعقلاء والتنوير:

إن الله - ﷻ ذا الجلال والإكرام - هو الذي خلق الخلق كلهم، ومن ذلك العقل، وهو سبحانه أعلم بما خلق: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]. وهو سبحانه أعلم بحدود هذا العقل وقدراته، وهو العليم بالعقلاء حقًّا؛ وذلك حسب ميزانه سبحانه: الكامل، المتوازن، المنضبط، الصادر عن علمه سبحانه وحكمته وعدله ورحمته.

ومن صور هذا الميزان الإلهي الشامل الكامل العادل ما يلي:

أولًا: العقلاء في ميزان الله ﷻ هم الذين اهتدوا بهدى الله ﷻ، وفكَّروا بعقولهم في خلق الله تعالى وما فيه من البراهين والآيات الدالة على وحدانية الله ﷻ، فهداهم الله بذلك إلى عبادته وحده لا شريك له، وآمنوا برسله وكتبه واليوم الآخر، واستعدوا لذلك بالعمل الصالح، ومهَّدوا لأنفسهم في الدار الآخرة بما يبعدهم عن النار ويقربهم إلى الجنة.

وفي كتاب الله ﷻ العديد من الآيات الواردة في صفات العقلاء وأولي الألباب؛ ومن ذلك:

• قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي

لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٣].

• وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: ١٩ ـ ٢٢].

• ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم: ٢٤].

• وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

• وقوله سبحانه عن هلاك قوم لوط: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٥].

• وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

• وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

ثانيًا: والآيات التي تفيد بأن العقلاء حقًا هم المؤمنون المهتدون إلى ربهم ـ بما منحهم الله ﷻ من العقول المفكرة في آيات الله الكونية والشرعية ـ كثيرة جدًا في كتاب الله ﷻ.

ويعرف بمفهوم المخالفة من هذه الآيات ميزان الله ﷻ للسفهاء وضعاف العقول أو فاقديها؛ حيث وصف الله ﷻ من لم يهتد بهداه ـ سواء كان عن جهل أو إعراض أو إباء واستكبار ـ بأنه فاقد العقل سفيه أحمق؛ لأنه لا أسفه

ولا أحمق ممن رأى ما ينفعه فأعرض عنه، ورأى ما يضره فأخذ به، ورضي لنفسه بعذاب جهنم في الآخرة.

ومن الآيات الكثيرة التي وصف الله ﷻ بها الكفار العصاة بالسفه وضعف العقل أو عدمه ما يلي:

- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].
- وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].
- وقوله سبحانه عن أهل النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠].
- وقوله ﷻ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].
- وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: ١٣].
- وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].
- وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة: ٥٨].
- وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: «فلا يُسمَّى عاقلًا إلا من عرف الخير فطلبه، والشر فتركه؛ ولهذا قال أصحاب النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠]، وقال عن المنافقين: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر: ١٤].

ومن فعل ما يعلم أنه يضره فمثل هذا ما له عقل»[١].

وقال سفيان بن عيينه ـ رحمه الله تعالى ـ: «ليس العاقل الذي يعرف الخير والشر، إنما العاقل الذي إذا رأى الخير اتبعه، وإذا رأى الشر اجتنبه»[٢].

وقال وكيع ـ رحمه الله تعالى ـ: «إنما العاقل من عقل عن الله أمره، ليس من عقل أمر دنياه»[٣].

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ وهو يذكر عقوبات الذنوب: «ومن عقوباتها أنها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل؛ فلا تجد عاقلَين: أحدهما مطيع لله والآخر عاص، إلا عقل المطيع منهما أوفر وأكمل، وفكره أصح، ورأيه أسد، والصواب قرينه.

ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو لأولي العقول والألباب؛ كقوله: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧]، ونظائر ذلك كثيرة.

وكيف يكون عاقلًا وافر العقل من يعصي مَنْ هو في قبضته وفي داره، وهو يعلم أنه يراه ويشاهده، فيعصيه وهو بعينه وغير متوار عنه، ويستعين بنعمه على مساخطه، ويستدعي كل وقتٍ غضبَه عليه، ولعنته له، وإبعاده من قربه، وطرده عن بابه، وإعراضه عنه، وخذلانه، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه، وسقوطه من عينه، وحرمانه روح رضاه وحبه، وقرة العين بقربه، والفوز بجواره، والنظر إلى وجهه في زمرة أوليائه، إلى أضعاف أضعاف ذلك من كرامته أهل الطاعة، وأضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية.

فأي عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ـ ثم تنقضي كأنها حلم لم

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٢٤.
(٢) حلية الأولياء ٨/ ٣٣٩.
(٣) الحلية ٨/ ٣٧٠.

يكن ـ على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم؟ بل هو سعادة الدنيا والآخرة. ولولا العقل الذي تقوم به عليه الحجة لكان بمنزلة المجانين، بل قد تكون المجانين أحسن حالًا منه وأسلم عاقبة»(١).

وقال أيضًا في نفس السياق: «وقال بعض السلف: ما عصى الله أحد حتى يغيب عقله، وهذا ظاهر؛ فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى، أو تحت قهره، وهو مطلع عليه، وفي داره وعلى بساطه، وملائكته شهود عليه ناظرون إليه! وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ النار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله، والاستخفاف به ذو عقل سليم؟!»(٢).

وانطلاقًا من هذا الميزان الإلهي للعقلاء، فإنه لا يصلح أن يوصف الكافر والمحاد لله ﷻ ورسوله بأنه عاقل؛ إذ كيف يوصف من هذه حاله بالعقل وقد رضي لنفسه بما يضره في الدنيا من الشقاء وعيشة البهائم، وبما يضره في الآخرة من عذاب الله ﷻ وسخطه. إن هذا لا يمكن أن يكون عاقلًا أبدًا. نعم يمكن أن يقال إنه ذكي لقن لكنه ليس بعاقل ولا ذكي. ولذا كم كان شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ ينعي على الزنادقة أو علماء الكلام انحرافهم عن الحق مع ما أوتوا من الفطنة والذكاء، فتراه يقول: «إذا نظرت إليهم بعين القدر والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم، رحمتهم ورفقت عليهم؛ أوتوا ذكاء وما أوتوا زكاء، وأعطوا فهومًا وما أعطوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون»(٣).

وعلى هذا، فإن من الخطأ ما يطلقه اليوم بعض كتاب المسلمين عن بعض مفكري الغرب والمستشرقين بأن منهم منصفين وعقلاء. وكان ينبغي أن

---

(١) الجواب الكافي ص١١٣، ١١٤.
(٢) الجواب الكافي ص٨٦.
(٣) الحموية ٥/ ١١٩.

يقال: إن منهم أذكياء ونابغين، أما أن يوصفوا بالعقل وهم يعرفون الإسلام كما يعرفون أبناءهم ثم لا يؤمنون به؛ فإنهم بذلك يحكمون على أنفسهم بالسفه وعدم العقل حين تركوا ما يعلمون فيه خيرهم، وبقوا على ما يعلمون فيه ضرره عليهم في الدنيا والآخرة، ومثل هذا لا يمكن أن يكون عاقلًا.

ثالثًا: وأما ميزان الله ﷻ للنور والتنوير فقد بيَّنه سبحانه في كتابه الكريم أتم بيان. يقول الأستاذ بندر العريدي: «لا شك أن كل من انتسب لدين الإسلام وآمن بمرجعية الوحي يعلم أن النور الحقيقي هو ما كان هبة من الله سبحانه ـ خالق النور ـ للأتقياء من عباده ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]؛ فهو سبحانه الذي أنقذهم من مسالك الباطل المظلمة إلى درب الحق المنير ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وشرح قلوبهم للهداية مستنيرين بنور الله ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، وتفضَّل بإنزال كتابه الذي به نور دينهم ودنياهم ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، فيهديهم إلى طريق النجاة والسلامة، ومناهج الاستقامة، وينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك، فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة ـ كما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ ـ لذا كانت حياة الواحد منهم نور على نور؛ يقول أبي بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]: «فهو يتقلب في خمسة من النور: فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة»، وشتان بين من رزقه الله نورًا حقيقيًا يمشي به في الناس، وبين من كان غارقًا في لجج الظلام يتخبَّط في حياته بغير هدى من الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «هذا مثل

ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا ـ أي في الضلالة هالكًا حائرًا ـ فأحياه الله؛ أي أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: يهتدي به كيف يسلك وكيف يتصرف به... ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ﴾ أي: الجهالات، والأهواء والضلالات المتفرقة، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ أي: لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه، وفي مسند الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله خلَقَ خلْقَهُ في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره، فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل**»(١).

وإذا كان النور الذي يهبه الله لعبده من أعظم مننه عليه، فإن من أعظم العقوبات على العبد أن يُحرم نور الله؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾ [النور: ٤٠]. فمن لم يرزقه الله إيمانًا، وهدى من الضلالة، ومعرفة بكتابه، فما له من نور؛ أجل هو محروم من النور مهما كان حاملًا لأعلى الشهادات الأرضية، وقارئًا لمئات الكتب والمدونات؛ فهو يعيش في ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠]، قال أبي بن كعب رضي الله عنه: «فهو يتقلب في خمس من الظُلم: فكلامه ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار». وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح. فأما القلب الأجرد: فقلب المؤمن؛ سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها الدم والقيح، فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه**»(٢).

لذا كان الأحق بوصف (**التنوير**) هو من كان معظمًا لقيم الشرع، وعارفًا

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٧٦، ورواه الترمذي (٢٥٦٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي (٢١٣٠).

(٢) مسند أحمد ٣/ ٧، وجود إسناده ابن كثير في تفسيره ٣/ ٢٩٢.

بمرادات الله ورسوله ﷺ، وراجعًا حين التحاكم إلى نور الله: (الكتاب والسنة)، «وساعيًا لكل تنوير يفتح للعقل - في حدود طاقته وإمكاناته - آفاق رحبة ومساحات واسعة لا تحيد عن هدايات الوحي المعصوم، ومنطلقًا في مشروع البناء الحضاري من رؤية شرعية، من مرجعية الوحي الإلهي الذي يضبط المسيرة، ويحميها من الضلال والانفلات والفهوم المنكوسة، ويبين المنطلق ويحدد الهدف، ويضع الإشارات الهادية على الطريق ليحمي الإنسان من الزلل والسقوط، وحاملًا لواء التنوير الذي يرفع المعنويات ويشجع الإبداع، ويشحذ الهمم للمنافسة في مضمار الحضارة وفق رؤية إسلامية للكون والحياة والإنسان. هذا هو التنوير الحقيقي الذي سيمنح الحضارة حاجتها المفقودة، وينفخ فيها بالروح الغائبة لاسترداد إنسانية الإنسان، والاهتمام به جسدًا وروحًا، وتحقيق سعادته؛ لأنه هو معيار الحضارة الحقيقي»(١).

رابعًا: أما ميزان الله ﷻ **(للعقل)**، ودوره، وحدوه، ومكانه الذي وضعه الله فيه: فهو وسط بين غرور العقلانيين بالعقل الذي جعلوه حاكمًا على كل شيء، ومقدمًا على النقل، وبين الخرافيين الذين أهدروه وضيَّعوا دوره وغايته ومهمته، وجعلوه نهبًا للأوهام والخرافات والأساطير الكاذبة. وقد هدى الله ﷻ أتباع الرسول ﷺ وصحبه الكرام إلى الميزان المستقيم الذي يزنون به العقل، والذي هو الميزان العدل الوسط الخيار.

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في رده على المقدِّمين للعقل: «والذين زعموا من قاصري العقل والسمع أن العقل يجب تقديمه على السمع عند تعارضهما إنما أُتوا من جهلهم بحكم العقل، ومقتضى السمع، فظنوا ما ليس بمعقول معقولًا، وهو في الحقيقة شبهات توهم أنه عقل صريح، وليست كذلك، أو من جهلهم بالسمع؛ إما لنسبتهم إلى الرسول ما لم يرده بقوله، وإما لعدم تفريقهم بين ما لا يدرك بالعقول وبين ما تدرك استحالته بالعقول، فهذه أربعة أمور أوجبت لهم ظن التعارض بين السمع والعقل.

(١) انظر: مقال (التنوير بين الحقيقة والتزييف) بندر العريدي، نقلًا عن موقع الإسلام اليوم.

أحدها: كون القضية ليست من قضايا العقول.

الثاني: كون ذلك السمع ليس من السمع الصحيح المقبول.

الثالث: عدم فهم مراد المتكلم به.

الرابع: عدم التمييز بين ما يحيله العقل وما لا يدركه»(١).اهـ.

إن العقل خلقه الله تعالى، وجعل من وظائفه أن يفهم عنه، ويعقل دينه وشرعه، فلا يجوز في حقه أن يرد شيئًا من الوحي ـ الكتاب والسنَّة ـ بحجة أنه يخالف المعقول، بل الشريعة كلها بأخبارها وأحكامها ليس فيها ما يعلم بطلانه بالعقل، بل العقل يشهد بصحتها على الإجمال والتفصيل. أما الإجمال: فمن جهة شهادة العقل بصحة النبوة وصدق الرسول ﷺ، فيلزم من ذلك تصديق النبي ﷺ في كل ما يخبر به من الكتاب والحكمة.

وأما التفصيل: فإن مسائل الشريعة ليس فيها ما يرده العقل، بل كل ما أدركه العقل من مسائلها فهو يشهد له بالصحة تصديقًا وتعضيدًا وما قصر العقل عن إدراكه من مسائلها، فهذا لعظمة الشريعة وتفوقها. ومع ذلك فليس في العقل ما يمنع وقوع تلك المسائل التي عجز العقل عن إدراكها؛ فالشريعة تأتي بما يحير العقول لا بما تحيله العقول؛ وذلك كالعلوم الغيبية وما في حكمها؛ فهذه إنما تعرف من جهة خبر الشارع، والحق أنه ليس في العقل ما يشهد بإحالة شيء من ذلك، وإنما فيه إثبات عجز العقل عن درك هذه المسائل على حقيقتها، وما ذلك إلا لكمال الشريعة، وتفوقها وعجز العقل وقصوره. أما أن يأتي الشرع بما يعلم العقل الصحيح بطلانه فهذا محال.

يقول الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: «إذا تعارض النقل والعقل على المسائل الشرعية فعلى شرط أن يتقدم النقل، فيكون متبوعًا، ويتأخر العقل فيكون تابعًا، فلا يسرع العقل في مجال النظر إلا بقدر ما يُسرِّحه النقل»(٢).

ويجلي هذا المنهج الرباني والميزان الإلهي للعقل سيد قطب ـ رحمه الله

(١) الصواعق المرسلة ٢/ ٤٥٩.

(٢) الموافقات ١/ ٨٧.

تعالى ـ فيقول: «إن دور هذا العقل أن يتلقى عن الرسالة، ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول، ومهمة الرسول أن يبلغ ويبين، ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام، وينبه العقل الإنسان إلى تدبر دلائل الهدى وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق، وأن يرسم له منهج التلقي الصحيح، ومنهج النظر الصحيح، وأن يقيم له القاعدة التي ينهض عليها منهج الحياة العملية، المؤدي إلى خير الدنيا والآخرة.

وليس دور العقل أن يكون حاكمًا على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان، والقبول أو الرفض، بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله، وبعد أن يفهم المقصود بها ـ أي: المدلولات اللغوية والاصطلاحية للنص ـ ولو كان له أن يقبلها أو يرفضها بعد إدراك مدلولها ـ لأنه هو لا يوافق على هذا المدلول! أو لا يريد أن يستجيب له ـ ما استحق العقاب من الله على الكفر بعد البيان.. فهو إذن ملزم بقبول مقررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح، ومتى فهم عقله ما المقصود بها، وما المراد منها.

إن هذه الرسالة تخاطب العقل.. بمعنى أنها توقظه، وتوجهه، وتقيم له منهج النظر الصحيح.. لا بمعنى أنه هو الذي يحكم بصحتها أو بطلانها، وبقبولها أو رفضها. ومتى ثبت النص كان هو الحكم، وكان على العقل البشري أنه يقبله ويطيعه وينفذه؛ سواء كان مدلوله مألوفًا له أو غريبًا عليه.

إن دور العقل ـ في هذا الصدد ـ هو أن يفهم ما الذي يعنيه النص، وما مدلوله الذي يعطيه حسب معاني العبارة في اللغة والاصطلاح. وعند هذا الحد ينتهي دوره.. إن المدلول الصحيح للنص لا يقبل البطلان أو الرفض بحكم من هذا العقل؛ فهذا النص من عند الله والعقل ليس إلهًا يحكم بالصحة أو البطلان، وبالقبول أو الرفض لما جاء من عند الله.

وعند هذه النقطة الدقيقة يقع خلط كثير.. سواء ممن يريدون تأليه العقل البشري فيجعلونه هو الحَكَم في صحة أو بطلان المقررات الدينية الصحيحة.. أو ممن يريدون إلغاء العقل، ونفي دوره في الإيمان والهدى.. والطريق

الوسط الصحيح هو الذي بيَّناه هنا من أن الرسالة تخاطب العقل ليدرك مقرراتها؛ وترسم له المنهج الصحيح للنظر في هذه المقررات، وفي شؤون الحياة كلها. فإذا أدرك مقرراتها ـ أي إذا فهم ماذا يعني النص ـ لم يعد أمامه إلا التصديق والطاعة والتنفيذ.. فهي لا تكلف الإنسان العمل بها سواء فهمها أم لم يفهمها. وهي كذلك لا تبيح له مناقشة مقرراتها متى أدرك هذه المقررات وفق مفهوم نصوصها.. مناقشتها ليقبلها أو يرفضها، ليحكم بصحتها أو خطئها.. وقد علم أنها جاءته من عند الله الذي لا يقص إلا الحق، ولا يأمر إلا بالخير.

والمنهج الصحيح في التلقي عن الله، هو ألا يواجه العقل مقررات الدين الصحيحة ـ بعد أن يدرك المقصود بها ـ بمقررات له سابقة عليها؛ كوَّنها لنفسه من مقولاته «المنطقية»! أو من ملاحظاته المحدودة، أو من تجاربه الناقصة.. إنما المنهج الصحيح أن يتلقَّى النصوص الصحيحة، ويُكوِّن منها مقرراته هو! فهي أصح من مقرراته الذاتية، ومنهجها أقوم من منهجه الذاتي ـ قبل أن يضبط بموازين النظر الدينية الصحيحة ـ ومن ثم لا يحاكم العقل مقررات الدين ـ متى صح عنده أنها من الله ـ إلى أية مقررات أخرى من صنعه الخاص!

إن العقل ليس إلهًا ليحاكم بمقرراته الخاصة مقررات الله.

فإذا قرر الله ـ سبحانه ـ حقيقة في أمر الكون، أو أمر الإنسان، أو أمر الخلائق الأخرى، أو إذا قرر أمرًا في الفرائض، أو في النواهي.. فهذا الذي قرره الله واجب القبول والطاعة ممن يبلغ إليه. متى أدرك المدلول المراد منه..

إذا قال الله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥]، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥]... إلى آخر ما قاله ـ سبحانه ـ عن طبيعة

الكون والكائنات والأحياء والأشياء... فالحق هو ما قال. وليس للعقل أن يقول - بعد أن يفهم مدلول النصوص والمقررات التي تنشئها - إنني لا أجد هذا في مقرراتي، أو في علمي، أو في تجاربي.. فكل ما يبلغه العقل في هذا مُعرَّض للخطأ والصواب. وفي ما قرره الله - سبحانه - لا يحتمل إلا الحق والصواب.

وإذا قال الله سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]، ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣] ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].. إلى آخر ما قال في شأن منهج الحياة البشرية فالحق هو ما قال - سبحانه - وليس للعقل أن يقول: ولكنني أرى المصلحة في كذا وكذا مما يخالف عن أمر الله، أو فيما لم يأذن به الله ولم يشرعه للناس.. فما يراه العقل مصلحة يحتمل الخطأ والصواب، وتدفع إليه الشهوات والنزوات.. وما يقرره الله سبحانه لا يحتمل إلا الصحة والصلاح.

وما قرره الله سبحانه من العقائد والتصورات، أو من منهج الحياة ونظامها، سواء في موقف العقل إزاءه - متى صح النص، وكان قطعي الدلالة، ولم يوقت بوقت - فليس للعقل أن يقول: آخذ في العقائد والشعائر التعبدية، ولكني أرى أن الزمن قد تغير في منهج الحياة ونظامها. فلو شاء الله أن يوقت مفعول النصوص لوقَّته. فما دام النص مطلقًا فإنه يستوي زمان نزوله وآخر الزمان.. احترازًا من الجرأة على الله، ورمي علمه بالنقص والقصور - تعالى - عما يقولون علوًا كبيرًا - إنما يكون الاجتهاد في تطبيق النص العام على الحالة الجزئية؛ لا في قبول المبدأ العام أو رفضه، تحت أي مقولة من مقولات العقل في جيل من الأجيال!

وليس في شيءٍ من هذا الذي نقرره انتقاص من قيمة العقل ودوره في الحياة البشرية.. فإن المدى أمامه واسع في تطبيق النصوص على الحالات

المتجددة ـ بعد أن ينضبط هو بمنهج النظر وموازينه المستقاة من دين الله وتعليمه الصحيح ـ والمدى أمامه أوسع في المعرفة بطبيعة هذا الكون وطاقاته وقواه ومدخراته، وطبيعة الكائنات فيه والأحياء، والانتفاع بما سخر الله له من هذا الكون ومن هذه الكائنات والأحياء، وتنمية الحياة وتطويرها وترقيتها ـ في حدود منهج الله ـ لا كما تبتغي الشهوات والأهواء التي تضل العقل وتغطي الفطرة بالركام[1].

خامسًا: ومما يتصل بميزان الله ﷻ للعقل والعقلاء: ميزانه سبحانه للأعمى والبصير، أو العمى والبصيرة؛ فكم في كتاب الله ﷻ من الآيات التي يبين الله ﷻ فيها الأعمى على الحقيقة، وكذلك البصير على الحقيقة؛ ومن هذه الآيات:

- قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].
- وقوله سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: ٢٤].
- وقوله ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧٢].
- وقوله سبحانه عن الكفار: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٨].
- وقوله سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: ١٠٤].
- وقوله ﷻ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩].

وأكتفي من التعليقات على هذه الآيات بما ذكره سيد قطب ـ رحمه الله

---

(١) في ظلال القرآن ٣/٨٠٦، ٨٠٧ (باختصار).

تعالى ـ عند آية الرعد؛ حيث أرى أنه قد فتح له فيها فتحًا، فمما قال ـ رحمه الله تعالى ـ: «إن المقابل لمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق ليس هو من لا يعلم هذا، إنما المقابل هو الأعمى! وهو أسلوب عجيب في لمس القلوب وتجسيم الفروق. وهو الحق في الوقت ذاته، لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف؛ فالعمى وحده هو الذي ينشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي لا تخفى إلا على أعمى. والناس إزاء هذه الحقيقة الكبيرة صنفان: مبصرون فهم يعلمون، وعمي فهم لا يعلمون! والعمى عمى البصيرة، وانطماس المدارك، واستغلاق القلوب، وانطفاء قبس المعرفة في الأرواح، وانفصالها عن مصدر الإشعاع.. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩]؛ الذين لهم عقول وقلوب مدركة تذكر بالحق فتتذكر، وتنبه إلى دلائله فتتفكر»(١).

وقال في موطن آخر عند الآية نفسها: «وهكذا يتقرر أن الذين لا يستجيبون لهذا الحق هم ـ بشهادة الله سبحانه ـ عُمْي، وأنهم لا يتفكرون ولا يعقلون، وأن الذين يستجيبون له هم أولو الألباب، وهؤلاء تطمئن قلوبهم بذكر الله، وتتصل بما هي عارفة له ومصطلحة عليه بفطرتها العميقة، فتسكن وتستريح.

وإن الإنسان ليجد مصداق قول الله هذا في كل من يلقاه من الناس معرضًا عن هذا الحق الذي تضمنه دين الله، والذي جاء به في صورته الكاملة محمد رسول الله ﷺ؛ فإن هي إلا جبلات مؤوفة مطموسة، وإن هي إلا كينونات معطلة في أهم جوانبها بحيث لا تتلقى إيقاعات هذا الوجود كله من حولها، وهو يسبح بحمد ربه، وينطق بوحدانيته وقدرته وتدبيره وتقديره.

وإذا كان الذين لا يؤمنون بهذا الحق عُميًا ـ بشهادة الله سبحانه ـ فإنه لا ينبغي لمسلم يزعم أنه يؤمن برسول الله ﷺ، ويؤمن بأن هذا القرآن وحي من عند الله.. لا ينبغي لمسلم يزعم هذا الزعم أن يتلقَّى في شأن من شؤون

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٠٥٦.

الحياة عن أعمى! وبخاصة إذا كان هذا الشأن متعلقًا بالنظام الذي يحكم حياة الإنسان، أو بالقيم والموازين التي تقوم عليها حياته، أو بالعادات والسلوك والتقاليد والآداب التي تسود مجتمعه..

وهذا هو موقفنا من نتاج الفكر - غير الإسلامي - بجملته - فيما عدا العلوم المادية البحتة، وتطبيقاتها العملية مما قصده رسول الله ﷺ بقوله: «**أنتم أعلم بشؤون دنياكم**»(١). فإنه ما ينبغي قط لمسلم يعرف هدى الله ويعرف هذا الحق الذي جاء به رسول الله، أن يقعد مقعد التلميذ الذي يتلقى من أي إنسان لم يستجب لهذا الهدى ولم يعلم أنه الحق.. فهو أعمى بشهادة الله سبحانه... ولن يرد شهادة الله مسلم. ثم يزعم بعد ذلك أنه مسلم!

إنه لا بد لنا أن نأخذ هذا الدين مأخذ الجد، وأن نأخذ تقريراته هذه مأخذ الجزم.. وكل تميُّعٍ في مثل هذه القضية هو تميُّعٌ في العقيدة ذاتها؛ إن لم يكن هو رد شهادة الله - سبحانه - وهو الكفر البواح في هذه الصورة!

وأعجب العجب أن ناسًا من الناس اليوم يزعمون أنهم مسلمون، ثم يأخذون في منهج الحياة البشرية عن فلان وفلان من الذين يقول عنهم الله سبحانه: إنهم عُمي. ثم يظلون يزعمون بعد ذلك أنهم مسلمون!

إن هذا الدين جد لا يحتمل الهزل، وجزم لا يحتمل التميُّع، وحق في كل نص فيه وفي كل كلمة.. فمن لم يجد في نفسه هذا الجد وهذا الحزم وهذه الثقة فما أغنى هذا الدين عنه، والله غني عن العالمين.

وما يجوز أن يثقل الواقع الجاهلي على حس مسلم، حتى يتلقى من الجاهلية في منهج حياته؛ وهو يعلم أن ما جاءه به محمد ﷺ هو الحق، وأن الذي لا يعلم أن هذا هو الحق «أعمى»، ثم يتبع هذا الأعمى، ويتلقَّى عنه بعد شهادة الله ﷻ.

إن هناك علاقة وثيقة بين الفساد الذي يصيب حياة البشر في هذه الأرض

---

(١) مسلم (٢٣٦٣).

وبين ذلك العمى عن الحق الذي جاء من عند الله لهداية البشر إلى الحق والصلاح والخير. فالذين لا يستجيبون لعهد الله على الفطرة، ولا يستجيبون للحق الذي جاء من عنده ويعلمون أنه وحده الحق.. هم الذين يفسدون في الأرض، كما أن الذين يعلمون أنه الحق ويستجيبون له هم الذين يصلحون في الأرض وتزكو بهم الحياة..

إن حياة الناس في الأرض لا تصلح إلا بمثل هذه القيادة المبصرة؛ التي تسير على هدى الله وحده، والتي تصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه.. إنها لا تصلح بالقيادات الضالة العمياء، التي لا تعلم أن ما أنزل على محمد ﷺ هو الحق وحده، والتي تتَّبع - من ثَمَّ - مناهج أخرى غير منهج الله الذي ارتضاه للصالحين من عباده.. إنها لا تصلح بالإقطاع والرأسمالية، كما أنها لا تصلح بالشيوعية والاشتراكية العلمية!.. إنها كلها من مناهج العُمْي الذين لا يعلمون أن ما أنزل الله على محمد ﷺ هو وحده الحق، الذي لا يجوز العدول عنه، ولا التعديل فيه.. إنها لا تصلح بالثيوقراطية، كما أنها لا تصلح بالديكتاتورية أو الديمقراطية! فكلها سواء في كونها من مناهج العُمي، الذين يُقيمون من أنفسهم أربابًا من دون الله؛ تضع هي مناهج الحكم ومناهج الحياة، وتشرع للناس ما لم يأذن به الله، وتعبدهم لما تُشرِّع، فتجعل دينونتهم لغير الله.

وآية هذا الذي نقوله - استمدادًا من النص القرآني - هو هذا الفساد الطامي الذي يعم وجه الأرض اليوم في جاهلية القرن العشرين، وهو هذه الشقوة النكدة التي تعانيها البشرية في مشارق الأرض ومغاربها.. سواء في ذلك أوضاع الإقطاع والرأسمالية، وأوضاع الشيوعية والاشتراكية العلمية! وسواء في ذلك أشكال الديكتاتورية في الحكم أو الديمقراطية! إنها كلها سواء فيما تلقاه البشرية من خلالها من فساد ومن تحلل ومن شقاء ومن قلق؛ لأنها كلها سواء من صنع العُمي الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد من ربه هو الحق وحده، ولا تلتزم - من ثَمَّ - بعهد الله وشرعه، ولا تستقيم في حياتها على منهجه وهديه.

إن المسلم يرفض ـ بحكم إيمانه بالله وعلمه بأن ما أنزل على محمد هو الحق ـ كل منهج للحياة غير منهج الله، وكل مذهب اجتماعي أو اقتصادي، وكل وضع كذلك سياسي غير المنهج الوحيد، والمذهب الوحيد، والشرع الوحيد الذي سنَّه الله وارتضاه للصالحين من عباده.

ومجرد الاعتراف بشريعة منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله، هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله؛ فالإسلام لله هو توحيد الدينونة له دون سواه.

إن هذا الاعتراف فوق أنه يخالف بالضرورة مفهوم الإسلام السياسي، فهو في الوقت ذاته يسلم الخلافة في هذه الأرض للعُمي ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ..﴾ فهذا الفساد في الأرض مرتبط كل الارتباط بقيادة العُمي!

ولقد شقيت البشرية في تاريخها كله، وهي تتخبط بين شتى المناهج وشتى الأوضاع وشتى الشرائع بقيادة أولئك العُمي، الذي يلبسون أردية الفلاسفة والمفكرين والمشرعين والسياسيين على مدار القرون. فلم تسعد قط، ولم ترتفع «إنسانيتها» قط، ولم تكن في مستوى الخلافة عن الله في الأرض قط، إلا في ظلال المنهج الرباني في الفترات التي فاءت فيها إلى ذلك المنهج القويم»(١).

وبهذا يتبين لنا أن الناس إنما هما فريقان: فريق استجاب لله ﷻ ولرسله، وقام بوظيفة العبودية لله ﷻ، فهو البصير على الحقيقة، وفريق سواه إنما هو أعمى مطموس البصيرة، ولو كان غاية في الذكاء، ولو بلغ في علوم الدنيا ومخترعاتها ما بلغ، فما دام أنه لم يؤمن بما أنزل من الله ﷻ من الحق فهو أعمى بشهادة الله ﷻ، ومن أصدق من الله حديثًا. ولا شك أن مثل هذه الحقائق لا تقبلها عقول الماديين العقلانيين؛ إذ كيف يكون الطبيب الحاذق

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٧٤ ـ ٢٠٧٦ (باختصار).

والمهندس الدقيق والمخترع البارع عميًا؟ هذا هو مبلغ عقولهم، ولا يخفى ما في كلامهم من مصادمة صريحة لخبر الله ﷻ وشهادته.

إن مثل هؤلاء قد أخبرنا الله ﷻ عنهم بقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٦، ٧].

يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «أي: أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها. فهم حُذَّاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة؛ كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة. قال الحسن البصري: «والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي» وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ يعني الكفار؛ يعرفون عمران الدنيا وهم في أمر الدين جهال»[(١)].

ويقول الشيخ السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ: «العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول، ويدهش الألباب، وأظهروا من العجائب الذرية، والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية، والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزًا عما أقدرهم الله عليه. فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك، أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب. قد رآهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون. نسوا الله، فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ولو نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في

---

(١) تفسير ابن كثير عند الآيتين (٦، ٧) من سورة الروم.

الدنيا وظاهرها، وما حرموا من العقل العالي، لعرفوا أن الأمر لله، والحكم له في عباده، وإن هو إلا توفيقه أو خذلانه، ولخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان حتى يصلوا إليه، ويحلوا بساحته. وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه لأثمرت الرُّقِيَّ العالي والحياة الطيبة. ولكنها لما بني كثير منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق، وأسباب الفناء والتدمير»[١].

وأختتم هذه الفقرة بكلام نافع للإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ بيَّن فيه أثر الذنوب والمعاصي على القلوب، وأنها سببٌ في عماها وانطماس نورها؛ يقول ـ رحمه الله تعالى ـ عن عقوبات المعاصي: «ومن عقوباتها: أنها تعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسد طريق العلم، وتحجب مواد الهداية.

وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأى تلك المخايل: إني أرى الله تعالى قد ألقى عليك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم. فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصره؛ كأعمى خرج بالليل في طريق مهالك ومعاطب، فيا عزة السلامة، ويا سرعة العطب. ثم تقوى تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى الوجه منها سواد، بحسب قوتها وتزايدها، فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ، فامتلأ القبر ظلمة؛ كما قال النبي ﷺ: «**إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله ﷻ ينورها لهم بصلاتي عليهم**»[٢]. فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد علت الوجوه علوًا ظاهرًا يراه كل أحد»[٣].

❑ ❑ ❑

(١) تفسير السعدي ٤/ ٧٦، ٧٧.
(٢) رواه مسلم (٩٥٦).
(٣) الجواب الكافي ص١٠٩، ١١٠.

المبحث الرابع

ميزان الحرية والتقدم والتحضر

بين ميزان الله ﷻ للحرية والتقدم والتحضر وبين موازين الجاهلية بونًا عظيمًا، ومضادة كاملة؛ ذلك ـ وكما ذكر أكثر من مرة ـ؛ لأن ميزان الله ﷻ يصدر عن الله العليم الخبير الحكيم الرحيم، المنزه عن كل ظلم، ونقص وعيب، والذي يقوم على العبودية لله ﷻ وحده، والحكم بما أنزل الله سبحانه من الشريعة الكاملة الشاملة التي كلها خير وصلاح للناس في معاشهم ومعادهم، كما يقوم على الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من الحساب والثواب والعقاب. أما موازين البشر الجاهلية، فهي منفية عن ذلك كله، وقائمة على الأهواء والشهوات والمناهج الجائرة المعروفة بالنقص والهوى والجهل، فلا جرم جاءت موازينهم مضطربة، ظالمة منحرفة، جلبت للبشرية كل عناء وشقاء.

من موازين الجاهلية للحرية والتقدم والتحضر:

١ ـ تنظر الجاهلية القديمة والمعاصرة إلى الحرية والتقدم على أنها الانعتاق من أي قيد يقيد الإنسان في تفكيره أو قوله أو فعله، ومن ذلك: قيود الشرع المطهر، وحدود الله ﷻ.

ففي الجاهلية القديمة نجد ما قصَّه الله ﷻ علينا في كتابه الكريم عن قوم شعيب عليه الصلاة والسلام، وما قالوا له حينما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وترك ما هم عليه من ظلم الناس بقطع الطريق عليهم، ونقصهم في المكيال والميزان؛ قال الله ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي

أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٤ ـ ٨٧].

ففي هذه الآيات الكريمات نجد أن قوم شعيب استنكروا على شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ تدخل دينه في شؤونهم التي يرون أنهم أحرار في فعلها، فقالوا: ما لك ولحريتنا الاعتقادية؟ وما دخل دينك وعبادتك في اقتصادنا وتصرفنا في أموالنا؟ فنحن أحرار نفعل فيها ما نشاء.

هذا هو ميزان الحرية في الجاهلية القديمة، وهي هي نفسها موازين الجاهلية المعاصرة اليوم، حذو القذة بالقذة، ويصفونها بالتقدم والتحضر، بينما يصفون ما يضادها من الدين والأخلاق بالتخلف والرجعية والماضوية.

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ معلقًا على مقولة قوم شعيب الجائرة: «إن بيننا اليوم ـ ممن يقولون: إنهم مسلمون! ـ من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية.

وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم؛ يتساءلون أولًا في استنكار: وما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ ما للإسلام والعري في الشواطئ؟ ما للإسلام وزي المرأة في الطريق؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل؟ ما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله «المتحضرون»؟!.. فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾.

وهم يتساءلون ثانيًا، بل ينكرون بشدة وعنف أن يتدخل الدين في الاقتصاد، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد. فما للدين والمعاملات الربوية؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا

تدخلت في الاقتصاد تفسده. وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الغربية ـ النظرية الأخلاقية مثلًا ـ ويعدونها تخليطًا من أيام زمان!

فلا يذهبن بنا الترفع كثيرًا على أهل مدين في تلك الجاهلية الأولى، ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة، ولكنها تدَّعي العلم والمعرفة والحضارة، وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في الله، والسلوك الشخصي في الحياة، والمعاملات المادية في السوق؛ تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود!»(١).

والكلام عن الحرية في موازين الجاهلية يقودنا إلى الحديث عما يسمونه (بتحرير المرأة)؛ هذا المصطلح الخبيث الذي يرفعه اليوم المتَّبِعون للشهوات، ويريدون أن يميلوا بالناس ميلًا عظيمًا، فماذا يقصدون بتحرير المرأة؟ وما هو ميزان تحريرها عندهم؟

إنهم يقصدون بتحريرها هنا ذلك المفهوم الجاهلي الدنس الذي يرمي إلى أن تنفلت المرأة من عبادة ربها ﷻ، ومن كل فضيلة وعفة وحياء؛ لتصبح مستعبدة رقيقة لشهوات الشياطين، وبيوت الأزياء وصيحات الموضات التي تخلع عن المرأة أجمل شيء ركَّبه الله ﷻ فيها؛ وهو حياؤها وعفتها، فهل هذا هو تحرير المرأة؟ أو هو إذلالها واستعبادها واسترقاقها؟

إن التحرر الحقيقي للمرأة ولغيرها لا يكون إلا في هذا الدين الذي جاء لتحرير الإنسان من العبودية للأشخاص والأصنام والأهواء إلى العبودية لله ﷻ الواحد القهار والتي فيها وحدها العزة والكرامة والحرية والتحرير.

يتحدث سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ واصفًا بعض ما تتعرض له المرأة المعاصرة من الذلة والعبودية والاسترقاق فيقول: «هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها على الناس فرضًا، وتكلفهم أحيانًا ما لا يطيقون من النفقة، وتأكل حياتهم واهتماماتهم، ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم. ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها.. أزياء الصباح، وأزياء بعد الظهر، وأزياء المساء..

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٢٠.

والأزياء القصيرة، والأزياء الضيقة، والأزياء المضحكة! وأنواع الزينة والتجمل والتصفيف.. إلى آخر هذا الاسترقاق المذلّ... من الذي يصنعه؟ ومن الذي يقف وراءه؟ تقف وراءه بيوت الأزياء، وتقف وراءه شركات الإنتاج! ويقف وراءه المرابون في بيوت المال والبنوك...»(١).

والغريب العجيب أن هؤلاء المفتونين الذين يصبغون على المتمسكين بكتاب الله ﷻ وسنة نبيه محمد ﷺ صبغة الرجعية والجمود - وما أكرمها من رجعية حيث يفتخر المسلم أن يكون الله له ربًا، ويعتز بكونه له عبدًا، مسلمًا لشريعته - هم في حقيقة الأمر مرتكسون في رجعية وثنية مقيتة كما سبق في حكاية سلفهم من قوم شعيب المشركين، الذين استنكروا على شعيب دعوته لهم إلى التوحيد، وترك ظلم الناس في أموالهم، واعتبروا ذلك تدخلًا منه في حرياتهم الشخصية، كما أن كثيرًا منهم جامدون على أفكار الغرب التحررية التي نشأت في مواجهة الكنيسة الوثنية في العصور الوسطى، فنقلها المفتونون من بني جلدتنا، وجمدوا عليها. فمن هو أولى بالجمود والرجعية؟ آلذين يرجعون إلى دعوة الرسل وتوحيد الله ﷻ، ونبذ الشرك والخرافة، والتمسك بشرع الله المبرء من النقص والجهل والهوى؟ أم الذين رجعوا إلى عقيدة الشرك والكفر بالله ﷻ، وجمدوا على الوثنية والجاهلية القديمة والمعاصرة؟

٢ - ومن موازين الجاهلية للحرية والتحضر في عصرنا اليوم ما يطلقه بعض المفتونين على أنفسهم بأنهم ليبراليون، وكانوا من قبل يستخفون بها ويطرحونها على استحياء. ونقول لهؤلاء القوم: حدِّدوا لنا معنى هذا المصطلح الذي تفخرون به وتتشرفون بالانتساب إليه.

فسيقولون لنا: إنها لفظة أجنبية تعني التحرر والانطلاق من كل قيد يقيد حرية الإنسان، ولو كان ذلك القيد هو شرع الله ﷻ ودينه. حينئذٍ نقول لهم: إنكم بتحرركم من شريعة الله ﷻ - والتي هي عقيدة وأحكام وسلوك - تكونون بذلك قد ارتكستم في العبودية، ووضعتم ربقة الرق الحقيقي في أعناقكم. وإن

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢١٩.

كنتم ترون أن هذه هي الحرية فأنتم مخادعون لأنفسكم مغالطون لغيركم؛ فإن ما أنتم فيه إن هو إلا الرق والذلة والعبودية الجاهلية، ورحم الله ابن القيم حيث قال:

«هربوا من الرق الذي خلقوا له وبلوا برق النفس والشيطان»[(١)]

٣ ـ ومن موازين الجاهلية اليوم للحرية والتحضر: ما ينظر به الماديون اليوم من الكفار أو المنافقين أو المهزومين من المسلمين إلى التقدم المادي الذي يعيشه الغرب بأنه الحضارة والتقدم والرقي، دون اعتبار للدين والأخلاق، ومن سواهم من العالم ـ بما في ذلك المسلمين ـ رجعيون متخلفون.

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ: «وفي المجتمعات الجاهلية ينحسر المفهوم الأخلاقي بحيث يتخلَّى عن كل ما له علاقة بالتميز الإنساني عن الحيوان؛ ففي هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية ـ ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة ـ رذيلة أخلاقية! إن المفهوم «الأخلاقي» ينحصر في المعاملات الشخصية، والاقتصادية، والسياسية ـ أحيانًا في حدود مصلحة الدولة! ـ والكُتَّاب والصحفيون والروائيون، وكل أجهزة التوجيه والإعلام في هذه المجتمعات الجاهلية تقولها صريحة للفتيات والزوجات والفتيان والشبان: إن الاتصالات الجنسية الحرة ليست رذائل أخلاقية!

مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة غير متحضرة من وجهة النظر «الإنسانية»، وبمقياس خط التقدم الإنساني.. وهي كذلك غير إسلامية؛ لأن خط الإسلام هو خط تحرير الإنسان من شهواته...»[(٢)].

«ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلى حياء الناس وأخلاقهم، والدعوة السافرة لهم إلى العري الجسدي ـ باسم الزينة والحضارة والموضة! ـ وبين الخطة الصهيونية لتدمير إنسانيتهم، والتعجيل

---

(١) نونية ابن القيم.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٥٨.

بانحلالهم؛ ليسهل تعبيدهم لملك صهيون! ثم يربط بين هذا كله والخطة الموجهة للإجهاز على الجذور الباقية لهذا الدين في صورة عواطف غامضة في أعماق النفوس! فحتى هذه توجه لها معاول السحق، بتلك الحملة الفاجرة الداعرة إلى العري النفسي والبدني الذي تدعو إليه أقلام وأجهزة تعمل لشياطين اليهود في كل مكان! والزينة «الإنسانية» هي زينة الستر، بينما الزينة «الحيوانية» هي زينة العري.. ولكن «الآدميين» في هذا الزمان يرتدُّون إلى رجعية جاهلية تردهم إلى عالم البهيمة، فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها!»[(١)].

ويتحدث الأستاذ محمود سلطان عن مصطلح الحضارة، وأصل نشأتها، وما معيارها عند الغرب وأذنابهم، فيقول: «عندما استخدم (كانت) كلمة حضارة بمعنى السلوك قوبل بنقد شديد، خاصة من علماء الاجتماع الغربيين في الوقت الحديث من الذين عاصروا صعود الرأسمالية الغربية في الفترة من القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين، وكانوا ـ في غالبيتهم ـ شديدي الحرص على استبعاد الاتجاهات التي ثبت في يقينها أن الحضارة تعبر عن الإنجاز الروحي والأخلاقي للأمة! إذ إن التسليم بهذا التعبير الأخير يعني تراجع الحضارة الغربية أن يروا حضارتهم فيها، ومن ثم درجوا على استخدام الفائض المادي معيارًا للحضارة؛ إذ إن هذا الاستخدام ـ وبحكم تقدمهم التكنولوجي ـ يدخل لهم إحساسًا زائفًا بالتفوق الحضاري...

يقول د. حسين مؤنس: «فقد يكون الأمي البسيط أقرب إلى مفهوم الحضارة من المتعلم، بل المتبحر؛ إذا كان الأول محتفظًا بمستواه المعنوي وكرامته الإنسانية، متمسكًا بالفضائل، خاليًا ـ ما أمكن ـ من الأحقاد والمطامع، وإذا كان الثاني قد انتقل من يده ميزان القيم، واضطرب مقياسه الخلقي والمعنوي»[(٢)]؛ أي أنه ليس من الضرورة أن يفرز مجتمع متقدم ماديًا حضارة تفي بحاجات بنيه؛ فربما تمنحهم الإحساس باللذة الحسية ولكنها تفتقر

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٧٩.
(٢) الحضارة، د. حسين مؤنس ص٥٣.

إلى منظمة القيم التي تشعرهم بالأمان؛ فالمجتمع العربي المسلم ربما يعتبر متخلفًا إذا ما تم النظر إليه بمعايير التقدم المادي، ولكن التزام أبنائه بالزكاة مثلًا، أو بالهدي النبوي الشريف: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[(١)]، يعد اكثر تحضرًا من نظيره الغربي المتقدم عنه ماديًا.

. . . ولقد أدَّت سيادة التعريفات الغربية المتحيزة لمفهوم الحضارة في أوساط النخبة العربية المتأوربة إلى الانزلاق في مأزق التبعية الفكرية والثقافية للدول الصناعية الكبرى، ويظهر ذلك بجلاء عندما تستشار ـ هذه النخبة ـ حول الإشكالية التي لم ينفضَّ الجدل بشأنها منذ بدايات القرن الحالي وإلى الآن؛ وهي: ماذا يؤخذ من الغرب المتقدم، وما يُرَدُّ؟ إذ يكاد هؤلاء يُجمعون على أن يؤخذ كل ما تنتجه أوروبا ولا يرد منه شيء؛ أي نقل الآلة بجانب الحضارة أو الثقافة أو مجموعة القيم السائدة التي تطورت الآلة في كنفها، وقسر الواقع العربي أو جلده إلى أن ينصاع لها أملًا في إحداث ثورة صناعية توازي تلك التي ينعم الأوروبيون بها. ولعلنا نتذكر دعوة طه حسين الشهيرة، في بداية هذا القرن، في كتابه المثير للجدل: مستقبل الثقافة في مصر، حين دعا صراحة إلى أن نحذو حذو أوروبا في حلوها ومرها، خيرها وشرها..!بل إن الأمر تطور إلى ما هو أخطر من ذلك؛ إذ حلت قيم الغرب محل المعيار الرباني الخالد ـ القرآن والسنة ـ في قياس القيم السائدة في المجتمع.

وصفوة القول هنا: إن الحضارة هي مرادف آخر لتشكيلة من القيم الأخلاقية المنبثقة من أسس دينية؛ إما من نبوة أو من دعوة حق كما يقول ابن خلدون.

وتأسيسًا على ذلك فإن التحضر يعني التدين؛ لأن المتدين يضبط علاقته بالمجتمع والكون والعالم بمبدأ أخلاقي معين، بينما من يتحرر من سلطة القيم والمثل والأخلاق يعطي نفسه الحق في الحصول على ما يبغي، ولو كان على

---

(١) صحيح البخاري (٢٥٥٢).

حساب الآخرين، ولنا أن نتوقع ما يمكن أن يحدث لو أن المجتمع يشكله مثل هذا الأنموذج الوحشي من البشر؛ إن النتيجة التي لا يمكن تحاشيها هي حرب الجميع ضد الجميع.

فالحضارة أو التحضر - إذن - هي منهج هداية يضبط علاقة الإنسان بمحيطه الاجتماعي المادي أيضًا، وإن غياب هذا المنهج يعني: الاستباحة والتحلل الأخلاقي، والتفسخ الاجتماعي، ويعني: التخلف بمعناه الشامل»(١).

ويقول الأستاذ محمد العبدة: «هل الحضارة هي الأثاث الفخم المكدس دون حاجة إليه؟ وهل هي الإكثار في ألوان الطعام والشراب؟ أو جمع التحف لتزيين الجدران والمكان؟ أم هي جمع الكتب التي لا تقرأ؟ هذا وأمثاله يمكن أن يُسمَّى ترفًا، أو من أمراض (ما بعد الحضارة)؛ وذلك عندما تتغلب النظرة الشيئية وتكدّس منتجات حضارة أخرى؛ عندما تكدّس السيارات الفارهة والهواتف النقالة، إنها حالة تعويض عن الشعور بالنقص، وليست هي الحضارة.

الحضارة هي تحقيق إنسانية الإنسان على أكمل الوجوه؛ أي تحقيق الغذاء الضروري للروح والجسم، تحقيق الهدف الذي من أجله خُلق الإنسان: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وإن ما نراه في التكالب على المتاع، والتفاخر، بالأشياء، وتحوُّل الإنسان ليكون عبدًا للدينار والدرهم فليس من الحضارة في شيء.

إن من أكبر المؤشرات على الحضارة هو إنقاذ الإنسان من الأغلال؛ أغلال الشر والأوهام والخرافات، وأن تُسخَّر المخترعات الحديثة والتقنية الحديثة لصالح الإنسان، لا أن يكون عبدًا لها؛ فإن العمر طويل بالتدبير، قصير بالتبذير، ولو استعمل الإنسان أوقاته فيما ينبغي لقام بأعمال جليلة، ولئن كان البخل بالمال رذيلة، فإن البخل بالعمر فضيلة، وربما لا يرضى الإنسان عمن يتعدى على ممتلكاته وربما يذهب ويشتكي، ولكن الذي يسلبه

---

(١) مجلة البيان، العدد ١٥٣، ص١٣٤.

وقته فإنه يشكره على مسعاه!! وعندما ينشغل الإنسان بسفاسف الأمور فإنها تجره إلى منغصات الحياة، فيضيع عمره في الشقاء والبلاء.

والحضارة هي حين يتخلق الفرد بالأخلاق التي تؤدي إلى تماسك المجتمع، وحين نرى الأسرة تربي الأجيال القادمة على الصدق والإيثار، وعلى احترام وإنصاف الآخرين، وحين نصنع العدل كقيمة عليا، نكون قد خطونا خطوة أساسية في التوجه نحو (حضارة)»[(١)].

ميزان الله ﷻ للتحرر والتقدم والحضارة:

١ ـ الحر في ميزان الله تعالى هو الذي تحرَّر من رق العبودية لغير الله تعالى، وأخلص عبوديته لله ﷻ. والرقيق هو من استعبده هواه، واستعبدته دنياه، واستعبده مخلوق مثله؛ قال الله ﷻ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩].

فهذا مثلٌ ضربه الله ﷻ لعبد حرره الله من عبوديات البشر وأخلص عبادته لله وحده، وآخر استعبده عدة شركاء من الخلق فأهدر حريته وكرامته.

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضًا فيه، وهو بينهم موزع، ولكل منهم فيه توجيه، ولكل منهم عليه تكليف، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق، ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه! وعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه ويكلفه به، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟

إنهما لا يستويان؛ فالذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة

---

(١) مقال (ما هي الحضارة). انظر موقع (الإسلام اليوم) تاريخ ١٤٢٨/١٢/٢٥هـ.

والمعرفة واليقين، وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه، ووضوح الطريق، والذي يخضع لسادة متشاكسين معذب مقلقل، لا يستقر على حال، ولا يُرضي واحدًا منهم فضلًا على أن يرضي الجميع!

وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال؛ فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى... لأنه يعرف مصدرًا واحدًا للحياة والقوة والرزق، ومصدرًا واحدًا للنفع والضر، ومصدرًا واحدًا للمنح والمنع، فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد؛ يستمد منه وحده، ويعلق يديه بحبل واحد يشد عروته، ويطمئن اتجاهه إلى هدف واحد لا يزوغ عنه بصره، ويخدم سيدًا واحدًا يعرف ماذا يرضيه فيفعل وماذا يغضبه فيتقيه. وبذلك تتجمع طاقته وتتوحد، فينتج بكل طاقته وجهده وهو ثابت القدمين على الأرض، متطلع إلى إله واحد في السماء.

ويعقب على هذا المثل الناطق الموحي بالحمد لله الذي اختار لعباده الراحة والأمن والطمأنينة والاستقامة»[1].

إن الحرية الحقيقية في ميزان الشرع هي حرية القلب، والعبودية الحقيقية هي عبودية القلب؛ فمن أخلص عبوديته لله ﷻ وخلص من عبودية الخلق فهذا هو الحر حقيقة؛ وذلك لتحرر القلب من عبودية الخلق. والعكس من ذلك: من ترك عبادة الله ﷻ، أو قصَّر فيها، فلا بد أن تسترق القلب عبودية المخلوق حسب ما تعلق به القلب من العبوديات لما سوى الله ﷻ، أما عبودية البدن أو حريته فليست هي الميزان الحقيقي للعبودية والحرية؛ إذ قد يكون الإنسان مملوكًا لإنسان آخر لكنه أخلص عبوديته لله ﷻ فصار بذلك حرًا من عبودية ما سوى الله ﷻ، وقد يكون الإنسان سيدًا ملكًا لكنه في الحقيقة مسترق القلب، عبدٌ لشهوته أو هواه أو زوجته أو منصبه أو جنوده وأتباعه.

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٤٩ (باختصار).

إذن فالمقصود بالحرية والعبودية هنا حرية القلب وعبوديته، لا حرية البدن وعبوديته.

يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ: «إذ الرق والعبودية في الحقيقة: هو رق القلب وعبوديته؛ فما استرق القلب واستعبده فالقلب عبده، ولهذا يقال: العبد حر ما قنع، والحر عبد ما طمع... وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته، ورجائه لقضاء حاجته، ودفع ضرورته قويت عبوديته وحريته عما سواه؛ فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه... فإن أسر القلب أعظم من اسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن؛ فإن من استُعبِدَ بدنُه واستُرِقَّ وأُسِرَ لا يبالي ما دام قلبه مستريحًا من ذلك مطمئنًا، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص، وأما إذا كان القلب الذي هو مَلِكُ الجسم رقيقًا مستعبدًا، متيمًا لغير الله فهذا هو الذل، والأسر المحض، والعبودية الذليلة لما استعبد القلب؛ فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس؛ قال النبي ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس**»[1] »[2].

ويقول في موطن آخر: «وكل من علَّق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو يهدوه خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميرًا لهم متصرفًا بهم، فالناظر ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر، فالرجل إذا تعلَّق قلبه بامرأة ـ ولو كانت مباحة له ـ يبقى قلبه أسيرًا لها؛ تحكم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، لا سيما إذا درت بفقره إليها وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها؛ فإنها تحكم فيه حينئذٍ حكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه»[3].

---

(١) البخاري (٦٤٤٦)، مسلم (١٠٥١).

(٢) العبودية لشيخ الإسلام (٣٢ ـ ٣٨) باختصار.

(٣) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٨٥.

ويقول في موطن ثالث عن مستعبد القلب لغير الله تعالى: «فتارة تجذبه الصور المحرمة وغير المحرمة، فيبقى أسيرًا عابدًا لمن لو اتخذه هو عبدًا له لكان ذلك نقصًا وعيبًا وذمًا.

وتارة يجذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدى من الله.

ومن لم يكن مخلصًا لله عبدًا له قد صار قلبه مستعبدًا لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون هو أحب إليه مما سواه، ويكون ذليلًا خاضعًا له، وإلا استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين»(١).

ويقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ: «إن الدينونة لله تعالى تحرر البشر من الدينونة لغيره، وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وبذلك تحقق للإنسان كرامته الحقيقية وحريته الحقيقية، هذه الحرية وتلك الكرامة اللتان يستحيل ضمانهما في ظل أي نظام آخر غير النظام الإسلامي... والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله في كل جانب من جوانب الحياة؛ إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط»(٢).

ويقول الشيخ عبد الرحمن الدوسري ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]: «بتحقيق العلم بمدلول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ ينجو الإنسان ويسلم من الرق المعنوي الذي هو أفظع وأنكى من كل رق حسي؛ لأن الرق الحسي يشعر به صاحبه، فيتمنى انتهاءه، ويسعى لإزالته والتخلص منه حسب مجهوده، ولكن الرق

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٢١٦.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣٩.

المعنوي لا يشعر به صاحبه، بل على العكس ينقلب تصوره له تحررًا وتقدمًا، فيتمادى باستحسان حاله، دون أن يخالجه أدنى شيء من الامتعاض والإحساس...

والمسلم المؤمن الصادق لا يرتبط في جميع أحوال سيره بعجلة أحد ولا تبعية أحد؛ لسلامته من الرق المعنوي بإخلاص مقاصده لله، وكونه مستعينًا به فقط، فلا يخشى من أي قوة، ولا يستعين بكتلة على كتلة أخرى؛ حتى لا يصغي إلى ما تمليه.

وأصحاب الرق المعنوي يعادون الحر الذي على هذه الشاكلة بدافع من طبيعتهم السافلة، أو بإملاء من أسيادهم الذين يركنون إليهم، ولا سبيل لتطهير قلوبهم من ذلك إلا بما يحرر أرواحهم من القيام بتحقيق مدلول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[1].

٢ ـ أما ميزان الله ﷻ للحضارة والتقدم فإنه يتمثل بعمارة الأرض بعهد الله وميثاقه ﷻ؛ ألا وهو القيام بعبادة الله ﷻ، وتوحيده، والحكم بشريعته؛ حينئذٍ تصلح الأرض وتصلح البشرية، وتتحضر وتُعمر الأرض وتتقدم صناعيًا وزراعيًا واجتماعيًا في إطار قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وفي ضوء قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ [هود: ٦١].

وقد حذَّر الله ﷻ مشركي قريش من أن يسيروا في طريق المشركين الذين من قبلهم؛ حيث عمروا الأرض ماديًا لكن ذلك لم ينفعهم، بل كان وبالًا عليهم؛ لأنهم لم يعمروها على التوحيد والتقوى؛ قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ

---

(١) صفوة الآثار والمفاهيم.

يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩].

ولما اغتر قوم هود بقوتهم المتمثلة في أجسامهم وعمارتهم للأرض حذَّرهم نبيهم هود عليه السلام من ذلك بقوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٤٠].

ومن خلال هذه الآيات وأمثالها تبيَّن لنا أن الحضارة والتقدم ليسا في هذه الأشكال والصور المادية المقطوعة عن توحيد الله ﷻ وعبادته وتقواه، وإنما الحضارة تقوم عندما يسود الإيمان بالله ﷻ، وتسيِّر حياة الناس شريعة الله ﷻ وموازينه.

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ: «وحين تكون القيم «الإنسانية» كما هي في ميزان الله هي السائدة في مجتمع فإن هذا المجتمع يكون متحضرًا متقدمًا.. أو بالاصطلاح الإسلامي: ربانيًا مسلمًا. والقيم «الإنسانية» والأخلاق «الإنسانية» ليست مسألة غامضة ولا مائعة، وليست كذلك قيمًا وأخلاقًا متغيرة لا تستقر على حال كما يزعم الذين يريدون أن يشيعوا الفوضى في الموازين، فلا يبقى هنالك أصل ثابت يرجع إليه في وزن ولا تقييم.. إنها القيم والأخلاق التي تنمي في الإنسان «خصائص الإنسان» التي ينفرد بها دون الحيوان، وتُغلِّب فيه هذا الجانب الذي يميزه ويجعل منه إنسانًا. وليست هي القيم والأخلاق التي تنمي فيه الجوانب المشتركة بينه وبين الحيوان.. وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم وثابت، لا يقبل عملية التمييع المستمرة التي يحاولها «التطوريون»! عندئذٍ لا تكون هناك أخلاق

زراعية وأخرى صناعية، ولا أخلاق رأسمالية وأخرى اشتراكية، ولا أخلاق صعلوكية وأخرى برجوازية! لا تكون هناك أخلاق من صنع البيئة ومن مستوى المعيشة، على اعتبار أن هذه العوامل مستقلة في صنع القيم والأخلاق والاصطلاح عليها، وحتمية في نشأتها وتقريرها.. إنما تكون هناك فقط «قيم وأخلاق إنسانية» يصطلح عليها المسلمون في المجتمع المتحضر، «وقيم وأخلاق حيوانية» - إذا صح التعبير - يصطلح عليها الناس في المجتمع المتخلف.. أو بالاصطلاح الإسلامي: تكون هناك قيم وأخلاق ربانية إسلامية؛ وقيم وأخلاق رجعية جاهلية!

إن المجتمعات التي تسود فيها القيم والأخلاق والنزعات الحيوانية لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة، مهما تبلغ من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي»[(١)].

❑ ❑ ❑

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٢٥٨.

المبحث الخامس

ميزان التجديد والتغيير

إن مصطلحي التجديد والتغيير اليوم يُعدان من المصطلحات الشائعة التي تتردد على ألسنة كثير من الباحثين والمثقفين، أيًا كان منشأ هذه الثقافة، أهي إسلامية، أم غربية مادية. وهما من المصطلحات الحمَّالة الغامضة، المثقلة بالدلالات المتنوعة والمختلفة، بل والمتناقضة أحيانًا.

وإن أخطر ما في هذين المصطلحين ذلك التلبيس والتضليل الذي يقوم به اليوم بعض العصرانيين، ومن يسمون أنفسهم بالتجديديين، من تغيير لأصول هذا الدين وثوابته بحجة التجديد والتغيير الذي تقتضيه ظروف العصر ومتغيراته.

ولتجلية حقيقة مفهوم التجديد والتغيير، وكشفًا للتلبيس والتدليس الذي يمارسه الملبسون حول هذين المصطلحين نقف للتعرف على ميزان الله ﷻ للتجديد كما جاء في شريعة الإسلام.

ولكي يظهر لنا جمال هذا الميزان وحسنه يحسن قبل ذلك أن نتعرف على موازين الجاهلية لهذين المصطلحين؛ وذلك لأن الحسن يُظْهِر حسنَه الضدُ.

من موازين الجاهلية للتجديد والتغيير:

أولًا: يستعمل دعاة التجديد الجاهلي هذا المصطلح جسرًا ووسيلة لتمرير أفكار معينة، ورؤى محددة، وتحيزات فكرية وعملية معروفة، يسعون لفرضها بشكل خفي أو جلي على مجتمعات المسلمين، كما أنهم يستخدمونه للتهوين من بعض أصول هذا الدين بحجة التجديد والتغيير، وإيهام الناس بأن

سنة التغيير لا يقف أمامها شيء؛ بما في ذلك أصول هذا الدين وقيمه وأخلاقه.

ثانيًا: ومن الملاحظ على تجديد القوم ودعوتهم إلى التغيير أنهم ينشطون ويزداد حضورهم كلما ألمت بالأمة ملمة، أو نزلت بهم نازلة، وبخاصة حينما يُنْزِل العدو الكافر بوارجه وطائراته في بلد من بلدان المسلمين؛ كما هو الحال في الغزو الأمريكي للعراق وبلاد الأفغان؛ حيث يسخر آلته العسكرية والإعلامية والسياسية في طرح هذا المفهوم الجاهلي، ويستخدم وكلاءه من المنافقين في تنفيذ أفكاره.

ويُصور لنا سيِّد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ حال البشرية حين تنطلق من دون ضابط من شرع ولا دين، وإنما من أهوائها وموازينها الجاهلية، فيقول: «والعاقل الواعي الذي لم يأخذه الدوار الذي يأخذ البشرية اليوم، حين ينظر إلى هذه البشرية المنكودة يراها تتخبط في تصوراتها، وأنظمتها، وأوضاعها، وتقاليدها، وعاداتها، وحركاتها كلها، تخبطًا كالممسوس. تراها تغير أزياءها في الفكر والاعتقاد، كما تغير أزياءها في الملابس وفق أهواء بيوت الأزياء.

وتنظر إلى وجوه الناس، ونظراتهم، وحركاتهم، وأزيائهم، وأفكارهم، وآرائهم، ودعواتهم؛ فيخيل إليك أنهم هاربون! مطاردون! لا يلوون على شيء، ولا يتثبتون من شيء! ولا يتريثون ليروا شيئًا ما رؤية واضحة صحيحة، وهم هاربون فعلًا! هاربون من نفوسهم التي بين جنوبهم! هاربون من نفوسهم الجائعة القلقة الحائرة التي لا تستقر على شيء ثابت، ولا تدور على محور ثابت، ولا تتحرك في إطار ثابت. والنفس البشرية لا تستطيع أن تعيش وحدها شاذة عن نظام الكون كله. ولا تملك أن تسعد وهي هكذا شاردة تائهة، لا تطمئن إلى دليل هاد، ولا تستقر على قرار مريح!

وحول هذه البشرية المنكودة زمرة من المستنفعين بهذه الحيرة الطاغية، وهذا الشرود القاتل.. زمرة من المرابين، ومنتجي السينما، وصانعي الأزياء والصحفيين، والكتاب.. يهتفون لها بالمزيد من الصرع والتخبط والدوار،

كلما تعبت وكلَّت خطاها، وحنَّت إلى المدار المنضبط والمحور الثابت، وحاولت أن تعود!

زمرة تهتف لها: التطور.. الانطلاق.. التجديد.. بلا ضوابط ولا حدود، وتدفعها بكلتا يديها إلى المتاهة كلما قاربت من المثابة؛ باسم التطور، وباسم الانطلاق، وباسم التجديد.

إنها الجريمة؛ الجريمة المنكرة في حق البشرية كلها، وفي حق هذا الجيل المنكود»(١).

ثالثًا: يمكن تصنيف الناس إزاء قضية التغيير والتجديد التي تُروِّج لها أمريكا بعد أحداث ١١/ ٩/ ٢٠٠١م إلى المواقف التالية:

١ ـ الموقف العلماني:

«حيث وجد هؤلاء في الأمريكي فرصة كبيرة لا بد من اهتبالها لإيجاد التغيير وفق المنظومة المعيارية والرؤية الفكرية والخصائص النفسية الغربية الحديثة، والتي تفترض وجود عقل مستقل تمامًا، وإنسان حر هو إله نفسه، يضع لها النظم والقوانين المناسبة له، والمحققة لحريته المنفكة من جميع الصلات الدينية والأخروية، سواء على مستوى النظم والعلاقات عند من يوصفون بالاعتدال من العلمانيين، أو على جميع المستويات عند غلاة العلمانيين. وأصحاب هذا الاتجاه يرون في الإنسان بوضعه وتركيبه المادي المرجعية النهائية الأولى والأخيرة، ومن ثَمَّ من حقه وحده أن يرسم صورة (**التغيير**) الذي يريد؛ وفق عقد اجتماعي معين هو في حد ذاته مرجعية نهائية مستقلة عن الدين والوحي.

ولعل من أهم تبريرات هذه النزعة: الإصرار على قضية (الصيرورة الدائمة)؛ والتي تعني أن الحياة والأحياء والنظم والأخلاق في تغير مستمر. وفكرة الصيرورة هذه فكرة مرجعية ثابتة لدى التيار العلماني

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ص٩٠ ـ ٩٣.

والحداثي؛ تظهر بشكل واضح في بعض الكتابات الأدبية والنقدية والفكرية المتطرفة، ولكنها كامنة بشكل دائم في معظم الأفكار، والأطروحات العلمانية»[١].

٢ ـ الموقف العصراني:

وهو الموقف المتقبل لقضية التغيير، بل المعتنق لها مع شيء من التحفظ. وهؤلاء يؤمنون بالإسلام، لكن بطريقة عصرانية تأتي تحت مسميات مختلفة: تارة باسم العقلانية الإسلامية، وتارة المسلم المعاصر، وتارة الوسطية العصرانية، إلى آخر ما هنالك من المسميات.

وهم على درجات مختلفة؛ فبعضهم يعيش على تخوم الأفكار العلمانية؛ فهو متأثر بها بحكم عدوى المجاورة، وبعضهم يبتعد موطنه العصراني عن حدود العلمانية قليلًا أو كثيرًا.

ومن سمات هؤلاء: السيولة العامة في مقابل ما يسمونه الصلابة التي يُظهرون التذمر منها، ويوجهون إليها سهام نقدهم، وهم يعيشون مرحلة تحولات مربكة؛ فلديهم الانتماء للأمة ودينها وتاريخها على الجملة، فهم من هذه الجهة متصلون بها، ولديهم انفصال عن بعض مقومات الأمة، ونفور عمَّا يسمونه الأصولية الحرفية، أو النصية، والتفسيرات التراثية للوحي، وقوانين النظر والاستدلال، واليقينية، والأبوية، والنقل، والمبدأ الواحد، والفرقة الناجية، والولاء والبراء.

ولديهم مشكلة كبيرة في المعيارية: من أين تُستمد؟ أمِنَ النص المعصوم؟ أم من العقل؟ أم من الأسلاف؟ أم من المادة؟

كما أن جملة من أصحاب هذا الموقف تأثر بحكم المخالطة الفكرية والثقافية بفكرة (الصيرورة الدائمة) التي هي أصل من أصول التفكير العلماني والحداثي.

---

(١) التغيير مطلب أم مذهب، د. سعيد بن ناصر الغامدي، مجلة البيان، العدد ١٨٨.

وبالجملة؛ فإن كثيرًا من أصحاب هذا الاتجاه يتركون حيزًا واسعًا للقيم الإنسانية والأخلاقية المطلقة، بل للقيم الدينية ما دامت لا ترى واحدية المنهج، أو تعتقد الصفاء، أو نجاة طائفة معينة، ولديهم قابلية شديدة لدعوة التغيير التي يرون فيها جسرًا يقودهم إلى الضفة الأخرى، والتي يحلمون أن تكون فيها أدوات التحضر والنهضة.

هناك قاسم مشترك بين هؤلاء والصنف الذي قبله؛ وهو شغفهم بالتغيير، وانفتاحهم نحوه، واستهدافهم جميعًا «المنهج»، غير أن الصنف الأول يستهدف (المنهج العام)؛ الإسلام بعمومه وشموله وكماله، والصنف الثاني يستهدف (المنهج الخاص)؛ منهج أهل السنة والجماعة على وجه الخصوص...

إن التغيير بالصيغة الأمريكية والعلمانية عملية شاملة، بل مذهب متبع، ودعاة التغيير المتناغمون مع الطرح الأمريكي معروفون، ليس فيهم من يوثق بعلمه الشرعي، ولا حميته الإيمانية، ولا الفهم الجيد، ولا العلم الصحيح، ولا الإدراك المتكامل، بل فيهم من أهل الأهواء والأمراض الفكرية ما يستوجب الحجر عليه حتى الشفاء من دائه»[1].

رابعًا: ومن سمات الموازين الجاهلية للتجديد والتغيير: كثرة طرحهم لمصطلح: (**تجديد الخطاب الديني**). هذا المصطلح الغامض المحتمل للحق والباطل، وهو عند دعاة العصرنة يستخدم في الباطل الذي هو تفريغ الخطاب الديني من مضامينه وأصوله، ويستبدلون بهذه المضامين والأصول تمييع الأحكام، ويبرزون لغة المداهنة، وإرضاء الكافر وعدم إزعاجه وإسخاطه بأساليب البراءة والعداوة والجهاد.

وعن الحملة التي تدعو إلى (تجديد الخطاب الديني) يقول الأستاذ خالد أبو الفتوح: «نشير إلى بعض الملامح التي لوحظت على هذه الحملة، وهي في نظري ما يأتي:

---

(١) التغيير مطلب أم مذهب، د. سعيد بن ناصر الغامدي، مجلة البيان، العدد ١٨٨.

• أن هذه الدعوات ظهرت في البلاد التي يقوى فيها النفوذ الأمريكي مع وجود نشاط ملحوظ في البلدان التي تعد تاريخيًا مرجعيات العالم الإسلامي.

• وأنها جاءت اتساقًا مع خطة تطوير مناهج التعليم التي أملتها وأوعزت بها قوى خارجية معينة، مستغلة أحداثًا وظروفًا معروفة، فجاءت هذه الحملة استكمالًا لمخطط إعادة تشكيل العقلية المسلمة.

• الالتباس المتعمد في هذه الدعوة؛ فعلى عادة العلمانيين والتغريبيين في الإيهام والغموض عندما يتعلق الأمر بخطوة يصعب على الجماهير هضمها، تجيء الدعوة إلى تجديد الخطاب الديني؛ فكلمة (**الخطاب**) تحتمل أن يكون المقصود بها (**مضمون**) الخطاب ومحتواه، ولا شك أن مقصود مروجي هذه الدعوة هو تجديد مضمون الخطاب الديني؛ أي: (**تجديد**) القيم والتصورات والمبادئ التي يحتويها هذا الخطاب. ولا يخفى على القارئ ما تتضمنه كلمة (**تجديد**) من معانٍ تشمل كون هذه القيم والمبادئ والتصورات أصبحت بالية ولا تصلح لهذا العصر؛ ففي معرض إيضاحه للمقصود بكلمة (**الخطاب**) يذكر الكاتب أحمد عبد المعطي حجازي: «أن هذا العصر الذي نعيش فيه هو عصر العلم الذي نرجع إليه في كل أمر من أمور حياتنا، أو أن هذا ما ينبغي أن نفعله، فنقرأ، ونفهم، ونناقش، ونجرب، ونحلل، ونقارن لنعرف الأسباب، ونتوقع النتائج، ونفسر ما يحدث في الطبيعة والنفس، والجسم والمجتمع.

نعرف الآن مثلًا أن الزلزال يقع نتيجة لتصدع طبقات الأرض وتحركها، وليس لأن المدن شريرة أو لأن الآلهة ثائرة غضبَى، ونعرف أن الجنون مرض يصيب العقل وله أسباب مختلفة وصور شتى وطرق في العلاج تتعدد بتعدد أسبابه وأنواعه، وليس حلولًا لجن أو لشيطان في جسد المريض كما كان يعتقد الناس من قبل، وكما يعتقد كثيرون منهم حتى اليوم، وهذا هو الخطاب الذي يتفق مع روح العصر؛ لأنه يتفق مع العلم، أي مع العقل والتجربة، ونحن إذن أمام مصدرين للمعرفة:

ـ العقل الذي نفسر به الظواهر، ونتتبع به التحولات، وننتقل من السبب إلى النتيجة، فيبدو لنا العالم مفهومًا، ونشعر بقدرتنا على التحكم فيه والسيطرة عليه.

ـ النص الذي يعتقد النصوصيون الحرفيون فئران الكتب وحفارو القبور أنه علم سابق على كل علم، وأن كل معرفة جديدة صادرة عنه ومتضمنة فيه؛ فالأسلاف لم يتركوا شيئًا للأخلاف، ولا جديد تحت الشمس!» (الأهرام المصرية ٢٣/ ٧/ ٢٠٠٣م).

ولكن غموض هذا العنوان ـ **(تجديد الخطاب الديني)** ـ في دعوته إلى هدم القيم والثوابت والتصورات الإسلامية واستبدالها أفادهم فوق التعمية على مقصدهم الحقيقي تورط بعض المنتسبين إلى الدعوة الإسلامية من علماء أو دعاة في الترويج لها؛ ظنًا منهم أن المقصود هو تجديد الوسائل والأساليب. وهذا تورط أعطى غطاءً مناسبًا لأصحاب الدعوة الأصليين من متبجحي العلمانيين، حتى وإن همش فيما بعد هؤلاء العلماء والدعاة.

• تشابه مفردات هذا الخطاب عند الدعاة (البروتستانت) مع القضايا التي أثارها العلمانيون، التي تتفق بدورها مع أهداف مبادرة باول، وقد تمثلت هذه المفردات في:

١ ـ إعلاء قيمة العقل والمصلحة بمعناهما الوضعي والمادي على النص الشرعي.

٢ ـ تغليب المادي والمشاهد على العاطفي والغيبي.

٣ ـ مسايرة الأحداث والخضوع لها باسم التواكب مع العصر.

٤ ـ غلبة الخطاب الدفاعي والانهزامي بدعوى دفع التهم، وخاصة الإرهاب وهضم حقوق الإنسان عن الإسلام، مع التركيز في هذا الخطاب على تناول قضايا المرأة والأسرة، والمرتد وحرية العقيدة.

٥ ـ التأكيد على أهمية الديمقراطية، والمشاركة الشعبية، وإظهار الفئات المهمشة، وإبراز مكانتها في الإسلام.

٦ ـ تلطيف الموقف مع الآخر، بإعادة تشكيل بعض المفاهيم ذات العلاقة به ـ بدءًا من التكفير، ومرورًا بالولاء والبراء، ووصولًا إلى الجهاد ـ مع التأكيد على ضرورة التواصل مع هذا الآخر، وخاصة الغرب.

٧ ـ تحويل الخطاب الديني الإسلامي (الدعوة الإسلامية) إلى مجرد إحدى مفردات وسائل دعم سياسات الدولة المحلية ومواقفها الخارجية.

• تشابه بعض الأساليب المتبعة في نشاطات تجديد الخطاب الديني مع الأساليب السياسية الأمريكية في تحويل الاتجاهات والميول؛ وذلك عن طريق المشاركة في أنشطة ودورات تعقد في أمريكا، والعمل على تذويب الفوارق النفسية والفكرية بين أصحاب الاتجاهات المختلفة ـ خاصة العقائدية ـ بالمخالطة والمعايشة اليومية فيما بينهم؛ فعلى سبيل المثال: كان أول برنامج ينفذ برعاية مبادرة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط برنامجًا بعنوان (النساء كقادة سياسيين: الانتخابات الأمريكية والحملات السياسية)، وقد جلب البرنامج وفدًا من ٥٥ زعيمة سياسية عربية، ما بين مسؤولات منتخبات ومعينات، ومرشحات لمناصب، وناشطات في الدفاع عن حقوق المرأة، وقادة مجتمعات مدنية، وصحفيات.

وفي المقابل يتضمن مشروع خطة تطوير الخطاب الديني في مصر والدول العربية دورات تدريبية مكثفة في القاهرة وواشنطن؛ حيث من المقرر أن يلتحق بدورات واشنطن ما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ من الدعاة، وذلك بعد الانتهاء من الدورات التدريبية في مصر، وفي هذا الإطار كانت وزارة الأوقاف قد انتهت من دورة أخرى لعدد من الدعاة بالاشتراك مع الهيئة الإنجيلية بالقاهرة.. كانت مدتها أكثر من ٦ شهور؛ حيث تم اختيار الدعاة بدقة متناهية للإقامة في أحد فنادق القاهرة بمشاركة عدد مماثل من القساوسة، وكان نظام الدورة يعتمد على ورش عمل بين الأئمة والقساوسة لإعداد أبحاث علمية في قضايا شتى، ثم مناقشتها مع الخبراء والمفكرين الليبراليين؛ وذلك بهدف كسر الحاجز الديني، وتغيير الفكرة الذهنية عن الآخر من خلال المشاركة بين القس والخطيب، ومن ثم فإن النتيجة من هذه المشاركة ستكون في صالح الإدارة

الأمريكية، على اعتبار أنها الموجه الرئيسي لهذه الأفكار.

ومن وجهة نظر الإدارة الأمريكية فإن مثل هذه الدورات ـ ومن خلال مشاركة عدد من رجال الدين الكبار، الذين يرفضون الإرهاب، ولديهم تفسير عقلاني للدين ـ تسعى لترسيخ مفردات الخطاب الديني الجديد، وليس موضوعاته فقط، خاصة ما ورد في القرآن أو السنة؛ لأنه وفق رؤيتهم فإن هذه المفردات هي التي تشكل السلوك العام والتفصيلي الذي يلتزم به الأفراد (مصطفى سليمان، جريدة الأسبوع، ١٦/٦/٢٠٠٣م).

هل ينجحون؟ لا شك أن تحقق ذلك، أو عدم تحققه يتوقف على عوامل كثيرة خارجية وداخلية، ولكن ما يعنينا أن في قلوب القوم أماني سادرة تبدو على ألسنتهم، وفي كتاباتهم من حين لآخر، كما أن في أذهانهم أهدافًا محددة تشير إليها مخططاتهم وأنشطتهم، ومن غير المبالغ فيه القول إن من أماني أئمتهم: محو القرآن من الوجود، ولعلمهم باستحالة ذلك فإنهم يعملون على تحقيق أهداف يظنون تحقيقها ممكنًا، وعلى رأس هذه الأهداف: تحريف المعاني القرآنية، وتفريغ القرآن من أهدافه ورسالته، وإبعاد المسلمين عن تدبر القرآن والعمل به؛ أي أنهم يريدون أن يتحول القرآن إلى حبر على ورق كما يقولون، والله من ورائهم محيط.

وحتى لا نخدع أنفسنا فإنه يجب التنبيه إلى أن تحقيقهم لهذه الأهداف أو بعضها في عالم الواقع ليس مستحيلًا شرعًا أو عقلًا، فالله ﷻ تعهَّد بحفظ الذكر، ولكنه لم يتعهَّد بحفظ معانيه في عقول المسلمين وقلوبهم.

فالفيصل في المحافظة على المعاني والقيم والتصورات الإسلامية صحيحة في عقول المسلمين وقلوبهم وحياتهم هو مدى تحقيق أهل الحق لسنة التدافع مع الأطراف الأخرى، وهذا يتطلب يقظة وجهدًا ونشاطًا وعملًا دؤوبًا ومنظمًا من جميع الأفراد.

والذي أراه أن الظرف الذي تمر به الأمة يتطلب فوق اليقظة والنشاط حلولًا غير تقليدية لاستنفار جموع الأمة، واستخراج القوى الكامنة في

قطاعاتها الشعبية، بعد أن رفعت معظم الأنظمة جميع الرايات البيضاء التي في حوزتها، حتى إنهم رفعوا أخيرًا ما كانوا يسترون به عوراتهم أمام شعوبهم. نسأل الله ﷻ أن ينصر دينه ويعلي كلمته»(١).

وبقي الموقف الشرعي إزاء التغيير والتجديد، وهو ما سأبينه في الفقرة التالية:

ميزان الله ﷻ للتجديد والتغيير:

يمكن أن يتبيَّن لنا هذا الميزان من خلال النقاط التالية:

أولًا: إن هذا الميزان الإلهي ينطلق من أن دين الله ﷻ ـ الذي هو الإسلام ـ إنما هو من عند الله ﷻ، العالم بما كان وما سيكون، المبرء من الجهل والهوى والنقص، الحكيم الكامل في حكمته، البر الرحيم الكامل في رحمته وبره. وبناء على هذا فإنه هو الدين الصالح لكل زمان ومكان، مهما تغيَّرت الظروف والأحوال والأشخاص والمكان والزمان.

ولكن ما هو هذا الدين؟ وما خصائصه؟

ـ إنه الدين الذي جاء به محمد ﷺ عقيدة وأحكامًا وأخلاقًا، وليس الدين المغير أو المبدل أو المحرف أو المؤول أو الذي تتبناه فرق وطوائف منحرفة عن الإسلام.

ـ إنه الدين الذي جاء من عند الله ﷻ، المتصف بصفات: الثبات، والشمول، والتوازن، والكمال، والعدل، والخيرية؛ ولذا كان من أبرز سماته أنه صالح لكل زمان ومكان؛ صالح لزمان الصحابة ﷺ، وصالح للأزمنة التي جاءت بعدهم، وصالح لزماننا، ولمن يأتي بعدنا حتى تقوم الساعة.

ثانيًا: إن عظمة هذا الميزان وجماله تتجلى أكثر ما تتجلى في تمسكه بالأصول التي لا تقبل النقض، ولا التجاوز، ولا التغيير. وما سوى الأصول من الفروع المتجددة والنوازل المتغيرة تظهر مرونة العقل واجتهاده فيها حسب

---

(١) مجلة البيان، العدد ١٦٠.

الأحوال والأمكنة والأزمنة، منطلقًا في اجتهاداته من المقاصد والأصول، والثوابت المقررة في الشريعة الإسلامية.

وليس التمسك بالثوابت جمودًا، ولا تحجرًا، بل هو إقرار واقعي بآدمية الآدمي وبشريته، وقصور عقله ومحدوديته، وربوبية الرب ﷻ، وكمال علمه وحكمته وعظمته وعدله وبره ورحمته.

ثالثًا: يستعرض سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ بعض الثوابت التي لا تقبل التغيير ولا التجديد إلا أن يكون التجديد رد الناس إليها بعد ضلالهم عنها، وإزالة الركام والغبار الذي شوهها لتعود كما أنزلت من عند الله ﷻ؛ فهذا تجديد مقبول، بل واجب ومطلوب؛ فمن هذه الثوابت قوله: «إن كل ما يتعلق بالحقيقة الإلهية ـ وهي قاعدة التصور الإسلامي ـ ثابت الحقيقة، وثابت المفهوم أيضًا، وغير قابل للتغير ولا للتطوير:

• حقيقة وجود الله وسرمديته، ووحدانيته، وقدرته، وهيمنته، وتدبيره لأمر الخلق، وطلاقة مشيئته... إلى آخر صفات الله ﷻ وآثارها في الكون والحياة والناس.

• وحقيقة أن الكون كله ـ أشياءه وأحياءه ـ من خلق الله وإبداعه. أراده الله ـ سبحانه ـ فكان، وليس لشيء ولا لحي في هذا الكون أثارة من أمر الخلق في هذا الكون، ولا التدبير ولا الهيمنة، ولا مشاركة في شيء من خصائص الألوهية بحال.

• وحقيقة العبودية لله؛ عبودية الأشياء والأحياء.. وعموم هذه العبودية للناس جميعًا ـ بما فيهم الرسل عليهم الصلاة والسلام ـ عبودية مطلقة، لا تتلبس بها أثارة من خصائص الألوهية، مع تساويهم في هذه العبودية.

• وحقيقة أن محمد رسول الله، وأن القرآن الذي أنزل عليه كلام الله ووحيه، وأنه والسنة مصدرا التلقي والتشريع.

• وحقيقة أن الإيمان بالله ـ بصفته التي وصف بها نفسه ـ وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ شرط لصحة الأعمال

وقبولها، وإلا فهي باطلة من الأساس، غير قابلة للتصحيح، مردودة غير محتسبة وغير مقبولة.

• وحقيقة أن الدين عند الله الإسلام، وأن الله لا يقبل من الناس دينًا سواه، وأن الإسلام معناه إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية وكل خصائصها، والاستسلام لمشيئته، والرضا بالتحاكم إلى أمره ومنهجه وشريعته، وأنه هذا هو دينه الذي ارتضاه، لا أي دين سواه.

• وحقيقة أن الإنسان ـ بجنسه ـ مخلوق مكرم على سائر الخلائق في الأرض، مستخلف من الله فيها، مسخر له كل ما فيها. ومن ثم فليست هناك قيمة مادية في هذه الأرض تعلو على قيمة هذا الإنسان، أو تهدر من أجلها قيمته.

• وحقيقة أن الناس من أصل واحد. ومن ثم فهم ـ من هذه الناحية ـ متساوون، وأن القيمة الوحيدة التي يتفاضلون بها ـ فيما بينهم ـ هي التقوى والعمل الصالح؛ لا أية قيمة أخرى من: نسب، أو مال، أو مركز، أو طبقة، أو جنس.. إلى آخر القيم الأرضية.

• وحقيقة أن غاية الوجود الإنساني هي العبادة لله؛ بمعنى العبودية المطلقة لله وحده، بكل مقتضيات العبودية، وأولها الائتمار بأمره وحده في كل أمور الحياة ـ صغيرها وكبيرها ـ والتوجه إليه وحده بكل نية، وكل حركة، وكل خالجة، وكل عمل. والخلافة في الأرض وفق منهجه ـ أو بتعبير القرآن وفق دينه ـ إذ هما تعبيران مترادفان عن حقيقة واحدة.

• وحقيقة أن رابطة التجمع الإنساني هي العقيدة، وهي هذا المنهج الإلهي؛ لا الجنس، ولا القوم، ولا الأرض، ولا اللون، ولا الطبقة، ولا المصالح الاقتصادية أو السياسية، ولا أي اعتبار آخر من الاعتبارات الأرضية.

• وحقيقة أن الدنيا دار ابتلاء وعمل، وأن الآخرة دار حساب وجزاء، وأن الإنسان مبتلى وممتحن في كل حركة، وفي كل عمل، وفي كل خير يناله

أو شر، وفي كل نعمة وفي كل ضر، وأن مرد الأمور كلها إلى الله.

هذه وأمثالها من المقومات والقيم كلها ثابتة، غير قابلة للتغير ولا للتطور؛ ثابتة لتتحرك ظواهر الحياة وأشكال الأوضاع في إطارها، وتظل مشدودة إليها، ولتراعي مقتضياتها في كل تطور لأوضاع الحياة، وفي كل ارتباط يقوم في المجتمع، وفي كل تنظيم لأحوال الناس أفرادًا وجماعات، في جميع الأحوال والأطوار.

وقيمة وجود تصور ثابت للمقومات والقيم على هذا النحو هي ضبط للحركة البشرية والتطورات الحيوية؛ فلا تمضي شاردة على غير هدى؛ كما وقع في الحياة الأوروبية عندما أفلتت من عروة العقيدة الحقة، فانتهت إلى تلك النهاية البائسة، ذات البريق الخادع واللألأ الكاذب، الذي يخفي في طياته الشقوة والحيرة والنكسة والارتكاس.

وقيمته هي وجود الميزان الثابت الذي يرجع إليه «الإنسان» بكل ما يعرض له من مشاعر وأفكار وتطورات؛ وبكل ما يجدُّ في حياته من ملابسات وظروف وارتباطات؛ فيزنها بهذا الميزان الثابت ليرى قربها أو بعدها من الحق والصواب، ومن ثم يظل دائمًا في الدائرة المأمونة، لا يشرد إلى التيه الذي لا دليل فيه من نجم ثابت، ولا من معالم هادية في الطريق!

وقيمته هي وجود مقوِّم للفكر الإنساني؛ مقوِّم منضبط بذاته، يمكن أن ينضبط به الفكر الإنساني؛ فلا يتأرجح مع الشهوات والمؤثرات. وإذا لم يكن هذا المقوم الضابط ثابتًا، فكيف ينضبط به شيء إطلاقًا إذا دار مع الفكر البشري كيفما دار، ودار مع الواقع البشري كيفما دار؟! فكيف تصبح عملية الضبط ممكنة وهي لا ترجع إلى ضابط ثابت يمسك بهذا الفكر الدوَّار؟ أو بهذا الواقع الدوَّار؟!

إنها ضرورة من ضرورات صيانة النفس البشرية والحياة البشرية أن تتحرك داخل إطار ثابت، وأن تدور على محور لا يدور! إنها على هذا النحو تمضي على السُّنَّة الكونية الظاهرة في الكون كله، والتي لا تتخلف في جرم من الأجرام!

إنها ضرورة لا تظهر كما تظهر اليوم، وقد تركت البشرية هذا الأصل الثابت، وأفلت زمامها من كل ما يشدها إلى محور؛ أصبحت أشبه بجرم فلكي خرج من مداره، وفارق محوره الذي يدور عليه في هذا المدار. ويوشك أن يصطدم فيدمر نفسه ويصيب الكون كله بالدمار.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]»(١).

رابعًا: وبناء على هذه الأصول وأمثالها فإن أي متغير يحدث فلا بد أن يكون منطلقه من هذه الأصول لا يخرج عن إطارها.

ويوضح هذه المسألة الشيخ عبد الرحمٰن المحمود ـ حفظه الله تعالى ـ فيقول: «ولما نقول الكتاب والسنة وما يترتب عليهما من الإجماع هو من الثوابت، فهذه قضية كبيرة جدًا تتعلق بأي منهجية لمعالجة وضع من الأوضاع، ومِنْ هنا فإنه مهما كان، ومهما وقع من متغيرات في كلام الناس أو اجتهاداتهم أو غير ذلك، فسيبقى في كل لحظة، في كل زمن كتاب الله وسنة رسوله معلمان منيران مضيئان بارزان، يرجع إليهما الناس، وعلى هذا فلا يمكن لأحد أن يلغي ـ مهما كان ـ هذين الأصلين الثابتين.

بمعنى: أنه قد يأتي في زمن ما يقال: إن تلك الواقعة الفلانية، والمتغير الفلاني قد أفتى العالم الفلاني وقال فيه: كذا، وكذا!

إنه لا يُمكن أن تكون فتوى العالم الفلاني، أو اجتهاده بديلًا عن الكتاب والسنة.

فلو قيل إن الطائفة الفلانية صار من عقيدتها كذا، وكذا في باب ـ مثلًا ـ الإيمان بالصحابة، أو الإيمان بالقدر، أو الإيمان بالملائكة، ونشرت ذلك وانتشر بين الناس، فإنه لا يمكن أن تتحول عقيدتها ـ هذه ـ إلى أن تكون أصلًا.

---

(١) خصائص التصور الإسلامي، ص٨٥ ـ ٨٩ باختصار، وتصرف يسير.

فالأصل يرجع إلى الكتاب والسنة، لذلك كان الأصل الكتاب والسنة، ومن ورائهما الإجماع الذي ينبني على دليل.. هذه ثابتة لا يمكن أن تتغير مع تغير الزمان والمكان، وهذا من حفظ هذا الدين.

لا يمكن لأحد أن يقول: هذا القرآن لا يصلح الآن؛ لأن فيه شدة في العلاقة مع الكفار! كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وشهادة أن محمدًا رسول الله وما تقتضيها هذه الشهادة أمر ثابت، فلو جاءت متغيرات لتقول: لا؛ هذه الشهادة تكون لبعض المسلمين، أو للمسلمين لكن يمكن أن يكون هناك أناس مؤمنون موحدون عابدون لله، يخشعون ويبكون ولكنهم لا يشهدون أن محمدًا رسول الله، فالمفترض أن يكون هناك متغيرات تقبل بهذا! نقول: كلا؛ شهادة أن محمدًا رسول الله ثابت لا يمكن أن يتغير أبدًا.

وعلى هذا فأي حوار بين الأديان يصل إلى مستوى الإقرار بأن من لم يؤمن بمحمد ﷺ أنه قد يكون مؤمنًا؟! فإن هذا نقض لأصل ثابت، وهذا لا يمكن أن يدخل من ضمن المتغيرات.

لا يمكن أن نقول: الآن إن الحرب عالمية في قضايا الإلحاد والماديات وغيرها؛ فينبغي أن يلتقي أهل الأديان على أي شيء، وأن يعترف بعضهم ببعض!

إن الله ﷻ قد حكم ـ حكمًا قاطعًا ـ أنه من كفر بمحمد ﷺ فقد كفر ببقية الرسل، وعلى هذا فإننا ننظر اليوم إلى اليهود والنصارى، ونقول: أي واحد من اليهود والنصارى كفر بمحمد ﷺ فكأنه كفر بموسى عليه السلام، أو بعيسى عليه السلام، كما أن واحدًا من المسلمين لو آمن بجميع الرسل وكفر بعيسى لعد عندنا كافرًا، ولو كفر بموسى لعد عندنا كافرًا؛ لأنه لا يجوز التفريق بين

الرسل كما هو مقطوع به في كتاب الله ﷻ، هذا أصل ثابت.

وهكذا في بقية أركان الإيمان؛ هذه كلها أصول ثابتة لا تقبل التغير مهما تغير الزمان والمكان»(١).

خامسًا: العقيدة والأحكام كلها من الثوابت:

يظن بعض الناس أن الثوابت إنما هي في مسائل العقيدة وأصول الأخلاق، أمَّا الأحكام الشرعية فهي متغيرة. وهذا الظن غلط كبير وضلال مبين؛ فالشريعة كلها ثابتة من عند الله ﷻ، عقيدة وأحكامًا؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨].

فلا يقبل أن يقول جاهل أو معاند: إن الربا كان حرامًا في وقت يصلح أن يكون فيه محرمًا، ولكن هذا الحكم يتغير في زماننا اليوم؛ حيث أصبح ضرورة اقتصادية، ولا مناص منه!! فنقول: كلا، بل حكم الله ﷻ في الربا ثابت لا يتغير بتغير الزمان أو المكان. وقل مثل ذلك في أحكام الله ﷻ التي دل الدليل الصحيح على ثبوتها.

ومنشأ هذا الظن الفاسد عند هؤلاء: فهمهم الخاطئ للقاعدة الشرعية التي تقول: «إن الفتوى قد تتغير بتغير الأحوال والأزمان والأمكنة والأشخاص»، أو أنهم يفهمون معناها ولكنهم يغالطون في فهمها، ويلبسون على الناس بتحريفها بقولهم: (إن **الأحكام** تتغير بتغير... إلخ) بدل (إن **الفتوى**...). والفهم الصحيح لهذه القاعدة الشريفة ينبع من معرفة الميزان الإلهي المستقيم للتغيير؛ ذلك أن أحكام الله ﷻ ثابتة لا تتغير، وإنما تتغير الفتوى بها حسب اختلاف الأحوال والأزمنة والأمكنة. وهذه القاعدة مبنية على قواعد شرعية محكمة، مثل: قاعدة سد الذرائع، وقاعدة العادة محكمة، وغيرها من القواعد المستنبطة من الأدلة الشرعية الكثيرة، وإنها لا تعني البتة

(١) عن مقال: الثوابت والمتغيرات في موقع شبكة نور الإسلام.

تغيير أحكام الله تعالى وتبديلها؛ فإن هذا لا يكون إلا بالنسخ، والنسخ أغلق بابه بموت النبي ﷺ. ثم إنه لا بد لمن يطبق هذه القاعدة أن يكون من أهل العلم الراسخين، لا من أهل الأهواء الملبسين.

ومن المهم التنبيه إلى الفرق بين تغير الفتوى وتغير الحكم. فتغير الحكم لا يكون أبدًا؛ أما تغير الفتوى فيكون بمراعاة المفتي لحال الشخص، أو الزمان، أو المكان، أو بعض الموانع، أو عدم توفر الشروط في المسألة المستفتى عنها. وفي هذه الحالة تكون الفتوى متوافقة مع الحكم؛ لأن الحكم لا يطبق إلا إذا توافرت شروطه وانتفت موانعه. والأمثلة التالية توضح هذه المسألة:

١ ـ المثال على تغير الفتوى بتغير الأمكنة:

وذلك فيما يتعلق بإنكار المنكر؛ فالمكان الذي سيترتب على إنكار المنكر فيه منكر أكبر منه يحرم الإنكار فيه، بينما المكان الذي يزول فيه المنكر بالكلية دون أي مفسدة، أو أنه يزول لكن سيترتب على ذلك منكر آخر أخف منه، فإنه حينئذٍ يجب الإنكار فيه.. وهكذا فإن الفتوى تتغير حسب ظروف المكان.

٢ ـ المثال على تغير الفتوى بتغير أحوال الأشخاص:

يجوز بيع العنب للناس، إلا إذا تحققنا أن من يشتريه سيصنعه خمرًا، فلا يجوز حينئذٍ، ومثل ذلك بيع السلاح لمن يشارك به في حرب المسلمين أو حروب الفتن، فإن ذلك لا يجوز، ومثل ذلك تأجير بيت أو محل لمن يغلب على الظن أنه سيستخدمه في الفساد ونشره؛ فإن ذلك لا يجوز، وما سوى ذلك فجائز لأن الأصل الجواز.

٣ ـ المثال على تغير الفتوى بتغير العوائد والأعراف:

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «مما تتغير به الفتوى لتغير العرف والعادة: موجبات الأيمان والإقرار والنذور وغيرها؛ فمن ذلك: أن الحالف إذا حلف: لا أركب دابة وكان في بلد عرفهم في لفظ الدابة: الحمار خاصة؛

اختصت يمينه به ولا يحنث بركوب الفرس، ولا الجمل.

وكذلك إذا حلف: لا أكلت رأسًا في بلد عادتهم أكل رؤوس الضأن خاصة، لم يحنث بأكل رؤوس الطير والسمك ونحوها، وإن كان عادتهم أكل رؤوس السمك حنث بأكل رؤوسها»(١). إلى أن قال: «فإياك أن تهمل قصد المتكلم ونيته وعرفه، فتجني عليه، وعلى الشريعة، وتنسب إليها ما هي بريئة منه، وتلزم الحالف والمقر والناذر والعاقد ما لم يلزمه الله ورسوله به، ففقيه النفس يقول: ما أردتَ؟ ونصفُ الفقيه يقولُ: ما قلتَ؟»(٢).

سادسًا: ومن التغيير الذي يحبه الله ﷻ، والذي يجب أن يكون هو ميزاننا في التغيير: ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وهذا هو التغيير الذي يحبه الله ﷻ، وهو الذي يقوم به الإنسان ليغير به حاله وحال أمته من الإعراض عن الله ﷻ ومعصيته إلى الإقبال عليه وطاعته، وهذا النوع من التغيير الجاد هو الذي يغير الله ﷻ به حال الإنسان والأمة من حالة الشقاء والشر والمصائب إلى حالة الخير والرخاء والسعادة والطمأنينة، وأنعم به من تغيير.

سابعًا: ومما يدخل في التغيير والتجديد الذي يحبه الله ﷻ ويوفق هذه الأمة إليه: ما جاء في الحديث الصحيح: **(إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها)**(٣).

فما معنى التجديد هاهنا؟ أهو التجديد الذي يريده أهل الأهواء من العلمانيين والعصرانيين بتغيير ثوابت هذا الدين وأحكامه مما يناسب أهواءهم في هذه الأزمنة؟ كلا والله ليس هو التجديد الذي يريده الرسول ﷺ في هذا الحديث، وإنما هو كما قال أهل العلم، وأهل الرواية والدراية عن هذا الحديث؛ فعن العلقمي في شرحه: «معنى التجديد إحياء ما اندرس من العمل

---

(١) إعلام الموقعين ٣/ ٦٧، ٦٨. (٢) المصدر السابق ٣/ ٧٢.

(٣) رواه أبو داود (٤٢٧٠)، عون المعبود ١١/ ٣٨٥، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٠٦).

بالكتاب والسنة، والأمر بمقتضاهما»(١).

ونقل أيضًا في عون المعبود قوله: «وقال في مجالس الأبرار: والمراد بتجديد الدين للأمة إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما، وقال فيه: ولا يعلم ذلك المجدد إلا بغلبة الظن ممن عاصره من العلماء بقرائن أحواله والانتفاع بعلمه؛ إذ المجدد للدين لا بُدَّ أن يكون عالمًا بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة، ناصرًا للسنة، قامعًا للبدعة، وأن يعم علمه أهل زمانه. وإنما كان التجديد على رأس كل مئة سنة لانخرام العلماء فيه غالبًا، واندراس السنن وظهور البدع، فيحتاج حينئذٍ إلى تجديد الدين، فيأتي الله تعالى من الخلق بعوض من السلف؛ إما واحدًا أو متعددًا انتهى. وقال القاري في المرقاة: أي يبين السنة من البدعة، ويكثر العلم ويعز أهله، ويقمع البدعة ويكسر أهلها. انتهى.

فظهر أن المجدد لا يكون إلا من كان عالمًا بالعلوم الدينية، ومع ذلك من كان عزمه وهمته آناء الليل والنهار إحياء السنن ونشرها، ونصر صاحبها، وإماتة البدع ومحدثات الأمور ومحوها، وكسر أهلها باللسان أو تصنيف الكتب أو التدريس أو غير ذلك»(٢).

وبهذا الحديث وشرح معناه تبيَّن لنا الميزان الإلهي للتغيير والتجديد؛ ألا وهو التجديد لهذه الأمة أمر دينها بإحياء ما اندرس من السنة، ورد الناس إليها، وإزالة الركام والغبار عنها، وإماتة البدعة والدين الذي لم يشرعه الله ﷻ، ولم يشرعه رسوله ﷺ.

بدعة كفرية يجب الحذر منها:

يقول الدكتور محمد اليحيى في مقال له بعنوان: **حكاية (النص) وما وراءها**: «شاع في الكتابات العلمانية في السنوات الأخيرة إطلاق وصف **(النص)** على القرآن. فأصبحنا نسمع عبارة (النص القرآني) تتردد كثيرًا لدى من

(١) عون المعبود ١١/ ٣٨٦.

(٢) عون المعبود ١١/ ٣٩١.

يتناولون الأمور الدينية الإسلامية من ذوي المنحى العلماني، وقد يبدو لأول وهلة أن هذا المصطلح أو الوصف يستمد أصله من السياق الإسلامي المعروف حول مفهوم **(النص)**، والذي يدور حول صفات الوضوح والبيان، أو القطعية في الدلالة أو الثبوت.. ولكن القراءة المتأنية في مضامين وإيحاءات استخدام هذا الوصف والمصطلح في الكتابات العلمانية تكشف عن أن مفهوم كلمة **(النص)** عندها يختلف اختلافًا جليًا عن مفهوم الدراسات الإسلامية للكلمة، ويتصل عضويًا بالمفهوم الغربي الأصيل لهذه الكلمة. فما هي أبعاد المصطلح الأوروبي الأصل، ومضامينه وإيحاءاته التي يكرسونها؟

إن أبرز ما يميز مفهوم **(النص)** في الفكر الغربي الحديث هو: نزع القداسة، والتسوية العمياء بين جميع النصوص.. وهذا هو جوهر المدارس التي عرفت في النهضة الأوروبية...

ومن هنا: فإن الحديث عن (النص القرآني) في سياق هذه الكتابات العلمانية يلف ويدور حول قضايا بعينها، أصبحت مشهورة الآن من كثرة ترديدها واللغط حولها، وهذه هي قضايا ما يسمى بتاريخية النص القرآني؛ أي: تشكله عبر فترة تاريخية، أو خضوعه في المعنى والتفسير لاعتبارت التاريخ والعهد الذي كُتِبَ فيه هذا النص كما عبر أحد الكتاب في هذا السياق، ويرتبط بهذه القضية: ما يطرح حول نسبية المعنى القرآني، وتغيره بتغير العصور والمفسرين، كما يرتبط بها: الحديث حول (بشرية) النص القرآني، بالقول بأن القرآن قد كُتِبَ بلهجة عربية معينة، وفي عصر معين، وأنه موجه للبشر؛ ولذلك فإن الطابع البشري يغلب عليه.

وفي الخلاصة: فإن مفهوم (النص) الذي يشيع في كتابات العلمانيين الآن في بلادنا الإسلامية مطبقًا على القرآن يتضمن كثيرًا من الأفكار التي تهدم أسس الدرس القرآني، ويحول كتاب الله إلى مجرد (كلام بشر) تجوز عليه شتى العمليات الشكلية التي تطبق لتفسير الأعمال الأدبية وتحليلها، وربما جاز التعليق بأن هذا الكلام ليس جديدًا عليهم، وإن كان الآن مصاغًا بمصطلحات تزعم الجدة والطابع الفلسفي؛ فقد سبق للمستشرقين وأشياعهم منذ أوائل هذا

القرن أن وصفوا القرآن بأنه كالعمل الأدبي الذي يجب أن تطبق عليه أساليب الأدب حتى يفهم، ولا يعني ذلك سوى أن القرآن تأليف بشر، وهي دعوى كفار قريش القديمة نفسها، تعود الآن في ثوب عصري معقد، بينما كانت تطرح في الماضي ببساطة ساذجة»[١].

❑ ❑ ❑

(١) مجلة البيان، العدد ١٣٣، ص٦٠.

المبحث السادس

ميزان الوسطية والتيسير والتشديد

دين الإسلام هو دين اليسر ورفع الحرج والمشقة، وكل أحكامه وتشريعاته مصلحة وخير ورحمة للعباد، وكلها جاءت لتكون حياة الناس ميسرة وسعيدة في الدنيا والآخرة إن هم أخذوا بها؛ قال الله ﷻ بعد آيات الصيام في سورة البقرة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال عن نبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ووصفه سبحانه بقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال سبحانه في ختام آية الوضوء والتيمم في سورة المائدة: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة: ٦].

وقال ﷺ: «**فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين**»(١)، وقال أيضًا: «**إن هذا الدين يسر، ولن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه**»(٢). وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا»(٣). وروى البخاري في صحيحه: «باب الدين يسر، وقول النبي ﷺ: «**أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة**»(٤)، والأدلة على ذلك كثيرة.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «إن هذه الشريعة مؤتلفة النظام،

---

(١) البخاري (٢٢٠).
(٢) البخاري (٣٩).
(٣) البخاري (٣٥٦٠).
(٤) فتح الباري ١/ ١١٦.

متعادلة الأقسام، مبرأة من كل نقص، مطهرة من كل دنس، مسلَّمة لاشية فيها، مؤسسة على العدل والحكمة والمصلحة والرحمة، قواعدها ومبانيها، إذا حرّمت فسادًا حرَّمت ما هو أولى منه أو نظيره، وإذا رعت صلاحًا رعت ما هو فوقه أو شبهه؛ فهي صراطه المستقيم الذي لا أمت فيه ولا عوج، وملته الحنيفية السمحة التي لا ضيق فيها ولا حرج، بل هي حنيفية التوحيد، سمحة العمل، لم تأمر بشيء فيقول العقل: لو نهت عنه لكان أرفق، ولم تنه عن شيء فيقول الحجي: لو أباحته لكان أرفق. بل أمرت بكل صلاح، ونهت عن كل فساد، وأباحت كل طيب، وحرَّمت كل خبيث، فأوامرها غذاء ودواء، ونواهيها حمية وصيانة، وظاهرها زينة لباطنها، وباطنها أجمل من ظاهرها، شعارها الصدق، وقوامها الحق، وميزانها العدل، وحكمها الفصل.

لا حاجة بها البتة إلى أن تُكمَّل بسياسة ملك، أو رأي ذي رأي، أو قياس فقيه، أو ذوق ذي رياضة، أو منام ذي دين وصلاح»[1].

ودين الإسلام كذلك دين الوسطية التي هي العدل والخيار بين الإفراط والتفريط؛ قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

هذا هو دين الإسلام ومقاصده العظيمة التي فيها الرحمة والتيسير للناس، ورفع الحرج عنهم.

ولكن ما هو التيسير الحق الذي هو من مقاصد الشرع؟ وبأي شيء نزنه؟

إن مفهوم الوسطية والتيسير قد اعتراه ما اعترى كثيرًا من الموازين. فجاء بعض الناس ـ ومنهم ويا للأسف بعض طلبة العلم ـ بموازين جديدة للوسطية والتيسير غير التي جاءت في دين الله ﷻ ومقاصد شريعته، فحصل للناس من جرَّاء ذلك حرج واضطراب وفساد. ولبيان ذلك أبدأ هنا بذكر ميزان الله ﷻ للوسطية والتيسير، ثم أتبعه بموازين البشر؛ ليتبين الفرق، ويزول اللبس، ويحق إن شاء الله تعالى.

(١) إعلام الموقعين ٣/ ١٨٠، ١٨١، ط. المطبعة المنيرية.

أولًا: ميزان الله ﷻ للتيسير والوسطية والتشديد:

يمكن بيان سمات هذا الميزان الحق في الوقفات التالية:

أولًا: إن من المقاصد العظيمة لهذه الشريعة العظيمة الغرَّاء: تيسير أمور العباد، والرحمة بهم، ورفع الحرج والعناء عنهم. وقد سبق ذكر بعض الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة. وقد ذكر الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ أن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة قد بلغت مبلغ القطع[1].

ثانيًا: التيسير هو ما يراه الله تيسيرًا، لا ما يراه الناس بأهوائهم سهلًا وميسرًا لهم؛ فقد يرى الناس اليسر في شيء، ولكنه في ميزان الله تعالى عسرٌ وعناء لهم؛ كما في قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال سبحانه عن الزوجات: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩]. ولما أمر الله ﷻ عباده بالجهاد في سبيله حق الجهاد بيَّن بعد ذلك أن الجهاد فيه رفع الحرج والتيسير، لا كما يراه الناس في الظاهر دون النظر لعواقبه الحميدة للمجاهدين والبشرية كافة؛ قال سبحانه: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٨].

والمقصود أن كل ما شرعه الله ﷻ من الأوامر والنواهي ففيه المصلحة العظيمة للناس، واليسر والرحمة واللطف بهم؛ قال ابن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ: «كل أمر من الله تعالى لنا فهو يسر، وهو رفع الحرج، وهو التخفيف. ولا يسر ولا تخفيف ولا رفع حرج أعظم من شيء أدَّى إلى الجنة ونجَّى من جهنم؛ وسواء كان حظرًا أو إباحة، ولو أنه قتل الأنفس والأبناء والآباء»[2].

ومخالفة الهوى فيها مشقة على النفوس، لكن عاقبتها اليسر والخير

---

(١) انظر: الموافقات ١/ ٣٤٠ ط. دراز. (٢) الأحكام ٢/ ١٧٦.

والفلاح. ولو أن كل ما خالف هوى النفس وشق عليها من الشريعة تُرِكَ لانحلت أحكام الشريعة؛ فمثلًا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة: ٨١] قد يتبادر إلى الذهن أن شدة الحر قد تسبب التخفيف إن وقعت، والحقيقة ليست كذلك؛ لأن التخفيف هنا يتنافى مع مقصد من أهم مقاصد الشريعة، وهو سيادة الإسلام، ولن تكون له سيادة مع الركون إلى الدعة والتخفيف، والتيسير المطلق من كل القيود.

قال أبو إسحاق الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: «وكثيرًا ما تدخل المشقات وتتزايد من جهة مخالفة الهوى. واتباع الهوى ضد اتباع الشريعة؛ فالمتبع لهواه يشق عليه كل شيء، سواءً أكان في نفسه شاقًا أم لم يكن؛ لأنه يصده عن مراده ويحول بينه وبين مقصوده، فإذا كان المكلف قد ألقى هواه ونهى نفسه عنه، وتوجه إلى العمل بما كلف به خف عليه، ولا يزال بحكم الاعتياد يداخله حُبُّه، ويحلو له مُرُّه، حتى يصير ضده ثقيلًا عليه، بعد ما كان الأمر بخلاف ذلك، فصارت المشقة وعدمها إضافية تابعة لغرض المكلف؛ فرب صعب يسهل لموافقة الغرض، وسهل يصعب لمخالفته»(١).

ثالثًا: في النصوص التالية يتبيَّن لنا أن التيسير هو ما يراه الله ﷻ ورسوله ﷺ تيسيرًا، لا ما يراه الناس أسهل عليهم وأيسر:

• عن أبي هريرة ﷺ قال: أتى النبي ﷺ رجلٌ أعمى، فقال: يا رسول الله إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له، فيصلي في بيته، فرخَّص له، فلما ولَّى دعاه، فقال: «**هل تسمع النداء بالصلاة؟**» فقال: نعم. قال: «**فأجب**»(٢).

ففي هذا الحديث مع كل ما قدَّمه الضرير من العذر إلا أن النبي ﷺ لم يُرخِّص له في ذلك؛ لأن مآل ذلك خيرٌ ويسرٌ.

• وعن صفية بنت شيبة، عن عائشة ﷺ أن جارية من الأنصار

---

(١) الموافقات ١/ ٣٣٢.
(٢) مسلم (٦٥٣).

تزوجت، وأنها مرضت فتمعَّط شعرها، فأرادوا أن يصلوها فسألوا النبي ﷺ فقال: «**لعن الله الواصلة والمستوصلة**»[١].

وهنا أيضًا لم يجوِّز ﷺ وصل الشعر لهذه الفتاة مع حداثة عهدها بعرس، وحاجتها لتزيُّنها لزوجها.

• وعن أم سلمة ﵂ قالت: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها، أفنكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا**» مرتين أو ثلاثًا، كل ذلك يقول: «**لا إنما هي أربعة أشهر وعشرًا، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول**»[٢].

يقول الشيخ عبد الله السعد ـ حفظه الله ـ معلقًا على هذه الأحاديث: «ربما لو عرضت على بعض الفضلاء لرخَّص فيها؛ لتوسُّعِه في هذا الباب، وعدم مراعاته لضوابط التيسير والترخص ورفع الحرج.

هذا وقد حذَّر علماء السلف من تتبع الرخص، وشواذ المسائل، وزلات العلماء، وغريب الأقوال، فقد اشتد نكيرهم على من يسلك هذا المسلك.

• قال سليمان التيمي: «إن أخذت برخصة كل عالم؛ اجتمع فيك الشر كله».

• قال ابن عبد البر: «هذا إجماعٌ لا أعلم فيه خلافًا»[٣].

• وقال الأوزاعي: «من أخذ بنوادر العلماء خرج من الإسلام»[٤].

• وقال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ: «شرار عباد الله الذين ينتقون شرار المسائل؛ يعمون بها عباد الله»[٥].

• وقال عبد الرحمٰن بن مهدي: «لا يكون إمامًا في العلم من يُحدِّث بالشاذ من العلم»[٦].

---

(١) البخاري (٥٢٠٥)، ومسلم (٢١٢٣).
(٢) البخاري (٥٣٣٦)، ومسلم (١٤٨٨).
(٣) انظر: جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٢.
(٤) البيهقي في الكبرى ١٠/ ٢١١.
(٥) الآداب الشرعية ٢/ ٧٧.
(٦) الحلية ٩/ ٤.

• وأخرج البيهقي[(١)]: عن إسماعيل بن إسحاق القاضي قال: «دخلت على المعتضد، فدفع إليَّ كتابًا نظرت فيه، وكان قد جُمع له الرخص من زَلل العلماء وما احتج به كل منهم لنفسه، فقلت له: يا أمير المؤمنين مصنف هذا الكتاب زنديق. قال: لم تصح هذه الأحاديث؟، قلت: الأحاديث على ما رويت، ولكن من أباح المسكر لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء والمسكر، وما من عالم إلا وله زلة، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه» فأمر المعتضد فأحرق ذلك الكتاب.

• وقد نصَّ الإمام أحمد على من تتبع الرخص فأخذ بها؛ بأنه: فاسق[(٢)].

• بل حكى أبو محمد بن حزم الإجماع على أن تتبعَ رخص المذاهب من غير استناد إلى دليل شرعي فسقٌ لا يحل[(٣)]»[(٤)].

رابعًا: ومن قواعد التيسير المعتبرة في الشريعة قاعدة: المشقة تجلب التيسير، والضرورة الشرعية. وعموم البلوى؛ بشرط أن تؤخذ بضوابطها الشرعية المستنبطة من الأدلة الشرعية وبدون هذه الضوابط تحصل الفوضى ويعم الفساد. وقد وضع أهل العلم ضوابط وشروطًا للأخذ بمبدأ التيسير والترخص ورفع الحرج؛ منها:

١ ـ تحقيق العذر الداعي للأخذ بالرخصة يقينًا، لا ظنًا.

٢ ـ قيام الدليل الشرعي على الأخذ بالرخصة: فإن الحرج كل الحرج في مخالفة النصوص، واليسر كل اليسر في اتباعها، والتسليم والرضا التام بما جاء فيها من أوامر ونواهٍ.

٣ ـ الاقتصار على موضع الحاجة أو الضرورة، وعدم مجاوزة النص الشرعي في ذلك[(٥)].

---

(١) السنن الكبرى ١٠/ ٢١١.
(٢) الإنصاف ٢٩/ ٣٥٠.
(٣) الموافقات ٤/ ١٣٤.
(٤) انظر: مقدمة كتاب كيف نفهم التيسير للشيخ فهد أبا حسين ص١٨، ١٩.
(٥) انظر: كيف نفهم التيسير ص٢١.

وهناك ضوابط شرعية خاصة بكل قاعدة.

خامسًا: ومن الخطأ أن نحصر التيسير في الحل والإباحة، وأن نظن أن التيسير إنما هو في قولنا هذا حلال، وهذا ليس بواجب؛ فمن حصر التيسير في ذلك فإنه لم يفهم التيسير بضوابطه الشرعية؛ لأن الأحكام التي شُرِعت لها حِكَمٌ قد نعلمها وقد لا نعلمها.. قد تعود بالمصلحة للفرد المكلف بهذا العمل.. وقد تعود بالمصلحة للمجتمع والأمة.. وقد تعود بالمصلحة لهما جميعًا.

وحينما نقول فيمن سرق: لا تقطع يده لأنه الأيسر، فهذا فيه حماية للجريمة.. وترك تحقيق مقصد العدل في الشريعة.. وسماح بالفوضى في المجتمع؛ فيسرق السارق، ويقتل القاتل، ونحن نأخذ باليسر الذي نراه نحن، وليس الأيسر الذي تراه الشريعة. فالدين يسر في أحكامه للفرد والمجتمع...

ولا يعقل أن رجلًا في بلدٍ ظهر فيه الطاعون فيقالُ له: الأيسر لك أن تخرج من هذا البلد؛ لأن هذا اليسر سيضر بالمجتمع، وسينقل الطاعون إلى بلدان أخرى.

وهكذا في صلاة الجماعة؛ فلا يعقل أن يقال: المسألة فيها خلاف، فنختار أيسر الأقوال بأنه لا تجب الصلاة في المسجد، فتفوته منفعة اجتماعه مع المسلمين... ويتفكك اجتماع المسلمين في المساجد.. فالمسلم قوي بإخوانه ضعيف بنفسه...

وهكذا في الصلاة ذاتها؛ فإن منافعها عظيمة لا ندرك كثيرًا منها؛ فمنفعتها للقلب والإيمان أكبر من أن توصف: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وهكذا في أعمال القلوب التي أمرنا بها؛ كالتوكل والصبر... وأعمال القلوب التي نهينا عنها؛ كالكبر والحسد.

فإذا نظرنا إلى الأحكام الشرعية فلا ننظر هل هذا اشد أو أيسر...

كما أننا لا نأخذ بالإطلاقات العامة مع ترك نصوص خاصة ومفصلة في هذا الحكم الشرعي.

كما أن من الخطأ أن ننظر إلى المصالح الدنيوية ونغلبها على المصالح الأخروية؛ فإن في الأعمال الصالحة منافع عظيمة للقلوب وصلاحها، وأجور كبيرة في الآخرة ينبغي أن لا يغفل عنها.

والحِكَم قد تظهر في مثل العادات والمعاملات، وقد تخفى في مثل العبادات.

ولذلك فإن الشارع لم يقصد من الأحكام المشقة بالناس، ولم يقصد أيضًا رفع المشقة المعتادة على الناس، وإنما قصد من التشريع ما فيه مصلحة للعباد في الدنيا والآخرة. وهذه المصلحة قد لا تحصل إلا بأعمال شاقة كالحج والجهاد»[(١)].

سادسًا: وأما الوسطية في ميزان الله ﷻ فهي التي مدح الله ﷻ بها هذه الأمة بقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٢]، والمراد بالأمة الوسط في الآية: العدول؛ كما فسرها النبي ﷺ[(٢)]. كما أنها تعني الاستقامة في الأخذ بهذا الدين، من غير غلو وتنطع، أو جفاء وتفريط، وبهذا نفهم قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١١٢]؛ فأمر بالاستقامة وعدم التفريط في ذلك، ونهى عن الغلو والطغيان، فكلا الطرفين مذموم ومخالف للاستقامة.

إذن فالدين الوسط في ميزان الله ﷻ هو ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام. وهو فعل ما أمر به سبحانه، واجتناب ما نهى عنه، بلا زيادة ولا نقصان. ولو تأملنا شريعة الإسلام بكل جوانبها العقدية والعبادية والأخلاقية لرأينا سمة الوسطية والعدل والتوازن واضحة كل الوضوح فيها[(٣)].

---

(١) انظر: كيف نفهم التيسير ص٩٢ ـ ٩٤ باختصار.

(٢) البخاري (٤٤٨٧) وصحيح الترمذي للألباني (٢٣٦١).

(٣) انظر لتفصيل هذه الجوانب رسالة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ للمؤلف.

ثانيًا: موازين الناس في التيسير والوسطية:

تتسم هذه الموازين إما بصفة الجهل، أو صفة الهوى والظلم؛ هاتان الصفتان اللتان هما من صفات الإنسان المُعرِضْ عن الاهتداء بنور الله عز وجهه، ووحيه المبرء من الجهل والهوى؛ قال الله ﷻ عن الإنسان: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. ولا وسيلة له للتخلص من الظلم والجهل إلا بالعلم بوحي الله ﷻ والانقياد له. وكلما بعد الإنسان عن هذا الوحي المبارك اختلت موازينه وحكمه على الأشياء؛ ومن ذلك نظرته وفهمه لمسألة التيسير والتشديد والوسطية.

ودعاة التيسير المعاصرين ليسوا سواءً، بل هم على ثلاث فئات:

الفئة الأولى: وهي الأشد انحرافًا، وهم المنافقون والزنادقة الذين يركبون موجة التيسير ليصلوا بها إلى أغراضهم العلمانية والليبرالية في تغريب المجتمع، ونشر الفساد والرذيلة، ولذا تراهم يركزون على الأخذ بالقول المرجوح مثلًا في حجاب المرأة، والقول المهجور في سماع الغناء والمعازف، وغيرها من الأقوال الضعيفة الشاذة بحجة التيسير، ليس حبًا للشرع وأدلته وقواعده الشرعية، وإنما هي خطوة لتنفيذ مخططاتهم التي يتبنوها بعد ذلك، ولذا تراهم يمكرون ويضعون لبعض المفتين أسئلة في قالب مزخرف، يستلون منه الإجابة التي يريدونها من المفتي، ولذا يجب على المفتين من علماء الأمة التفطن لهذا المكر والتحايل وإلا زاغوا وأزاغوا.

الفئة الثانية: وهي أقل انحرافًا من سابقتها، ولكن أهلها يخدمون الفئة السابقة؛ سواء علموا أو جهلوا. وأصحاب هذه الفئة هم الذين يسمون بالعصرانيين أو العقلانيين، وهؤلاء ليس عندهم كره للإسلام، لكنهم على انحراف في منهجهم العقلاني الداعي إلى مسايرة الواقع، والانصياع للضغوط، والتيسير على النفس والناس، ولو على حساب الأصول والأدلة الشرعية، وصار هذا الموقف منهجًا وسمة عامة لهم.

الفئة الثالثة: وأصحاب هذه الفئة يغلب عليهم اهتمامهم بالعلوم الشرعية

ويحملون هَمَّ الدعوة ونشر العلم وتعليمه، ولهم مواقف مخالفة في المنهج للفئتين السابقتين، لكنهم أتوا من رغبتهم في التيسير على الناس، وتخفيف الضغوط عليهم، فتوسَّعوا كثيرًا في هذا الأمر، حتى آل الأمر ببعضهم إلى ترك بعض الأدلة الصحيحة والأخذ بأدلة مرجوحة أو أقوال مهجورة. وتأتي خطورة هذه الفئة بما تقوم به الفئة الأولى والثانية من توظيف لأقوال لهؤلاء في أغراضهم الخبيثة وخططهم الماكرة، خاصة أن هذه الفئة يُعد أصحابها من أهل العلم والسنة، ولهم حضور وقبول عند الناس.

ويجمع الفئات الثلاث على اختلاف توجهاتهم التوسع في مسألة التيسير بحجة التيسير والتسهيل على الناس، ولا سيما في واقعنا المعاصر الذي اشتدت فيه الضغوط الاجتماعية والاقتصادية والنفسية. وبناء على هذه الاعتبارات جاءت منطلقاتهم محكومة بهذه المتغيرات، وأصبحت النظرة لمفهوم التيسير حسب ما تراه عقولهم تيسيرًا، واستخدموا في ذلك موازين تنقصها الضوابط الشرعية، ومن أهم منطلقاتهم ومآخذهم في التيسير ما يلي:

١ ـ الأخذ بالأيسر من أقوال العلماء: ولا يخفى ما في هذا من جرأة عظيمة على مخالفة الأدلة الشرعية الراجحة؛ وذلك بتأويلات مختلفة أدت إلى الأخذ بالشاذ من أقوال العلماء، أو المرجوح منها، وحصل بذلك ضعف تعظيم النصوص في القلوب؛ يقول الشيخ جعفر شيخ إدريس: «... يقول أحدهم لنفسه: ما دام الدين يسرًا فإنني سأختار ما أراه أسهل عليَّ على الناس، ثم يبدأ بالنظر في الأقوال بهذا المعيار فيقول ـ مثلًا ـ: قول الحنفية هذا صعب، لكن قول الحنابلة أصعب، أما قول المالكية فسهل، وأسهل منه قول الشافعية. واسهل من هذا كله قول العالم الفلاني الذي خالفهم جميعًا، فأنا آخذ به! إن المنهج الصحيح هو أن يقول الإنسان لنفسه؛ ما دام دين الله كله يسر فسأختار ما أراه بأدلته أقرب إلى الشرع؛ لأن القرب إلى الشرع هو الأقرب لتحقيق الغاية بأدنى مشقة»[١].

---

(١) مجلة البيان، العدد ٢٣٥.

ويقول الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ في معرض رده على القائلين بأن من التيسير الأخذ بالأيسر من أقوال العلماء عند الاختلاف: «وقد زاد هذا الأمر على قدر الكفاية، حتى صار الخلاف في المسائل معدودًا في حجج الإباحة، ووقع فيما تقدم وتأخر من الزمان الاعتمادُ في جواز الفعل على كونه مختلفًا فيه بين أهل العلم، لا بمعنى مراعاة الخلاف، فإن له نظرًا آخر، بل في غير ذلك؛ فربما وقع الإفتاء في المسألة بالمنع، فيقال: لم تمنع والمسألة مختلف فيها؟ فيجعل الخلاف حجة في الجواز لمجرد كونها مختلفًا فيها، لا لدليل يدل على صحة مذهب الجواز، ولا لتقليد من هو أولى بالتقليد من القائل بالمنع، وهو عين الخطأ على الشريعة؛ حيث جعل ما ليس بمعتمد معتمدًا، وما ليس بحجة حجة.

قال الخطابي: وليس الاختلاف حجة، وبيان السنة حجة على المختلفين من الأولين والآخرين. هذا مختصر ما قال. والقائل بهذا راجع إلى أن يتبع ما يشتهيه، ويجعل القول الموافق حجة له ويدرأ بها عن نفسه، فهو قد أخذ القول وسيلة إلى اتباع هواه، لا وسيلة إلى تقواه، وذلك أبعد له من أن يكون ممتثلًا لأمر الشارع، وأقرب إلى أن يكون ممن اتخذ إلهه هواه. ومن هذا أيضًا جعل بعض الناس الاختلاف رحمة للتوسع في الأقوال، وعدم التحجير على رأي واحد، ويحتج في ذلك بما روي عن القاسم بن محمد وعمر بن عبد العزيز وغيرهما مما تقدم ذكره. ويقول: إن الاختلاف رحمة، وربما صرح صاحب هذا القول بالتشنيع على من لازم القول المشهور، أو الموافق للدليل، أو الراجح عند أهل النظر، والذي عليه أكثر المسلمين. ويقول له: لقد حجرت واسعًا، وملت بالناس إلى الحرج، وما في الدين من حرج، وما أشبه ذلك. وهذا القول خطأ كله، وجهل بما وضعت له الشريعة.. والتوفيق بيد الله. وقد مر من الدليل على خلاف ما قالوه ما فيه الكفاية والحمد لله»[(١)].

ويزيد الأمر وضوحًا الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في رده على

(١) الموافقات ٢/١٠٢ ـ ١٠٤ باختصار.

أصحاب هذه المدرسة فيقول: «وقولهم: **(إن مسائل الخلاف لا إنكار فيها)** ليس بصحيح. وكيف يقول فقيه: لا إنكار في المسائل المختلف فيها، والفقهاء من سائر الطوائف قد صرحوا بنقض حكم الحاكم إذا خالف كتابًا أو سُنَّة، وإن كان قد وافق فيه بعض العلماء؟ وأما إذا لم يكن في المسألة سُنَّة ولا إجماع، وللاجتهاد فيها مساغ، لم تنكر على من عمل بها مجتهدًا أو مقلدًا. وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد، كما اعتقد ذلك طوائف من الناس ممن ليس لهم تحقيق في العلم. والصواب ما عليه الأئمة أن مسائل الاجتهاد ما لم يكن فيها دليل يجب العمل به وجوبًا ظاهرًا؛ مثل حديث صحيح لا معارض له من جنسه فيسوغ فيها - إذا عدم فيها الدليل الظاهر الذي يجب العمل به - الاجتهاد لتعارض الأدلة، أو لخفاء الأدلة فيها»(١).

ويقول في موطن آخر وهو يذكر أنواع الرخص: المشروع منها وغير المشروع: «الرخصة نوعان: **أحدهما**: الرخصة المعلومة من الشرع نصًا؛ كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير عند الضرورة. وإن قيل لها عزيمة باعتبار الأمر والوجوب فهي رخصة باعتبار الإذن والتوسعة؛ كفطر المريض والمسافر، وقصر الصلاة في السفر، وصلاة المريض إذا شقَّ عليه القيام قاعدًا، وفطر الحامل والمرضع خوفًا على ولديهما، ونكاح الأمة خوفًا من العنت، ونحو ذلك؛ فليس في تعاطي هذه الرخص ما يوهن رغبته. ولا يرد إلى غثاثة، ولا ينقص طلبه وإرادته البتة؛ فإن منها ما هو واجب؛ كأكل الميتة عند الضرورة، ومنها ما هو راجح المصلحة؛ كفطر الصائم المريض، وقصر المسافر وفطره، ومنها ما مصلحته للمترخص وغيره، ففيه مصلحتان: قاصرة ومتعدية؛ كفطر الحامل والمرضع؛ ففعل هذه الرخص أرجح وأفضل من تركها.

النوع الثاني: رخص التأويلات، واختلاف المذاهب. فهذه تَتَبُّعها حرام ينقص الرغبة، ويوهن الطلب، ويرجع بالمترخص إلى غثاثة الرخص. فإن من

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٢٨٨.

ترخص بقول أهل مكة بالصَّرْف[١]، وأهل العراق في الأشربة[٢]، وأهل المدينة في الأطعمة، وأصحاب الحيل في المعاملات، وقول ابن عباس ﷺ في المُتعة، وإباحة لحوم الحُمُر الأهلية، وقول من أباح آلات اللهو والمعازف من اليراع والطنبور والعود والطبل والمزمار، وقول من أباح الغناء.. وأمثال ذلك من رخص المذاهب وأقوال العلماء. فهذا الذي تنقص بترخصه رغبته، ويوهن طلبه، ويلقيه في غثاثة الرخص. فهذا لون والأول لون»[٣].

وبعد، فرحم الله هذين الإمامين الجليلين؛ فكأنهما يعيشان في عصرنا، وما جد فيه من الأهواء والفتن، وما خرج فيه من القوم الذين هم من بني جلدتنا، والذين ينادون بمسايرة الواقع ومواكبة العصر، والأخذ بأي قول لأهل العلم ولو كان مهجورًا شاذًا، أو مرجوحًا؛ تيسيرًا على الناس، ودفعًا للحرج عنهم زعموا! وبعض هؤلاء ينطلق من الجهل بمقاصد الشريعة وأدلة الأحكام ومناطاتها، وبعضهم يذهب إلى أبعد من ذلك لغرض يخفيه في نفسه ويبديه لمن هو على شاكلته، ألا وهو البعد الاجتماعي والفكري للقضايا المثارة، وليس مقصوده الخلاف الفقهي الصرف؛ حيث نرى اليوم من يثيرون مسائل تتعلق بالمرأة، وما نقل فيها من خلاف بين أهل العلم، والدافع لذلك أبعد من مجرد الخلاف الفقهي، بل هو ستار يخفي وراءه اللهث وراء الغرب ومحاكاته، وسرعان ما يتجاوزون المسائل التي هي محل الخلاف إلى ما لا خلاف في تحريمه ومنعه.

وإذا تأملنا هؤلاء وأمثالهم وجدنا بضاعتهم مزجاة في علوم الشريعة؛ أصولها وقواعدها، وإنما همُّهم أن يتصيَّدوا من أقوال الفقهاء ما يناسب أهواءهم، ويوظفوه في تحقيق رغبتهم ومخططاتهم.

---

(١) يقصد قول ابن عباس ﷺ ومن تبعه من المكيين في بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة متفاضلًا ومنعوه نسيئة فقط؛ لقوله ﷺ: **«لا ربا إلا في النسيئة»**.

(٢) يقصد قول العراقيين في النبيذ. وأكثر علماء البصريين في أن المحرم من سائر الأنبذة المسكرة هو السكر نفسه لا العين. بداية المجتهد لابن رشد ١/ ٤٧١.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٥٧، ٥٨ باختصار.

٢ ـ ومن موازينهم في التيسير التهوين من قاعدة سد الذرائع، وعدم الوزن بها في الحكم على المستجدات. ويقولون: إن المطلوب هو الحكم على القضية المطلوب الحكم فيها فقط، دون النظر إلى مآلاتها والتعسير على الناس بذلك. ولا يخفى ما في هذا الموقف المُلغي لقاعدة سد الذرائع من مفاسد عظيمة تقع على أديان الناس ونفوسهم وعقولهم وأعراضهم وأموالهم. والعجب ممن لا يراعيها في نظره للأحكام وما يفتي به الناس في أمور دينهم، مع أن كثيرًا من التشريعات الإسلامية في الكتاب والسُّنة كان قائمًا على هذه القاعدة؛ لأن المحرمات في الإسلام منها ما هو محرم لذاته، ومنها ما هو محرم لغيره. والمحرم لغيره إنما حرم لا لأنه في ذاته حرام، وإنما لما سيؤدي إلى الوقوع في المحرم لذاته، والأمثلة في ذلك كثيرة. وقد ذكر الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ تسعة وتسعين مثالًا من الكتاب والسنة لهذه القاعدة في كتابه المشهور: أعلام الموقعين، قدم لها بقوله: «لما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضي إليها كانت طرقها وأسبابها تابعةً لها معتبرة بها، فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها والمنع منها بحسب إفضائها إلى غايتها وارتباطاتها بها، ووسائل الطاعات والقُرُبات في محبتها والإذن فيها بحسب إفضائها إلى غاياتها. فوسيلة المقصود تابعة للمقصود، وكلاهما مقصود، لكنه مقصود قصد الغايات، وهي مقصودة قصد الوسائل.

فإذا حَرَّم الربُّ تعالى شيئًا، وله طرق ووسائل تُفضي إليه، فإنه يحرمها ويمنع منها؛ تحقيقًا لتحريمه، وتثبيتًا له، ومنعًا أن يقرب حِمَاه. ولو أباح الوسائل والذرائع المُفضية إليه لكان ذلك نقضًا للتحريم، وإغراءً للنفوس به. وحكمته تعالى، وعلمه يأبى ذلك كل الإباء، بل سياسة ملوك الدنيا تأبى ذلك؛ فإن أحدهم إذا منع جنْدَه أو رعيته أو أهل بيته من شيء، ثم أباح لهم الطرق والأسباب والذرائع الموصِّلة إليه لعُدَّ متناقضًا، ولحصل من رعيته وجنده ضدُّ مقصوده.

وكذلك الأطباء إذا أرادوا حسم الداء منعوا صاحبه من الطرق والذرائع الموصِّلة إليه، وإلا فسد عليهم ما يرومون إصلاحه. فما الظن بهذه الشريعة

الكاملة التي هي في أعلى درجات الحكمة والمصلحة والكمال؟ ومن تأمل مصادرها ومواردها علم أن الله تعالى ورسوله سد الذرائع المفضية إلى المحارم بأن حرَّمها ونهى عنها. والذريعة ما كان وسيلة وطريقًا إلى الشيء»[١].

وينبه الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ إلى ضرورة اعتبار المآلات في فتوى المجتهد، فيقول: «النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعًا ـ كانت الأفعال موافقة أو مخالفة ـ وذلك أن المجتهد لا يجتهد على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل»[٢].

ويعلق الأستاذ الريسوني على ذا النقل فيقول: «أي أن المجتهد حين يجتهد ويحكم ويفتي، عليه أن يُقدِّر مآلات الأفعال التي هي محل حكمه وإفتائه، وأن يُقدِّر عواقب حكمه وفتواه، وألا يعتبر أن مهمته تنحصر في (إعطاء الحكم الشرعي)، بل مهمته أن يحكم في الفعل وهو يستحضر مآله أو مآلاته، وأن يصدر الحكم وهو ناظر إلى أثره أو آثاره... فإذا لم يفعل فهو إما قاصر عن درجة الاجتهاد أو مقصر فيها.

وهذا فرع عن كون: **(الأحكام بمقاصدها)**. فعلى المجتهد الذي أقيم متكلمًا باسم الشرع أن يكون حريصًا أمينًا على بلوغ الأحكام مقاصدها، وعلى إفضاء التكاليف الشرعية إلى أحسن مآلاتها»[٣].

٣ ـ ومن موازينهم في التيسير، وفي مقابل إهمالهم لقاعدة سد الذرائع فإننا نجدهم يتوسعون في فتح الذرائع في ما يسمونه بالحيل الشرعية، وما هي بشرعية ولا منضبطة بالشرع، وإنما حقيقتها الخداع والتحايل لإسقاط بعض الأحكام الشرعية، وتأصيل ذلك بشبه عقلية، وآراء فاسدة، وتبريرًا لضعف الناس عن القيام ببعض الواجبات وارتكابهم لبعض المحرمات. وقد أطال

---

(١) إعلام الموقعين ٣/ ١٧٩. (٢) الموافقات ١/ ١٤٠ ط. دراز.
(٣) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ص٣٥٣.

الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ الرد على أهل الحيل في كتابيه القيمين: «إعلام الموقعين» و«إغاثة اللهفان» بما لا مزيد عليه. فكان مما قاله عن مكايد الشيطان لأهل الحيل: «ومن مكايده التي كاد بها الإسلام وأهله: الحِيَلُ، والمكر، والخداع الذي يتضمن تحليل ما حَرَّم الله، وإسقاط ما فرضه، ومضادته في أمره ونهيه، وهي من الرأي الباطل الذي اتفق السلف على ذَمِّه؛ فإن الرأي رأيان:

ـ رأيٌ يوافق النصوص، وتشهد له بالصحة والاعتبار، وهو الذي اعتبره السلف، وعملوا به.

ـ ورأيٌ يخالف النصوص، وتشهدُ له بالإبطال والإهدار، فهو الذي ذَمُّوه وأنكروه.

وكذلك الحيل نوعان:

ـ نوع يُتَوَصَّل به إلى فعل ما أمر الله تعالى به، وترك ما نهى عنه، والتخلص من الحرام، وتخليص الحقِّ من الظالم المانع له، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغي، فهذا النوع محمودٌ يثاب فاعله ومُعَلِّمه.

ـ ونوع يتضمن إسقاط الواجبات، وتحليل المحرمات، وقلب المظلوم ظالمًا، والظالم مظلومًا، والحق باطلًا، والباطل حقًّا، فهذا النوع الذي اتفق السلف على ذمه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يجوز شيء من الحيل في إبطال حق مسلم.

وقال الميموني: قلت لأبي عبد الله: من حلف على يمين، ثم احتال لإبطالها، فهل تجوز تلك الحيلة؟ قال: نحن لا نرى الحيلة إلا بما يجوز.

وغرض الإمام أحمد بهذا: الفرقُ بين سلوك الطريق المشروعة التي شُرِعت لحصول مقصود الشارع، وبَين الطريق التي تُسلك لإبطال مقصوده.

فهذا هو سِرُّ الفرق بين النوعين، وكلامنا الآن في النوع الثاني.

قال شيخنا: فالدليل على تحريم هذا النوع وإبطاله من وجوه:

الوجه الأول: قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة: ٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال في أهل العهد: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأنفال: ٦٢]، فأخبر ﷻ أن هؤلاء المخادعين مخدوعون، وهم لا يشعرون أن الله تعالى خادعُ مَنْ خدعه، وأنه يكفي المخدوعَ شَرَّ مَنْ خدعه.

والمخادعة هي: الاحتيال، والمراوغة بإظهار الخير مع إبطانِ خِلافِه، ليحصل مقصود المخادع، وهذا موافق لاشتقاق اللفظ في اللغة؛ فإنهم يقولون: طريق خَيْدَع إذا كان خالفًا للقصد لا يُشعَر به، ولا يُفطن له، ويقال عن السراب: الخَيْدَع؛ لأنه يَغُرُّ من يراه، وضَبٌّ خَدِع؛ أي مراوغ. كما قالوا: أخْدَعُ من ضَبٍّ، ومنه: **(الحرب خدعة)**[1]، وسوق خادعة؛ أي متلونة، وأصله: الإخفاء والستر. ومنه سميت الخِزانة مَخْدعًا.

فلما كان القائل: «آمنت» مُظهرًا لهذه الكلمة، غَيْرَ مريدٍ حقيقتها المرعيَّة المطلوبة شرعًا، بل مريد لحكمها وثمرتها فقط: مُخادعًا، كان المتكلم بلفظ (بِعْتُ) و(اشتريت) و(طلقت) و(نكحت) و(خالعت) و(آجرت) و(ساقيت) و(أوصيت) غير مريد لحقائقها الشرعية المطلوبة منها شرعًا، بل مريد لأمور أخرى غير ما شرعت له، أو ضدِّ ما شرعت له: مخادعًا. ذلك مخادعٌ في أصل الإيمان، وهذا مخادع في أعماله وشرائعه.

قال شيخنا: وهذا ضرب من النفاق في آيات الله تعالى وحدوده، كما أن الأول نفاق في أصل الدين.

يؤيد ذلك: ما رواه سعيد بن منصور عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: «أنه جاءه رجل فقال: إن عَمِّي طلَّق امرأته ثلاثًا، أيُحِلَّها له رجل؟ فقال: مَنْ يُخادع الله يخدعه».

---

(١) البخاري (٣٠٣٠)، مسلم (١٧٣٩).

وعن أنس بن مالك «أنه سئل عن العِيْنَة ـ يعني بيع الحريرة ـ فقال: إن الله لا يُخْدَع. هذا مما حرّم الله تعالى ورسوله»؛ رواه أبو جعفر محمد بن سليمان الحافظ، المعروف بمُطَيِّن في كتاب البيوع له.

وعن ابن عباس «أنه سئل عن العِيْنة ـ يعني بيع الحريرة ـ فقال: إن الله لا يُخْدَع. هذا مما حرّم الله ورسوله» رواه الحافظ أبو محمد النَّخْشَبي.

فسمى الصحابة مَنْ أظهر عقد التبايع ومقصودُه به الربا خداعًا لله، وهم المرجوع إليهم في هذا الشأن، والمعوَّل عليهم في فَهْم القرآن. وقد تقدَّم عن عثمان، وعبد الله بن عمر، وغيرهما أنهما قالا في المطلقة ثلاثًا: لا يحلها إلا نكاح رَغْبة، لا نكاح دِلْسة... إلى أن قال ـ رحمه الله تعالى ـ:

الوجه السابع: إن بني إسرائيل كانوا أكلوا الربا وأموال الناس بالباطل، كما قَصَّه الله تعالى في كتابه؛ وذلك أعظم من أكل الصيد الحرام في يومٍ بعينه، ولذلك كان الربا والظلم حرامًا في شريعتنا، والصيدُ يوم السبت غير مُحرَّم فيها، ثم إن أكلة الربا وأموال الناس بالباطل لم يُعاقبوا بالمسخ، كما عُوقب به مُستحلو الحرام بالحيلة، وإن كانوا عُوقبوا بجنس آخر، كعقوبات أمثالهم من العُصاة. فيُشبهُ ـ والله أعلم ـ أن هؤلاء لما كانوا أعظم جُرمًا ـ إذ هم بمنزلة المنافقين، ولا يعترفون بالذنب، بل قد فَسَدت عقيدتهم وأعمالهم ـ كانت عقوبتهم أغلظ من عقوبة غيرهم، فإنَّ من أكل الربا والصيد الحرام عالمًا بأنه حرام، فقد اقترن بمعصيته اعترافه بالتحريم، وهو إيمان بالله تعالى وآياته، ويترتب على ذلك من خشية الله تعالى، ورجاء مغفرته، وإمكان التوبة، ما قد يُفضي به إلى خير ورحمة، ومن أكله مستحلًا له بنوع احتيال تأول فيه، فهو مصر على الحرام، وقد اقترن به اعتقاده الفاسد في حل الحرام، وذلك قد يقضي به إلى شر طويل.

وقد جاء ذكر المسخ في عِدَّة أحاديث، قد تقدم بعضها في هذا الكتاب؛ كقوله في حديث أبي مالك الأشعري، الذي رواه البخاري في صحيحه:

«ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»[(١)]، وقوله في حديث أنس: **«ليبيتن رجالٌ على أكلٍ وشربٍ وعزفٍ، فيُصبحُون على أرائكهم ممسوخين قردةً وخنازير»**[(٢)].

وفي حديث أبي أُمامة أيضًا: **«يبيتُ قوم من هذه الأمة على طعمٍ وشُربٍ ولهوٍ، فيُصبحون وقد مُسخوا قردةً وخنازير»**[(٣)].

وفي حديث عمران بن حصين: **«يكون في أمتي قذفٌ ومسخٌ وخسفٌ»**[(٤)]»[(٥)].

ثم بيَّن التناقص بين الحيل وبين سد الذرائع فقال: «وبالجملة فالمحرمات قسمان: مفاسد وذرائع موصلة إليها مطلوبة الإعدام، كما أن المفاسد مطلوبة الإعدام. والقربات نوعان: مصالح للعباد وذرائع موصلة إليها.

ففتح باب الذرائع في النوع الأول كسدِّ باب الذرائع في النوع الثاني، وكلاهما مناقض لما جاءت به الشريعة، فبين باب الحيل وباب سد الذرائع أعظم تناقض.

وكيف يُظنُّ بهذه الشريعة العظيمة الكاملة، التي جاءت بدفع المفاسد، وسد أبوابها وطرقها: أن تُجوِّز فتح باب الحيل، وطرق المكر على إسقاط واجباتها، واستباحة مُحَّرماتها، والتذَّرُع إلى حصول المفاسد التي قصدتْ دفعها؟

وإذا كان الشيء الذي قد يكون ذريعة إلى الفعل المحرم؛ إما بأن يُقصد به ذلك المحرم، أو بأن لا يقصد به، وإنما يقصد به المباح نفسُه، لكن قد

---

(١) رواه البخاري معلقًا في الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه.

(٢) رواه أحمد (٢١٧٢٥) عن ابن عباس وليس عن أنس.

(٣) رواه أحمد (٢١٢٠٢).

(٤) رواه الترمذي (٢١٥٢)، وابن ماجه (٤٠٦٢) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٨٣).

(٥) إغاثة اللهفان ١/٣٣٨ ـ ٣٤٣ باختصار.

يكون ذريعةً إلى المحرم: يُحرمه الشارع بحسب الإمكان، ما لم يُعارض ذلك مصلحةٌ راجحة تقتضي حِلَّهُ؛ فالتذرع إلى المحرمات بالاحتيال عليها أولى أن يكون حرامًا، وأولى بالإبطال والإهدار إذا عُرف قصد فاعله، وأولى أن لا يُعان فاعله عليه، وأن يعامل بنقيض قصده، وأن يُبْطل عليه كيده ومكره.

وهذا بحمد الله تعالى بَيِّن لمن له فقه وفهم في الشرع ومقاصده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وتجويز الحيل يُناقض سد الذرائع مناقضة ظاهرةً؛ فإن الشارع يَسُدّ الطريق إلى ذلك المحرم بكل ممكن، والمحتال يتوسل إليه بكل ممكن»[١].

٤ ـ اعتمادهم في ميزان التيسير على قواعد شرعية، هي في أصلها صحيحة وثابتة في الشرع، لكنهم يتوسعون في تطبيقاتها، وإنزالها على وقائع ونوازل دون أن تكتمل فيها ضوابطها الشرعية. ومن أمثلة هذه القواعد: قاعدة الضرورة الشرعية، وقاعدة عموم البلوى، وقاعدة المصلحة المرسلة، وقاعدة الفتوى تتغير بتغير بالزمان والمكان والحال والأشخاص.

وقد حدَّد أهل العلم تعاريف دقيقة لهذه القواعد، وذكروا ضوابطها، واشترطوا توافرها حتى يكون الأخذ بها موافق للشريعة.

فقالوا مثلًا عن الضرورة بأنها: «حالة تطرأ على إنسان أو جماعة فيها خطر ومشقة شديدة يخشى فيها التلف لأحد الضرورات الخمس التي جاءت الشريعة لحمايتها والمحافظة عليها: (الدين، النفس، العقل، العرض، المال) ويتعين أو يباح عندئذ ارتكاب الحرام، أو ترك الواجب، أو تأخيره عن وقته دفعًا للضرر في غالب ظنه ضمن قيود الشرع»[٢].

ودعاة التيسير تساهلوا في ضوابط الضرورة، حتى أدخلوا فيها ما ليس منها؛ إما عن جهل منهم بهذه الضوابط، أو عن هوى وشهوة؛ إذ ليس كل من

---

(١) إغاثة اللهفان ١/٥٠٩، ٥١٠.

(٢) انظر: نظرية الضرورة الشرعية للزحيلي ص٦٧، ٦٨.

ادَّعى وجود الضرورة يسلم له ادعاؤه أو يباح فعله. يقول الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: «وربما استجاز بعضهم في مواطن يدَّعي فيها الضرورة وإلجاء الحاجة بناء على أن الضرورات تبيح المحظورات، فيأخذ عن ذلك بما يوافق الغرض»(١).

ومن هذه الضوابط الشرعية التي قرَّرها أهل العلم باستقراء الكتاب والسنة ما يلي:

١ ـ أن تكون الضرورة قائمة ملحة لا منتظرة كخوف الهلاك لو لم يأكل من الميتة.

٢ ـ أن لا يكون لدفع الضرر وسيلة أخرى من المباحات إلا المخالفة.

٣ ـ أن تكون الضرورة ملجئة؛ كما لو أكره بالقتل أو التعذيب على أكل الميتة، ولو لم يكن محتاجًا لأكلها.

٤ ـ أن لا يقع المضطر بسبب الضرورة في مخالفة لمبادئ الشريعة؛ كأن يرتد عن دينه باطمئنان قلبه، أو يعتدي على نفس معصومة بالقتل أو الزنا، أو ينشر الكفر ويدعو إليه.

٥ ـ أن يقتصر فيما يباح تناوله للضرورة على الحد الأدنى الذي يدفع به الضرر، وهذا معنى قولهم: «الضرورة تقدر بقدرها».

وكذلك الحال في ضوابط عموم البلوى، والمصلحة المرسلة، وتغيير الفتوى بتغير الحال والزمان والمكان(٢)؛ حيث ضبطها أهل العلم بضوابطها. ولكن دعاة التيسير تساهلوا في هذه الضوابط والأخذ بها تيسيرًا على الناس زعموا.

٥ ـ نظرتهم إلى مفهوم (الوسطية والاعتدال) بأنه يقابل الحزم والقوة في تطبيق أحكام الشرع عقيدة وأحكامًا. وعلى هذا فمعيار الوسطية عندهم يعني

---

(١) الموافقات ٤/ ١٤٥.

(٢) يرجع لكتاب: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ للتعرف على هذه القواعد وضوابطها.

المرونة والتكيف مع ضغوط المجتمع، ومسايرة الواقع، فلا بد من التوسط في أخذ هذا الدين حتى لا ينفر الناس منه. وقد انطلق بعض دعاة الوسطية من الفهم الخاطئ للتشديد والتيسير؛ حيث يرى بعضهم أن الالتزام بأحكام الدين وواجباته وسننه، وأخذها بقوة كما جاء في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ لا يستطيعه كثير من الناس في هذا الزمان، وأن تطبيقه على النفس ودعوة الناس إليه هو من التشديد والغلو المنافي للوسطية، ولذلك أصبحنا نسمع من بعض العوام، بل من بعض الدعاة من يصم بعض أبنائه أو إخوانه الملتزمين بالسنة الصحيحة في عبادتهم وسلوكهم بأنه متشدد أو متطرف. وهذا كله إنما نشأ من الفهم المنحرف للوسطية والتشديد والتيسير. ومن آثار هذا الميزان المنحرف للوسطية: ظهور ما يسمى بأنصاف الحلول، أو الحلول الوسط من قبل بعض المشتغلين بالدعوة والإصلاح، ويقصدون بالحلول الوسطية أن لا يبقى الدعاة في مواقفهم الصلبة المتصلبة من الكفار وأذنابهم، وأن لا يعلنوا العداوة والبراءة من كفرهم وشركهم؛ لأن هذه المواقف لم تجر على الدعوة إلا الضرر والقضاء على أهلها.

وقد ركَّز الكفار ـ وبخاصة أمريكا ـ على هذا الصنف من المسلمين وتوظيفهم في محاربة التيارات التي تراها متشددة؛ لأنها تعلن العداوة والبراءة منها، وترفع راية الجهاد ضدها. ومن أهم المؤسسات المهتمة بهذا الشأن: مؤسسة (راند) الأمريكية؛ حيث أصدرت تقريرها الخبيث المشهور في مواجهة الأصوليين الإسلاميين وضربهم بمن تصفهم بالمعتدلين والوسطيين؛ حيث يشير التقرير إلى أن نقطة البدء الرئيسية التي يجب على الولايات المتحدة العناية بها هي بناء شبكات من المسلمين المعتدلين.

ويضع التقرير أحد عشر سؤالًا تُشكِّل في مجملها المحددات الرئيسية لوصف الاعتدال المقترح أن تتبناه الإدارة الأمريكية. وهذه الأسئلة وردت بالتقرير.. وهي:

١ ـ هل يتقبل الفرد أو الجماعة العنف أو يمارسه؟ وإذا لم يتقبل أو يدعم العنف الآن؛ فهل مارسه أو تقبله في الماضي؟

٢ ـ هل تؤيد الديمقراطية؟ وإن كان كذلك؛ فهل يتم تعريف الديمقراطية بمعناها الواسع من حيث ارتباطها بحقوق الأفراد؟

٣ ـ هل تؤيد حقوق الإنسان المتفق عليها دوليًا؟

٤ ـ هل هناك أية استثناءات في ذلك (مثال: ما يتعلق بحرية الدين)؟

٥ ـ هل تؤمن بأن تبديل الأديان من الحقوق الفردية؟

٦ ـ هل تؤمن أن على الدولة أن تفرض تطبيق الشريعة في الجزء الخاص بالتشريعات الجنائية؟

٧ ـ هل تؤمن أن على الدولة أن تفرض تطبيق الشريعة في الجزء الخاص بالتشريعات المدنية؟ وهل تؤمن بوجوب وجود خيارات لا تستند للشريعة بالنسبة لمن يفضلون الرجوع إلى القوانين المدنية ضمن نظام تشريع علماني؟

٨ ـ هل تؤمن بوجوب أن يحصل أعضاء الأقليات على حقوق كحقوق المسلمين تمامًا؟

٩ ـ هل تؤمن بإمكانية أن يتولى أحد الأفراد من الأقليات الدينية مناصب سياسية عليا في دولة ذات أغلبية مسلمة؟

١٠ ـ هل تؤمن بحق أعضاء الأقليات الدينية في بناء وإدارة دور العبادة الخاصة بدينهم (كنائس أو معابد يهودية) في دول ذات أغلبية مسلمة؟

١١ ـ هل تقبل بنظام تشريع يقوم على مبادئ تشريعية غير مذهبية؟ (انتهى).

ويمكن إعادة صياغة مفهوم هذه الأسئلة وترتيبها حتى يَعْرِفَ مآلاتها وخطرها الذين يسمون أنفسهم بالمعتدلين المنادين بالوسطية؛ وذلك في النقاط التالية:

١ ـ التخلي عن الجهاد.

٢ ـ التخلي عن فكرة إقامة دولة إسلامية.

٣ ـ التخلي عن عقيدة الولاء والبراء.

٤ ـ تغيير أحكام أهل الذمة في الشريعة، والدعوة لإفساد النساء ومساواتهن بالرجال.

٥ ـ قبول ردة المسلمين.

٦ ـ القبول بتحكيم غير شرع الله (القبول بالديمقراطية).

٧ ـ الاعتراف بمساواة الكافر بالمسلم ضمن دولة الإسلام.

٨ ـ القبول بتمكين الكفار من المسلمين.

٩ ـ قبول إقامة صروح الكفر في بلاد الإسلام.

فمن انطبقت عليه هذه الشروط فهو «مسلم معتدل» حسب مؤسسة راند، وصدق الله ﷻ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

٦ ـ يطلق أصحاب الموازين الجاهلية على المستقيمين على دين الله ﷻ الملتزمين بأحكامه الذين يعلنون براءتهم وجهادهم للكفار وصف المتطرفين و(الأصوليين). وعن الأصولية وما يشابهها من الألفاظ التي يطلقها أعداء الدين لينفروا من الدين، يقول الشيخ بكر أبو زيد ـ رحمه الله تعالى ـ: «الأصولية.. الراديكالية.. النضالية.. الخلاص.. العهد السعيد.. جميعها، وأمثالها من «الألقاب الدينية» مصطلحات أجنبية تولَّدت حديثًا في العالم الغربي، أوصافًا «للكهنوتيين» المتشددين.

فإذا أخذنا هذا المصطلح: «الأصولية»، نجد حقيقته كما يلي: إنه ـ يعني في بيئته الأصلية ـ العالم الغربي ـ: فرقة من البروتستنت تؤمن بالعصمة لأفرادها الذين يدعون تلقيهم عن الله مباشرة، ويعادون العقل، والفكر العلمي، ويميلون إلى استخدام القوة والعنف في سبيل هذا المعتقد الفاسد.

فمصطلح الأصولية، وما في معناه هو إذًا: لإيجاد جو كبير من الرعب والتخويف من «الدين»، ومقاومة من يدعو إليه، في أي ديانة كانت.

وإذا أخذنا أوسعها انتشارًا اليوم: «الأصولية» وما حصل له من استمراء عجيب، وتردد ذكره على ألسنة المتكلمين، وفي أقلام الكاتبين، من إطلاقه على جماعات من المسلمين، وبخاصة الدعاة، ومن واقع حقيقته

المذكورة في صدر هذا المبحث، تلخصت لنا الحقائق التالية:

١ ـ أنه بهذا المعنى أجنبي عن الحقائق والمصطلحات الإسلامية؛ فلا ارتباط مطلقًا بينه وبين ما يوجد في كتب المسلمين من هذه النسبة «الأصولي»، في نسبته إلى العلم: أصول الفقه. وفي علمائه ألف المراغي ـ رحمه الله تعالى ـ «طبقات الأصوليين».

٢ ـ أنه اصطلاح أجنبي حادث تولد في بيئته الغربية؛ لمقاومة الكنسيين والكهنوتيين المتشددين.

٣ ـ وأن معناه باختصار: الكهنوتية التي ترفض التعامل مع العلم والعقل.

٤ ـ وأن معناه ومفاهيمه المذكورة مفاهيم فاسدة لا يمكن قبولها لدى المسلمين بحال، وبالتالي فهو لقب مرفوض في حكم الإسلام وهديه، فلا يجوز إطلاقه على جماعة المسلمين بهذا المعنى.

٥ ـ في إطلاقه على العلماء والدعاة المسلمين، تدبير ماكر من الخط المعاكس لهم بإيجاد جو يكسبهم معنى: «الإرهاب، والانشقاق» فيجعلوا من السلطة قوة لمقاومتهم، والنفرة منهم، كلما ذكر هذا اللقب المرعب.

٦ ـ وبالتالي فإن هذا المصطلح «الأصوليين» هو ألطف تلك المصطلحات في مبناه، وأشدها مكرًا في معناه.

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله تعالى ـ: «مما يلاحظ في هذه الأعوام ـ أي: ١٤١٢هـ وما بعده ـ بشكل خاص أن كثيرًا من وكالات الأنباء العالمية التي تخدم مخططات أعداء الإسلام، وتخضع لمراكز التوجيه النصراني، والماسوني، تخطط بأسلوب ماكر لإثارة العالم كله ضد ما يسمونه: «الأصوليين»، وهم يقصدون بذلك الذم والقدح في المسلمين والمتمسكين بالإسلام على أصوله الصحيحة، الذين يرفضون مسايرة الأهواء، والتقارب بين الثقافات، والأديان الباطلة»[(١)].

(١) معجم المناهج اللفظية ص١٠٥ ـ ١٠٧ باختصار.

المبحث السابع

ميزان الفرح والسرور

الفرح والحزن حالتان نفسيتان متقابلتان؛ يسعى كل إنسان في الحصول على كل ما يفرحه، وينفر من كل ما يحزنه ويغمه، ولكن الناس يتفاوتون في ميزان الفرح والحزن؛ فمن الفرح ما هو محمود مطلوب، ومنه ما هو مذموم. فمن وزن فرحه بميزان الله ﷻ للأشياء التي يفرح بها ففرحه محمود مأجور على فرحه هذا، ومن أعرض عن هذا الميزان، وأخذ بموازين البشر المادية للفرح ففرحه مذموم غير مأجور.

ميزان الله ﷻ للفرح:

«الفرح حاجة أساسية لكل نفس سوية، وشريعة الله ﷻ لم تأت لتصادم هذه الحاجة أو تلغيها؛ فهي شريعة أرحم الراحمين، وهي شريعة العليم الحكيم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]، ولكنها جاءت لتهذيب هذه الحاجة وترشيدها بما ينفع النفس في دنياها وأخراها... وللفرح بواعث كثيرة منها ما هو محل اتفاق البشر؛ كالفرح بمتع الدنيا المباحة، ومنها ما هو محل اختلاف حسب اختلاف مرجعياتهم وعقائدهم وموازينهم في ذلك.

والفرح من حيث هو: طبع بشري لا يتعلق به مدح ولا ذم، وإنما يتوجه المدح والذم للمفرحات وبواعث الفرح وطريقة التعبير عن الفرح»(١).

---

(١) انظر: مقال قراءة في صفحات الفرح، للأستاذ بندر العريدي موقع الإسلام اليوم ٩/ ١١/ ١٤٢٨هـ (باختصار وتصرف يسيرين).

فإذا كان الفرح بطاعة الله ﷻ وهدايته ونصرة دينه، أو بمباح يقوي على طاعة الله فهو ممدوح ومحبوب لله ﷻ. وأما إن كان الفرح بمعصية أو بمباح يعين على معصية، فهو مذموم ممقوت عند الله ﷻ؛ قال الله ﷻ: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١].

ومن أهم سمات هذا الميزان ما يلي:

١ ـ عدم الاغترار بمتع الحياة الدنيا وزخرفها الزائل، وبالتالي فإن الفرح بها ينبغي أن يكون بهذه النظرة لحقيقة الدنيا؛ قال الله ﷻ: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال ﷻ عن مناصحة قوم قارون له: ﴿قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. والفرح المنهي عنه هو فرح البطر والأشر والفخر المنسي للآخرة. وأما فرح المؤمن المعتاد بطيبات الحياة الدنيا، الخالي من تلك المحذورات فلا لوم عليه، ولا سيما إذا استعان به على طاعة الله ﷻ.

٢ ـ وإذا كان الفرح بمتع الحياة الدنيا المباحة مذمومًا إذا تجاوز حدود الفرح المشروع، فكيف بالفرح بمعصية الله ﷻ، سواء كان بترك واجب أو فعل محرم؟ لقد ذم الله ﷻ المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وذم فرحهم بذلك فقال: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة: ٨١].

٣ ـ إن الفرح الذي نبهنا الله ﷻ إليه، بل ندبنا إليه، هو الفرح بكل ما يقرب إلى الله ﷻ، وبكل عمل محبوب لله ﷻ؛ كأداء أنواع العبادات من فرائض ونوافل، والفرح بالهداية إلى الإسلام والقرآن، والفرح بانتصار دينه وأوليائه على أعدائه، وغيرها مما يحبه الله ويرضاه؛ قال الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤، ٥]، وقال سبحانه عن أهل الكتاب المؤمنين بالرسول ﷺ والفرحين باتباعه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ

بَعْضَهُۥۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد: ٣٦]، وقال سبحانه عن الفرح بالقرآن والهداية على الإسلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

ولما في هذه الآية الكريمة من معان عظيمة ودروس بليغة أنقل ما ذكره بعض المفسرين عندها:

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «والفرح لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى، فيتولَّد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور. كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب، فإذا فقد تولَّد من فقده حالة تسمى الحزن والغم. وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته عقيب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧]، ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته، التي تتضمن الموعظة التي هي الأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، وشفاء الصدور، المتضمن لعافيتها من داء الجهل، والظلمة، والغي، والسفه؛ وهو أشد ألمًا لها من أدواء البدن، ولكنها لمَّا ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها. وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا؛ فهناك يحضرها كل مؤلم محزن. وما آتاها ربها من الهدى الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين، وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به، و«الرحمة» التي تجلب لها كل خير ولذة، وتدفع عنها كل شر ومؤلم فذلك خير من كل ما يجمع الناسُ من أعراض الدنيا وزينتها؛ أي هذا هو الذي ينبغي أن يُفْرَح به. ومن فرح به فقد فرح بأجلِّ مفروح به، لا ما يجمع أهل الدنيا منها؛ فإنه ليس بموضع للفرح؛ لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة. وهو طيف خيال زار الصب في المنام، ثم انقضى المنام، وولَّى الطيف، وأعقب مزاره الهجران.

وقد جاء «الفرح» في القرآن على نوعين: مطلق ومقيد:

المطلق: جاء في الذم؛ كقوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

والمقيد: نوعان أيضًا: مقيد بالدنيا؛ يُنسِي صاحبه فضل الله ومنته؛ فهو مذموم، كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

والثاني: مقيد بفضل الله وبرحمته، وهو نوعان أيضًا: فضل ورحمة بالسبب، وفضل بالمسبب. فالأول: كقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨]. والثاني: كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

فالفرح بالله، وبرسوله، وبالإيمان، وبالسنة، وبالعلم، وبالقرآن: من أعلى مقامات العارفين؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦].

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره؛ فإنَّ فرح العبد بالشيء عند حصوله له على قدر محبته له، ورغبته فيه. فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته، فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله، والاستبشار: يكون به قبل حصوله؛ إذا كان على ثقة من حصوله. ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠]»(١).

ويقول في موطن آخر: «فأوامره سبحانه، وحقه الذي أوجبه على العباد، وشرائعه التي شرعها لهم، هي قرة العيون ولذة القلوب، ونعيم الأرواح

---

(١) مدارج السالكين ٣/١٥٧، ١٥٨.

وسرورها، وبها شفاؤها وسعادتها وفلاحها، وكمالها في معاشها ومعادها، بل لا سرور لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم في الحقيقة إلا بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨]، قال أبو سعيد الخُدري رضي الله عنه: «فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله» وقال هلال بن يساف: «بالإسلام الذي هداكم إليه، وبالقرآن الذي علَّمكم إياه، هو خير مما تجمعون من الذهب والفضة» وكذلك قال ابن عباس والحسن وقتادة: «فضله: الإسلام، ورحمته القرآن»، وقالت طائفة من السلف: «فضله القرآن، ورحمته الإسلام».

والتحقيق: أن كلًّا منهما فيه الوصفان: الفضل والرحمة، وهما الأمران اللذان امتن الله بهما على رسوله ﷺ فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، والله سبحانه إنما رفع من رفع بالكتاب والإيمان، ووضع من وضع بعدمهما»[(١)].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: «فإن أرفع درجات القلوب: فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ، وابتهاجها وسرورها؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]. ففضل الله ورحمته القرآن والإيمان، من فرح به فقد فرح بأعظم مفروح به، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه ووضع الفرح في غير موضعه.

فإذا استقر في القلب وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده، ورحمته له، وحلمه عنده، وبره به، وإحسانه إليه على الدوام، أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه»[(٢)].

ويقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ: «فبهذا الفضل الذي آتاه الله

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٣١.
(٢) مجموع الفتاوى ١٦/ ٤٩.

عباده، وبهذه الرحمة التي أفاضها عليهم من الإيمان.. فبذلك وحده فليفرحوا، فهذا هو الذي يستحق الفرح، لا المال ولا أعراض هذه الحياة. إن ذلك هو الفرح العلوي الذي يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية والأعراض الزائلة، فيجعل هذه الأعراض خادمة للحياة لا مخدومة، ويجعل الإنسان فوقها وهو يستمتع بها لا عبدًا خاضعًا لها. والإسلام لا يحقر أعراض الحياة الدنيا ليهجرها الناس ويزهدوا فيها. إنما هو يزنها بوزنها ليستمتع بها الناس وهم أحرار الإرادة طلقاء اليد، مطمحهم أعلى من هذه الأعراض، وآفاقهم أسمى من دنيا الأرض. الإيمان عندهم هو النعمة، وتأدية مقتضيات الإيمان هي الهدف. والدنيا بعد ذلك مملوكة لهم لا سلطان لها عليهم...

إن الأرزاق المادية، والقيم المادية، ليست هي التي تحدد مكان الناس في هذه الأرض.. في الحياة الدنيا فضلًا عن مكانهم في الحياة الأخرى.. إن الأرزاق المادية، والتيسيرات المادية، والقيم المادية، يمكن أن تصبح من أسباب شقوة البشرية ـ لا في الآخرة المؤجلة ولكن في هذه الحياة الواقعة ـ كما نشهد اليوم في حضارة المادة الكالحة!

إنه لا بد من قيم أخرى تحكم الحياة الإنسانية؛ وهذه القيم الأخرى هي التي يمكن أن تعطي للأرزاق المادية والتيسيرات المادية قيمتها في حياة الناس، وهي التي يمكن أن تجعل منها مادة سعادة وراحة لبني الإنسان.

إن المنهج الذي يحكم حياة مجموعة من البشر هو الذي يحدد قيمة الأرزاق المادية في حياتهم. هو الذي يجعلها عنصر سعادة أو عنصر شقاء، كما يجعلها سببًا للرقي الإنساني أو مزلقًا للارتكاس!

ومن هنا كان التركيز على قيمة هذا الدين في حياة أهله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

ومن هنا كان الذين تلقوا هذا القرآن أول مرة يدركون هذه القيمة العليا،

فيقول عمر ﷺ عن المال والأنعام: «ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

لقد كان عمر ﷺ يفقه دينه؛ كان يعرف أن فضل الله ورحمته يتمثلان بالدرجة الأولى في هذا الذي أنزله الله لهم: ﴿مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، لا فيما يجمعون من المال والإبل والأرزاق!»[1].

ومن أمثلة الفرح الممدوح الموزون بميزان الله ﷻ: فرح الصحابة ﷺ بكل ما يقوي إيمانهم ويقربهم إلى الله ﷻ وجنته من العبادات الباطنة والظاهرة؛ فهذا أنس بن مالك ﷺ يفرح عندما سمع رسول الله ﷺ يقول للذي سأله عن الساعة: «**أنت مع من أحببت**». ويقول عن نفسه وعن الصحابة ﷺ: «فما فرحنا بشيء بعد الإسلام فرحنا بقول النبي ﷺ: «**أنت مع من أحببت**»»[2].

ومثالٌ آخر وغير مباشر لهذا الميزان القسط للفرح الحقيقي: حزن بعض الصحابة الذين لم يجدوا ما يُحمَلون عليه في الجهاد في سبيل الله ﷻ، فعز عليهم وحزنوا على فوات هذا العمل الجليل الذي يحبه الله ﷻ، وتفرح به القلوب، فحزنوا على فوات هذا الفرح؛ كما في قوله سبحانه عنهم وعن عذرهم في الخروج إلى الجهاد: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩٢].

٤ ـ إن الله ﷻ يحب من عباده من يدخل السرور والفرح على عباده المؤمنين، ولذا جاءت الأحاديث الكثيرة في فضل من يسَّر على معسر عسره، ومن فرَّج عن مكروب كربه وحزنه؛ كما في قوله ﷺ: «**ومن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه يوم القيامة، ومن فرَّج عن مؤمن كربة فرَّج الله عنه كربة من كرب**

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٩٩، ١٨٠٠.
(٢) البخاري (٣٦٨٨)، مسلم (٢٦٣٩).

يوم القيامة»[١]. وقد أمر ﷺ ذلك الرجل الذي أبكى والديه وأذهب عنهم الفرح حينما هَمَّ بالخروج إلى الجهاد أن يعود إليهما ويبقى عندهما ليرجع إليهما فرحتهما؛ حيث قال ﷺ: «**فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما»**[٢].

وندب الشرع المطهر إلى أن يكون المسلم طلق الوجه، مشرق النفس، مبتسمًا في وجه أهله وإخوانه، مساهمًا بكل ما ينشر الفرح المعتدل والسرور والبشر بين المسلمين، ولقد كان ﷺ طلق المحيا، يبتسم في وجوه أصحابه؛ كما وصف ذلك جرير البجلي رضي الله عنه بقوله: «ما رآني رسول الله ﷺ إلا ضحك»[٣]. وقال ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»**[٤]. وهذا الفرح المعتدل، ودوام البشر والابتسامة لا يعارض الفرح المذموم؛ فإن هذا لون وذلك لون آخر.

٥ ـ وكما أن للفرح ميزانَ عدل وقسط لبواعثه فله، أيضًا ميزان عدل وقسط في التعبير عنه عند أصحاب الميزان الإلهي؛ ومن ذلك أن يوجه العبد فرحه المحمود بميزان الشريعة؛ وذلك بأن تكون الوسيلة في التعبير عن هذا الفرح موزونة هي الأخرى بميزان الشرع، فلا يفقد توازنه، وإنما يكون التعبير عن الفرح بما لا يخالف الشرع، أو يتجاوز حدود الأدب والمروءة، ولا يكون فيه تعدٍّ على حقوق الغير. فالفرح بالعيد ـ مثلًا ـ يكون التعبير عنه بتعظيم هذا اليوم، وصلة الأرحام، والترويح عن النفس والأهل والأولاد بالمباحات، وتفقد الفقراء وإدخال السرور عليهم بالصدقة والمواساة. أما أن يتحول التعبير عن الفرح بالعيد إلى التفلُّت من أوامر الشرع ونواهيه، والتهاون في آدابه بالبطر والكبر، فإن هذا من موازين البشر القاصرة، الظالمة الجاهلة في التعبير عن الفرح بالعيد، وهكذا في بقية المناسبات السارة.

٦ ـ وأعظم فرح يحبه الله عز وجل، ويحبه المؤمنون، ويجعلون الفرح به هو

---

(١) البخاري (٢٦٩٩).

(٢) النسائي (٤٠٩٣)، وأبو داود (٢٥٢٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٠٦).

(٣) مسلم (٢٤٧٥).

(٤) مسلم (٢٦٢٦).

أعظم الفرح وأدومه هو: الفرح برضا الله ﷻ عنهم، ودخولهم الجنة - بلد الأفراح - يوم القيامة؛ قال الله ﷻ عن الشهداء في سبيل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

موازين البشر المعوجة للفرح والسرور:

سبق من خلال الكلام عن الميزان الشرعي للفرح والسرور ذكر شيء مما يضاده من موازين البشر المعوجة للفرح. أذكر في هذه الفقرة أهمها:

١ - اختلال موازينهم في بواعث الفرح؛ وذلك من خلال تجاوزهم للفرح المعتدل في المناسبات، واللهث الشديد وراء الدنيا الزائلة، وجعلها هي محور فرحهم الذي يدورون حوله، ولا يرون فيما سواها شيء يفرح به، حتى أنساهم ذلك طاعة الله ﷻ التي ينبغي أن يفرح بها، وأنساهم حظهم من الآخرة ونعيمها. وهذا النوع من الفرح هو الذي ذمَّه الله ﷻ بقوله عن قارون الذي أطغاه ماله: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقال ﷻ: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]. ولمَّا تمنَّى بعض قوم قارون أن يكون لهم من الحظ مثل ما أوتي قارون نصحهم المؤمنون العارفون بالله، والعاملون بميزانه القسط، بأن ثواب الله خير وأبقى، وهو الذي ينبغي أن يفرح به؛ قال الله ﷻ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠].

٢ - وتجاوزت هذه الموازين المعوجة الفرح الشديد بالمباحات والركون إلى الدنيا إلى أن أصبحت بواعث الفرح عند بعض الناس هي معصية الله ﷻ، وترك طاعته. وقد سبقت الإشارة إلى المنافقين الذين فرحوا بتخلفهم عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من غير عذر إلا الميل إلى الدعة والراحة،

والنفور من الحر والمشقة؛ قال سبحانه: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة: ٨١، ٨٢].

٣ ـ ومن موازينهم المعوجة في بواعث الفرح: فرح بعض الناس ـ وخاصة المغرورين ـ بعقولهم وفلسفاتهم وثقافاتهم؛ حيث زيَّنها لهم الشيطان، وحسَّنها في عقولهم، وجادلوا بها الحق وأهله فرحًا واغتباطًا؛ قال الله ﷻ عن سلف هؤلاء: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: ٨٣].

٤ ـ ومن بواعث الفرح عندهم: فرحهم بالرياء، وبما لم يؤتوا، وفرحهم بالمدح والثناء على ما لم يفعلوه؛ كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨٨].

٥ ـ ومن بواعث الفرح الممقوتة الشنيعة عند المنافقين وأشباههم: فرحهم بالمصائب التي تحل بالمسلمين؛ قال الله ﷻ: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة: ٥٠].

وقال سبحانه عن هؤلاء المخدوعين: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وواقعنا المعاصر شاهد على أمثال هؤلاء من الرافضة الباطنيين، والعلمانيين الحاقدين؛ الذين يفرحهم ما يصيب دعاة الحق والمجاهدين من المصائب، ويسوؤهم ما يفتحه الله ﷻ من الخير عليهم.

٦ ـ الفرح بالتحزب على الباطل؛ كما وصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣٢].

٧ ـ ومن موازين البشر المعوجة في تعبيرهم عن الفرح: ما يقومون به من الأشر والبطر والفخر في مواسم الفرح؛ كالأعياد والأعراس، وما يكون فيها من المعاصي والمنكرات، وما يكون فيها من الفخر والعُجْب، ونسيان المنعم المتفضل بها ـ وهو الله ﷻ ـ ونسبة النعم والحصول عليها إلى النفس والحنكة والذكاء؛ كما ذكره الله ﷻ عن قارون بعد أن نصحه قومه ونهوه عن فرح البطر والفخر، فقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨]، وقال سبحانه عن أمثاله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزمر: ٤٩].

٨ ـ ومن وسائل أصحاب الموازين المعوجة في تعبيرهم عن الفرح: ما يقومون به من العدوان على الناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وبخسهم حقوقهم؛ كهذا الذي يحصل اليوم في مواسم الرياضة والكرة، والتعصب لهذا الفريق أو ذاك، أو ما يحصل في بعض مناسبات الأفراح.

٩ ـ ومن بواعث الفرح عند أهل هذه الموازين المنحرفة: فرحهم باستهزائهم بالمؤمنين الطائعين لله ﷻ؛ قال سبحانه في وصفهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٦].

❑ ❑ ❑

المبحث الثامن

ميزان الغنى والفقر

يقول الرسول ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**»(١). في هذا الحديث المختصر بيان لميزان الغنى عند الله ﷻ، وميزانه عند الناس؛ حيث إن الغنى في ميزان الله ﷻ هو غنى النفس، وعند الناس هو كثرة الأموال والعروض. قال في فتح الباري: «والعرض هو كل ما ينتفع به من متاع الدنيا... والعرَض بتحريك الراء: الواحد من العروض التي يُتَّجر فيها... وقال أبو عبيدة: «العروض» الأمتعة؛ وهي ما سوى الحيوان والعقار، وما لا يدخله كيل ولا وزن... وقال فارس: العرْض بالسكون كل ما كان من المال غير نقد، وجمعه عروض، وأما بالفتح فما يصيبه الإنسان من حظه في الدنيا؛ قال الله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾ [الأعراف: ١٦٩]. وروى ابن حبان ـ رحمه الله تعالى ـ حديثًا في معنى الحديث السابق عن أبي ذر ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر أترى كثرة المال هو الغنى؟** قلت: نعم. قال: **وترى قلة المال هو الفقر؟** قلت: نعم يا رسول الله. قال: **إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب**»(٢).

«قال ابن بطال: معنى الحديث: ليس حقيقة الغنى كثرة المال؛ لأن كثيرًا ممن وسَّع الله عليه في المال لا يقنع بما أوتي، فهو يجتهد في الازدياد ولا يبالي من أين يأتيه، فكأنه فقير لشدة حرصه، وإنما حقيقة الغنى غنى

(١) البخاري (٦٤٤٦).
(٢) صحيح ابن حبان (٦٨٥) وصحَّح إسناده شعيب الأرناؤوط في الإحسان ٢/ ٤٦١.

النفس، وهو من استغنى بما أوتي وقنع به ورضي، ولم يحرص على الازدياد ولا ألح في الطلب، فكأنه غني. وقال القرطبي: معنى الحديث: إن الغنى النافع، أو العظيم، أو الممدوح هو غنى النفس. وبيانه: أنه إذا استغنت نفسه كفَّت عن المطامع، فعزَّتْ وعظُمَتْ، وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه؛ فإنه يورطه في رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همته وبخله، ويكثر من يذمه من الناس، ويصغر قدره عندهم، فيكون أحقر من كل حقير، وأذل من كل ذليل.
والحاصل أن المتصف بغنى النفس يكون قانعًا بما رزقه الله، لا يحرص على الازدياد لغير حاجة، ولا يُلِح في الطلب ولا يُلحِف في السؤال، بل يرضى بما قسم الله له، فكأنه واجد أبدًا، والمتصف بفقر النفس على الضد منه؛ لكونه لا يقنع بما أعطي، بل هو أبدًا في طلب الازدياد من أي وجه أمكنه، ثم إذا فاته المطلوب حزن وأسف، فكأنه فقير من المال؛ لأنه لم يستغن بما أعطي، فكأنه ليس بغني. ثم غنى النفس إنما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمره؛ علمًا بأن الذي عند الله خير وأبقى، فهو معرض عن الحرص والطلب، وما أحسن قول القائل:

غنى النفس ما يكفيك من سد حاجة ... فإن زاد شيئًا عاد ذاك الغنى فقرا

وقال الطيبي: يمكن أن يراد بغنى النفس حصول الكمالات العلمية والعملية، وإلى ذلك أشار القائل:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله ... مخافة فقر فالذي فعل الفقر

أي ينبغي أن ينفق أوقاته في الغنى الحقيقي؛ وهو تحصيل الكمالات، لا في جمع المال؛ فإنه لا يزداد بذلك إلا فقرًا انتهى. وهذا، وإن كان يمكن أن يراد، لكن الذي تقدم أظهر في المراد، وإنما يحصل غنى النفس بغنى القلب؛ بأن يفتقر إلى ربه في جميع أموره، فيتحقق أنه المعطي المانع، فيرضى بقضائه، ويشكره على نعمائه، ويفزع إليه في كشف ضرائه، فينشأ عن افتقار القلب لربه غنى نفسه عن غير ربه تعالى، والغنى الوارد في قوله:

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٨] يتنزل على النفس؛ فإن الآية مكية، ولا يخفى ما كان فيه النبي ﷺ قبل أن تفتح عليه خيبر وغيرها من قلة المال. والله أعلم»[١].

وبهذا يتضح لنا من الحديث السابق وشرحه الميزان الإلهي للغنى والفقر، وما يقابله من موازين البشر. وإتمامًا للفائدة أذكر بعض السمات لميزان الله ﷻ المستقيم، وبعض سمات موازين البشر المعْوَجَّة.

أولًا: من سمات الميزان الإلهي للغنى والفقر:

أولًا: إن الغنى الحقيقي في ميزان الله تعالى هو غنى القلب والنفس. وحقيقة ذلك: استغناء العبد بربه ﷻ؛ وذلك بما يقوم في القلب من صدق العبودية له سبحانه، والمحبة، والإخلاص، والخضوع والتذلل والافتقار إليه ﷻ، الأمر الذي يغنيه عن الخلق، والتعلق بهم، وخوفم ورجائهم. وهذا هو الغنى الذي ورد ذكره في الحديثين السابقين: «**ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس**»، وكذلك في قوله ﷺ: «**إنما الغنى غنى القلب**».

وقوله ﷺ: «**من أصبح والدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح والآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، وكان الله بكل خير إليه أسرع**»[٢].

وهذا هو الغنى الذي سمَّاه الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ بالغنى العالي؛ حيث يقول في وصفه: «واعلم أن الغنى على الحقيقة لا يكون إلا بالله الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فموسوم بسمة الفقر، كما هو موسوم بسمة الخلق والصنع، وكما أن كونه مخلوقًا أمر ذاتي له، فكونه فقيرًا

---

(١) فتح الباري ١١/ ٢٧٧.

(٢) الترمذي في القيامة ٤/ ٢٤٦٥، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٤٩، ٩٥٠).

أمر ذاتي له كما تقدم بيانه، وغناه أمر نسبي إضافي عارض له؛ فإنه إنما استغنى بأمر خارج عن ذاته، فهو غني به فقير إليه، ولا يوصف بالغنى على الإطلاق إلا من غناه من لوازم ذاته؛ فهو الغني بذاته عما سواه، وهو الأحد الصمد الغني الحميد.

والغنى قسمان: غنى سافل، وغنى عال. فالغنى السافل: الغنى بالعواري المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، وهذا أضعف الغنى؛ فإنه غنى بظل زائل، وعارية ترجع عن قريب إلى أربابها، فإذا الفقر بأجمعه بعد ذهابها، وكأن الغنى بها كان حلمًا فانقضى، ولا همة أضعف من همة من رضي بهذا الغنى الذي هو ظل زائل. وهذا غنى أرباب الدنيا الذي فيه يتنافسون، وإياه يطلبون، وحوله يحومون، ولا أحب إلى الشيطان وأبعد عن الرحمن من قلب ملآن بحب هذا الغنى والخوف من فقده. قال بعض السلف: إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء: مؤمن قتل مؤمنًا، ورجل يموت على الكفر، وقلب فيه خوف الفقر. وهذا الغنى محفوف بفقرين: فقر قبله، وفقر بعده، وهو كالغفوة بينهما، فحقيق بمن نصح نفسه أن لا يغترَّ به، ولا يجعله نهاية مطلبه، بل إذا حصل له جعله سببًا لغناه الأكبر ووسيلة إليه، ويجعله خادمًا من خدمه لا مخدومًا له، وتكون نفسه أعز عليه من أن يعبِّدها لغير مولاه الحق، أو يجعلها خادمة لغيره... فالغنيُّ إنما يصير غنيًا بحصول ما يسد فاقته ويدفع حاجته. وفي القلب فاقة عظيمة وضرورة تامة وحاجة شديدة لا يسدها إلا فوزه بحصول الغنى الحميد الذي إن حصل للعبد حصل له كل شيء، وإن فاته فاته كل شيء؛ فكما أنه سبحانه الغنيُّ على الحقيقة ولا غني سواه، فالغني به هو الغني في الحقيقة، ولا غنى بغيره البتة، فمن لم يستغن به عمَّا سواه تقطَّعت نفسه على السوى حسرات، ومن استغنى به زالت عنه كل حسرة، وحضره كل سرور وفرح، والله المستعان...

والقلب إذا استغنى بما فاض عليه من مواهب ربه وعطاياه السنية خلع على الأمراء والرعية خلعًا تناسبها، فخلع على النفس خلع الطمأنينة والسكينة

والرضا والإخبات، فأدت الحقوق سماحة لا كظمًا، بانشراح ورضا ومبادرة؛ وذلك لأنها جانست القلب حينئذ ووافقته في أكثر أموره، واتحد مرادهما غالبًا فصارت له وزير صدق، بعد أن كانت عدوًّا مبارزًا بالعداوة، فلا تسأل عما أحدثت هذه المؤازرة والموافقة من طمأنينة ولذة عيش ونعيم هو دقيقة من نعيم أهل الجنة. هذا ولم تضع الحرب أوزارها فيما بينهما، بل عُدَّتها وسلاحها كامن متوار، لولا قدرة سلطان القلب وقهره لحاربت بكل سلاح، فالمرابطة على ثغري الظاهر والباطن فرض متعين مدة أنفاس الحياة.

وتنقضي الحربُ محمودًا عواقبها للصابرينَ، وحظ الهارب النَدمُ

وخلع على الجوارح خلع الخشوع والوقار، وعلى الوجه خلعة المهابة والنور والبهاء، وعلى اللسان خلعة الصدق والقول السديد الثابت والحكمة النافعة، وعلى العين خلعة الاعتبار في النظر والغض عن المحارم، وعلى الأذن خلعة استماع النصيحة، واستماع القول النافع استماعه للعبد في معاشه ومعاده، وعلى اليدين والرجلين خلعة البطش في الطاعات أيًا كانت بقوة وأيد، وعلى الفرج خلعة العفة والحفظ؛ فغدا العبد وراح يرفل في هذه الخلع ويجر لها في الناس أذيالًا وأردانًا»[١].

ثانيًا: ومن سمات الغنى الحقيقي ـ والذي هو الغنى بالله ﷻ والافتقار إليه ـ استغناء النفس بهذا الغنى عن التطاول إلى المحرمات، أو التفريط في الواجبات، أو الانجذاب مع هوى النفس وشهواتها.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «وإذا وصلت النفس إلى هذه الحال استغنت بها عن التطاول إلى الشهوات التي توجب اقتحام الحدود المسخوطة، والتقاعد عن الأمور المطلوبة المرغوبة؛ فإن فقرها إلى الشهوات هو الموجب لها التقاعد عن المرغوب المطلوب، وأيضًا فتقاعدها عن المطلوب موجب لفقرها إلى الشهوات، فكل منهما موجب لآخر، وترك الأوامر أقوى لها من

---

(١) طريق الهجرتين ص٣٤.

افتقارها إلى الشهوات؛ فإنه بحسب قيام العبد بالأمر تدفع عنه جيوش الشهوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨]، وفي القراءة الأخرى: (**يدفع**)؛ فكمال الدفع والمدافعة بحسب قوة الإيمان وضعفه. وإذا صارت النفس حرة طيبة مطمئنة غنية بما أغناها به مالكها وفاطرها من النور الذي وقع في القلب، ففاض منه إليها: استقامت بذلك الغنى على الأمر الموهوب، وسلمت به من الأمر المسخوط، وبرئت من المراءاة، ومدار ذلك كله على الاستقامة باطنًا وظاهرًا، ولهذا كان الدين كله في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: ١٣]»[(١)].

ثالثًا: ومن علامات هذا الغنى الحقيقي ـ كما هو في ميزان الله تعالى ـ إخلاص العبادة لله تعالى، والزهد في محمدة الناس وثنائهم وطلب الجاه عندهم. يقول الإمام الهروي ـ رحمه الله تعالى ـ في تعريفه لغنى النفس: «إنه استقامتها على المرغوب، وسلامتها من الحظوظ، وبراءتها من المراءاة»[(٢)].

ويشرح ابن القيم كلام الهروي فيقول: «يريد استقامتها على الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه، وتجنبها لمناهيه التي يسخطها ويبغضها، وأن تكون هذه الاستقامة على الفعل والترك تعظيمًا لله سبحانه وأمره، وإيمانًا به، واحتسابًا لثوابه، وخشية من عقابه؛ لا طلبًا لتعظيم المخلوقين له ومدحهم، وهربًا من ذمهم وازدرائهم، وطلبًا للجاه والمنزلة عندهم؛ فإن هذا دليل على غاية الفقر من الله والبعد منه، وأنه أفقر شيء إلى المخلوق. فسلامة النفس من ذلك واتصافها بضده دليل غناها».

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: «فغني النفس الذي لا يستشرف إلى المخلوق؛ فإن الحر عبد ما طمع، والعبد حر ما قنع، وقد قيل: أطعت مطامعي فاستعبدتني.

---

(١) طريق الهجرتين ص٣٩، ٤٠.
(٢) المصدر السابق ص٣٩.

فكره أن يتبع نفسه لما استشرفت له لئلا يبقى في القلب فقر وطمع إلى المخلوق؛ فإنه خلاف التوكل المأمور به، وخلاف غنى النفس»[١].

رابعًا: ومن علامات الغنى الحقيقي الذي هو غنى القلب بالله ﷻ: إيثار ما عند الله والدار الآخرة على الدنيا، والزهد في كل ما يشغل عن الآخرة، وعدم التنافس مع أهل الدنيا عليها، والنظر إلى أن المكثرين من الدنيا هم في الغالب المقلون المغبونون يوم القيامة. وهذه النظرة تعطينا ميزانًا آخر للكثرة والقلة؛ حيث إن الكثرة النافعة في ميزان الله تعالى هي الكثرة من الأعمال الصالحة، وأما الكثرة من الدنيا فهي في ميزان الله تعالى قلة وخسران؛ يقول الله ﷻ: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

يعلق سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ على هذه الآية فيقول: «والكثرة تأخذ العين وتهول الحس. ولكن تمييز الخبيث من الطيب، وارتفاع النفس حتى تزنه بميزان الله، يجعل كفة الخبيث تشيل مع كثرته، وكفة الطيب ترجح على قلته، وعندئذ تصبح هذه الأمة أمينة ومؤتمنة على القوامة.. القوامة على البشرية.. تزن لها بميزان الله، وتقدر لها بقدر الله، وتختار لها الطيب، ولا تأخذ عينها ولا نفسها كثرة الخبيث!

وموقف آخر ينفع فيه هذا الميزان.. ذلك حين ينتفش الباطل؛ فتراه النفوس رابيًا، وتؤخذ الأعين بمظهره وكثرته وقوته.. ثم ينظر المؤمن الذي يزن بميزان الله إلى هذا الباطل المنتفش، فلا تضطرب يده، ولا يزوغ بصره، ولا يختل ميزانه؛ ويختار عليه الحق الذي لا رغوة له ولا زبد، ولا عدة حوله ولا عدد.. إنما هو الحق.. الحق المجرد إلا من صفته وذاته، وإلا من ثقله في ميزان الله وثباته، وإلا من جماله الذاتي وسلطانه!»[٢].

ويوضح ذلك الحديث التالي: «عن أبي ذر رضي الله عنه قال: خرجت ليلة من الليالي فإذا رسول الله ﷺ يمشي وحده وليس معه إنسان، قال: فظننت أنه

---

(١) مجموع الفتاوى ١٨/ ٣٢٨.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٨٤.

يكره أن يمشي معه أحد. قال: فجعلت أمشي في ظل القمر، فالتفت فرآني فقال: **من هذا؟** قلت: أبو ذر جعلني الله فداءك. قال: **يا أبا ذر تعاله**. قال: فمشيت معه ساعة فقال: **إن المكثرين هم المُقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيرًا فنفح فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيرًا**»(١).

وقد ترجم البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ لهذا الحديث بقوله: «باب المكثرون هم المقلون». وشرح الإمام ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الترجمة بقوله: «كذا للأكثر، وللكشميهني «الأقلون». وقد ورد الحديث باللفظين، ووقع في رواية المعرور عن أبي ذر: «الأخسرون» بدل «المقلون»، وهو بمعناه بناء على أن المراد بالقلة في الحديث: قلة الثواب، وكل من قل ثوابه فهو خاسر بالنسبة لمن كثر ثوابه»(٢).

وقال في شرحه أيضًا: «والمراد الإكثار من المال والإقلال من ثواب الآخرة، وهذا في حق من كان مكثرًا ولم يتصف بما دل عليه الاستثناء بعده من الإنفاق في قوله: «**إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه**»(٣). وفي معنى هذا الحديث أيضًا قوله ﷺ: «**ما نقص مال من صدقة**»(٤). قال المباركفوري في تحفة الأحوذي: «أي ما نقص مال عبد من صدقة تَصدَّق بها منه، بل يبارك له فيه بما يجبر نقصه الحسي»(٥).

خامسًا: ومن آثار الغنى العالي عند الله ﷻ: إقرار العبد بالإفلاس والضعف، والافتقار إلى الله ﷻ، والتبرُّؤ من الحول والقوة إلا بالله ﷻ، والاستغناء به سبحانه، والاكتفاء به في دفع الشرور وجلب المنافع. يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «إقراره بالإفلاس عين الغنى. تنكيس رأسك بالندم

---

(١) البخاري (٦٤٤٣).
(٢) فتح الباري ١١/٢٦٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) رواه الترمذي في الزهد، باب ما جاء (مثل الدنيا مثل أربعة نفر) (٢٣٢٦)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي (١٨٩٤).
(٥) تحفة الأحوذي ٦/٦١٦.

هو الرفعة، اعترافك بالخطأ نفس الإصابة. عرضت سلعة العبودية في سوق البيع، فبذلت الملائكة نقد: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، فقال آدم: ما عندي إلا فلوس الإفلاس نقشها: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾»(١).

سادسًا: ومن علامات الغنى العالي: الاستغناء بالعلم النافع إذا استغنى الناس بالمال؛ فالغنى بالعلم من الغنى العالي المحبوب لله ﷻ؛ لأنه يورث خشية القلب وغناه بالله، ويورث الغنى الكامل في الآخرة. يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى -: «إن غنى العلم أجلُّ من غنى المال؛ فإن غني المال غني بأمر خارجي عن حقيقية الإنسان، لو ذهب في ليلة أصبح فقيرًا معدمًا وغني العلم لا يُخشى عليه الفقر، بل هو في زيادة أبدًا، فهو الغنى العالي حقيقة كما قيل:

غنيت بلا مال عن الناس كلهم ... وإن الغنى العالي عن الشيء لا به(٢)

وقال أيضًا: «والعالم بعد وفاته ميت وهو حيٌ بين الناس، والجاهل في حياته حيٌ وهو ميت بين الناس كما قيل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشور

وقال الآخر:

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم ... وعاش قوم وهم في الناس أموات

وقال آخر:

وما دام ذكر العبد بالفضل باقيًا ... فذلك حيٌ وهو في الترب هالك

ومن تأمّل أحوال أئمة الإسلام؛ كأئمة الحديث والفقه، كيف هم تحت التراب، وهم في العالمين كأنهم أحياء بينهم، لم يفقدوا منهم إلا صورهم، وإلا فذكرهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع. وهذه هي الحياة حقًا، حتى عد ذلك حياة ثانية»(٣).

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٧٥٥.
(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ١٣١.
(٣) مفتاح دار السعادة ١/ ١٣٩.

ثانيًا: من سمات موازين البشر المعوجة للغنى والفقر:

جاء ذكر كثير من هذه السمات متفرقة أثناء الكلام عن الميزان الإلهي للغنى والفقر، ولذا سأكتفي بذكر أهم هذه السمات على سبيل الاختصار:

أولًا: الاعتبار الأساس للغنى عند كثير من الناس هو كثرة المال، وبسط الدنيا وسعة الرزق، والفقر عندهم قلة ذلك؛ دون النظر للغنى الحقيقي الذي سبق ذكره في ميزان الشرع؛ ألا وهو غنى القلب والنفس، وغنى العلم والإيمان، والاستغناء عن الناس وأموالهم، والغنى بالله ﷻ، وامتلاء القلب بنوره.

وقد ذكر الله ﷻ في كتابه الكريم موازين الجاهلية للغنى والكثرة؛ وذلك في آيات كثيرة منها:

- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٥].

- وقال عن صاحب الجنتين في سورة الكهف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٣٦].

- وذكر الله ﷻ عن الملأ من بني إسرائيل ـ عندما طلبوا الجهاد فبعث الله لهم طالوت ملكًا ـ أنهم وزنوا من يترأس عليهم بكثرة المال فنبَّههم الله ﷻ إلى الميزان الحقيقي للغنى، ألا وهو الغنى بالعلم والإيمان؛ قال سبحانه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧].

ثانيًا: ومن علامات هذا الغنى السافل: التعلق بالأسباب والركون إليها، وضعف التوكل على الله ﷻ، وإذلال النفس عند الخلق في طلب الحوائج.

ثالثًا: ومن علاماته: الحرص الشديد على الأموال، وجمعها من أي مصدر كان، وبأي طريق كان، وجعل ذلك الهم الأكبر في الحياة، ونسيان الآخرة والعمل لها؛ قال الله ﷻ عن أصحاب هذه الموازين: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ١٩، ٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات: ٦ ـ ٨].

رابعًا: بُعْدُ أصحاب هذه الموازين عن الله ﷻ، وعدم شعورهم بالتقصير لفقدهم لغنى القلب، وبالتالي لا يُرون إلا معجبين بأنفسهم، مدلين بأعمالهم، ناسين أو متناسين لزلاتهم. وبالجملة فهم لا يشعرون بالتقصير في جنب الله تعالى، ولا بالافتقار إليه؛ لخلو قلوبهم من الغنى به سبحانه الذي هو الغنى على الحقيقة، واستبدالهم بذلك جمعهم للدنيا واستغناؤهم بها عن الله ﷻ. ومثل هؤلاء لا ترى حياتهم إلا نكدًا وشقاءً واضطرابًا؛ ولو هملجت بهم البراذين، وطقطقت بهم البغال، وخدمهم المال والبنون.

خامسًا: من خلا قلبه من الغنى بالله ﷻ والافتقار إليه حلَّ مكان ذلك الغنى بالخلق والافتقار إليهم، وإلى إعاناتهم وثنائهم ومدحهم، وأصبح من هذه حاله لاهثًا وراء الخلق ليحمدوه ويمدحوه ويعظموه، باذلًا في ذلك كل وسيلة تحقق له ذلك. وما ذاك إلا من ضعف الغنى بالله ﷻ وتعظيمه وحمده، وإلا فإن غني القلب الفقير إلى الله ﷻ على الحقيقة لا يُرى إلا زاهدًا في ذلك كله.

سادسًا: ومن سمات موازين البشر المعوجة للغنى: انصراف قلوب أصحابها عن العلم النافع، والاستغناء عن ذلك بعلوم الدنيا التي هي مبلغهم من العلم، وامتلاء قلوبهم بها وفرحهم بها، وخلوها من العلم النافع الذي يثمر العمل الصالح المقرب إلى الله ﷻ وجنته؛ قال الله ﷻ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا

﴿مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧]، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨٣﴾ [غافر: ٨٣].

سابعًا: ينظر أصحاب الموازين المادية إلى المال بكثرته وزيادته دون اعتبار لبركته وحله وعاقبته في الآخرة؛ فالربا مثلًا في موازين الجاهلية زيادة وكثرة، بينما هو في ميزان الشرع قلة ومحق للبركة؛ قال الله ﷻ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝٢٧٦﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال ﷺ: «**الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قلة**»(١)، وفي رواية أخرى: «**ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة**»(٢)، أي أن ما يفتح على المرابي من المغارم والمهالك والشرور أكثر، ولئن كان في الربا زيادة عاجلة في المال إلا أن عاقبته إلى محق وخسارة في الآجل.

❑ ❑ ❑

---

(١) أحمد ١/ ٤٢٤، وصحَّحه شاكر في المسند (٤٠٢٦).

(٢) ابن ماجه (٢٢٧٠) وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٤٨).

المبحث التاسع

ميزان الربح والخسارة

الربح الذي هو الزيادة في رأس المال شيء محبوب للنفوس، وهو مقصود التجارة والبيع والشراء، ولكن شتان بين ميزان الله ﷻ للربح والخسارة وبين موازين البشر. وهذا مرتبط بالمباينة بين ميزان من يؤمن بالله ﷻ واليوم الآخر وما فيه من النعيم السرمدي أو العذاب السرمدي، وبين من لم يؤمن بذلك، أو هو في غفلة عنه. وتفصيل ذلك فيما يلي:

أولًا: الميزان الإلهي للربح والخسارة:

بيَّن الله ﷻ في كتابه الكريم حقيقة الربح والخسارة، وحقيقة المعيار الذي يوزنان به. وقد ورد ذكر الربح بلفظ صريح مرة واحدة في القرآن في قوله تعالى عن المنافقين بعد ذكر بعض صفاتهم في أول سورة البقرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة: ١٦].

أما الآيات التي تدل بمفهومها على الربح والفوز الحقيقين فهي كثيرة، منها:

*** الآية الأولى:**

يقول الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٧].

يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾: لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة ذكر صفات المؤمنين الحميدة، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ قال ابن عباس وأنس وسعيد بن المسيب وأبو عثمان

النهدي وعكرمة وجماعة: نزلت في صهيب بن سنان الرومي؛ وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرَّد منه ويهاجر فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له: ربح البيع. فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية. ويروى أن رسول الله ﷺ قال له: «**ربح البيع صهيب**» قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن عبد الله بن مردويه، حدثنا سليمان بن داود، حدثنا جعفر بن سليمان الضبي، حدثنا عوف عن أبي عثمان النهدي عن صهيب قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش: يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك؟ والله لا يكون ذلك أبدًا، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالي فخلوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**ربح صهيب ربح صهيب**» مرتين. وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: أقبل صهيب مهاجرًا نحو النبي ﷺ، فاتبعه نفر من قريش، فنزل عن راحلته وانتثل ما في كنانته، ثم قال: يا معشر قريش قد علمتم أني من أرماكم رجلًا، وأنتم والله لا تصلون إلي حتى أرمي بكل سهم في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم، وإن شئتم دللتكم على مالي وقنيتي بمكة وخليتم سبيلي. قالوا: نعم. فلما قدم على النبي ﷺ قال: «**ربح البيع**». قال ونزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ وأمّا الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١]. ولمّا حمل هشام بن عامر بين الصفين أنكر عليه بعض الناس، فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما، وتلوا

هــذه الآيــة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠٧﴾»[١].

وحادثة صهيب رضي الله عنه في الميزان البشري تعد خسارة لصهيب، ولكن قول رسول الله ﷺ له: «ربح البيع» تدل على أنه ربح في ميزان الله؛ ذلك أن موازين الإسلام تختلف عن موازين البشر في عقولهم المحدودة؛ فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فعلى هذا يكون من باع نفسه وماله في سبيل الله رابحًا وضامنًا للجنة التي لا أغلى منها، ولا أربح ممن فاز بها، فلا شك أن من ربح هذه الجنة مقابل بذله لما يملك من مال في الدنيا يكون رابحًا في ميزان الإسلام، وأنه لا يدخل أحدٌ الجنة حتى يثقل موازينه بالأعمال الصالحة، لذلك قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢﴾ [الأعراف: ٨].

أما الخاسرون في ميزان الإسلام فهم ليسوا أولئك الذين خسروا أموالهم في الدنيا بالتجارة أو بغيرها، لكنهم الذين خفَّت موازينهم يوم القيامة بسبب قلة أعمالهم الصالحة التي فرّطوا فيها عندما كانوا في الدنيا، لذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

وقــال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

*** الآية الثانية:**

قــولــه عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآية [التوبة: ١١١].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «وهذا النص الذي

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٤٧.

تلوته من قبل وسمعته ما لا أستطيع عدُّه من المرات في أثناء حفظي للقرآن، وفي أثناء تلاوته، وفي أثناء دراسته بعد ذلك في أكثر من ربع قرن من الزمان؛ هذا النص حين واجهته في «الظلال» أحسست أنني أدرك منه ما لم أدركه من قبل في المرات التي لا أملك عدَّها على مدى ذلك الزمان!

إنه نص رهيب! إنه يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله، وعن حقيقة البيعة التي أعطوها ـ بإسلامهم ـ طوال الحياة، فمن بايع هذه البيعة ووفَّى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف **(المؤمن)** وتتمثل فيه حقيقة الإيمان، وإلا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق! . . .

ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين ـ على عهد رسول الله ﷺ ـ فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم؛ ولم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم، أو يحسونها مجردة في مشاعرهم. كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها؛ لتحويلها إلى حركة منظورة، لا إلى صورة متأملة. . هكذا أدركها عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في بيعة العقبة الثانية؛ قال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ ـ يعني ليلة العقبة ـ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. قال: «**أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم**». قال: فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال: «**الجنة**». قالوا: ربح البيع، ولا نقيل ولا نستقيل. وفي رواية: «فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾»[(١)].

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾:

استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم لله، وأخذ الجنة عوضًا وثمنًا، كما وعد الله. . وما الذي فات؟ ما الذي فات المؤمن الذي يسلم الله نفسه وماله ويستعيض الجنة؟ والله ما فاته شيء؛ فالنفس إلى موت، والمال إلى فوت.

---

(١) الأثر رقم (٧٢٦٦) في تفسير الطبري ت. شاكر ١٤/ ٤٩٩.

سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل الله أم في سبيل سواه! والجنة كسب؛ كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة! فالمقابل زائل في هذا الطريق أو ذاك!

ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش لله ينتصر ـ إذا انتصر ـ لإعلاء كلمته، وتقرير دينه، وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه. ويستشهد ـ إذا استشهد ـ في سبيله، ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة. ويستشعر في كل حركة وفي كل خطوة أنه أقوى من قيود الأرض، وأنه أرفع من ثقلة الأرض، والإيمان ينتصر فيه على الألم، والعقيدة تنتصر فيه على الحياة.

إن هذا وحده كسب؛ كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق[1] الضرورة، وانتصار الإيمان فيه على الألم، وانتصار العقيدة فيه على الحياة.. فإذا أضيفت إلى ذلك كله الجنة فهو بيع يدعو إلى الاستبشار؛ وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾»[2].

وفي الآيتين التاليتين ذكر للتجارة الرابحة التي مؤداها الفوز برضوان الله تعالى وجنته، والنجاة من عذاب النار.

*** الآية الثالثة:**

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٢].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «وهنا تبلغ الصفقة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا الله، الله الذي لا تنفد خزائنه، والذي لا ممسك لرحمته؛ فهي المغفرة، والجنات والمساكن الطيبة، والنعيم المقيم في الآخرة.

---

(١) أوهاق: القيود وما يُلجئ المرء ويضطره، انظر: القاموس المحيط مادة: (وهق).

(٢) في ظلال القرآن ٣/١٧١٧، ١٧١٨.

ومعها.. مع البيعة الرابحة والصفقة الكاسبة: النصر والفتح القريب.. فمن الذي يدلُّه الله على هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يحيد؟!

وهنا يَعِنُّ للنفس خاطرٌ أمام هذا الترغيب والتحبيب.. إن المؤمن الذي يدرك حقيقة التصور الإيماني للكون والحياة، ويعيش بقلبه في هذا التصور، ويطّلع على آفاقه وآماده، ثم ينظر للحياة بغير إيمان، في حدودها الضيقة الصغيرة، وفي مستوياتها الهابطة الواطية، وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة.. هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان، ولا يتردد لحظة واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الوسيع الرفيع في عالم الواقع، ليعيش فيه، وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كذلك.. ولعله لا يطلب على جهاده هذا أجرًا خارجًا عن ذاته. فهو ذاته أجر.. هذا الجهاد.. وما يسكبه في القلب من رضا وارتياح. ثم إنه لا يطيق أن يعيش في عالم بلا إيمان، ولا يطيق أن يقعد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان؛ فهو مدفوع دفعًا إلى الجهاد؛ كائنًا مصيره فيه ما يكون»[1].

*** الآية الرابعة:**

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

*** الآية الخامسة:**

قوله ﷻ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٧، ١٥٨].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «فالموت أو القتل في سبيل الله ـ بهذا القيد، وبهذا الاعتبار ـ خير من الحياة، وخير مما يجمعه الناس في الحياة من أعراضها الصغار: من مال، ومن جاه، ومن سلطان،

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٦٠ (بتصرف يسير).

ومن متاع. خير بما يعقبه من مغفرة الله ورحمته، وهي في ميزان الحقيقة خير مما يجمعون. وإلى هذه المغفرة وهذه الرحمة يكل الله المؤمنين.. إنه لا يكلهم - في هذا المقام - إلى أمجاد شخصية، ولا إلى اعتبارات بشرية، إنما يكلهم إلى ما عند الله، ويعلق قلوبهم برحمة الله. وهي خير مما يجمع الناس على الإطلاق، وخير مما تتعلق به القلوب من أعراض»(١).

أما ذكر الخسران والخاسرين في القرآن فهو كثير ومتنوع. وبمعرفة حقيقة الخسران تعرف حقيقة الربح؛ لأن الشيء بضده يعرف، والحسن يظهر حسنه الضد. ومن الآيات التي بيَّنت حقيقة الخسران والخاسرين ما يلي:

*** الآية الأولى:**

قوله سبحانه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ - ٣].

ويفسر الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - هذه السورة مبينًا حقيقة الربح والخسران في ميزان الله ﷻ فيقول: «قال الشافعي: «لو فكر الناس في سورة العصر لكفتهم»؛ فإنه سبحانه قسم نوع الإنسان فيها قسمين: خاسرًا ورابحًا؛ فالرابح من نصح نفسه بالإيمان والعمل الصالح، ونصح الخلق بالوصية بالحق المتضمنة لتعليمه وإرشاده، والوصية بالصبر المتضمنة لصبره هو أيضًا. فتضمنت السورة النصيحتين، والتكميلتين، وغاية كمال القوتين بأخصر لفظ وأوجزه وأهذبه، وأحسنه ديباجة وألطفه موقعًا.

أما النصحيتان: فنصيحة العبد نفسه، ونصيحته أخاه بالوصية بالحق والصبر عليه. **وأما التكميلان:** فهو لتكميله نفسه، وتكميله أخاه. **وأما كمال القوتين:** فإن النفس لها قوتان: قوة العلم والنظر؛ وكمالها بالإيمان، وقوة الإرادة والحب والعمل وكمالها بالعمل الصالح، ولا يتم ذلك لها إلا بالصبر. فصار ههنا ستة أمور: ثلاثة يفعلها في نفسه، ويأمر بها غيره؛ تكميل قوته

---

(١) في ظلال القرآن ١/٤٩٩.

العلمية بالإيمان، والعملية بالأعمال الصالحة، والدوام على ذلك بالصبر عليه، وأمره لغيره بهذه الثلاثة، فيكون مؤتمرًا بها متصفًا بها معلمًا لها داعيًا إليها، فهذا هو الرابح كل الربح، وما فاته من الربح بحسبه، ويحصل له نوع من الخسران والله تعالى المستعان وعليه التكلان»(١).

*** الآية الثانية:**

قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج: ١١ ـ ١٣].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «أمَّا ذلك الصنف من الناس الذي يتحدث عنه السياق، فيجعل العقيدة صفقة في سوق التجارة: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ وقال: إن الإيمان خير؛ فها هو ذا يجلب النفع، ويدر الضرع، وينمي الزرع، ويربح التجارة، ويكفل الرواج، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾: خسر الدنيا بالبلاء الذي أصابه فلم يصبر عليه، ولم يتماسك له، ولم يرجع إلى الله فيه. وخسر الآخرة بانقلابه على وجهه، وانكفائه عن عقيدته، وانتكاسه عن الهدى الذي كان ميسرًا له. . .

إن حساب الربح والخسارة يصلح للتجارة، ولكنه لا يصلح للعقيدة؛ فالعقيدة حق يعتنق لذاته، بانفعال القلب المتلقي للنور والهدى الذي لا يملك إلا أن ينفعل بما يتلقَّى. والعقيدة تحمل جزاءها في ذاتها، بما فيها من طمأنينة وراحة ورضا، فهي لا تطلب جزاءها خارجًا عن ذاتها.

والمؤمن يعبد ربه شكرًا له على هدايته إليه، وعلى اطمئنانه للقرب منه والأنس به، فإن كان هنالك جزاء فهو فضل من الله ومنة. استحقاقًا على الإيمان أو العبادة!

---

(١) بدائع التفسير ٥/ ٣٢٧، ٣٢٨.

والمؤمن لا يجرب إلهه؛ فهو قابل ابتداء لكل ما يُقدِّره له، مستسلم ابتداء لكل ما يجريه عليه، راضٍ ابتداء بكل ما يناله من السراء والضراء. وليست هي صفقة في السوق بين بائع وشار، وإنما هي إسلام المخلوق للخالق صاحب الأمر فيه، ومصدر وجوده في الأساس.

والذي ينقلب على وجهه عند مس الفتنة يخسر الخسارة التي لا شبهة فيها ولا ريب: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ يخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضا، إلى جوار خسارة المال أو الولد، أو الصحة، أو أعراض الحياة الأخرى التي يفتن الله بها عباده، ويبتلي بها ثقتهم فيه، وصبرهم على بلائه، وإخلاصهم أنفسهم له، واستعدادهم لقبول قضائه وقدره.. ويخسر الآخرة وما فيها من نعيم وقربى ورضوان. فيا له من خسران!»[1].

*** الآية الثالثة:**

يقول الله ﷻ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة: ٢٧٦] فالربا إن در ربحًا ظاهرًا فهو في ميزان الله خسارة ومحقًا؛ لأن الله ﷻ يمحق بركته. وإذا محقت بركة الشيء ذهب وبطل ولم يجن منه صاحبه إلا الشقاء والخسران. قال ﷺ: «**الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قلة**»[2] وفي رواية: «**ما أحدٌ أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة**»[3].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «وصدق وعيد الله ووعده؛ فها نحن أولاء نرى أنه ما من مجتمع يتعامل بالربا ثم تبقى فيه بركة أو رخاء أو سعادة أو أمن أو طمأنينة.. إن الله يمحق الربا، فلا يفيض على المجتمع الذي يوجد فيه هذا الدنس إلا القحط والشقاء. وقد ترى العين ـ في ظاهر الأمر ـ رخاء وإنتاجًا وموارد موفورة، ولكن البركة ليست بضخامة الموارد بقدر ما هي في الاستمتاع الطيب الآمن بهذه الموارد. وقد أشرنا من

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤١٢، ٢٤١٣ باختصار.
(٢) سبق تخريجه ص١٩٩.
(٣) سبق تخريجه ص١٩٩.

قبل إلى الشقوة النكدة التي ترين على قلوب الناس في الدول الغنية الغزيرة الموارد، وإلى القلق النفسي الذي لا يدفعه الثراء بل يزيده. ومن هذه الدول يفيض القلق والذعر والاضطراب على العالم كله اليوم؛ حيث تعيش البشرية في تهديد دائم بالحرب المبيدة، كما تصحو وتنام في همِّ الحرب الباردة! وتثقل الحياة على أعصاب الناس يومًا بعد يوم ـ سواء شعروا بهذا أم لم يشعروا ـ ولا يبارك لهم في مال، ولا في عمر، ولا في صحة، ولا في طمأنينة البال!

وما من مجتمع قام على التكافل والتعاون ـ الممثَّليْن في الصدقات المفروض منها والمتروك للتطوع ـ وسادته روح المودة والحب والرضا والسماحة، والتطلع دائمًا إلى فضل الله وثوابه، والاطمئنان دائمًا إلى عونه وإخلافه للصدقة بأضعافها.. ما من مجتمع قام على هذا الأساس إلا بارك الله لأهله ـ أفرادًا وجماعات ـ في مالهم ورزقهم، وفي صحتهم وقوتهم، وفي طمأنينة قلوبهم وراحة بالهم.

والذين لا يرون هذه الحقيقة في واقع البشرية، هم الذين لا يريدون أن يروا؛ لأن لهم هوى في عدم الرؤية! أو الذين رانت على أعينهم غشاوة الأضاليل المبثوثة عمدًا وقصدًا من أصحاب المصلحة في قيام النظام الربوي المقيت؛ فضلوا عن رؤية الحقيقة!»[1].

*** الآية الرابعة:**

قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

*** الآية الخامسة:**

قوله سبحانه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: ١٧٨].

---

(١) في ظلال القرآن ١/٣٢٨، بتصرف يسير.

*** الآية السادسة:**

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران: ١٤٩].

*** الآية السابعة:**

قوله سبحانه: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: ٣٠].

*** الآية الثامنة:**

قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

*** الآية التاسعة:**

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]. أي يوم يغبن أهل النار أهل الجنة.

والآيات في بيان حقيقة الخسران كثيرة في كتاب الله ﷻ.

أما الأحاديث الواردة في ذكر الربح والخسران الحقيقيين فهي كثيرة، أكتفي منها بما يلي:

*** الحديث الأول:**

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما المفلس؟** قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: **إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقْضَى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار**»(١).

(١) مسلم (٢٥٨١).

*** الحديث الثاني: حديث الرقوب:**

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما تعدون الرقوب فيكم؟** قال: قلنا الذي لا يولد له. قال: **ليس ذاك بالرقوب، ولكنه الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئًا.** قال: **فما تعدون الصرعة فيكم؟** قال: قلنا: الذي لا يصرعه الرجال. قال: **ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب**»(١)، وقد جاء ذكر الرقوب في رواية أطول عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: «كنت عند النبي ﷺ فبلغه أن امرأة من الأنصار مات ابن لها فجزعت عليه، فقام النبي ﷺ ومعه أصحابه، فلمَّا بلغ باب المرأة، قيل للمرأة: إن نبي الله ﷺ يريد أن يدخل يعزيها، فدخل رسول الله ﷺ فقال لها: **أما إنه قد بلغني أنك جزعت على ابنك.** فقالت: يا نبي الله ما لي لا أجزع وأنا رقوب لا يعيش لي ولد، فقال رسول الله ﷺ: **إنما الرقوب التي يعيش ولدها؛ إنه لا يموت لامرأة مسلمة أو امرء مسلم نسمة** ـ أو قال: ثلاثة ـ **من ولده فيحتسبهم إلا وجبت له الجنة،** فقال عمر ـ وهو عن يمين النبي ﷺ ـ بأبي أنت وأمي واثنين؟ فقال النبي ﷺ: **واثنين**»(٢).

وهنا يريد النبي ﷺ أن ينقل مفهوم كلمة الرقوب إلى شيء آخر غير الذي في الأذهان؛ وهو أن الذي قدم شيئًا من الولد واحتسبه عند الله تعالى فهو الرابح، بخلاف الذي لم يقدم شيئًا من الولد في حياته فيفوته ثواب الصبر والتسليم عند فقد الولد، وهذا لا يعني أن نتمنى فقد الأولاد، ولا ندعو الله بذلك؛ فقد نهينا عن ذلك، ولكن إذا حصل شيء من ذلك فلنصبر وننظر إليه على أنه كسب رابح إذا صاحبه الصبر والتسليم لقضاء الله ﷻ.

---

(١) مسلم (٢٦٠٨).

(٢) مختصر زوائد مسند البزار ١/٣٤٥ (٥٥٤)، وحسَّن إسناده محقق الكتاب صبري أبو ذر، وعزاه إلى الهيثمي في مجمع الزوائد ٣ ـ ٨، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

* **الحديث الثالث:**

ما رواه أبو داود ـ رحمه الله تعالى ـ في سننه عن ابن سلام أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني عبيد الله بن سلمان أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ حدثه قال: لما فتحنا خيبر أخرجوا غنائمهم من المتاع والسبي، فجعل الناس يتبايعون غنائمهم، فجاء رجل حين صلَّى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، لقد ربحت ربحًا ما ربح اليوم مثله أحد من أهل هذا الوادي. قال: «**ويحك وما ربحت؟**» قال: وما زلت أبيع وأبتاع حتى ربحت ثلاث مئة أوقية. فقال الرسول ﷺ: «**أنا أنبئك بخير رجل ربح**». قال: ما هو يا رسول الله؟ قال: «**ركعتين بعد الصلاة**»(١).

* **الحديث الرابع:**

ما رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ لعائشة: «**ما بقي منها؟**» قالت: ما بقي منها إلا كتفها. فقال ﷺ: «**بقيت كلها غير كتفها**»(٢).

* **الحديث الخامس:**

ما رواه الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ في مسنده: «أن رجلًا قال: يا رسول الله إن لفلان نخلة، وأنا أقيم حائطي بها فَأْمُره أن يعطيني حتى أقيم حائطي بها. فقال له النبي ﷺ: **أعطها إياه بنخلة في الجنة**. فأبى، فأتاه أبو الدحداح فقال: بعني نخلتك بحائطي، ففعل، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد ابتعت النخلة بحائطي. قال: فاجعلها له فقد أعطيتكها. فقال رسول الله ﷺ: **كم من عذق رَدَاح لأبي الدحداح في الجنة**؛ قالها مرارًا. قال: فأتى امرأته فقال: يا أم الدحداح اخرجي من الحائط فإني قد بعته بنخلة في الجنة. فقالت: ربح البيع، أو كلمة تشبهها(٣).

---

(١) أبو داود (٢٧٨٥).

(٢) الترمذي، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٠٩).

(٣) المسند: ٣/١٤٦، والفتح الرباني ٢٢/٣٦٣، ٣٦٤ وقال الساعاتي: أورده الهيثمي وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح.

*** الحديث السادس:**

ما رواه البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما طُعِنَ حرام بن ملحان ـ وكان خاله ـ يوم بئر معونة؛ قال بالدم، فنضحه على وجهه ورأسه، ثم قال: فزت ورب الكعبة»(١) أي فاز بالشهادة.

*** الحديث السابع:**

ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن أحب أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال الرسول ﷺ: «**بخ ذلك مال رابح، ذلك مال رابح**»»(٢).

*** الحديث الثامن:**

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصفة، فقال: «**أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين، في غير إثم ولا قطع رحم؟**» فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك. قال: «**أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعْلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل**»»(٣).

*** الحديث التاسع:**

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس**»(٤).

---

(١) البخاري (٤٠٩٢).
(٢) البخاري (١٤٦١).
(٣) مسلم (٨٠٣).
(٤) مسلم (٢٦٩٥).

*** الحديث العاشر:**

قال ﷺ لعلي رضي الله عنه يوم خيبر: «**فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم**»(١).

*** الحديث الحادي عشر:**

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**ركعتي الفجر خير من الدنيا وما فيها**»(٢).

*** الحديث الثاني عشر:**

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها**»(٣).

*** الحديث الثالث عشر:**

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «دخل رمضان فقال رسول الله ﷺ: «**إن هذا الشهر قد حضركم، وفيه ليلة خير من ألف شهر؛ من حرمها فقد حرم الخير كله، ولا يحرم خيرها إلا محروم**»(٤).

*** الحديث الرابع عشر:**

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**ما نقصت صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»(٥).

ومن ذلك ما مر بنا من قول الرسول ﷺ لصهيب رضي الله عنه: «**ربح البيع**»، وقول الأنصار في بيعة العقبة: «**ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل**».

---

(١) مسلم (٢٤٠٦). (٢) مسلم (٧٢٥).

(٣) مسلم (١٨١٠).

(٤) رواه ابن ماجه (١٦٤٤) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣٣٣).

(٥) مسلم (٢٥٨٨).

من ثمار الميزان الإلهي للربح والخسارة:

أولًا: الحرص على الربح العظيم في الآخرة، والاستعداد لذلك بزاد التقوى، ووقف الأنفاس والأوقات على طاعة الله ﷻ:

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «الدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوي غم ساعة، فكيف بغم العمر؟! محبوب اليوم يعقب المكروه غدًا، أو مكروه اليوم يعقب المحبوب غدًا. أعظم الربح في الدنيا أن تشغل نفسك كل وقت بما هو أولى بها وأنفع لها في معادها»(١).

وقال أيضًا في ميميته ناعيًا على من بخل بعلمه ولم يعمل به:

«ويا مُوقدًا نارًا لغيرك ضوؤها	وحر لظاها بين جنبيك يضرمُ
أهذا جنى العلم الذي قد غرسته	وهذا الذي قد كنت ترجوه تطعم؟
وهذا هو الحظ الذي قد رضيته	لنفسك في الدارين لو كنت تفهم؟
وهذا هو الربح الذي قد كسبته	لعمُرك لا ربح ولا الأصل يسلم
بخلت بشيء لا يضرُّك بَذْلُه	وجُدْتَ بشيء مثله لا يقوَّمُ
وبعت نعيمًا لا انقضاء له ولا	نظير ببخسٍ عن قليل سيعدم
فهلا عكست الأمر إن كنت حازمًا	ولكن أضعت الحزم إن كنت تعلم»(٢)

ويتحدث ـ رحمه الله تعالى ـ عمَّن فرَّط في عمره وقضاه في اللهث وراء الدنيا، أو في علم لا ينفع، فقال: «وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلَّت وفنيت، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات. وهم أعظم الناس ندامة وتحسرًا، إذا حَقَّ الحق وبطل الباطل، وتقطَّعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقَّنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة. وهذا يظهر كثيرًا في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله، ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء؛ إذا حقت الحقائق، وفاز المحقون، وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين،

---

(١) الفوائد، ص٤١.

(٢) طريق الهجرتين ص٥٠.

وكانوا مخدوعين مغرورين، فيا له هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه»(١).

وقال أيضًا: «لقد حرَّك الداعي إلى الله وإلى دار السلام النفوس الأبية والهمم العالية؛ عظمة المشتري، وقدر الثمن، وجلالة قدر من جرى عقد التبايع على يديه، ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد. عرفوا أن للسلعة قدرًا وشأنًا ليس لغيرها من السلع، فرأوا من الخسران البين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخسٍ دراهم معدودة تذهب لذتها وشهوتها، وتبقى تبعتها وحسرتها؛ فإن فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء، فعقدوا مع المشتري بيعة الرضوان رضًا واختيارًا من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيلك ولا نستقيلك. فلما تمَّ العقدُ، وسلَّموا المبيع، قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت، وأضعاف أموالكم معها: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]. لم نبتع منكم نفوسكم وأموالكم طلبًا للربح عليكم، بل ليظهر أثرُ الجود والكرم في قبول المعيب والإعطاء عليه أجلَّ الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمَّن. تأمل قصة جابر بن عبد الله ﷺ وقد اشترى منه ﷺ بعيره، ثمَّ وفَّاهُ الثمن وزادهُ، وردَّ عليه البعير(٢)، وكان أبوه قد قُتل مع النبي ﷺ في موقعة أُحد، فذكَّره بهذا الفعل حال أبيه مع الله، وأخبره أن الله أحياه، وكلَّمهُ كفاحًا وقال: «**يا عبدي تمنَّ عليَّ**»(٣) فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلائق؛ فقد أعطى السلعة، وأعطى الثمن، ووفَّق لتكميل العقد، وقبل المبيع على عيبه، وأعاض عليه أجلَّ الأثمان، واشترى عبده من نفسه بماله، وجمع له بين الثمن والمثمن، وأثنى عليه ومدحه بهذا العقد، وهو سبحانه الذي وفَّقه له وشاءه منه»(٤).

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٥٣، ٥٤.
(٢) انظر: البخاري (٢٧١٨)، ومسلم (٧١٥).
(٣) الترمذي (٣٠١٣)، وابن ماجه (١٩٠) وقال الأرناؤوط سنده حسن.
(٤) زاد المعاد ٣/ ٧٣ ـ ٧٥.

ثانيًا: محاسبة النفس:

فكلما فكر العبد في الربح العظيم والخسارة العظيمة بميزان الله ﷻ هانت عليه الدنيا، ولم يتنافس مع أهلها عليها، بل وجَّه همَّه للتنافس في الآخرة ونعيمها، وحاسب نفسه في تحقيق هذا الربح، والبعد عن كل ما يؤول به إلى الخسران والبوار، وشح بالوقت في أن لا يضيع إلا فيما يقربه إلى الله ﷻ وجنته. وإذا فاته موسم من الخير اغتم وحزن؛ فهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان جالسًا في المسجد، فطلع عليه خباب، فقال له: يا عبد الله بن عمر! ألا تسمع ما يقول أبو هريرة؟ إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**من خرج مع جنازة من بيتها وصلَّى عليها ثم تبعها حتى تدفن كان له قيراطان من أجر ـ كل قيراط مثل أحد ـ ومن صلَّى عليها ثم رجع كان له من الأجر مثل أحد**». فما كاد ابن عمر يسمع بهذا الحديث حتى أرسل خبابًا إلى عائشة ليتأكد من الخبر.. وفي مدة ذهاب خباب يعيش صاحب الهمة العالية والقلب المخبت دقائق عصيبة ولحظات حرجة، يظهر ذلك في أخذه قبضة من الحصباء يُقلبها في يده إلى حين عودة خباب.. ولم يمض وقت طويل حتى جاء الخبر بتصديق عائشة لحديث أبي هريرة، فما كان من ابن عمر إلا أن ضرب بالحصى الذي كان في يده الأرض، ثم قال: لقد فرَّطنا في قراريط كثيرة. رواه مسلم(١).

ويذكر ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ شيئًا مما يعين على هذه المحاسبة فيقول: «ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة: معرفة أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدًا إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غدًا.

ويعينه عليها أيضًا: معرفة أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه. وخسارتها: دخول النار والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم. فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم

---

(١) مسلم (٩٤٥) وأصله في البخاري (١٣٢٤).

الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها؛ فكل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة ـ لا حظَّ لها ـ يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد. فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه: خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلًا. وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]»[(١)].

ومما ينبغي محاسبة النفس فيه: هذا اللسان وما يخرج منه من كلام وألفاظ، وفي ذلك يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «وأما اللفظات فحفظها بألا يخرج لفظة ضائعة؛ بألا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه. فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر: هل ربح فائدة أم لا؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل تفوته بها كلمة هي أربح منها فلا يضيعها بهذه»[(٢)].

ويقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عند قوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]: «وإن قوله: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ لهو توجيه يمد بأبصار أهل الأرض وقلوبهم وراء رقعة الأرض الصغيرة الزهيدة، بينما هم يعمرون الأرض ويقومون بالخلافة فيها، ويرفعها إلى آفاق أرفع وأطهر من المستنقع الآسن بينما هم يطهرون المستنقع وينظفونه!

إن عمر المرء في هذه العاجلة محدود، وعمره في الآجلة لا نهاية له، وإن متاع هذه الأرض في ذاته محدود، ومتاع الجنة لا تحده تصورات البشر. وإن مستوى النعيم في هذه الدنيا معروف، ومستوى النعيم هناك يليق بالخلود! فأين مجال من مجال؟ وأين غاية من غاية؟ حتى بحساب الربح والخسارة فيما يعهد البشر من الحساب؟!

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٨٠، ٨١.

(٢) الجواب الكافي، ص١٧، المطبعة السلفية ومكتبتها.

ألا إن السباق إلى هناك.. ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾»(١).

ثالثًا: الشعور بالعزة والكرامة:

وذلك بالترفع على الدنيا ومناصبها والشهرة فيها مما ينظر إليه أهل الموازين الأرضية بأنه ربح ومكسب؛ يبذلون من أجله أنفسهم ويهدرون به كرامتهم. يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عند قوله تعالى في قصة يوسف: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف: ٥٤]: «فيا ليت رجالًا يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام وهم أبرياء مطلقو السراح، فيضعوا النير في أعناقهم بأيديهم، ويتهافتوا على نظرة رضا وكلمة ثناء، وعلى حظوة الأتباع لا مكانة الأصفياء.. ياليت رجالًا من هؤلاء يقرأون هذا القرآن، ويقرأون قصة يوسف، ليعرفوا أن الكرامة والإباء والاعتزاز تدر من الربح ـ حتى المادي ـ أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء!

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾: ويحذف السياق جزئية تنفيذ الأمر لنجد يوسف مع الملك.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: فلمَّا كلَّمه تحقَّق له صدق ما توسَّمه. فإذا هو يطمئنه على أنه عند الملك ذو مكانة وفي أمان؛ فليس هو الفتى العبراني الموسوم بالعبودية، إنما هو مكين. وليس هو المتهم المهدد بالسجن، إنما هو أمين. وتلك المكانة وهذا الأمان لدى الملك وفي حماه. فماذا قال يوسف؟

إنه لم يسجد شكرًا كما يسجد رجال الحاشية المتملقون للطواغيت، ولم يقل له: عشت يا مولاي وأنا عبدك الخاضع أو خادمك الأمين كما يقول المتملقون للطواغيت! كلا إنما طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة القادمة التي أوَّل بها رؤيا الملك، خيرًا مما ينهض به أحد في البلاد، وبما يعتقد أنه سيصون به أرواحًا من الموت وبلادًا من الخراب،

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٦٠.

ومجتمعًا من الفتنة ـ فتنة الجوع ـ فكان قويًا في إدراكه لحاجة الموقف إلى خبرته وكفايته وأمانته قوته في الاحتفاظ بكرامته وإبائه»(١).

رابعًا: الرضا والاطمئنان اللذان يشعر بهما المؤمن عند المصائب، وهو يزن الربح والخسارة بميزان الله ﷻ:

لأن هذا يورث الصبر وعدم الجزع عند المصائب. وذلك حينما يعلم العبد أن الله ﷻ يمن على الصابرين بتكفير السيئات، ورفعة الدرجات، وكفى بهذا ربحًا ومكسبًا ولو خسر ما خسر من هذه الدنيا؛ قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦].

خامسًا: السعادة القلبية والسكينة التي ترفرف على قلب المؤمن الذي وفقه الله ﷻ لهذا الميزان القويم:

حيث يعرف حقيقة الدنيا والآخرة، فلا تذهب نفسه على الدنيا حسرات، ولا يلهث وراءها، ولا ينافس الناس عليها، بل يجعل تنافسه في الآخرة وما أعد الله ﷻ للمؤمنين فيها. وهذا الشعور يثمر في القلب سلامته من أمراض الحسد والحقد والغل التي تعشعش غالبًا في قلوب أهل الدنيا المؤثرين لها على الآخرة.

سادسًا: أهل الميزان الإلهي للربح والخسارة يفرحون بكل عمل يؤدي بهم إلى الربح في الآخرة ويسارعون إليه:

وبالتالي يفرحون ويحبون كل مجلس يقربهم إلى الله ﷻ من مجالس العلم والعلماء والصالحين، ولا يستثقلون هذه المجالس، بل يبحثون فيها ويتنعمون بها؛ لأن فيها أعظم أرباح الدنيا؛ وهي: العلم والحكمة؛ قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٠٥.

سابعًا: يحرص أهل هذا الميزان على أربح الأعمال وأرضاها لله ﷻ عند التزاحم:

فيقدمون الفاضل على المفضول عند عدم القدرة على الإتيان بهما جميعًا في وقت واحد. كما يحرصون على تزكية القلوب وإخلاص العمل لله ﷻ؛ لأن ربح الأعمال وقبولها عند الله ﷻ يكون بما يقوم في القلب أثناء العمل من الإخلاص والمحبة والإجلال والخوف والرجاء لله ﷻ.

ثامنًا: إن من أسعده الله ﷻ بهذا الميزان العدل القويم للربح والخسارة لا يكتفي بأن يسعد به نفسه فحسب:

بل إن هذا الشعور يدفعه بدافع الرحمة والشفقة للناس أن يدعوهم إليه، ويبينه ويشرحه لهم، ويحببه إليهم وينقلهم من الموازين الأرضية للربح والخسارة إلى هذا الميزان السامق الكريم.

موازين البشر المعوجة للربح والخسارة:

بالنظر إلى ميزان الشرع السابق بيانه للربح والخسارة يتبيَّن لنا ما يضاده من الموازين الأرضية البشرية؛ لأن الشيء يعرف بضده. والأصل الذي تنطلق منه هذه المعايير هو نظرة هذه الموازين إلى أن الدنيا وزخرفها والتكاثر فيها هي ميزان الربح والخسارة، فمن حصل على النصيب الأكبر منها فهو الرابح، ومن حرمها فهو الخاسر. وسواء كانت هذه الدنيا مالًا، أو متاعًا، أو أولادًا، أو منصبًا، أو أي شيء من متاع الحياة الدنيا.

- قال الله ﷻ عن أصحاب هذه الموازين: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٥].

- وقال عن المخدوعين بدنيا قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص: ٧٩].

- وقال سبحانه عن صاحب الجنتين في سورة الكهف: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف: ٣٤].

• وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١].

وقد روى البخاري سببًا لنزول هذه الآية، فساق بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلامًا ونتجت خيلهُ قال: هذا دينٌ صالح، وإن لم تلد امرأتُه ولم تنتج خيله قال: هذا دينُ سوء»(١).

وذكر ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ في الفتح روايات أخرى لهذا الأثر، فقال: «وفي رواية العوفي: وإن أصابه وجع المدينة، وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت على دينك هذا إلا شرًا، وذلك الفتنة. وفي رواية الحسن: فإن سقم جسمه، وحبست عنه الصدقة، وأصابته الحاجة قال: والله ليس الدين هذا، ما زلت أتعرف النقصان في جسمي وحالي. وذكر الفراء أنها نزلت في أعاريب من بني أسد انتقلوا إلى المدينة بذراريهم وامتنوا بذلك على النبي ﷺ، ثم ذكر نحو ما تقدَّم. وروى ابن مردويه من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف أنها نزلت في رجل من اليهود أسلم فذهب بصره وماله وولده، فتشاءم بالإسلام فقال: لم أصب في ديني خيرًا»(٢).

ولهذه الموازين المعوجة للربح والخسارة ثمار نكدة على أصحابها؛ هي نقيض الثمار الطيبة السابق ذكرها في الميزان الإلهي، ويمكن إجمال هذه الثمار النكدة فيما يلي:

١ ـ **الاغترار بالحياة الدنيا واللهث وراء حطامها الفاني**، مما يكون له أكبر الأثر في نسيان الآخرة، وفوات ما فيها من الربح العظيم والفوز الكبير،

---

(١) البخاري (٤٧٤٢).
(٢) فتح الباري ٨/ ٢٩٧.

ويضيع العمر القصير الفاني فيما لا ينفع في الآخرة إن لم يضر. يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في نونيته:

«والله لم تخرج إلى الدنيا للذة ... عيشها أو للحطام الفاني
لكن خرجت لكي تعد الزاد ... للأخرى فجئت بأقبح الخسران
أهملت جمع الزاد حتى فات ... بل فات الذي ألهاك عن ذا الشان»

٢ ـ التنافس المحموم على الدنيا وحطامها وجمعها من حلال وحرام، ولا يخفى ما في هذا التنافس واللهث من نتائج مرة تظهر على حياة أصحابها في صورة من الاضطراب والقلق والعناء، وانتشار أمراض الحسد والحقد والبغضاء بين أهلها؛ لأنهم يرون الربح ويزنونه بكثرة الأموال والأولاد والمتاع، فينافسون ويتفاخرون في ذلك، ثم يتحاسدون، بل ويتقاتلون كما أخبر بذلك الرسول ﷺ في قوله: «**والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**»(١).

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها، فأذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا واستمتعوا بها، ورضوا بها، واطمأنوا إليها، وكان سعيهم لتحصيلها، فباعوا واشتروا واتَّجروا، وباعوا آجلًا بعاجل، ونسيئة بنقد، وغائبًا بناجز، وقالوا: هذا هو الحزم، ويقول أحدهم: «**خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به**»؛ فكيف أبيع حاضرًا نقدًا مشاهدًا في هذه الدار بغائب نسيئه في دار أخرى غير هذه؟

وينضم إلى ذلك ضعف الإيمان، وقوة داعي الشهوة، ومحبة العاجلة والتشبه ببني الجنس، فأكثر الخلق في هذه التجارة الخاسرة التي قال الله سبحانه في أهلها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ

---

(١) مسلم (٢٩٦١).

﴿ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٦]، وقال فيهم: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة، فتنقطع عليها النفوس حسرات. وأما الرابحون فإنهم باعوا فانيًا بباق، وخسيسًا بنفيس، وحقيرًا بعظيم، وقالوا: ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها، حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها؟ فكيف ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم، لا نسبة له إلى دار القرار البتة؟ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].

فهذه حقيقة الدنيا عند موافاة يوم القيامة، فلمَّا علموا قلة لبثهم فيها، وأن لهم دارًا غير هذه الدار ـ هي دار الحيوان ودار البقاء ـ رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء، فاتَّجروا تجارة الأكياس، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس، فظهر لهم يوم التغابن ربح تجارتهم ومقدار ما اشتروه، وكل أحد في هذه الدار الدنيا بائع مشتر متجر، و«**كل الناس يغدو فبائع نفسه؛ فمعتقها أو موبقها**»[(١)][(٢)].

٣ ـ **مهانة النفس ودناءتها**؛ لأن الذي يلهث وراء الدنيا ويسعى فيها ليجمع أكبر قدر منها ـ لأنها ميزان الربح والخسارة عنده ـ إن مثل هذا في الغالب يهدر كرامته، ويذل نفسه أمام شهوات الدنيا، بل قد يغشى الحرام ما دام أنه يوفر له الربح الكبير في ميزانه. لذا نرى أصحاب هذه الموازين يُمرِّغون كرامتهم، ويذلون أنفسهم، ويصبحون أسرى أرقاء لشهوة من شهوات الدنيا الفانية؛ سواء كانت هذه الشهوة مالًا أو منصبًا أو شهرة أو متاعًا زائلًا؛ لأن كل ذلك كسب وربح في ميزانه.

٤ ـ **الجزع الشديد عند المصائب التي تكون بفقد مال أو ولد أو متاع الدنيا**؛ لأن أصحاب الموازين الأرضية للربح والخسارة يرون في ذهاب الدنيا

---

(١) مسلم (٢٢٣).

(٢) الجواب الكافي ص١٤٣، ١٤٤ باختصار.

ضياعًا للربح في ميزانهم، فتحصل لهم الحسرة العظيمة والحزن الشديد عليها، وفي الوقت نفسه تضيع عليهم أعمال صالحة، ويفرِّطون في واجبات شرعية كثيرة تفوت عليهم الربح العظيم في الآخرة، بل تجلب لهم الخسران المبين، ثم هم لا يتحسَّرون على ذلك ولا يحزنون.

٥ ـ الشح والأنانية، وحب الذات، والبحث عن المصلحة الشخصية ولو على حساب الآخرين، فما دام هو يعيش في رخاء وربح مادي فلا يهمه بعد ذلك إخوانه المسلمين، وبأي حال يعيشون.

٦ ـ أصحاب هذه الموازين لا يفرحون ولا يهشون إلا لمن يحدثهم عن الدنيا ومرابحها ووسائل الحصول عليها؛ فتراهم لا يملُّون من ذلك، بل يبحثون عن هذه المجالس وأهلها، وفي المقابل فإنهم يستثقلون مجالس الذكر والمواعظ التي تذكرهم بالآخرة وما أعد الله ﷻ فيها من الربح العظيم لمن أطاعه والخسران المبين لمن عصاه.

❑ ❑ ❑

المبحث العاشر

ميزان الحياة والموت

الميزان الإلهي للحياة والموت:

قال الله ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وما أحسن ما كتبه الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية؛ حيث قال: «المراد بها: من كان ميت القلب بعدم روح العلم والهدى والإيمان، فأحياه الرب تعالى بروح أخرى غير الروح التي أحيا بها بدنه. وهي روح معرفته وتوحيده، ومحبته وعبادته وحده لا شريك له؛ إذ لا حياة للروح إلا بذلك ـ وإلا فهي في جملة الأموات ـ ولهذا وصف الله تعالى من عُدِم ذلك بالموت؛ فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، وسمَّى وحيه روحًا. لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح؛ فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، فأخبر أنه «روح» تحصل به الحياة، وأنه «نور» تحصل به الإضاءة، وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢]، وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: ١٥]؛ فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن. ولهذا من فقد هذه الروح فقدْ فَقَدَ الحياة النافعة في الدنيا والآخرة. أما في الآخرة: فله

جهنم، لا يموت فيها ولا يحيا»[١].

ومن أحسن ما كُتب عند هذه الآية أيضًا: ما فتح الله ﷻ به على سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ إذ يقول: «إن هذه العقيدة تُنشئ في القلب حياة بعد الموت، وتطلق فيه نورًا بعد الظلمات؛ حياة يعيد بها تذوق كل شيء، وتصور كل شيء، وتقدير كل شيء بحس آخر لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة. ونورًا يبدو كل شيء تحت أشعته وفي مجاله جديدًا كما لم يبد من قبل قط كذلك القلب الذي نوَّره الإيمان.

هذه التجربة لا تنقلها الألفاظ. يعرفها فقط من ذاقها.. والعبارة القرآنية هي أقوى عبارة تحمل حقيقة هذه التجربة؛ لأنها تصورها بألوان من جنسها ومن طبيعتها.

إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية، التي لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب.. فهو موت، وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة في الوجود كله.. فهو موت، وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية.. فهو موت.

والإيمان اتصال، واستمداد، واستجابة.. فهو حياة.

إن الكفر حجاب للروح عن الاستشراف والاطلاع.. فهو ظلمة، وختم على الجوارح والمشاعر.. فهو ظلمة، وتيه في التيه وضلال.. فهو ظلمة.

وإن الإيمان تفتح ورؤية، وإدراك واستقامة.. فهو نور بكل مقومات النور.

وإن الكفر انكماش وتحجر.. فهو ضيق، وشرود عن الطريق الفطري الميسر.. فهو عسر، وحرمان من الاطمئنان إلى الكنف الآمن.. فهو قلق.

وإن الإيمان انشراح ويسر وطمأنينة وظل ممدود.

وما الكافر؟ إن هو إلا نبتة ضالة لا وشائج لها في تربة هذا الوجود ولا

(١) مدارج السالكين ٣/٢٥٨، ٢٥٩.

جذور.. إن هو إلا فرد منقطع الصلة بخالق الوجود، فهو منقطع الصلة بالوجود؛ لا تربطه به إلا روابط هزيلة من وجوده الفردي المحدود في أضيق الحدود؛ في الحدود التي تعيش فيها البهيمة؛ حدود الحس وما يدركه الحس من ظاهر هذا الوجود!

إن الصلة بالله، والصلة في الله، لتصل الفرد الفاني بالأزلي القديم والأبدي الخالد، ثم تصله بالكون الحادث والحياة الظاهرة، ثم تصله بموكب الإيمان والأمة الواحدة الضاربة في جذور الزمان، الموصولة على مدار الزمان.. فهو في ثراء من الوشائج، وفي ثراء من الروابط، وفي ثراء من «الوجود» الزاخر الممتد اللاحب، الذي لا يقف عند عمره الفردي المحدود.

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور؛ فتتكشف له حقائق الوجود، وحقائق الحياة، وحقائق الناس، وحقائق الأحداث التي تجري في هذا الكون وتجري في عالم الناس.. تتكشف له في مشهد كذلك رائع باهر.. مشهد السُّنَّة الدقيقة التي تتوالى مقدماتها ونتائجها في نظام محكم ولكنه فطري ميسر.. ومشهد المشيئة القادرة من وراء السنة الجارية تدفع بالسنة لتعمل وهي من ورائها محيطة طليقة.. ومشهد الناس والأحداث وهم في نطاق النواميس وهي في هذا النطاق أيضًا.

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور، فيجد الوضوح في كل شأن، وفي كل أمر، وفي كل حدث.. يجد الوضوح في نفسه وفي نواياه وخواطره وخطته وحركته، ويجد الوضوح فيما يجري حوله ـ سواء من سنة الله النافذة، أو من أعمال الناس ونواياهم وخططهم المستترة والظاهرة! ـ ويجد تفسير الأحداث والتاريخ في نفسه وعقله وفي الواقع من حوله؛ كأنه يقرأ من كتاب!

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور، فيجد الوضاءة في خواطره ومشاعره وملامحه! ويجد الراحة في باله وحاله ومآله! ويجد الرفق واليسر في إيراد الأمور وإصدارها! وفي استقبال الأحداث واستدبارها! ويجد الطمأنينة والثقة واليقين في كل حالة وفي كل حين!

وهكذا يصور التعبير القرآني الفريد تلك الحقيقة بإيقاعاته الموحية: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

كذلك كان المسلمون قبل هذا الدين؛ قبل أن ينفخ الإيمان في أرواحهم فيحييها، ويطلق فيها هذه الطاقة الضخمة من الحيوية والحركة والتطلع والاستشراف.. كانت قلوبهم مواتًا، وكانت أرواحهم ظلامًا.. ثم إذا قلوبهم ينضح عليها الإيمان فتهتز، وإذا أرواحهم يشرف فيها النور فتضيء، ويفيض منها النور فتمشي به في الناس تهدي الضال، وتلتقط الشارد، وتطمئن الخائف، وتحرر المستعبد، وتكشف معالم الطريق للبشر، وتعلن في الأرض ميلاد الإنسان الجديد؛ الإنسان المتحرر المستنير، الذي خرج بعبوديته لله وحده من عبودية العبيد!

أفمن نفخ الله في روحه الحياة، وأفاض على قلبه النور، كمن حاله أنه في الظلمات، لا مخرج له منها؟

إنهما عالمان مختلفان شتان بينهما شتان! فما الذي يمسك بمن في الظلمات والنور حوله يفيض؟»[1].

ومن خلال النقلين السابقين في معنى قوله ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ الآية يتضح لنا الميزان الإلهي الحق لحقيقة الموت والحياة، وأن الحياة الحقيقية إنما هي حياة القلب بالإيمان والهدى. وأن موته الحقيقي إنما هو بالكفر والنفاق، ومرضه بالمعاصي والسيئات، ولو كان محسوبًا على الأحياء والأصحاء في أبدانهم.

ويندرج تحت هذا الميزان معان سامية وثمار يانعة من أهمها:

أولًا: سعادة القلب واطمئنانه وأنسه وطيب عيش صاحبه في الدنيا والآخرة: قال الله ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٠٠، ١٢٠١.

حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

ثانيًا: سعي المؤمن المنطلق من هذا الميزان الإلهي إلى الأخذ بكل ما يحيي القلب والروح ويزيد في الإيمان؛ من: العلم النافع، والعمل الصالح، وبعده عن كل ما يميت القلب ويمرضه على الحقيقة.

ومن أسباب حياة القلوب:

- الاستجابة لله ﷻ وللرسول ﷺ في كل ما أُمر به العبد أو نُهي عنه؛ لأن في ذلك حياة القلب، وبل وحياة البدن، وعزة النفس، وقوة الهمة والإرادة إلى الخير. ومن ذلك الجهاد في سبيل الله ﷻ؛ حيث إن فيه حياة الناس وإنقاذهم من حياة الذل والقهر وتسلط الأعداء، وفي تركه فساد للأبدان والعقول والأعراض والأموال.

يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤]. يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «تضمَّنت الآية أمورًا؛ **أحدها**: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات؛ فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان؛ ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول؛ فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول. قال مجاهد: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني للحق، وقال قتادة: هو هذا القرآن؛ فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة، وقال السدي: هو الإسلام؛ أحياهم به بعد موتهم بالكفر، وقال ابن إسحاق وعروة بن الزبير واللفظ له: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

يعني للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم. وهذه كلها عبارات عن حقيقة واحدة؛ وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهرًا وباطنًا؛ قال الواحدي: والأكثرون على أن معنى قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هو الجهاد، وهو قول ابن إسحاق واختيار أكثر أهل المعاني؛ قال الفراء: إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم؛ يريد أنَّ أَمْرَهم إنما يقوى بالحرب والجهاد، فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم واجترأ عليهم عدوهم. قلت: الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة؛ أما في الدنيا: فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد، وأما في البرزخ: فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وأما في الآخرة: فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم؛ ولهذا قال ابن قتيبة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني الشهادة، وقال بعض المفسرين: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني الجنة؛ فإنها دار الحيوان، وفيها الحياة الدائمة الطيبة، حكاه أبو علي الجرجاني. والآية تتناول هذا كله؛ فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يحيي القلوب الحياة الطيبة، وكمال الحياة في الجنة، والرسول داع إلى الإيمان وإلى الجنة؛ فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة»(١).

• ومما تحيى به القلوب والبيوت والنفوس: ذكر الله ﷻ؛ وذلك كما جاء في قوله ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت**»(٢).

وقوله ﷺ: «**مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت**»(٣). ومن ذلك: حثه ﷺ على الصلاة في البيوت في قوله: «**اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم، ولا تتخذوها قبورًا**»(٤).

• ومن ذلك: الاهتمام بتصحيح العمل، وإيقاعه على الوجه المرضي لله

---

(١) الفوائد، ص٩٥.
(٢) البخاري (٦٤٠٧).
(٣) مسلم (٧٧٩).
(٤) البخاري (٤٣٢)، ومسلم (٧٧٧).

تعالى من الموافقة والإخلاص لله تعالى؛ لأن هذا النوع من العمل هو الذي تحيا به القلوب.

• ومن ذلك: مصاحبة أصحاب القلوب الحية الذين امتلأت قلوبهم بنور الوحي والهدى والعلم بالله وبشرعه، وعمروا بواطنهم وظواهرهم بأنواع العبوديات التي تقربهم إلى الله ﷻ وتلين قلوبهم وتزكيها. وفي مقابل ذلك: البعد عن أصحاب القلوب الميتة أو المريضة الذين عشعشت في قلوبهم أمراض الشبهات والشهوات؛ لأن في معاشرتهم الداء العضال، والسم الزعاف الذي هو أشد من داء الأبدان وسمها.

• ومن ذلك: الاجتهاد في الدعوة إلى الله ﷻ، والجهاد في سبيله سبحانه، والسعي لإنقاذ الناس مما هم فيه من الموت والمرض الحقيقيين؛ وذلك بهدايتهم - بإذن الله ﷻ - إلى نور التوحيد والإيمان، والعلم الذي ينقلهم الله ﷻ به من ظلمات الجهل والشرك والعماية إلى النور الذي يحييون به بعد موتهم، وينعمون بثماره في الدنيا والآخرة.

• وكلما كملت حياة القلب ترحَّل إلى الآخرة وقرب منها حتى يصير من أهلها. وهذا يثمر في القلب الحرص على العمر النفيس والوقت الثمين، فيشح به أن يذهب في غير طاعة الله تعالى، والتزود للقائه سبحانه، وإذا فاته شيء من ذلك تألم ألمًا أعظم من تألم الفاقد لماله.

ميزان البشر للحياة والموت:

بمعرفة الميزان الإلهي لحقيقة الحياة والموت يتبيَّن لنا ما يضاده من موازين البشر المعوجة القاصرة، والتي من أهم سماتها ما يلي:

أولًا: لا تضع هذه الموازين اعتبارًا لموت القلب وحياته الحقيقيين - اللذين سبق ذكرهما في الميزان الإلهي - وبالتالي فإن أصحاب هذه الموازين لا يحفلون إلّا بما يحيي أبدانهم، ويصححها من الطعام والشراب والدواء؛ فهي همُّهم الأكبر، ولا يبالون بما يصيب قلوبهم وأرواحهم من أمراض الشبهات والشهوات التي تطبع عليها، وقد تميتها وهم لا يشعرون. ويذكر

الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ بعض علامات لأصحاب القلوب المريضة أو الميتة، فيقول: «وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه؛ لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة؛ فإن القلب إذا كان فيه حياة تألَّم بورود القبيح عليه، وتألَّم بجهله بالحق بحسب حياته. وما لجرح بميت إيلام.

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها؛ فهو يؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء؛ فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس لها أنفع منه.

وتارة يوطن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه، ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته وصبره؛ كمن دخل في طريق مخوف مفضٍ إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر، وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق، ولم يتحمَّل مشقتها، ولا سيما إن عدم الرفيق، واستوحش من الوحدة، وجعل يقول: أين ذهب الناس؟ فلي بهم أسوة. وهذه حال أكثر الخلق، وهي التي أهلكتهم؛ فالبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق، ولا من فقده إذا استشعر قلبه مرافقة الرَّعيل الأول، الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقًا؛ فتفرُّد العبد في طريق طلبه دليل على صدق الطلب»[1].

ثانيًا: ينظر أصحاب هذه الموازين إلى بعض أهل النفاق وأهل الدنيا الحاذقين في كسب الأموال على أنهم أذكياء وأصحاب قلوب حية، ولو كانوا ما كانوا في دينهم وأخلاقهم، ويسمونهم بأهل العقل المعيشي.

ثالثًا: أصحاب هذه الموازين لا يهمهم أمر الدين والأخلاق، ولا

---

(١) إغاثة اللهفان ١/٦٨، ٦٩.

يتأثرون بفشو المنكرات، في الوقت الذي يتمعَّرون فيه ويتألمون إذا أصيبت دنياهم بشيء، وقد وصفهم ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: «وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المُتَحَزِّن المُتَلَمِّظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذَّل وجدَّ واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة. وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله، ومقت الله لهم، قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون، وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب؛ فإن القلب كلما كانت حياته أتم، كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل»(١).

رابعًا: أصحاب هذه الموازين في غفلة عن كل ما يحيي قلوبهم من نور العلم والهداية بهدي الكتاب والسنة وأخبار سلف الأمة؛ فهم في جهل كبير بهذا العلم وأهله بينما تراهم على علم ودراية بعلوم الحياة الدنيا والعلوم المادية التي تترف به أجسامهم؛ كما وصفهم الله ﷻ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

خامسًا: أهل هذه الموازين أبعد ما يكونون عن ذكر الله ﷻ واللهج بدعائه وحمده وتسبيحه، وكل ما فيه حياة القلوب وشفاؤها.

سادسًا: أهل هذه الموازين في غفلة عن الحياة الحقيقية والنعيم الأبدي في الآخرة، غير مستعدين ولا عاملين له. وإنما علمهم وهمُّهم بهذه الدنيا الفانية؛ كما قال ﷻ في وصفهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧].

❑ ❑ ❑

(١) أعلام الموقعين ٢/ ١٦٤، ١٦٥.

المبحث الحادي عشر

ميزان الجمال والحسن

الجمال ضد القبح، ويشمل جمال المظهر وجمال المخبر، جمال الأجسام وجمال الأخلاق والبواطن. والغالب في موازين البشر الأرضية تركيزها على جمال المظاهر والأجسام وجعلها معيارًا للجمال والحسن. أما ميزان الله ﷻ فجعل ما في القلوب والباطن والتقوى هي موازين الجمال والحسن والبهاء الحقيقية؛ قال الرسول ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم، والا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[(١)].

ومن سمات الميزان الإلهي للجمال ما يلي:

أولًا: النظر إلى الجمال في المقام الأول بمعيار جمال ما في القلوب من الإيمان والتوحيد والإخلاص والتقوى، والأعمال القلبية المحبوبة إلى الله ﷻ، وما تقتضيه من جمال وحسن وبهاء في الأخلاق والمعاملات، وما تعكسه من بهاء في الوجه، ونضارة وحسن ونور أثمرته الطاعة لله ﷻ والتقرب إليه؛ كما قال سبحانه: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، والمقصود بالسيما هنا ـ كما قاله أكثر المفسرين ـ: نور الطاعة وبهاؤها، وليس العلامة السوداء التي تظهر في الجبهة عند بعض الناس. يقول الشيخ السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «أي: قد أثرت العبادة من كثرتها وحسنها في وجوههم حتى استنارت؛ لما استنارت بالصلاة بواطنهم، استنارت بالجلال ظواهرهم»[(٢)].

---

(١) مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤).

(٢) تفسير السعدي عند الآية ٢٩ من سورة الفتح.

ثانيًا: ميزان الله ﷻ لا يُغْفِل جمال الظاهر في نظافة الجسم واللباس والزينة، بل يحث عليها، لكنه لا يراها معيار الزينة والجمال؛ فإن جمال الجسم واللباس لا يساوي عند الله شيئًا إذا كان صاحبه خلي القلب من الإيمان أو فاسد الأخلاق والأعمال. أمَّا إذا جمع العبد بين جمال الظاهر والباطن فهو نور على نور؛ قال الله ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١].

وعندما ذكر الكفار والمنافقين حذَّر من الإعجاب بزينتهم وجمالهم، وكثرة أموالهم وأولادهم؛ فقال سبحانه: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤﴾ [المنافقون: ٤]، وحذَّر من الاغترار بزينة الكفار والعصاة فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [طه: ١٣١].

وقد جاء الأمر بجمال الظاهر والباطن، وبه يكتمل الجمال؛ وذلك كما في قول الرسول ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[(١)]. ويشرح الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ هذا الحديث فيقول: «الجمال في الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع: منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم. فالمحمود منه ما كان لله، وأعان على طاعة الله وتنفيذ أوامره والاستجابة له؛ كما كان النبي ﷺ يتجمَّل للوفود، وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه؛ فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله، ونصر دينه، وغيظ عدوه. والمذموم منه ما كان للدنيا والرياسة والفخر والخيلاء، والتوسل إلى الشهوات، وأن يكون هو غاية العبد وأقصى مطلبه؛ فإن كثيرًا من النفوس ليس لها همة في سوى

---

(١) مسلم (٩١).

ذلك. وأما ما لا يحمد ولا يذم فهو ما خلا عن هذين القصدين، وتجرَّد عن الوصفين.

والمقصود أن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصلين عظيمين: فأوله معرفة، وآخره سلوك؛ فيعرف الله سبحانه بالجمال الذي لا يماثله فيه شيء، ويعبد بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق، فيحب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق، وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه وتطهيره له من الأنجاس والأحداث، والأوساخ والشعور المكروهة، والختان وتقليم الأظافر؛ فيعرفه بصفات الجمال، ويتعرَّف إليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة، فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه، ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه، فجمع الحديث قاعدتي المعرفة والسلوك»(١).

ثالثًا: جمال الباطن ينعكس ـ كما سبق ذكر ذلك ـ على جمال الظاهر، فيكتسي وجه صاحب السريرة الحسنة والقلب السليم نضارة وجمالًا وهيبة، بينما يظهر على وجه أصحاب السرائر الخبيثة والقلوب المريضة من السواد وكسوف البال ما لا يخفى على أهل البصائر. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: «وهذا أمر محسوس لمن له قلب؛ فإن ما في القلب من النور والظلمة، والخير والشر، يسري كثيرًا إلى الوجه والعين، وهما أعظم الأشياء ارتباطًا بالقلب.

ولهذا يروى عن عثمان رضي الله عنه ـ أو غيره ـ أنه قال: «ما أسرَّ أحد بسريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه». والله قد أخبر في القرآن أن ذلك قد يظهر في الوجه فقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [محمد: ٣٠] فهذا تحت المشيئة، ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] فهذا مُقسم عليه محقق لا شرط فيه؛ وذلك أن ظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره في وجهه، لكنه يبدو في الوجه بُدُوًا خفيًا يعلمه الله، فإذا

---

(١) الفوائد، ص١٨١.

صار خُلُقًا ظهر لكثير من الناس، وقد يقوى السواد والقَسَمة حتى يظهر لجمهور الناس»(١).

ويقول أيضًا: «وأما أهل الفجور فتعلو وجوههم ظلمة المعصية حتى يُكسف الجمال المخلوق. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن للحسنة لنورًا في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب، وغبرة في الوجه، وضعفًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق».

وهذا يوم القيامة يكمل حتى يظهر لكل أحد؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾ [آل عمران: ١٠٦ ـ ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)﴾ [الزمر: ٦].

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس: ٣٨ ـ ٤٢]...

وقال النبي ﷺ: **«لا تزال المسألة بأحدهم حتى يجيء يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم»**(٢)، وقال: **«من سأل الناس وله ما يكفيه جاءت مسألته خدوشًا أو كدوحًا في وجهه يوم القيامة»**(٣)، وقال ﷺ: **«أول زمرة تلج الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم كأشد كوكب في السماء**

(١) الاستقامة ١/ ٣٥٥.
(٢) مسلم في الزكاة، باب كراهية المسألة للناس (١٠٤٠).
(٣) ابن ماجه (١٨٣٠)، أبو داود (١٢٦٢)، وصحّحه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٣٢).

إضاءة»[١]، وقال يوم حنين: «**شاهت الوجوه**»[٢] لوجوه المشركين.

وأمثال هذا كثير مما فيه وصف أهل السعادة بنهاية الحسن والجمال والبهاء، وأهل الشقاء بنهاية السوء والقبح والعيب... ثم إن ذلك يقوى بقوة الأعمال الصالحة والأعمال الفاسدة؛ فكلما كثر البر والتقوى قوي الحسن والجمال، وكلما قوي الإثم والعدوان قوي القبح والشين، حتى ينسخ ذلك ما كان للصورة من حسن وقبح. فكم ممن لم تكن صورته حسنة، ولكن من الأعمال الصالحة ما عظم به جماله وبهاؤه، حتى ظهر ذلك على صورته.

ولهذا يظهر ذلك ظهورًا بينًا عند الإصرار على القبائح في آخر العمر عند قرب الموت، فنرى وجوه أهل السُّنَّة والطاعة كلما كبروا ازداد حسنها وبهاؤها، وحتى يكون أحدهم في كبره أحسن وأجمل منه في صغره، ونجد وجوه أهل البدعة والمعصية كلما كبروا عظم قبحها وشينها، حتى لا يستطيع النظر إليها من كان منبهرًا بها في حال الصغر لجمال صورتها.

وهذا ظاهر لكل أحد فيمن يعظم بدعته وفجوره؛ مثل الرافضة وأهل المظالم والفواحش، من الترك ونحوهم؛ فإن الرافضي كلما كبر قبُح وجهه وعظم شينه، حتى يقوى شبهه بالخنزير»[٣].

رابعًا: إن من يزن الجمال بهذا الميزان الإلٰهي الرفيع لَينضبط في موازينه وتذوُّقه لكل أنواع الجمال والتكريم، ومن ذلك: تذوُّقه للحشمة والحياء الذي تميز به المرأة المسلمة الملتزمة بأحكام الشرع في الزينة واللباس، والذي هو جمالها الحقيقي، ويمقت صور التبرج المختلفة التي تظهر في المجتمعات الجاهلية. يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ بعد أن استعرض بعض صور التبرج الجاهلي: «هذه هي صور التبرج في الجاهلية التي عالجها القرآن الكريم، ليطهر المجتمع الإسلامي من آثارها، ويبعد عنه عوامل الفتنة،

---

(١) البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة (٣٢٥٤).

(٢) مسلم في الجهاد، باب غزوة حنين (١٧٧٧).

(٣) الاستقامة ١/٣٥٣ ـ ٣٦٥ (باختصار).

ودواعي الغواية، ويرفع آدابه وتصوراته ومشاعره وذوقه كذلك!

ونقول: ذوقه؛ فالذوق الإنساني الذي يعجب بمفاتن الجسد العاري ذوق بدائي غليظ. وهو من غير شك أحط من الذوق الذي يعجب بجمال الحشمة الهادئ، وما يشي به من جمال الروح، وجمال العفة، وجمال المشاعر.

وهذا المقياس لا يخطئ في معرفة ارتفاع المستوى الإنساني وتقدمه؛ فالحشمة جميلة جمالًا حقيقيًا رفيعًا. ولكن هذا الجمال الراقي لا يدركه أصحاب الذوق الجاهلي الغليظ، الذي لا يرى إلا جمال اللحم العاري، ولا يسمع إلا هتاف اللحم الجاهر!

ويشير النص القرآني إلى تبرج الجاهلية، فيوحي بأن هذا التبرج من مخالفات الجاهلية، التي يرتفع عنها من تجاوز عصر الجاهلية، وارتفعت تصوراته ومُثُلُه ومشاعره عن تصورات الجاهلية ومُثُلِها ومشاعرها.

والجاهلية ليست فترة معينة من الزمان، إنما هي حالة اجتماعية معينة، ذات تصورات معينة للحياة، ويمكن أن توجد هذه الحالة وأن يوجد هذا التصور في أي زمان وفي أي مكان، فيكون دليلًا على الجاهلية حيث كان!

وبهذا المقياس نجد أننا نعيش الآن في فترة جاهلية غليظة الحسن، حيوانية التصور، هابطة في درك البشرية إلى حضيض مهين، وندرك أنه لا طهارة ولا زكاة ولا بركة في مجتمع يحيا هذه الحياة، ولا يأخذ بوسائل التطهر والنظافة التي جعلها الله سبيل البشرية إلى التطهر من الرجس، والتخلص من الجاهلية الأولى؛ وأخذ بها، أول من أخذ، أهل بيت النبي ﷺ على طهارته ووضاءته ونظافته»[1].

موازين البشر للجمال والحسن:

إنه بمعرفتنا للميزان الإلٰهي للجمال والحسن يتبيَّن لنا ما يضاده من موازين البشر المعوجة لحقيقة الجمال والحسن، والتي من سماتها ما يلي:

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٦١.

أولًا: الوقوف مع جمال المظهر المحسوس في هذه الدنيا، سواء كان جمال الجسد أو المال أو الحسب أو المركب أو المسكن، وجعل ذلك هو المعيار المهم للجمال والحسن، دون الاهتمام بجمال المخبر، وجمال الإيمان، وجمال الأخلاق. ولذا نرى أصحاب هذه الموازين قد ركَّزوا جل اهتمامهم - فيما يتعلق بالمرأة مثالًا - بجمالها الظاهر، أو بجمال مالها، أو بجمال حسبها، دون الالتفات لجمال دينها وأخلاقها، وقد ذكر ذلك النبي ﷺ في قوله: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسنها، وجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[1]. قال النووي في شرحه لهذا الحديث: «الصحيح في معنى الحديث أن النبي ﷺ أخبر بما يفعله الناس في العادة؛ فإنهم يقصدون هذه الخصال الأربع، وآخرها عندهم ذات الدين. فاظفر أنت أيها المسترشد بذات الدين... وفي هذا الحديث الحث على مصاحبة أهل الدين في كل شيء؛ لأن صاحبهم يستفيد من أخلاقهم وبركتهم وحسن طرائقهم، ويأمن المفسدة من جهتهم»[2].

ولا يفهم من ذلك إلغاء جمال المظهر، بل هو مطلوب ومرغوب، وإذا اجتمع مع جمال الباطن حصل الكمال. وإنما المقصود أن جمال الدين والأخلاق هو المعيار الحقيقي للجمال، وأنه يُقدَّم على الجمال الظاهري عند التعارض؛ عكس ما عليه كثير من الناس، حيث المعيار الأهم عندهم هو جمال المظهر.

يقول ابن حجر - رحمه الله تعالى - في شرحه للحديث: «قوله: «**وجمالها**» يؤخذ منه استحباب تزوج الجميلة إلا إنْ تعارض الجميلة الغير دينة والغير جميلة الدينة، نعم لو تساوتا في الدين فالجميلة أولى. ويلتحق بالحسنة الذات الحسنة الصفات، ومن ذلك أن تكون خفيفة الصداق.

قوله: «**فاظفر بذات الدين**»: في حديث جابر: «**فعليك بذات الدين**»، والمعنى أن اللائق بذي الدين والمروءة أن يكون الدين مطمح نظره في كل

---

(١) البخاري (٥٠٩٠)، مسلم (١٤٦٦).
(٢) شرح مسلم للنووي ١٠/ ٥١.

شيء لا سيما فيما تطول صحبته، فأمره النبي ﷺ بتحصيل صاحبة الدين الذي هو غاية النعمة»[(١)].

ثانيًا: ونتيجة للميزان المذكور آنفًا يتجه أصحاب هذه الموازين الجاهلية ـ سواء من الكفار، أو ممن تأثر بهم من منافقي الأمة وفساقها ـ إلى أن ميزان جمال المرأة هو جسدها، ولباسها وأزياؤها التي تعري جسدها أو تبرز مفاتنها للرجال؛ دون اعتبار لحياء أو حشمة، أو نظافة مشاعر، وذلك على العكس من أحكام الإسلام الطاهرة المطهرة التي جاءت لترفع من مكانة المرأة، وتجملها بلباس الحشمة والحياء والكرامة، وتنقذها من مستنقع الجاهلية وتبرجها الحيواني المقيت.

وعن ذلك يتحدث سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ فيقول: «لقد رفع الإسلام ذوق المجتمع الإسلامي، وطهَّر إحساسه بالجمال؛ فلم يعد الطابع الحيواني للجمال هو المستحب، بل الطابع الإنساني المهذب. وجمال الكشف الجسدي جمال حيواني يهفو إليه الإنسان بحس الحيوان؛ مهما يكن من التناسق والاكتمال. فأما جمال الحشمة فهو الجمال النظيف، الذي يرفع الذوق الجمالي، ويجعله لائقًا بالإنسان، ويحيطه بالنظافة والطهارة في الحس والخيال.

وكذلك يصنع الإسلام اليوم في صفوف المؤمنات على الرغم من هبوط الذوق العام، وغلبة الطابع الحيواني عليه، والجنوح به إلى التكشف والعري، والتنزِّي كما تتنزَّى البهيمة! فإذا هن يحجبن مفاتن أجسامهن طائعات، في مجتمع ينكشف ويتبرج، وتهتف الأنثى فيه للذكور حيثما كانت هتاف الحيوان للحيوان!»[(٢)].

ويقول عند قوله ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا

---

(١) فتح الباري ٩/ ٣٨.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥١٣.

يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ [الأعراف: ٢٦، ٢٧]: «وكلها توحي بأهمية هذه المسألة، وعمقها في الفطرة البشرية؛ فاللباس، وستر العورة: زينة للإنسان وستر لعوراته الجسدية. كما أن التقوى لباس وستر لعوراته النفسية.

والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوآتها الجسدية والنفسية، وتحرص على سترها ومواراتها... والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس، وتعرية النفس من التقوى، ومن الحياء من الله ومن الناس؛ والذين يطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والإعلام كلها لتأصيل هذه المحاولة - في شتى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة - هم الذين يريدون سلب «الإنسان» خصائص فطرته، وخصائص «إنسانيته» التي بها صار إنسانًا. وهم الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان وما يريده به من نزع لباسه وكشف سوآته! وهم الذين ينفذون المخططات الصهيونية الرهيبة لتدمير الإنسانية وإشاعة الانحلال فيها لتخضع لملك صهيون بلا مقاومة، وقد فقدت مقوماتها الإنسانية!

إن العري فطرة حيوانية، ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان. وإن رؤية العري جمالًا هو انتكاس في الذوق البشري قطعًا. والمتخلفون في أواسط إفريقية عراة، والإسلام حين يدخل بحضارته إلى هذه المناطق يكون أول مظاهر الحضارة اكتساء المرأة!

فأما في الجاهلية الحديثة «المتقدمة» فهم يرتكسون إلى الوهدة التي ينتشل الإسلام المتخلفين منها، وينقلهم إلى مستوى الحضارة... وهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة، وبين التقوى.. كلاهما لباس؛ هذا يستر عورات القلب ويزينه. وذاك يستر عورات الجسم ويزينه، وهما متلازمان؛ فعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه. ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرَّى وأن يدعو إلى العري.. العري من الحياء والتقوى، والعري من اللباس وكشف السوأة!

إن ستر الجسد حياءً ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئي كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم ـ وفق الخطة اليهودية البشعة التي تتضمنها مقررات حكماء صهيون ـ إنما هي فطرة خلقها الله في الإنسان، ثم هي شريعة أنزلها الله للبشر، وأقدرهم على تنفيذها بما سخَّر لهم في الأرض من مقدرات وأرزاق. والله يُذكِّر بني آدم بنعمته في تشريع اللباس والستر؛ صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم، وفي تمكينهم منه[1] بما يسر لهم من الوسائل ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾... والزينة الإنسانية هي زينة الستر، بينما الزينة الحيوانية هي زينة العري، ولكن الآدميين في هذا الزمان يرتدُّون إلى رجعية جاهلية تَرُدُّهم إلى عالم البهيمة، فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها!!»[2].

ثالثًا: هناك تلازم وثيق بين موازين البشر الجاهلية للجمال وبين موازينهم للتكريم والإهانة وتقويم الناس؛ فلما كان ميزان الجمال عندهم ينصبُّ على الجمال الظاهري ـ سواء كان ذلك الجمال في الجسد أو في المال أو في الجاه ـ فإن هذا ينعكس على معاييرهم للتكريم والإهانة؛ فالمكرم والمقدر عندهم هو صاحب الجمال الظاهري؛ سواء كان ذلك الجمال في المظهر أو في الحسب أو في المال، دون اعتبار للميزان الحقيقي للجمال الذي هو جمال الدين وحياة القلب ومحاسن الأخلاق. وقد سبق تفصيل ذلك في ميزان التكريم والإهانة.

وكذلك هناك ارتباط وثيق بين الموازين البشرية للجمال وموازينهم للحضارة والتقدم؛ حيث إن الحضارة عندهم ـ كما تقدم ذكر ذلك في موازين الحضارة ـ تتركز في مظاهر الجمال الحسي والمتعة الجسدية البحتة، سواء كان ذلك في جمال الأجساد وتعريها، أو في جمال البنيان وتشييده، أو في مظاهر الترف وكثرة الأموال والتقدم التقني والمعارف الدنيوية؛ دون أي اعتبار

(١) أي: ويذكرهم الله أيضًا بنعمته عليهم في تمكينهم من هذا التشريع للباس والستر.
(٢) في ظلال القرآن ٣/١٢٧٦ ـ ١٢٧٩ (باختصار).

لجمال الدين والأخلاق اللذين هما في الحقيقة صلب الحضارة الحقة، وأساسها وجمالها وحسنها.

رابعًا: إن نظرة أصحاب الموازين الجاهلية للجمال تنعكس على طرائقهم في تربية أنفسهم وأهليهم وأولادهم؛ فبينما نجدها عند أصحاب الموازين الشرعية تنصب على تحقيق الجمال الذي يحبه الله ﷻ في أنفسهم وأولادهم ـ وهو جمال الدين والأخلاق والأعمال، مع عنايتهم بجمال المظهر، والعناية بنظافة الجسد وصحته، ونظافة اللباس وحسنه ـ فإننا نجدها عند أصحاب الموازين الجاهلية منصبة على جمال الجسد، والعناية الفائقة بمتعته وصحته، وكذلك العناية بمظاهر الجمال الزائل لهذه الدنيا من مركب ومسكن، وحصر الجمال في ذلك دون العناية بجمال التقوى والأخلاق والأعمال الصالحة. وعلامة ذلك ما يصيبهم من القلق والهم إذا تعرضوا في أنفسهم أو في أولادهم وأهلهم إلى ما يهدد هذه الأعراض الجمالية الزائلة، بينما لا يصيبهم هذا الهم عندما تتعرض أخلاقهم وعقيدتهم لما يفسد جمالها وحسنها، سواء كان ذلك في أنفسهم أو أولادهم.

خامسًا: إن أصل الفساد في موازين البشر للجمال آت من ضعف الإيمان باليوم الآخر أو الغفلة عنه. وهذا منشؤه من تزيين الشيطان الدنيا في أعين الناس، بل وتزيينه للعمل السيء حتى يكون في أعينهم جميلًا وحسنًا؛ قال الله ﷻ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ [فاطر: ٨]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢١٢].

❑ ❑ ❑

المبحث الثاني عشر

ميزان السياسة

قال في «لسان العرب»: «السَّوْسُ: الرياسة؛ يقال: ساسوهم سوسًا. وإذا رأَّسوه قيل: سوَّسوه وأساسوه. وساس الأمر سياسة: قام به.

ويقال: سُوِّس فلان أمر بني فلان؛ أي: كُلِّف سياستهم... والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه. والسياسة: فعل السائس»(١).

وروى البخاري في صحيحه عن أبي حازم قال: قاعدت أبا هريرة رضي الله عنه خمس سنين، فسمعته يحدث عن النبي ﷺ قال: **«كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء؛ كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون.** قالوا: فما تأمرنا؟ قال: **فوا ببيعة الأول فالأول؛ أعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم»**(٢).

ومعنى تسوسهم: أي: تقوم على أمرهم وشؤونهم بما يصلحها في الدين والدنيا.

وفي ضوء الحديث النبوي والتعريف اللغوي نستطيع أن نعرف (مصطلح السياسة) في مفهوم الشرع بأنها: القيام بمصالح العباد المبني على أصول ثابتة من القرآن والسُّنَّة، وسيرة الخلفاء الراشدين، وما كتبه العلماء في المقاصد الشرعية بما يحقق مصالح العباد، ويرشد إلى الطريق المنجي في الدنيا والآخرة، ويحقق العبودية لله ﷻ. هذا هو الميزان الإلٰهي والمعيار الشرعي للسياسة.

---

(١) لسان العرب ٣/ ٢١٤٩.

(٢) صحيح البخاري (٣٤٥٥)، مسلم (١٨٤٢).

أما في موازين البشر الجاهلية فهي رياسة وقيادة الناس بالظلم والمكر والنفاق والكذب، والكيل بمكيالين، بما يحقق مصالح أقلية من الناس على حساب مصالح الأكثرية باسم السياسة.

ولمزيد من التفصيل نتعرف على سمات هذين الميزانين المتضادين.

أولًا: سمات الميزان الإلٰهي للسياسة:

١ ـ السمة الأساسية لهذا الميزان هي العدل، وإقامة العبودية لله ﷻ في الأرض، وتحقيق المصالح للعباد، ودرء المفاسد عنهم في الدارين، وذلك في ضوء الشرع، وهو ما يُسمَّى بالسياسة الشرعية في الإسلام، وقد تكون مصلحة فردية أو جماعية، وقد يكون الممارس لها عالمًا مفتيًا، أو قاضيًا حاكمًا، أو أميرًا وواليًا، أو مجلس شورى، أو هيئة شرعية، أو خليفة للمسلمين.

وقد عرَّف بعض أهل العلم السياسة الشرعية بأنها: كل حكم أو إجراء وتدبير يساس به الكافة على مقتضى النظر الشرعي. وفي ذلك يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «فإن الله أرسل رسله، وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض. فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت دولة العقل، وأسفر صبحه بأي طريق كان؛ فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره، والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته في نوع واحد وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدل وأظهر، بل بيَّن بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها، والطرق أسباب ووسائل لا تراد لذواتها، وإنما المراد غاياتها التي هي المقاصد، ولكن نبَّه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها، ولن تجد طريقًا من الطرق المثبتة للحق إلا وهي شرعةٌ وسبيل للدلالة عليها، وهل يظن بالشريعة الكاملة خلاف ذلك؟»[1].

---

(١) أعلام الموقعين ٤/ ٤٥٢.

والسياسة الشرعية تتميز عن السياسات الوضعية بأن مصدرها إلٰهي من عند الله ﷻ؛ فهي كاملة شاملة عادلة، بينما مصدر السياسات الوضعية الفكر البشري الموسوم بالجهل والظلم والهوى. وبناء على ذلك فإن السياسة الشرعية واجب ديني، أما السياسات الوضعية فإلزام وضعي، ولذا فالسياسة الشرعية تقوم على مقصد العبودية لله تعالى، وحكم الحياة بشريعته، بينما تقوم السياسات الوضعية على فصل الدين عن الدولة وحياة الناس.

٢ ـ ومن صفات القائمين بالسياسة الشرعية مِنْ الولاة ومَنْ دونهم أنهم لا يخرجون عن أحكام الله ﷻ، ولا يغضبون إلا لله ﷻ وعندما تنتهك محارمه. ويقل عندهم الغضب لأنفسهم الذي يقود في الغالب إلى ظلم الناس، وأخذ أموالهم بغير حق. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في تقييم الناس في غضبهم لربهم ونفوسهم: «فإن الناس ثلاثة أقسام: قسم يغضبون لنفوسهم ولربهم، وقسم لا يغضبون لنفوسهم ولا لربهم، والثالث ـ وهو الوسط ـ الذي يغضب لربه لا لنفسه، كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له، ولا امرأة، ولا دابة، ولا شيئًا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله. ولا نيل منه شيء فانتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمات الله فإذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله»[(١)].

فأما من يغضب لنفسه لا لربه، أو يأخذ لنفسه ولا يعطي غيره؛ فهذا القسم الرابع: شر الخلق؛ لا يصلح بهم دين ولا دنيا.

كما أن الصالحين أرباب السياسة الكاملة هم الذين قاموا بالواجبات وتركوا المحرمات، وهم الذين يُعطون ما يصلح الدين بعطائه، ولا يأخذون إلا ما أبيح لهم، ويغضبون لربهم إذا انتهكت محارمه، ويعفون عن حقوقهم، وهذه أخلاق رسول الله ﷺ في بذله ودفعه، وهي أكمل الأمور.

---

(١) مسند أحمد برقم (٢٤٠٦٦) (٢٤٥٤٦)، وصحَّحه محقق الموسوعة الحديثية.

وكلما كان إليها أقرب، كان أفضل. فليجتهد المسلم في التقرب إليها بجهده، ويستغفر الله بعد ذلك من قصوره أو تقصيره بعد أن يعرف كمال ما بعث الله تعالى به محمدًا ﷺ من الدين، فهذا في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] والله أعلم»[١].

ثانيًا: الموازين الجاهلية للسياسة:

وهي تلك الموازين التي تسيرها أهواء البشر وجهالاتهم، وتتنكر لشرع الله ﷻ وسياساته العادلة. ولذا فمن صفاتها: الظلم، والمكر، والخداع، والكيل بعدة مكاييل. ويمكن الوقوف مع أهم سمات هذه الموازين فيما يلي:

أولًا: ينظر أصحاب هذه الموازين إلى أن المكر والتلبيس والتحايل على الناس في تمرير ما يريدونه من شر وفساد هو من السياسة والدهاء والحنكة والفطنة؛ وبالعبارة الأعجمية: (دبلوماسية) أو (ميكافيلية)؛ وهي السياسة ذات الوجهين.

ثانيًا: ومنهم من يبرر ظلمه وبطشه بالناس، والاعتداء عليهم في أنفسهم وأموالهم، وتحكيم الأهواء، بأنه الحزم وتحقيق الأمن، والمحافظة على مصالح الناس وحقوقهم، وأن هذا من السياسة. ورحم الله ابن القيم حيث فضح هؤلاء وأمثالهم بقوله: «وأخرج المنافقون النفاق في قالب الإحسان والتوفيق والعقل المعيشي، وأخرج الظلمة الفجرة الظلم والعدوان في قالب السياسة وعقوبة الجناة، وأخرج المكّاسون أكل المكوس في قالب إعانة المجاهدين وسد الثغور وعمارة الحصون»[٢].

ويقول في موطن آخر: «إن المعارضين للوحي بآرائهم خمس طوائف:

* **طائفة عارضته بعقولهم في الخبريات**، وقدَّمت عليه العقل، فقالوا لأصحاب الوحي: لنا العقل، ولكم النقل.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٩٥، ٢٩٦. (٢) إغاثة اللهفان ٢/ ٨٠، ٨١.

* **وطائفة عارضته بآرائهم وقياساتهم**، فقالوا لأهل الحديث: لكم الحديث ولنا الرأي والقياس.

* **وطائفة عارضته بحقائقهم وأذواقهم**، وقالوا: لكم الشريعة، ولنا الحقيقة.

* **وطائفة عارضته بسياساتهم وتدبيرهم**، فقالوا: أنتم أصحاب الشريعة، ونحن أصحاب السياسة.

* **وطائفة عارضته بالتأويل الباطن**، فقالوا: أنتم أصحاب الظاهر، ونحن أصحاب الباطن.

ثم إن كل طائفة من هذه الطوائف لا ضابط لما تأتي به من ذلك، بل ما تأتي به تبع لأهوائها؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

فما هو إلى الهوى أو الوحي؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤].

فجعل النطق نوعين: نطقًا عن الوحي ونطقًا عن الهوى. ثم إذا رد على كل من هؤلاء باطله رجع إلى طاغوته، وقال في العقل ما لا يقتضيه النقل، وقال الآخر في الرأي والقياس ما لا يجيزه الحديث، وقال الآخر في الذوق والحقيقة ما لا تسوغه الشريعة، وقال الآخر في السياسة ما تمنع منه الشريعة، وقال الآخر في الباطن ما يكذبه بالظاهر؛ فباطل هؤلاء كلهم لا ضابط له، بخلاف الوحي؛ فإنه أمر مضبوط مطابق لما عليه الأمر في نفسه، تلقَّاه الصادق المصدوق من لدن حكيم عليم»[(١)].

ويقول بعد ذلك في نفس الكتاب: «إن المعارضين للوحي بعقولهم في الأصل هم أعداء الرسل المكذبون لهم كما تقدم، ودونهم طوائف الجهمية المعطلة، وملاحدة الصوفية، وزنادقة الباطنية، وخونة الولاة وظلمتهم؛

---

(١) الصواعق المرسلة ٣/ ١٠٥١، ١٠٥٢.

فالجهمي يقول: قال لي عقلي، وملاحدة المتصوفة يقول قائلهم: قال لي قلبي، وزنادقة الباطنية يقولون: لكل شيء تأويل وباطن يعلمه أهل الباطن وينكره أهل الظاهر، وخونة الولاة يقولون: لا تستقيم أمور الرعية إلا بهذه السياسة، ولو وكلناهم إلى الشريعة لفسدت أمورهم»[(١)].

وقال في موطن آخر: «وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة كتقسيم غيرهم الدين إلى شريعة وحقيقة، وكتقسيم آخرين الدين إلى عقل ونقل؛ وكل ذلك تقسيم باطل، بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل كل ذلك ينقسم إلى قسمين: صحيح وفاسد؛ فالصحيح قسم من أقسام الشريعة لا قسيم لها، والباطل ضدها ومنافيها، وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها، وهو مبني على حرف واحد، وهو عموم رسالته ﷺ بالنسبة إلى كل يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم، وأنه لم يحوج أمته إلى أحد بعده، وإنما حاجتهم إلى من يبلغهم عنه ما جاء به، فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص: عموم بالنسبة إلى المرسل إليهم، وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العباد من بُعِث إليه في أصول الدين وفروعه، فرسالته كافية شافية عامة، لا تحوج إلى سواها، ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته، ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عما جاء به»[(٢)].

ثالثًا: ومن مظاهر الموازين البشرية للسياسة ما ظهر في أزمنتنا المتأخرة من تلاعب بالمصطلحات، ورفع بعض الشعارات البراقة التي يزخرفون على الناس بها، ويلبسون عليهم دينهم؛ قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢]. وأذكر هنا مثالين لما يطرحه الملبسون الذين ينطلقون فيهما من موازين البشر وأهوائهم للسياسة، وليس من ميزان الكتاب والسُّنَّة:

---

(١) الصواعق المرسلة ٤/ ١٣٤٢.
(٢) أعلام الموقعين ٤/ ٤٥٤.

المثال الأول: مصطلح الديموقراطية:

والديموقراطية في عرف أهلها هي سيادة حكم الشعب. والسيادة سلطة عليا مطلقة غير محكومة بأي سلطة أخرى، وتتمثَّل في حق الشعب في اختيار حكامه، وحقه في تشريع ما يشاء من القوانين، ويمارس الشعب السلطة عادة بالإنابة، بأن يختار نوابًا عنه يمثلونه في البرلمان، وينوبون عنه في ممارسة السلطة؛ أي: أن مصدر التشريع والتحليل والتحريم هو الشعب وليس الله، ويتم ذلك عن طريق اختياره لممثلين ينوبون عنه في مهمة التشريع وسن القوانين. وقد يسمونه «بالمجلس الوطني» أو «مجلس الحكم» أو «مجلس الأمة» أو «مجلس الشعب» وهذا يعني أن المألوه المعبود المطاع ـ من جهة التشريع ـ هو الإنسان وليس الله جلَّ في علاه. وهذا مغاير ومناقض لأصول الدين والتوحيد؛ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾ [يوسف: ٤٠]: وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الشورى: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]؛ لأنكم عبدتموهم من جهة طاعتكم إياهم في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله، فإنكم لعابدون لهم من دون الله؛ لأن الشرك لا يطلق في القرآن أو السُّنَّة إلا لنوع عبادة تصرف لغير الله ﷻ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]؛ فهم أرباب من دون الله بالاعتراف لهم بحق التشريع والتحليل والتحريم وسن القوانين من دون الله.

والديموقراطية تقوم على مبدأ اعتبار وإقرار موقف ورأي الأكثرية، مهما كان نوع هذه الأكثرية، وأيًا كان موقف هذه الأكثرية؛ وافقت الحق أم لا. وأعضاء البرلمان الذين يضعون لأنفسهم حق التشريع للناس هم في الحقيقة يضعون أنفسهم أربابًا معبودين من دون الله.

يتحدث الدكتور صلاح الصاوي في فضح الطاغوت المعاصر المسمى

بالديموقراطية فيقول: «لمن الحكم اليوم؟ سؤال تتقرر في ضوء الإجابة عليه هوية البلاد والعباد!

لقد أجاب عنه أهل الإيمان في كل زمان ومكان بقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾ [يوسف: ٤٠]، فكانوا بذلك عبادًا لله، واستحقوا أن يثبت لهم بذلك عقد الإسلام.

وأجاب عنه أهل الضلالة بإجابات شتى تلتقي جميعًا حول تحكيم الهوى، والخصومة مع الوحي، وفصل الدولة عن الدين.

لقد جعلوه أولًا لأهواء الأحبار والرهبان الذين كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله!

ثم جعلوه بعد ذلك لأهواء الشعوب بعد ما ضاقوا ذرعًا بطغيان الحكام والكهنوت، فقدَّسوا إرادة الإنسان، واتخذوا منها وحدها مصدر التشريع والإلهام، فخرجوا بذلك من عبادة الحكام والباباوات إلى عبادة الشعوب والبرلمانات، ومن طغيان يمارس باسم الحق الإلٰهي للكنيسة والحكام إلى طغيان يمارس باسم الحق الإلٰهي للأفراد والشعوب.

ثم لم يلبث هذا الوباء أن سرت عدواه إلى ديار الإسلام تحت ستار من التحرر ومقاومة الطغيان، ووسط جوقة من العزف على نغمة حقوق الإنسان!

وتم النص في معظم الدساتير العربية والإسلامية تقريبًا على إلٰهية ذلك الصنم الجديد: الشعب!

وذلك بالإقرار له ممثلًا في نوابه بالحق في التشريع المطلق؛ يحل به ما يشاء، ويحرِّم به ما يشاء، ويأمر به بما يشاء، وينهى به عمَّا يشاء، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه!!

وصيغت هذه الديانة الجديدة في هذه العبارة الخلابة الساحرة: السيادة للشعب!

وتم بناء على ذلك الفصل بين الدين والدولة، بل الفصل بين الدين والحياة، وانتقلت مصدرية الأحكام ابتداء من الشريعة إلى القانون، ومن

الكتاب والسُّنَّة إلى مجالس الأمة، وألغيت سيادة الشريعة الإسلامية، وأهدرت فعالية نصوصها في المجالات العامة لتبنى على أنقاضها سيادة القوانين والنظم الوضعية.

إن أحدًا لا يُنازع في تقرير حق الشعوب في الإشراف على السلطة تولية ورقابة وعزلًا، وحقها في مقاومة الطغيان؛ فإن هذا من قواعد الحكم الكلية في الإسلام، ولكن المنازعة في خلع الربقة وتقرير حق المخلوقين في منازعة الخالق في أخص خصائصه وأجمع صفاته؛ وهو حقه في الأمر والتشريع المطلق!!

لقد تم النص في كافة هذه الدساتير على هذا النص الخلاب: لا جريمة ولا عقوبة إلا بقانون. فانتقلت بذلك مصدرية التجريم والعقاب من القرآن إلى البرلمان، فأصبح الحلال ما أحله البرلمان، والحرام ما حرَّمه، وليس أمام حملة الشريعة إلا أن يقبلوا أو يرحلوا! وإلا فسيف القانون بالمرصاد، وعندما يتكلم القانون يجب أن يصمت الضمير!»[(١)].

المثال الثاني: مصطلح المجتمع المدني:

هناك ارتباط كبير بين هذا المصطلح وبين الديموقراطية العلمانية، ولكن الذين يزنون السياسة بموازين الجاهلية يخادعون الناس به؛ حيث يطرحونه في ثوب المجتمع القائم على التآخي والتسامح ومعايير الاحترام، ممثلًا في الجمعيات والروابط غير الحكومية. ويفصِّل القول في حقيقة ما يسمى (بالمجتمع المدني) الدكتور أحمد خضر، ويبين ما فيه من التلبيس والخداع للناس فيقول: «المجتمع المدني مصطلح غامض ومتعدد المعاني، يمكن تطويعه في خدمة عدة أغراض؛ فهو مصطلح يسعى إلى أن يجمع أي شيء بكل شيء، نشأ عبر تطور طويل، يحمل في طياته فروقًا وتناقضات هي السر في غموضه. وصفه بعض الناس بأنه حساء المتسولين، جمع أعقاب النظريات

---

(١) نظرية السيادة وأثرها على شرعية الأنظمة الوضعية، ص٥ ـ ٧.

المختلفة، والحقب الزمانية المتعاقبة، وأنه تسمية جديدة لأحلام قديمة. وأكد البعض الآخر أنه ذو تاريخ مشبوه، نسي الناس بمرور الزمن أنه مجتمع الأرستقراطية، وأنه قد صيغ لاستعباد طبقات شعبية معينة، لكنه يُقدَّم الآن بكثير من الزخرف ليعمَّى بريقه عن كل ما عداه، وكأنه الحل السحري لجميع مشاكل المجتمع الاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

ترجع الجذور اللادينية للمفهوم في الغرب إلى (توماس هويز) الذي رأى فيه تعبيرًا عن انتقال مبدأ السيادة من السماء (الحكم بالحق الإلٰهي) إلى الأرض (الحكم على أساس العقد الاجتماعي)، فأدانته جامعة أكسفورد في عام ١٦٨٣م؛ لأنه استخلص كل سلطة مدنية من أصل مجتمعي دنيوي ولم يسندها إلى الحق الإلٰهي، وجعل هذه السلطة كائنًا اصطناعيًا، أي: (إلهًا) من صنع البشر، ويعرِّف (العقد الاجتماعي) بأنه: (تجريد عقلاني مؤسس على الافتراض أن الفرد هو ذاتٌ مزودةٌ بأداة حرة، وأن المجتمع عبارة عن تعاقد بين مثل هذه الذوات، وأن شرعية الدولة قائمة على هذا التعاقد، وليس على الإرادة السماوية).

وعلى كل إنسان أن يسوِّي أموره مع (الله) بطريقته الخاصة: وفي هذا المجتمع تختفي مفاهيم الفرد المؤمن وغير المؤمن، والرجل والمرأة، والحر والعبد، وتستبدل جميعها بمفهوم الفرد المواطن.

أما العلمانية فهي مفهوم لا ينفصل كلية عن المجتمع المدني؛ بحيث يصعب الحديث جديًا عن قضايا المجتمع المدني دون تناول العلمانية؛ ليس باعتبارها جزءًا من منظومات المفاهيم التي تشكل حقل هذا المجتمع المدني وفضاءه، بل لأنها تشكل الجذر الذي تنحدر تحته كل القضايا المرتبطة به.

ومن أهم مقومات المجتمع المدني: مبدأ الحرية الفردية، والمواطنة القومية ويتضمن مفهوم المواطنة القضاء على كل الانتماءات القديمة؛ دينية كانت أم غير ذلك، كما يتأسس على حق المواطنة حرية المعتقد، وفصل الدين عن الدولة، وحرية الرأي والتعبير مهما كان مخالفًا لانتماءات غالبية

الناس العقدية؛ يرى العلمانيون أن التمسك بالعقيدة تعصُّب يؤثر سلبًا على العلاقات داخل المجتمع المدني الذي يفترض التعدد والتنوع، وحتى الاختلاف في مقوماته، ويقولون: التعصب في جوهره نفي للآخر وإقصاء لرأيه وصوته، وتمركز حول العقيدة أو الأيديولوجيا والذات يمنع صاحبه من امتلاك أي تصور من الحقيقة يقع خارجه، وهو يفترض أحادية الحقيقة والانفراد بامتلاكها، كما يفترض تقديم إجابات جاهزة على الأسئلة المطروحة والإشكاليات القائمة. والتعصب بهذا المعنى يقتل الحافز للبحث والتفتيش عن إجابات جديدة، أو حتى لصياغة الأسئلة القديمة بأشكال مبتكرة؛ أي: أنه يساهم في تكريس السائد والمعروف والتقليدي، ويصادر على المختلف والمغيب والمبتكر. وهذه العبارات تشير بشكل أو بآخر إلى رفضهم التمسك بالعقيدة؛ لأن هذا التمسك الذي يسمونه (تعصُّبًا) لن يسمح بأي اختراق لتصوراتهم وأفكارهم التي من شأنها التأثير على البناء العقدي للمجتمع.

وكما لا تنفصل العلمانية عن الديموقراطية في المجتمع المدني، فإنها لا تنفصل كذلك عن (العقلانية)؛ فجميع هذه المفاهيم دروع مهمتها الأساسية الحيلولة دون اختراق العقيدة لبناء المجتمع المدني الجديد. وعن العقلانية وارتباطها بالمجتمع المدني ومقاومتها للعقيدة يقول دعاة المجتمع المدني: إن العقلانية هي: تحرير العقل من المسبقات والأوهام والمطْلق؛ فالعلمانية إذ تقيم سلطة العقل إنما تعلن نسبية الحقيقة وتاريخيتها وغيرها، وإمكانات تجاوزها لفتح آفاق وإمكانيات للمعرفة الموضوعية عبر الانتقال من الأيديولوجيا إلى العلم، ومن التبرير إلى التفسير»[1].

❑ ❑ ❑

---

(١) المجتمع المدني، (موقع شبكة نور الإسلام).

المبحث الثالث عشر

ميزان السعادة

فرق كبير بين الميزان الإلٰهي للسعادة وأسبابها وبين موازين البشر الأرضية، وما ذاك إلا من إغفال البعد الإيماني، والخلل الحاصل في النظرة إلى حقيقة الدنيا والآخرة عند أهل الموازين الأرضية.

بينما نجد اعتبار الإيمان وعبادة الله ﷻ والاستعداد للقاء الله ﷻ في الدار الآخرة أمورًا واضحة ومعتبرة في الميزان الإلٰهي للسعادة؛ يقول الله ﷻ عن أهل الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ١٦]. ويعلق سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ على هذه الآية فيقول: «وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة؛ فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم، ويهجرون ديارهم، ويفارقون أهلهم، ويتجرَّدون من زينة الأرض ومتاع الحياة؛ هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم؛ هؤلاء يستروحون رحمة الله، ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة؛ ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾. ولفظة ﴿يَنشُرْ﴾ تلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع، تنتشر فيه الرحمة، وتتسع خيوطها، وتمتد ظلالها، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء.. إن الحدود الضيقة لتنزاح، وإن الجدران الصلدة لترق، وإن الوحشة الموغلة لتشف، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق.

إنه الإيمان.. وما قيمة الظواهر؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية؟ إن هنالك عالمًا آخر في جنبات القلب المغمور بالإيمان، المأنوس بالرحمٰن؛ عالمًا تظلله الرحمة والرفق

والاطمئنان والرضوان»(١).

من سمات الميزان الإلٰهي للسعادة:

أولًا: يقول الله ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

في هذه الآيات الثلاث بيان للميزان الحق للسعادة والشقاوة؛ ففي الآية الأولى ذكر الله ﷻ أن الحياة الطيبة السعيدة في هذه الدنيا قبل الآخرة إنما تكون لأهل الإيمان والعمل الصالح والقرب من الله ﷻ.

وفي آية سورة (الجاثية) يذكر الله ﷻ أن لا تساوي بين أصحاب الإيمان والعمل الصالح وبين أصحاب السيئات والمعرضين عن الله ﷻ؛ سواء في الحياة الدنيا أو في الآخرة، حيث السعادة والطمأنينة للمؤمن في الدنيا، ورضوان الله وجنته في الآخرة. بينما الشقاء والنكد والضيق لمن عصى الله ﷻ في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة، وفي آية سورة (طه) يذكر الله ﷻ أن الإعراض عن الله ﷻ وذكره وطاعته هو السبب الرئيسي للحياة الضنك والشقاء في الدنيا، والعماية والعذاب في الآخرة.

يعلق ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ على الآية السابقة في سورة طه فيقول: «**والضنك**: الضيق والشدة والبلاء، ووصف المعيشة نفسها بالضنك مبالغة، وفسرت هذه المعيشة بعذاب البرزخ، والصحيح أنها تتناول معيشته في الدنيا وعذابه في البرزخ؛ فإنه يكون في ضنك في الحالين، وهو شدة وجهد وضيق، وفي الآخرة يُنسى في العذاب، وهذا عكس أهل السعادة والفلاح؛

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٦٢.

فإن حياتهم في الدنيا اطيب الحياة وفي البرزخ، وفي الاخرة افضل الثواب.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، فهذا في الدنيا. ثم قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فهذا في البرزخ والآخرة. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النحل: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فهذا في الدنيا. ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣] فهذا في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠]، فهذه أربع مواضع ذكر الله تعالى فيها أنه يجزي المحسن بإحسانه جزاءين؛ جزاء في الدنيا، وجزاء في الآخرة.

فالإحسان له جزاء معجل ولا بد، والإساءة لها جزاء معجل ولا بد، ولو لم يكن إلا ما يجازى به المحسن من انشراح صدره وانفساح قلبه وسروره، ولذته بمعاملة ربه ﷻ، وطاعته وذكره، ونعيم روحه بمحبته وذكره، وفرحه بربه سبحانه وتعالى أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه.

وما يجازى به المسيء من ضيق الصدر، وقسوة القلب وتشتته، وظلمته، وحزازاته، وغمه وهمه، وحزنه وخوفه، وهذا أمر لا يكاد من له أدنى حس وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة، ونار دنيوية، وجهنم حاضرة»(١).

ثانيًا: ميزان الله ﷻ يُسْقِط دور المال والجاه وكثرة الأولاد وكل أعراض الدنيا في الحصول على السعادة الحقيقية والأنس والطمأنينة، بل إن

---

(١) الوابل الصيب ص٨٥ ـ ٨٦.

هذه الأعراض كلها تصير في ميزان الشرع في الحال وفي المآل شؤمًا على أصحابها المعرضين عن الله، وسببًا في شقائهم ونكدهم وعذابهم بها في الدنيا والآخرة؛ قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾ [التغابن: ١٤].

ثالثًا: من رحمة الله ﷻ بعباده المؤمنين أنه ينزل عليهم السكينة والطمأنينة في مواطن الخوف والشدائد التي تضطرب فيها القلوب وتزيغ فيها الأبصار، وهذا من رحمة الله ﷻ لعباده المؤمنين؛ قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤].

وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

ومن ذلك ما ألقاه سبحانه من النعاس على المؤمنين في غزوة أُحد عندما اشتد بهم الغم والكرب؛ قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ومن ذلك ما يلقيه سبحانه من السكينة على أوليائه عندما يبتلون في سبيله بالسجون والتعذيب، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

* **المثال الأول**: ما نقله ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ عن شيخه ابن

تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ حين ابتلي بالسجن، حيث يقول ابن القيم: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني؛ إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت لهم ملأ هذه القاعدة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» ما شاء الله.

قال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه.

ولما أدخل القلعة وصار داخل السور نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف ساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوّة ويقينًا وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح بهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها»(١).

---

(١) الوابل الصيب ص٨٧.

ويحسن الوقوف عند مقولة شيخ الإسلام العظيمة: «المحبوس: من حبس قلبه عن ربه تعالى»، لنرى كيف نزن بها حقيقة السعادة، وحقيقة الضيق والابتلاء؛ حيث يبين لنا شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ أن المحبوس والمبتلى على الحقيقة ليس من حبس داخل جدران أربعة لا يخرج منها، وقلبه معلق بالله ﷻ، ممتلئٌ ببهجته والأنس به. إنما المحبوس على الحقيقة من خلا قلبه من معرفة الله ﷻ وذكره ومحبته وخوفه ورجائه؛ فهو محبوس عن ربه ولو كان طليقًا في ذهابه ومجيئه. ولا أدل على ذلك مما نسمعه من أحوال الدعاة أو المجاهدين الذين دخلوا السجون، ومع ذلك كانوا على حالة من الطمأنينة والسكينة والأنس بالله ﷻ، في الوقت الذي يذكر من أحوال القائمين على سجنهم من العساكر من الضيق والقلق والاكتئاب، وتعسر أمورهم، وما يعتريهم من الأمراض النفسية والعصبية جراء ذنوبهم ومعاصيهم، وهؤلاء هم المحبوسون المأسورون والمبتلون حقيقة. ولا يعارض الشعور بالسعادة الشعور بالحزن والألم من المصيبة؛ لأنه حزن وألم يصاحبه رضا واحتساب.

* **المثال الثاني**: ما ذكره سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عن بعض أحواله في غياهب السجون في عهد الطاغية الهالك جمال عبد الناصر؛ وذلك عند قوله تعالى عن الصحابة يوم بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: ١١]. حيث قال ـ رحمه الله تعالى ـ: «أما قصة النعاس الذي غشي المسلمين قبل المعركة فهي قصة حالة نفسية عجيبة، لا تكون إلا بأمر الله وقدره وتدبيره. لقد فزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة في مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه، ولم يتخذوا له عدته.. فإذا النعاس يغشاهم، ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسهم، والطمأنينة تفيض على قلوبهم. وهكذا كان يوم أحد.. تكرر الفزع، وتكرر النعاس، وتكررت الطمأنينة.. ولقد كنت أمر على هذه الآيات، وأقرأ أخبار هذا النعاس، فأدركه كحادث وقع، ويعلم الله سره، ويحكي لنا خبره.. ثم إذا بي أقع في شدة، وتمر عليَّ لحظات من الضيق المكتوم، والتوجس القلق، في ساعة

غروب.. ثم تدركني سنة من النوم لا تتعدى بضع دقائق.. وأصحو إنسانًا جديدًا غير الذي كان.. ساكن النفس، مطمئن القلب، مستغرقًا في الطمأنينة الواثقة العميقة.. كيف تم هذا؟ كيف وقع هذا التحول المفاجئ؟ لست أدري! ولكني بعدها أدركت قصة بدر وأُحد. أدركتها في هذه المرة بكياني كله لا بعقلي، واستشعرتها حية في حسي لا مجرد تصور»(١).

رابعًا: ومن آثار الميزان الإلٰهي للسعادة والأنس: ما ذكره الله ﷻ من أثر ذكره سبحانه في طمأنينة القلوب وأنسها؛ يقول ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: ٢٨، ٢٩] وقد ذكر هذه الفائدة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه الوابل الصيب في تعداده لفوائد الذكر؛ حيث قال: «ومن فوائد الذكر أنه يسعد الذاكر بذكره، ويسعد به جليسه، وهذا هو المبارك أين ما كان. والغافل واللاغي يشقى بلغوه وغفلته، ويشقى به مُجالِسُه»(٢).

ومن ذلك قوله ﷺ لبلال إذا حزبه أمر: «**يا بلال، أقم الصلاة، أرحنا بها**»(٣).

ومن ذلك ما نقل عن بعض السلف الذين ذاقوا حلاوة الإيمان والعبادة؛ حيث يقول أحدهم: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

وقال آخر: «مساكين أهل الدنيا؛ خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره.. أو نحو هذا».

وقال آخر: «إنه لَتَمُرُّ بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا».

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٨٤.
(٢) الوابل الصيب ص٩١.
(٣) أبو داود (٤٩٨٥). وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٤١٧١).

وقال آخر: «إنه لَتَمُرُّ بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب»(١).

خامسًا: السعادة بحذافيرها وتمامها لا تكون إلا لأهل الجنة حينما يدخلونها ويقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]، وكما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥﴾ [الروم: ١٥]. ومعنى يحبرون: أي: يُسرُّون ويغتبطون.

موازين البشر المعوجة للسعادة:

وهي الموازين التي تُغْفِل أثر الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح في تحقيق السعادة، وتحصر معيار السعادة في أعراض هذه الدنيا الفانية؛ من: صحة، أو مال، أو ولد، أو جاه، أو شهوة، أو لذة فانية. هذا، وإن شعر أصحاب هذه الملذات بسعادة موهومة فيها فسرعان ما تذهب وتزول، وتبقى الحسرات والشقاء، وبخاصة إذا استخدمت في معاصي الله ﷻ ونسيانه والإعراض عنه.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعيم؛ ففي قلبه من الوحشة والذل، والحسرات التي تقطع القلوب، والأماني الباطلة، والعذاب الحاضر ما فيه. وإنما يواريه عن سكرات الشهوات والعشق، وحب الدنيا والرياسة، وإن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر، فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر؛ فإنه يفيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه في عسكر الأموات. فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله ﷺ في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده. ولا تقر العين، ولا يهدأ القلب، ولا تطمئن النفس إلا بإلٰهها ومعبودها الذين هو حق، وكل معبود سواه باطل، فمن قرَّت عينه بالله قرت به كل عين،

(١) انظر الوابل الصيب ص٨٧.

ومن لم تقر عينه بالله تقطَّعت نفسه على الدنيا حسرات، والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لم آمن به وعمل صالحًا»(١).

ثم يتحدث ـ رحمه الله تعالى ـ عن تفاوت أهل الإيمان والعمل الصالح مع أهل الدنيا المعرضين عن الله والدار الآخرة في تناولهم للذات؛ وذلك بتفاوتهم في موازينهم لحقيقة الملذات.

يقول ـ رحمه الله تعالى ـ: «لذة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه؛ فأشرف الناس نفسًا، وأعلاهم همة، وأرفعهم قدرًا، من لذته في معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والتودد إليه بما يحبه ويرضاه؛ فلذته في إقباله عليه وعكوف همته عليه. ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله، حتى تنتهي إلى من لذته في أحسن الأشياء من القاذورات والفواحش في كل شيء من الكلام والفعال والأشغال. فلو عرض عليه ما يلتذ به الأول لم تسمح نفسه بقبوله ولا الالتفات إليه، وربما تألمت من ذلك، كما أن الأول إذا عرض عليه ما يلتذ به هذا لم تسمح نفسه به، ولم تلتفت إليه، ونفرت نفسه منه.

وأكمل الناس لذة من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن؛ فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة، ولا يقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه. فهذا ممن قال تعالى فيه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. وأبخسهم حظًا من اللذة مَنْ تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة، فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]. فهؤلاء تمتعوا بالطيبات، وأولئك تمتعوا بالطيبات، وافترقوا في وجه التمتع؛ فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذي أُذِنَ لهم فيه، فجُمِعَ لهم بين لذة الدنيا والآخرة، وهؤلاء تمتعوا بها على الوجه الذي دعاهم إليه الهوى والشهوة، وسواء أذن لهم فيه أم

---

(١) الجواب الكافي ص١٦٤.

لا، فانقطعت عنهم لذة الدنيا، وفاتتهم لذة الآخرة، فلا لذة الدنيا دامت لهم، ولا لذة الآخرة حصلت لهم. فمن أحب اللذة ودوامها، والعيش الطيب، فليجعل لذة الدنيا موصلة له إلى لذة الآخرة؛ بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله ـ إرادته وعبادته ـ فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة على طلبه، لا بحكم مجرد الشهوة والهوى، وإن كان ممن زويت عنه لذات الدنيا وطيباتها فليجعل ما نقص منها زيادة في لذة الآخرة، ويجم نفسه ههنا بالترك ليستوفيها كاملة هناك؛ فطيبات الدنيا ولذاتها نعم العون لمن صحَّ طلبه لله والدار الآخرة، وكانت همه لما هناك، وبئس القاطع لمن كانت هي مقصوده وهمته وحولها يدندن، وفواتها في الدنيا نعم العون لطالب الله والدار الآخرة، وبئس القاطع النازع من الله والدار الآخرة. فمن أخذ منافع الدنيا على وجه لا ينقص حظه من الآخرة ظفر بهما جميعًا، وإلا خسرهما جميعًا»[(١)].

ويتحدث شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ عند قوله تعالى عن المنافقين والكافرين: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: ٦٨]. فيقول: «وقد قيل إن قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ إشارة إلى ما هو لازم لهم في الدنيا والآخرة من الآلام النفسية غمًّا وحزنًا وقسوة وظلمة قلب وجهلًا؛ فإن للكفر والمعاصي من الآلام العاجلة الدائمة ما الله به عليم. ولهذا تجد غالب هؤلاء لا يطيبون عيشهم إلا بما يزيل عقولهم ويلهي قلوبهم من تناول مسكر، أو رؤية مُلهٍ، أو سماع مطرب، ونحو ذلك»[(٢)].

يتحدث المسلم النمساوي محمد أسد (ليوبولد فايس سابقًا) عن المجتمع الغربي وقصة إسلامه، فيقول: «كنت مسافرًا في سنة ١٩٢٦م في قطار برلين تحت الأرض، وكان معي زوجتي، وهي رسامة وذكية جدًا، وقد لاحظتُ أن كل زملائي في هذه الدرجة (درجة أولى) مكتئبون، تعلو وجوههم كآبة ويغشاها قتام، وكان ما يحملونه من متاع ويلبسونه من ملابس ويتحلّون به من

(١) الفوائد ص١٥١.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص٢١.

خواتم يدل على أنهم من الطبقة الثرية، وكان الزمن الرخاء الذي أعقب سنوات التضخم في أوروبا، فأنا تحيّرت وفكرت وقلت: لماذا هذه الكآبة؟ وما سبب هذا الحزن العميق الذي هم غارقون فيه؟ ولفتُّ نظر زوجتي، وقلت: يا عزيزتي، انظري وجوه هؤلاء القوم!! ألا تشعرين بأنهم تعلوهم الكآبة؟ قالت: نعم، إنهم جميعًا يبدون وكأنهم يعانون آلام الجحيم!!

وأردت أن أفسر هذه الظاهرة فلم أنجح، ورجعت إلى مكتبي فإذا المصحف أمامي، فأخذته من غير قصد، وفتحت من غير اختيار فإذا سورة التكاثر تطالعني؛ حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ وكنت مترددًا: هل أدخل في الإسلام أو لا أزال أشرحه وأعرضه بالأسلوب العلمي العصري كما كان شأني؟ ولما قرأت هذه السورة قلت: والله إن هذا الكلام لا يأتي به إلا من ينزل عليه الوحي!! هذا الكلام لا يقوله بشر قبل ثلاثة عشر قرنًا؛ إنه يصور المجتمع الغربي المعاصر الراقي بقسماته ومخايله، ويتنبأ بالعذاب النفسي الذي يتميز به هذا القرن العشرون، على الرغم من رقيه الصناعي والحضاري، ويعيِّن مصدر هذا العذاب والشقاء الذي كان يعانيه ركاب القطار، ويعانيه المجتمع الأوروبي بشكل عام؛ وهو داء التكاثر لا غير. فمن ساعتي خرجت إلى صديق لي مسلم هندي وقلت: يا أخي، ماذا يفعل من يريد أن يدخل الإسلام؟ قال: يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله. فنطقت بالشهادتين وأصبحت مسلمًا»[(١)].

والحاصل أن موازين البشر المعوجة للسعادة يجمع بينها أنها تنظر إلى اعتبار أعراض الدنيا الفانية التي توفر لهم الراحة والرفاهية، فهي معيار السعادة عندهم، وواقع أكثر الناس يشهد بذلك؛ فمنهم من ينظر إلى أن السعادة لا تأتيه إلا من كثرة المال والأولاد وما يترتب على ذلك من ترف في المساكن والمآكل والملابس والمراكب وغيرها. ولذا تجده يلهث، ويمضي حياته وعمره النفيس في جلب المال من حله وحرامه، ومع ذلك لم يجد

---

(١) عن مقال (ألهاكم التكاثر) د. محمد العبدة (موقع الإسلام اليوم).

السعادة في ذلك، بل قاده ذلك إلى مزيد من التعب والقلق والتحسر على الدنيا وفواتها، والتحاسد عليها، بل التباغض والتدابر من أجلها. ومنهم من رأى أنه يدخل إلى السعادة من باب المناصب والجاه والشهرة، فلما حصل عليها لم تزده إلا همًّا وغمًّا، وهكذا في بقية أعراض الدنيا. وقد اعترف الكثير من طلاب السعادة عن طريق الدنيا بفشلهم في ذلك. والموفق منهم من أدّاه هذه الفشل إلى معرفة طريق السعادة الحقيقي فأخذ به، ألا وهو الإيمان وطاعة الله ﷻ، والإنابة إلى دار الخلود والسلام، وما أجمل قول الشاعر:

فلست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقي هو السعيد

❑ ❑ ❑

المبحث الرابع عشر

ميزان تفسير الظواهر الطبيعية

إن من أصول الإيمان وأركانه التي لا يصح إيمان العبد إلا بها: الإيمان بالقدر خيره وشره، وهو الإيمان الجازم بأن كل ما يحصل في ملكوت الله ﷻ من خير وشر إنما هو بعلم الله ﷻ له وكتابته له قبل حصوله، وإرادته وخلقه له، وأن كل ذلك يجري بحكمته سبحانه البالغة التي قد يظهر للعقول شيءٌ منها ويغيب عنها جوانب كثيرة من الحِكم الإلٰهية وتعجز عن إدراكها. ومما يقضيه الله ﷻ ويقدره في هذه الأرض التي تقلنا والسماء التي تظلنا هذه الظواهر الطبيعية التي ينتج عن بعضها الخير، كالأمطار ونحوها، أو ما يحصل من بعضها من الكوارث والشرور، كالفيضانات والزلازل والبراكين والصواعق والرياح والأعاصير العاتية، والأحداث المؤلمة.

ولتفسير هذه الظواهر الطبيعية ميزان قسط وعدل، هو الميزان الإلٰهي القويم، والمسمى بالتفسير الشرعي للأحداث. وفي المقابل توجد التفسيرات المادية الجاهلية للأحداث، والتي لا تجعل لإرادة الله ﷻ ولا لقدره وشرعه وحكمته أيَّ اعتبارٍ في موازينها.

من سمات الميزان الإلٰهي في تفسير الظواهر الطبيعية:

أولًا: إن كل ما ينزل بالناس من أحداث سارة أو ضارة فإنما هي في كتاب الله ﷻ، قد كتبها فيه قبل أن يبرأها؛ قال الله ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢].

ثانيًا: إن كل هذه الأحداث إنما تتم بعلم الله ﷻ وإرادته لها؛

قال الله ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

ثالثًا: إن هذه الأحداث لم تكن بمجرد المشيئة المنقطعة عن الحكمة، إنما خلقها الله ﷻ وأوجدها لحكمة بالغة، ومصالح عظيمة تعجز العقول عن إدراك كنه كثير منها. ومن الحكم التي ذكرها الله ﷻ في كتابه الكريم وذكرها لنا رسول الله ﷺ في سنته ما يلي:

أ ـ تخويف العباد لعلهم يرجعون: قال الله ﷻ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]، وقال ﷻ: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٣].

ومن ذلك قوله ﷺ عند كسوف الشمس في عهده: «**إن الشمس والقمر لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما من آيات الله، يخوف الله بهما عباده، فإذا رأيتم كسوفًا فاذكروا الله حتى ينجليا**»(١).

ومن ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا كان يوم الريح والغيم عُرِفَ ذلك في وجهه، فأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرَّ به وذهب عنه ذلك. قالت عائشة فسألته فقال: «**إني خشيت أن يكون عذابًا سلط على**

(١) البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١)، واللفظ له.

أمتي... الحديث»(١).

ب ـ عقوبة للكفار وانتصارًا للمؤمنين ولطفًا بهم: ومن ذلك ما أنزله الله ﷻ من العذاب والعقوبات الأليمة بأعداء الأنبياء والمرسلين ـ عندما كفروا بآيات الله ورسله وصدُّوا عن سبيل الله ﷻ ـ انتصارًا لرسله وأوليائه؛ كما عاقب الله ﷻ قوم نوح بالغرق والطوفان العظيم، وقوم هود بالريح العاتية التي أفنتهم، وثمود بالصيحة أو الصاعقة التي قطعت قلوبهم، وقوم لوط بالحجارة والبراكين والخسف، وأصحاب مدين بعذاب يوم الظلة الذي أحرقهم.

ومن ذلك ما سلَّطة الله ﷻ من الرياح العاتية على كفار قريش في غزوة الأحزاب حتى رجعوا خاسئين؛ قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ [الأحزاب: ٩].

جـ ـ وأما عصاة المؤمنين فيسلط الله ﷻ بعض العقوبات عليهم لتكون حظهم من العذاب في الدنيا ولعلهم يرجعون ويتوبون.

قال سبحانه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٦٥﴾ [آل عمران: ١٦٥].

شبهة وجوابها: قد يقول قائل: إن هذه الكوارث إذا وقعت فإنها قد تأخذ بعض الصالحين، أو من ليسوا من المكلفين كالأطفال ونحوهم.

والجواب أن يقال: إن الله ﷻ إنما ضمن النجاة من عذابه في الدنيا للمصلحين الذين ينهون عن المنكر؛ قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝١٦٥﴾ [الأعراف: ١٦٥]. ووقوع بعض الصالحين في العقاب هو

---

(١) مسلم (٨٩٩).

تكفير لهم وتمحيص، وهو خير لهم في الآخرة. وعقاب الله لهم إنما كان بسبب سكوتهم عن دفع الباطل وقول الحق؛ قال الله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢٥﴾ [الأنفال: ٢٥].

وعن زينب بنت جحش رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ دخل عليها فزِعًا يقول: **«لا إلٰه إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب؛ فُتِحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»** وحلَّق بأصبعه الإبهام والتي تليها. قالت زينب بنت جحش فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: **«نعم إذا ظهر الخبث»**[(١)].

وأما الأطفال وغير المكلفين فنحن نقطع أن الله ﷻ أرحم بهم منا ومن والديهم، ولكن هذه الرحمة مُغيَّبة عنا، ولعل منها كونهم يموتون قبل البلوغ وهم أطفال لم يتلوثوا بذنوب، ولا تلبسوا بفتن، وهم بذلك يؤهلون للجنة دار الرحمة والحبور والرضوان، وكفى بذلك خيرًا ورحمة تُنسى بها أيّ مصيبةٍ وآلام مرت بهم في الدنيا.

د ـ في تقدير هذه الأحداث عبرة وموعظة لمن يراها أو يسمع بها، وقد نجَّاه الله منها، فيسعى لأخذ أسباب الوقاية منها، والبعد عن مسبباتها؛ قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦﴾ [القمر: ١٥، ١٦]، وقال سبحانه: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

موازين البشر المادية في تفسير الحوادث الطبيعية:

تقوم هذه الموازين على أساس التفسير المادي للأحداث، دون التفات لإرادة الله ﷻ وسننه التي لا تتبدل، ودون النظر إلى علمه وحكمته البالغة فيها؛ وبخاصة بعد ما توصل إليه الإنسان من أجهزة دقيقة يستخدمها في معرفة

---

(١) البخاري (٣٣٤٦)، مسلم (٢٨٨٠).

أسباب حدوث هذه الظواهر الطبيعية، ومعرفة أوقات حدوث بعضها. وحصل من جرَّاء ذلك غرور الإنسان بعلمه، كما حصل بذلك فتنة لبعض ضعاف الإيمان من الناس.

أمثلة لبعض التفسيرات المادية للحوادث:

أولًا: معرفة أوقات حدوث الكسوف والخسوف في الشمس والقمر بحسابات دقيقة، وإعلان ذلك للناس قبل حدوثه بمدة، وتفسير ظاهرة كسوف الشمس بكون القمر يقع بين الأرض والشمس فيغطي الشمس كليًا أو جزئيًا. أما خسوف القمر فبوقوعه في ظل الأرض. وهذا حق، ولكن أهل الموازين المادية يقفون عند هذه الموازين المادية ولا يتجاوزونها. وكون ذلك يعرف بالحساب ليس فيه ما يمنع من ذلك شرعًا ولا عقلًا. وقد كان ذلك معروفًا منذ مئات السنين، ومع ذلك كان خوف المسلمين من حدوثهما، والفزع عند ذلك إلى الصلاة والتوبة والصدقة هو الذي عليه العمل امتثالًا لقوله ﷺ: «**إنما هما آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده**»(١).

ولما ظهر في عصرنا من ثورة في وسائل الإعلام والاتصالات أصبح الناس يعلمون بحدوث الكسوف والخسوف قبل حدوثهما، مما أضعف الأثر الإيماني والوجل في القلوب من حدوث ذلك.

وكون الناس يعرفون ذلك بالحساب لا يؤثر هذا عند أهل الإيمان وأهل الموازين الإلٰهية للأحداث؛ وذلك في اعتقادهم أن ذلك إنما يكون بعلم الله ﷻ وحكمته وتدبيره، وأن الله ﷻ يخوف بها عباده، وينذرهم بقدرته العظيمة التي تسير هذه الأفلاك، ولو شاء لطمسها عن عباده وحرمهم منها، وحينئذٍ لا حياة ولا عمران على هذه الأرض. يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ عن ظاهرتي الكسوف والخسوف: «وما أخبر به النبي ﷺ لا ينافي لكون الكسوف له وقت محدود يكون فيه؛ حيث لا يكون كسوف الشمس إلا في آخر الشهر

---

(١) سبق تخريجه، ص٢٧٠.

ليلة السرار، ولا يكون خسوف القمر إلا في وسط الشهر وليالي الأبدار. ومن ادَّعى خلاف ذلك من المتفقهة أو العامة فلعدم علمه بالحساب، ولهذا يمكن المعرفة بما مضى من الكسوف وما يستقبل، كما يمكن المعرفة بما مضى من الأهلة وما يستقبل؛ إذ كل ذلك بحساب، كما يمكن المعرفة بما مضى من الأهلة وما يستقبل؛ إذ كل ذلك بحساب، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرحمٰن: ٥]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [يونس: ٥] وقال: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ومن هنا صار بعض العامة إذا رأى المنجِّم قد أصاب في خبره عن الكسوف المستقبل يظن أن خبره عن الحوادث من هذا النوع؛ فإن هذا جهل؛ إذ الخبر الأول بمنزلة إخباره بأن الهلال يطلع: إما ليلة الثلاثين، وإما ليلة إحدى وثلاثين، فإن هذا أمر أجرى الله به العادة لا يخرم أبدًا، وبمنزلة خبره أن الشمس تغرب آخر النهار وأمثال ذلك. فمن عرف منزلة الشمس والقمر، ومجاريهما علم ذلك، وإن كان ذلك علمًا قليل المنفعة.

فإذا كان الكسوف له أجل مسمى، لم يناف ذلك أن يكون عند أجله يجعله الله سببًا لما يقضيه من عذاب وغيره، لمن يعذب الله في ذلك الوقت، أو لغيره ممن ينزل الله به ذلك، كما أن تعذيب الله لمن عذَّبه بالريح الشديدة الباردة - كقوم عاد - كانت في الوقت المناسب، وهو آخر الشتاء، كما قد ذكر ذلك أهل التفسير وقصص الأنبياء؛ وكان النبي ﷺ إذا رأى مخيلة - وهو السحاب الذي يخال فيه المطر - أقبل وأدبر، وتغيَّر وجهه، فقالت له عائشة: إن الناس إذا رأوا مخيلة استبشروا؟ فقال: «**يا عائشة! وما يؤمنني؟ قد رأى قوم عاد العذاب عارضًا مستقبل أوديتهم فقالوا: هذا عارض ممطرنا، قال الله تعالى:** ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأحقاف: ٢٤]»[1] وكذلك

---

(١) مسلم (٨٩٩)، والبخاري (٤٨٢٩)، بألفاظ مقاربة.

الأوقات التي يُنْزِل الله فيها الرحمة؛ كالعشر الآخرة من رمضان، والأول من ذي الحجة، وكجوف الليل، وغير ذلك؛ هي أوقات محدودة لا تتقدم ولا تتأخر، وينزل فيها من الرحمة ما لا ينزل في غيرها»(١).

ثانيًا: الوقوف في ظاهرة الأمطار والسحب والرعد والبرق عند أسباب مادية، قد يكون بعضها صحيحًا كوجود منخفضات جوية، والانخفاض في الضغط الجوي، والرياح، وغير ذلك، وحينها يقوم أصحاب الموازين المادية بتقديم هذه التفسيرات المادية دون ربطها بقدرة الله ﷻ، وعلمه وتدبيره، وحكمته وسننه التي لا تتبدل ولا تتغير. فعلى سبيل المثال: عندما تَقِلُّ الأمطار على الناس في بعض الأمكنة وتجدب الأرض فإنا نجد هؤلاء الفلكيين أصحاب الموازين المادية لا يذكرون البتة ارتباط ذلك بقدرة الله ﷻ وحكمته في المنع والعطاء، وأثر الذنوب في منع الرزق والأمطار، وأثر الطاعة والتوبة في إدرار المطر وجلب الرزق؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦]، وإنما يقفون عند الأسباب المادية، والتي هي بيد الله ﷻ. وعلى العكس من ذلك: عندما تكثر الأمطار والفيضانات، فإنهم كذلك لا يربطونها بقدرة الله ﷻ وحكمته وسننه في التغيير، وإنما يقفون عند أسبابها المادية ولا يتعدونها.

ثالثًا: وفي ظاهرة الزلازل والبراكين والأعاصير المدمرة نرى أهل الموازين المادية يفسرونها بأسبابها المادية، والتي قد يكون بعضها صحيحًا، ولكنهم لا يربطون حدوث هذه الكوارث بعظمة الله ﷻ وقدرته، وعقابه وابتلائه وحكمته. بينما نجد في كتاب الله ﷻ أنه سبحانه قد عذَّب قوم نوح بالطوفان، وقوم هود بالأعاصير العاتية، وقوم لوط بالزلازل والبراكين التي أمطرت عليهم الحجارة من النار، وخسف الله بهم ديارهم، ونجَّى الله ﷻ أنبياءه، وأتباعهم من هذه الألوان من العذاب، وعزى ذلك عقوبة للعباد على كفرهم وتكذيبهم للرسل، ونصرة لرسله وأوليائه.

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٥/ ١٧٥، ١٧٦.

ونحن نسأل أهل التفسيرات المادية: مَنْ الذي أعلم النبي بحدوث الريح العاتية، أو الصاعقة المدمرة، أو الزلازل والبراكين قبل حدوثها؟ كيف يفسر خروج النبي والمؤمنين معه من القرية المعذبة قبل حدوث هذه الظواهر المدمرة بساعات ونجاتهم منها؟ إنه الله ﷻ الذي بيده ملكوت كل شيء، والقادر على كل شيء؛ هو الذي قدَّر هذه الأحداث بحكمته وعدله، وهو الذي نجَّى أنبياءه وأتباعهم من هذه الحوادث المدمرة قبل وقوعها. هو سبحانه الذي حدَّد لثمود ثلاثة أيام يتمتعون فيها ثم يحل بهم العذاب بعد ذلك؛ قال الله ﷻ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود: ٦٥، ٦٦].

وهو سبحانه الذي أمر لوطًا عليه السلام أن يخرج مع أهله بالليل؛ لأن الخسف والعذاب سينزل بقومه في الصباح؛ قال الله ﷻ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

وعلماء الفلك والجيولوجيا المعاصرين، ومع ما يملكون من تقنيات هائلة ترصد الظواهر الكونية، فإنهم وإلى اليوم لا يستطيعون أن يعرفوا متى يحصل البركان والزلزال، فسبحان الله رب العالمين!

ولعله من المناسب في ختام هذا المبحث أن أذكر ذلك الحوار الذي ذكره الله ﷻ في كتابه بين نوح عليه السلام، وبين ابنه الكافر، والذي يظهر فيه الفرق بين من ينظر بالميزان الإلٰهي للأحداث ـ والمتمثل في نوح عليه السلام ـ وبين من ينظر إليها بالموازين المادية الصرفة ـ والمتمثل في ابن نوح الكافر ـ قال الله ﷻ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود ٤٢، ٤٣] .

ففي هذا الحدث الكوني الهائل ـ والمتمثل في الطوفان العظيم الذي

غطى الأرض سهلها وجبلها وكان موجه كالجبال ـ نرى أن نوحًا عليه الصلاة والسلام، المؤمن بربه سبحانه وقدرته وتدبيره لكل شيء وحكمته وعدله ولطفه، لمَّا نظر إلى هذا الحدث العظيم بهذا الميزان الإلٰهي المستقيم دعا ابنه ليلحق به في السفينة لينجو من عذاب الله تعالى، وحذَّره بأن لا يبقى مع الكافرين الذين لهم العذاب في الدنيا، وَلِعذابُ الآخرةِ أكبر. وهنا لطيفة: حيث قال نوح لابنه: ﴿ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: (مع الغارقين)، أو مع (الهالكين)؛ لأن المصيبة العظمى هي في الكفر وليست في الموت غرقًا. ثم إنه بهذا الميزان الإلٰهي للحدث قال لابنه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾؛ فليس ثمة اليوم إلا الله ﷻ الذي يعصم عباده المؤمنين ويرحمهم وينجيهم برحمته، ومن كفر فلا عاصم ولا راحم له من دون الله ﷻ.

أما ابن نوح الكافر؛ فإنه لما نظر إلى الحدث والطوفان الهائل بالنظرة المادية، وفسَّره بأنه ظاهرة فلكية تتمثل في طوفان أو فيضان عظيم، ولم يربطه بقدرة الله ﷻ وحكمته وتدبيره وسننه، ما كان منه إلا أن ينظر إلى أسباب مادية يتعلق بها في نجاته، فقال: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾. وماذا أغنى عنه الجبل حين انقطعت عنه رحمة الله ﷻ؟ إنه لم يغن عنه شيئًا، وإنما كانت عاقبته كما أخبر الله ﷻ: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

❑ ❑ ❑

المبحث الخامس عشر

ميزان المراجعات

من صفات المؤمن الصادق أنه رجَّاع إلى الحق، لا يتعصب لرأيه، ولا لرأي شيخه أو طائفته؛ ينقاد إلى الحق إذا بان له، ويرجع عن خطئه وباطله إذا تبين له خطؤه وباطله. همُّه موافقة الأمر لما شرعه الله ﷻ في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، لا يضيره ولا يستنكف أن يرجع عن قول أو فعل أو موقف كان يتبنَّاه إلى غيره إذا بان له وجه الحق في غيره، وهكذا كان هديه ﷺ وهدي أصحابه رضي الله عنهم والتابعون لهم من سلف هذه الأمة. وما أحسن ما أوصى به عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا موسى الأشعري رضي الله عنه في وصيته العظيمة في الحكم والقضاء؛ وهي الوصية التي جعلها الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ عمدته في كتابه النفيس: «أعلام الموقعين عن رب العالمين»، والشاهد من هذه الوصية قول عمر رضي الله عنه: «ولا يمنعنك قضاء قضيت به اليوم فراجعت فيه نفسك، وهُديت فيه لرشدك، أن تراجع فيه الحق؛ فإن الحق قديم، ولا يبطل الحق شيء. وإن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل»[(١)].

ومع نصاعة هذا الميزان، وعدله ونظافته؛ إلا أن أكثر الناس اليوم قد عدلوا عنه، وصار ميزان المراجعات عندهم هو الهوى والتعصب، وإيثار الدنيا على الآخرة، وأصبحنا نرى من يتراجع عن الحق إلى الباطل؛ إما لشبهة أو لشهوة أو لكليهما، وبين المراجعة والتراجع خيط رفيع، ومع ذلك فهو لا يُرى إلا عن بُعْد، ومن لم ينتبه إليه التبست عليه السبل.

---

(١) أعلام الموقعين ١/ ١١٠، وانظر سنن الدارقطني ٤/ ٢٠٦.

من سمات الميزان الشرعي للمراجعات:

١ ـ **الرجوع إلى الحق والانقياد له بعد تبيُّنِه**، وعدم التعصب للأقوال والأعمال والمواقف إذا تبيَّن بطلانها. وهذا من ثمرات الإخلاص والتجرُّد لله تعالى؛ ومن ذلك ما أوصى به عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا موسى الأشعري رضي الله عنه مما سبق ذكره آنفًا.

• ومنه أيضًا ما كتبه عمر رضي الله عنه إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بقوله: «أمَّا بعد، فالزم الحق يُنْزِلك الحق منازل أهل الحق يوم لا يقضى إلا بالحق»(١).

٢ ـ **عدم التعصُّب للنفس وأخطائها**، وعدم الاشمئزاز ممن ينبه على عيوبها، بل يشكر على ذلك ويحب؛ ومن ذلك ما جاء في خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لمَّا ولي الخلافة، وفيها قوله: «أيها الناس، إنما أنا متبع وليس بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني»(٢).

• وأخرج ابن سعد في طبقاته أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «أحب الناس إليَّ من رفع إليَّ عيوبي»(٣).

• ومن ذلك ما أوصى به معاذ بن جبل رضي الله عنه تلاميذه بقوله: «وإياكم وزيغة الحكيم؛ فإن الشيطان قد يتكلم على لسان الحكيم بكلمة الضلال. وإن المنافق قد يقول كلمة الحق فتلقُّوا الحق عن ما جاء به؛ فإن على الحق نورًا».

قالوا: وكيف زيغة الحكيم؟ قال: «هي الكلمة تروعكم وتنكرونها، وتقولون ما هذا؟ فاحذروا زيغته ولا يصدنكم عنه؛ فإنه يوشك أن يفيء وأن يراجع الحق. وإن العلم والإيمان مكانهما إلى يوم القيامة»(٤).

• وأوصى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رجلًا فقال: «ومن جاءك بالحق

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٢٦٩ (١١٩).
(٢) طبقات ابن سعد ٣/ ٨١، ٨٢.
(٣) طبقات ابن سعد ٣/ ٢٩٣.
(٤) أعلام الموقعين ١/ ١٠٥.

فاقبل منه وإن كان بعيدًا، ومن أتاك بباطل فاردده وإن كان حبيبًا»[(١)].

• ووصف ابن رجب ـ رحمه الله تعالى ـ أئمة السلف بقوله: «كان أئمة السلف المجمع على علمهم وفضلهم يقبلون الحق ممن أورده عليهم، وإن كان صغيرًا، ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر في غير قولهم»[(٢)].

• ومن ذلك ما اشتهر عن بعض الأئمة قولهم: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»، وقولهم: «إذا خالف الحديث قولي فاضربوا بقولي عرض الحائط».

٣ ـ **المراجعة المستمرة للأقوال والأعمال والمواقف**، والتأكد من موافقتها للشرع والحق، وتحقيق الإخلاص فيها؛ فما كان منها موافقًا يثبت عليه، وما كان مخالفًا يرجع عنه ويتركه.

٤ ـ ومن الأمور المهمة التي تتعلق بالمراجعة: **محاسبة النفس على ما سلف منها من الأقوال والأعمال والنيات**، والمبادرة بالتوبة مما بدر من النفس من تقصير أو تفريط، أو إفراطٍ أو رياء، وأطرها على الحق، والرجوع إلى الله ﷻ بالتوبة والإنابة قبل مباغتة الأجل.

يصف الله ﷻ عباده المتقين بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١]. يقول الإمام ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية: «يخبر الله تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركو ما عنه زجر، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾؛ أي: أصابهم (طَيْفٌ) وقرأ آخرون: (طائف)، وقد جاء فيه حديث، وهما قراءتان مشهورتان، فقيل: بمعنى واحد، وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب.

وقوله: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾؛ أي: عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده،

---

(١) معجم الطبراني الكبير (٨٥٣٧).

(٢) الفرق بين النصحية والتعبير، ص١٠.

فتابوا وأنابوا، واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾؛ أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه»[(١)].

٥ ـ من علامة الحريص على الحق والمتجرد في طلبه **أن لا يجامل ولا يداهن في قول الحق ورد ما يخالفه**، وأن لا يستحيي من ذلك أو يهاب. وهذا يقتضي مناصحة من يظهر عليه مجانبة الحق في قوله أو عمله، وأن لا يسكت على ذلك، بل يراجع ويبين له بالحكمة والموعظة الحسنة، وبهذا نحفظ أنفسنا وإخواننا ـ بإذن الله تعالى ـ من التراجع والفتور.

٦ ـ ومن المراجعات المهمة التي يجب أن توزن بالميزان الإلهي: تلك **المراجعات التي تخص تقويم الدعوة إلى الله سبحانه، والجهاد في سبيله، ومناهجهما**، واطمئنان أصحابها إلى موافقتها للأصول والمنطلقات الشرعية. وإذا وجد في ضوء المراجعة ما يخالف الحق، أو ما يكدر على الإخلاص والتجرُّد لله ﷻ بادروا إلى الرجوع إلى الحق، وترك ما خالفه، وترك التعصب لآراء الرجال. ومما ينبغي التنبيه إليه: الحذر الشديد من تحول المراجعة والمحاسبة إلى تراجع وانتكاس.

ومما يشيع جو المراجعة والمحاسبة، وظهور ثمارها الطيبة: إشاعة التناصح بين الإخوان القائمين على الدعوة والجهاد في سبيل الله ﷻ، والتواصي على ذلك بتجرُّد وإخلاص لله ﷻ.

وقد ذكر الدكتور عبد العزيز كامل تنبيهات مهمة ينبغي مراعاتها عند التقويم والمراجعة من قبل القائمين على الدعوة والجهاد ومناهجها، من أهمها ما يلي:

أولًا: بين المراجعة والتراجع خيط رفيع، ومع ذلك فهو لا يُرى إلا عن بُعد، وهو أشبه بالمَعْلَم المطموس عند مفترق الطريق؛ من لم ينتبه إليه التبست عليه السُبل، وربما رجع القهقري وهو ينشد الشد في المسير.

---

(١) تفسير ابن كثير عند الآية (٢٠١) من سورة الأعراف.

ثانيًا: مثلما تتحول المراجعات ـ في بعض الأحيان ـ إلى تراجعات، فإن التراجعات قد تتطور إلى انتكاسات، والانتكاسات المنهجية منها أخطر من الانتكاسات الحركية؛ فالحركات تضعف وتقوى، وتقع وتقوم، أما المناهج فقلما تنهض بعد سقوطها على مستوى الفرد والمجموع.

ثالثًا: محطات الإقبال على المراجعة قد تكون في لحظات ضعف منسحب ـ وهذا هو الغالب ـ أو لحظات اندفاع غير محسوب، وفي كلا الحالتين فإن المراجعة وقتذاك قد تقع تحت وطأة ظروف نفسية غير مستقرة، أو نظرات شخصية عجلى؛ تختصر التأمل وتبتسر النتائج. واستصحاب هذا الملحظ مفيد عند أي مراجعة حتى لا تخضع لمؤثرات خارجية ضاغطة.

رابعًا: التواصل بين الأجيال عامل مهم في إكساب عمليات المراجعة شيئًا من العصمة النسبية، وكما أن رصيد سابقة الابتلاء أو التجربة لا يكفي لإفراز مراجعات ناجحة في كل الأحوال، كذلك فإن الأجيال الجديدة بدمائها الجديدة لا يصلح لها أن تستغني بجدتها وفتوتها عن خلاصات (تجربة العمر) لمن سبقوهم على الطريق فعرفوا منحنياته الخطرة، وخبروا معالمه ومراحله.

خامسًا: من أخطر مزالق المراجعة: الانشغال باجترار مرارات الماضي، أو التلمظ بحلاواته، وأخطر من ذلك الاحتراب في ميدان ما قد كان، حيث ينشغل البعض بتقاذف التهم في تلاوم ضار غير نافع. وعندها يكون حرص قوم على نفي الآخرين وتصفيتهم معنويًا هو بوابة الولوج والخروج في أي حوار يستهدف المراجعة، ولهذا لا يرجعون من ذلك بشيء.

سادسًا: جل المراجعات تنصب على أمور عملية تطبيقية، مع أن الأصل هو الأمور المنهجية التي لو سلمت لسلمت الأعمال والتطبيقات، والتركيز على اتهام التطبيق العملي لا ينبغي أن يدفع التهمة عن التنظير المنهجي، بل الأصل أن يبدأ بمقدمات الشيء لا بنتائجه.

سابعًا: ومن الأخطاء المنهجية في تقويم المناهج ومراجعتها: التعميم والإطلاق؛ كأن يتخذ من رأوا الإخفاق في أعمال جهادية معينة ـ مثلًا ـ موقفًا

رافضًا لأي عمل جهادي، حتى يتحول ذلك إلى شعار، خاصة عندما يطلق على الجهاد لفظ (العنف) لتسهيل نبذه على النفوس الضعيفة أو المترددة، وبشكل يُراد له أن يُعمم على كل الساحات التي قد تكون ظروف بعضها مختلفة ومستوجبة لمثل هذا الجهاد. والعكس أيضًا قد يحدث، عندما تنجح تجربة جهادية ما، فيطلب من المسلمين في كل ساحات العمل الإسلامي أن ينقلوها بحذافيرها إلى مواقعهم، وقس على ذلك في قضايا سرية العمل أو علانيته، وسلمية المواجهة أو عسكرتها، والموقف من الحكومات والأنظمة، وطريقة التعامل مع الشعوب، وأساليب التعاطي مع القوى الكبرى ونحو ذلك.

ثامنًا: للتأصيل العلمي أهميته وخطورته في وضع المناهج الدعوية أو تقويمها أو مراجعتها، وكذلك الفهم الواقعي للقضايا الكبرى. وهناك جفاء قد طال من بعض فصائل العمل الإسلامي لأحد الأمرين أو كلاهما؛ وذلك ناتج عن موقف غير متوازن من العلماء، فبينما تقطع الأواصر والوشائج مع العلماء في بعض الأماكن بما يحرم الدعوة من خير ما عندهم، فإن هناك أماكن أخرى تبالغ في ربط الدعوة الإسلامية كلها بفرد أو ببضعة أفراد من العلماء، بحيث تُرهن قضايا الأمة كلها بكلمات منهم، قد لا تأخذ حقها من النظر والتدقيق، أو قد تكون خارج نطاق تخصصهم أصلًا.

تاسعًا: عندما يتولى عمليات المراجعة رموز التجربة نفسها، فإن ذلك يعرض المناهج والتطبيقات لتكرار الأخطاء؛ لأن عين الإلف والعادة ربما تَعْشَى عن المعايب والخروق، وهذا يمكن تلافيه بإخضاع المراجعات لمتفحصين جدد، وذلك أحرى بتخليص الدعوات من حظوظ النفس ونزوعها الدائم نحو الدفاع وتحسين الصورة تشبثًا بنظرية: «ليس في الإمكان أحسن مما كان».

عاشرًا: الظروف النفسية المتقلبة عامل خطير في اتخاذ المواقف العملية، وربما العلمية؛ فكم من طروحات ومواقف اكتست أرديّة دعويّة، وهي في حقيقتها ردود فعل نفسية ربما نشأت عن مواقف شخصية، لمحبة مفرطة أو

بغض غير متوازن، وهذا أمر ليس من السهولة منعه، ولكن ليس من الصعوبة رصده والحذر منه»[(١)].

من سمات الموازين البشرية للمراجعات:

أولًا: تظهر المراجعات في موازين البشر البعيدة عن ميزان الشرع القويم في صورة تراجعات وانتكاسات، ولكن أصحابها لا يقرون بأنها تراجع وانحراف، بل يُظهرونها في صورة مراجعة وشجاعة في مواجهة المألوف. وقد يبحثون عن شبهات شرعية لتأصيل تراجعهم وضعفهم. ولو أردنا معرفة أسباب التراجع عند كثير من الناس لرأيناها لا تخرج عن ثلاثة أسباب: إما شبهة، أو شهوة، أو شهوة ممزوجة بشبهة.

ولو أردنا تحديد مفردات هذه الأسباب لرأيناها في الغالب تنطلق من رغبة وطمع، أو رهبة وخوف؛ فكم كان للطمع في هذه الدنيا ـ سواء كان ذلك مالًا أو جاهًا أو شهرة... إلخ ـ من أثر كبير في التراجع والزيغ والانتكاس، وكم كان للخوف والرهبة من أذى الناس من دور أيضًا في ركوب الباطل والتراجع عن الحق.

وكما مر بنا سابقًا فبين المراجعة والتراجع خيط رفيع، مما يهيِّئ الفرصة لوجود اللبس والتضليل واختلاط أحدهما بالآخر. وهذا يؤكد على أهمية الحذر واليقظة من دخول الهوى والحيل النفسية أو الشبه العقلية في تقرير مفهوم المراجعة؛ حيث تتخلل تلك المراجعات أسماء مرادفة، وشعارات خدَّاعة تتسربل بالحكمة تارة، وبالواقعية والتعقل تارة أخرى.

ثانيًا: إن مما يذكي صفة التراجع التي قد تؤدي إلى الانتكاسة: ذلك التعصب المذموم، والحزبية المقيتة التي تدفع الشخص إلى تراجعه عن الحق؛ لا لشيء إلا تعصبًا وولاء حزبيًا لهذه الطائفة أو تلك. وهذا دائمًا ينشأ في

---

(١) العمل الإسلامي بين ضرورة المراجعة وخطورة التراجع، مجلة البيان العدد ١٥٥ ص٧٦ (باختصار وتصرف يسير).

أجواء الخصومات والجدال بين شخصين أو مجموعتين، والتي تسود فيها في الغالب نزغات الشيطان، فتقع التراجعات التي يفرح بها الشيطان.

ثالثًا: ومن مظاهر التراجعات التي ظهرت في عصرنا اليوم ملتحفة بغطاء المراجعة والمحاسبة ما يلي:

١ ـ تراجع الخطاب الدعوي العام عند بعض الدعاة من الخطاب الإيماني المستعلي بإيمانه وعقيدته التي يدعو إليها إلى الخطاب الانهزامي الذي همه دفع التهم، والتركيز على مواقف التسامح والملاينة.

٢ ـ التراجع المستمر أمام هجمة الإعلام الشرسة ضد الإسلاميين، إلى حد تحرج بعضٍ من الانتساب لمنظومة العمل الإسلامي، أو الخجل من استعمال المصطلحات الشرعية التي تزعج أعداء الدين؛ مثل: الموالاة والمعاداة، والإيمان والكفر، والمعروف والمنكر، والتحاكم لله، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك.

٣ ـ تعريض قضايا حساسة جدًا في العمل الإسلامي لفوضى التصريحات والشعارات والطروحات غير الناضجة، وإعادتها إلى نقطة البدء، بعد أن كانت قد استقرت إلى وضع مقبول بين غالبية الفصائل العاملة للإسلام، مثل قضايا الحكم والتحاكم، والموقف من العلمانية، ومسألة العمل الجماعي ومشروعيته، ووسائل الدعوة وأساليبها، ومسائل الهدي الظاهر وضوابطها، والموقف من وسائل الإعلام المعادية للدين، والموقف من المبتدعة ورموز ما يسمى بـ (التنوير) ونحو ذلك من المسائل والقضايا.

٤ ـ التراجع عن الالتزام بأدلة الكتاب والسنة وفهم الصحابة رضي الله عنهم إلى اجتهادات وآراء وأقيسة فاسدة فيها تهوين لعظمة النصوص، وتقديم أقوال الرجال وعقولهم عليها بحجة التيسير ورفع الحرج والمشقة، دون مراعاة للضوابط الشرعية في هذه القواعد.

رابعًا: إن من الأسباب التي توقع في التراجع والترهل والفتور: ظاهرة الترف والانشغال بالدنيا وزينتها والتنافس عليها والمفاخرة بها؛ فكم كان لهذه

الآفة من أثر على كثير من الناس الذين كانوا قبل ذلك من أحسن الناس سمتًا، وأكثرهم التزامًا بالسنة، وأشدهم صلابة في دين الله ﷻ، وما إن دخل الترف ومتع الدنيا إلى حياتهم إلا وظهر أثر ذلك في كثير من مفاهيمهم وتصوراتهم وسلوكياتهم وعباداتهم؛ حيث تراجعوا فيها من حال القوة والثبات إلى حالة الضعف والاضطراب. نسأل الله ﷻ الثبات والاستقامة على ما يحبه ويرضاه.

❑ ❑ ❑

المبحث السادس عشر

ميزان المداراة والتسامح

ذكر صاحب القاموس المحيط في معنى درأه؛ أي: جعله درءًا. ودرأه: أي: دفعه. وتدارءوا: أي: تدافعوا في الخصومة.

وذكر الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ في شرح صحيح البخاري أن أصلها الهمز؛ لأنه من المدافعة، والمراد به: (الدفع برفق)[١].

والمداراة مطلوبة في الشرع وممدوحة، ولكن موازين البشر للمداراة قد انحرفت بها عن الميزان الشرعي الصحيح إلى معانٍ مغلوطة هي في ميزان الشرع مذمومة؛ ذلك أنَّ كثيرًا من الناس قد وقعوا في المداهنة المذمومة ظانين ـ بعلم أو جهل ـ أنها هي المداراة. وبين المداراة والمداهنة خيط رفيع؛ فقد يقع بعض الناس في المداهنة بحجة المداراة والتسامح، وقد يمنع بعضهم المداراة المطلوبة خوفًا من كونها مداهنة؛ وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «وأعجب من ذلك أنها ـ أي: النفس الأمارة ـ تضاهي ما يحبه الله ورسوله من الصفات والأخلاق والأفعال بما يبغضه منها، وتلبس على العبد أحد الأمرين بالآخر، ولا يخلص من هذا إلا أرباب البصائر؛ فإن الأفعال تصدر عن إرادات، وتظهر على الأركان من النفسين: الأمارة والمطمئنة، فيتباين الفعلان في البطلان ويشتبهان في الظاهر، ولذلك أمثلة كثيرة منها: المداراة والمداهنة؛ فالأول من المطمئنة، والثاني من الأمارة»[٢].

(١) فتح الباري ١٠/ ٥٤٥.

(٢) الروح، ص٤٨٨.

الميزان الإلٰهي للمداراة:

• يقول الله ﷻ في وصف المؤمنين: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [القصص: ٥٤]؛ يقول القرطبي في معنى ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾: «أي: يدفعون؛ درأت إذا دفعت، والدرء: الدفع. وفي الحديث: «**ادرءوا الحدود بالشبهات**»(١). قيل: يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى. وقيل: يدفعون بالتوبة والاستغفار الذنوب. وعلى الأول فهو من مكارم الأخلاق؛ أي: من قال لهم سوءًا لا ينوه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه»(٢).

• ويقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. في هذه الآية الكريمة نهي للمؤمنين عن أن يسبوا المشركين وآلهتهم، ومعلوم جواز سب آلهة المشركين استقلالًا، ولكن لمَّا كان يترتب على ذلك سب الله ﷻ نُهي عن هذا العمل؛ وذلك من باب المداراة والمحافظة على الدين.

• كما جاء الدليل على مشروعية المداراة ـ بهذا المعنى المذكور في الآية ـ في السُنَّة النبوية، ومن ذلك ما بوب له البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله: «باب المداراة مع الناس» حيث قال: يذكر عن أبي الدرداء رضي الله عنه: «إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم»(٣).

• وعن عائشة رضي الله عنها أنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال: «**ائذنوا له فبئس ابن العشيرة ـ أو بئس أخو العشيرة**» فلما دخل ألان له الكلام. فقلت له: يا رسول الله، قُلتَ ما قلتَ ثم ألنت له في القول! فقال: «**أي: عائشة؛ إن شر الناس منزلة عند الله من تركه ـ أو ودعه ـ الناس اتقاء فحشه**»(٤).

---

(١) وروى الترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قوله: «**ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم...**» [١٤٢٤، كتاب الحدود، باب ما جاء في درء الحدود]، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٨/٢٣٨. وفي مصنف ابن أبي شيبة ٦/٥٤١ عن عمر موقوفًا بلفظ: (لأن أعطل الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أقيمها بالشبهات).

(٢) تفسير القرطبي ١٣/٢٩٨.

(٣) فتح الباري ١٠/٥٤٤.

(٤) البخاري (٦٠٣٢) (٦١٣١)، مسلم (٢٥٩١).

• وعلَّق الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ على هذين الحديثين بقوله (مختصرًا): «قال ابن بطال ـ رحمه الله تعالى ـ : المداراة من أخلاق المؤمنين؛ وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول؛ وذلك من أقوى أسباب الألفة.

وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط؛ لأن المداراة مندوب إليها والمداهنة هي مُحرَّمة، والفرق أن المداهنة من الدهان، وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه.

وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه.

والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعلم وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه، حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك»[١].

وعلَّق على حديث عائشة رضي الله عنها في باب «لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا» فقال: «وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: في الحديث جواز غيبة المعلن بالفسق أو الفحش، ونحو ذلك من الجور في الحكم، والدعاء إلى البدعة، مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم، ما لم يؤدِّ ذلك إلى المداهنة في دين الله تعالى.

ثم قال تبعًا لعياض ـ رحمه الله تعالى ـ: والفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معًا، وهي مباحة وربما استحبت؛ والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا»[٢].

• ويبين ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ حقيقة المداراة والفرق بينها وبين المداهنة فيقول: «وكذلك المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما: أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن

---

(١) فتح الباري ١٠/٥٤٥.

(٢) فتح الباري ١٠/٤٦٩.

الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على الباطل ويتركه على هواه؛ فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق، وقد ضُرِبَ لذلك مَثَلٌ مطابق؛ وهو حال رجل به قرحة قد آلمته فجاءه الطبيب المداوي الرفيق فتعرَّف عليه، ثم أخذ في تليينها حتى إذا نضجت أخذ في بَطِّها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها، ثم وضع على مكانها من الدواء والمراهم ما يمنع فساده ويقطع مادته، ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها، ثم يشد عليها الرباط، ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت.

والمداهن قال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء، فاسترها عن العيون بخرقة، ثم الهُ عنها، فلا تزال مادتها تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها»[1].

والحاصل أن الميزان الشرعي للمداراة قائمٌ على درءِ الفساد عن الضروريات الخمس، فكل ما يؤدي إلى الإضرار بها فإنه يدرأ؛ على أن لا يكون في ذلك تفويت مصلحة أعظم أو حصول ضرر أكبر.

الميزان البشري للمداراة:

يقع كثير من الناس في المداهنة المحرمة بعلم أو جهل، ويسمون ذلك مداراة ومجاملة وعقلًا معيشيًا. وهذا هو ميزان المداراة عندهم.

وكما مر بنا في الفرق بين المداراة المحمودة والمداهنة المذمومة فالمداراة بذل الدنيا لصلاح الدين أو الدنيا، وعكسها المداهنة التي هي ترك الدين لصلاح الدنيا. والمداهنة ضرب من ضروب النفاق، وصاحبها في الشرع يسمى ذو الوجهين؛ كما في قوله ﷺ: «**إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**»[2].

وقد ذكر صاحب القاموس تعريفًا للمداهنة بأنها: «إظهار خلاف ما يضمر».

---

(١) الروح، ص٤٩١.

(٢) البخاري (٧١٧٩)، مسلم (١٨١٨).

وعرَّف ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ المداهنة بأنها: «من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه»(١).

ومن الأدلة على تحريم المداهنة: قول الله ﷻ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٨، ٩]. ولعلماء التفسير أقوال مختلفة في معنى المداهنة، يجمعها معنى واحد كما سيتضح ذلك من عرض أقوالهم، وأن الاختلاف هنا اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد.

نقل القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطية والضحاك والسدي في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾، ودُّوا لو تكفر فيتمادون على كفرهم.

وعن ابن عباس أيضًا: ودُّوا لو ترخص لهم فيرخصون لك.

وقال الفراء والكلبي: لو تلين لهم فيلينون لك.

والإدهان: التليين لمن لا ينبغي له التليين، قاله الفراء.

وقال مجاهد: المعنى: ودُّوا لو ركنت إليهم وتركت الحق فيمالئونك... إلى أن قال: وقال الحسن: «ودُّوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم...» إلخ.

ثم قال القرطبي: «قلت: كلها إن شاء الله صحيحة على مقتضى اللغة والمعنى؛ فإن الإدهان: اللين والمصانعة، وقيل: مجاملة العدو وممايلته»(٢).

وقد وقفت على تعليق نافع على قوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ رأيت نقله بشيء من الاختصار والتصرف اليسير للفائدة، وبخاصة لمن يعمل في حقل الدعوة والإصلاح والتغيير والجهاد. يقول صاحب المقال (أبي سعد العاملي): «اعلم أن من علامات صحة إيمان العبد: ثباته على عقيدته وعدم التنازل عن جزء ـ ولو بسيط ـ منها وليس هذا بالأمر الهين؛ لأنه يحتاج إلى يقظة دائمة، وإلى صبر واسع، وتضحية كبيرة، ولكنه السبيل الوحيد الذي

---

(١) فتح الباري ١٠/٥٤٥.
(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٣٠.

يجعله قدوة صالحة لغيره، من دون أن يبادر إلى دعوة الناس بلسانه؛ فالثبات على المبدأ له أثر بليغ على استجابة الناس والتأثير فيهم، وهذا ما يدعو إليه رب العزة في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١٢٢]، والتي قال عنها إمام الدعاة وسيدهم ﷺ: **«لقد شيبتني هود وأخواتها»**[١] ويقصد في سورة هود هذه الآية الكريمة وهي آية ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾.

وأعداء الحق يودون لو أن المؤمنين يدهنون، خاصة في الأوقات التي تلقى فيها الدعوة استجابة وقبولًا لدى الناس، وتكون بضاعتهم فاسدة في كساد، ويحاولون بشتى الأساليب صرف المؤمنين عن مبادئهم، أو التنازل عن بعضها، أو مجرد تمييعها؛ وذلك بخلطها ببعض المبادئ الجاهلية أو البدعية. وبمجرد أن يبدأ الداعية في الانحراف، يجد أمامه ألف داع وداع من شياطين الإنس والجن يزينون له هذا المسار، ويعدونه بالخير والفلاح: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

والذين يتربصون بنا الدوائر لكي ندهن كثيرون، ولكل واحد منهم مصالح مباشرة وغير مباشرة، ويحرصون أشد الحرص على أن نقع في مستنقع التنازلات والتسهيلات، حتى وإن كانت صغيرة وهينة في البداية، لكنها تكفي كمفتاح ومقدمة للمزيد من التنازل والمداهنة، ومن هؤلاء المتربصين:

١ ـ الشيطان:

يأتي على رأس اللائحة؛ فهو صاحب المصلحة الكبرى في أن ندهن؛ لأننا نمثل العقبة الرئيسية في سبيله بثباتنا واستقامتنا، فتجده يساهم بنفسه وجنوده وجميع أوليائه للدخول في معركة حاسمة ومتواصلة للوسوسة والإغراء، وإخفاء مفاسد هذه التنازلات في أعين الدعاة ـ أفرادًا وجماعات ـ وإظهارها بمظهر حسن حتى يتمادون في عملية المداهنة، شيئًا فشيئًا، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

(١) الترمذي بنحوه؛ كتاب تفسير القرآن، سورة الواقعة، ح(٣٢٩٧).

[البقرة: ١٦٨]، فتتسع المسافة بينهم وبين مبادئهم، ويصعب عليهم بعد ذلك الرجوع إلى الأصل.

٢ ـ أهل الكتاب والمشركون:

تأتي هذه الفئات في الدرجة الثانية؛ لكونها تحمل أكبر العداء وأشده لأصحاب الحق: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢]، وهذا يدفعهم إلى بذل أقصى الجهد لإضعاف المؤمنين ومحاربتهم، وما دام أن قوة أصحاب الحق تكمن في تمسكهم واتباعهم لهذا الحق؛ فإن جهود الأعداء تصب كلها في إبعاد المؤمنين عن دينهم وتحريف مسارهم عن طريق الحق الذي اتبعوه، ويشير إلى هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فمنتهى غايتهم هو أن نبتعد عن هذا الدين، ولا يكون هو المرجع في حياتنا، حتى وإن لم ندخل في دينهم ونتبع تعاليمهم، ولكن لا يحصل رضاهم عنا حتى ندخل في دينهم وملتهم ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

لذلك يودون أن ندهن ونتنازل عن بعض مبادئنا، ونتجاهل الآيات التي تتحدث وتوجه المؤمنين لجهادهم، أو تكشف حقيقة عدائهم الدائم والمستمر لهذا الدين ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]، والتي تدعو المؤمنين إلى البراءة منهم ومن دياناتهم، وتحذر من موالاتهم ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وفي مقابل هذه المداهنة من طرف المؤمنين، يكون هناك مداهنة من قبل اليهود والذين أشركوا، تتمثل أساسًا في بعض المساعدات المادية، أو الرضا السياسي، أو ترك بعض الهوامش من الحرية لأصحاب الحق لكي يتحركوا بدينهم في الحدود التي لا تضر بمصالحهم؛ ويكون ذلك عبر إعطاء الأوامر والتعليمات لأذنابهم من الحكام الجاثمين على صدور الشعوب المسلمة والمتمسكين بزمام الحكم بفضل أسيادهم.

٣ ـ الفرق المبتدعة وأهل الشبهات والشهوات:

يودون لو ندهن بعدم التعرض لمذاهبهم وانحرفاتهم، وبمسايرتهم والتعاون معهم، وربما بتزكية هذه المذاهب بين الناس لتظهر في مظهر حسن ومقبول، فيدهنون بتظاهرهم بالوحدة والتنسيق والتعاون، أو بعدم الانشغال في تتبع حركات المجاهدين والدعاة المخلصين ـ إلى حين ـ خاصة بكف ألسنتهم عنهم، أو بعدم الوقوف في صف الأعداء والتعاون معهم لمحاربة أهل الحق، والاكتفاء بموقف المتفرج، لا ينصرون الحق ولا يخذلون الباطل.

ويدخل في هذه الزمرة: المنافقون والذين في قلوبهم مرض؛ لأنهم داخلون في الذين يتبعون الشهوات ويعبدون أهواءهم، ويحاولون خداع الدعاة المؤمنين بالتظاهر الكاذب بالإيمان، بينما هم يضمرون الكفر والعداء للحق، فيقدمون بعض الخدمات، قد تبدو لنا في الظاهر مكاسب نافعة، لكنها في الباطن سوف تضر الدعوة أكثر مما ستنفعها؛ لأن الحق سيظهر للناس مشوهًا، وستختلط عليهم السبل، ويتحولوا إلى صيد رخيص وسهل لا يلبثون أن يقعوا في شراك هذه الجماعات الضالة، ونكون قد ساهمنا في هذا بقسط كبير.

٤ ـ الحكام الرافضون لشرع الله ﷻ:

يودون لو ندهن، فنترك دعوة التوحيد، وندعو إلى تعدد الآلٰهة في التشريع والحكم والاتباع، وهذا هو دين الملك الذي ذكره الله تعالى في كتابه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]. وهذا من شأنه أن يترك لهم المجال مناسبًا للمزيد من الغي والفساد، واستعباد الناس دون حسيب ولا رقيب.

يريدوننا أن ندهن بترك عقيدة الولاء والبراء وحذفها من قاموس دعوتنا؛ فلا نعادي أعداء الله بل نواليهم، ونوالي قوانيهم وأعرافهم، ويُطلب منا أن نعادي المجاهدين الصادقين، ونتبرأ منهم ومن مناهجهم.

يريدوننا أن ندهن بترك الجهاد في سبيل الله وحذفه من قاموس الوسائل التي ينبغي استعمالها لتحقيق الغايات والأهداف الشرعية، وعلى رأسها

التمكين لدين الله في الأرض، وتحقيق العبودية لله ﷻ بتعبيد الناس لربهم، ويريدوننا أن نسمي الجهاد إرهابًا وعنفًا ينبغي محاربته، والبراءة من كل المجاهدين وتسميتهم بالإرهابيين أو المتطرفين.

يريدوننا أن ندهن بعدم الكفر بالقوانين الوضعية الكفرية، بل بتزكيتها وتبنيها واعتبارها مرجعًا وحكمًا بيننا وبينهم في الحكم وفي كل تعاملاتنا، ونشارك معهم في سنِّها وتقنينها وتطبيقها.

في مقابل هذه المداهنة من جهتنا، يدهن هؤلاء الحكام بأن يتركوا لنا بعض الحرية في الدعوة إلى ما يناسب قوانينهم ولا يتعارض معها.

ويدهنون بمنحنا الرخصة الرسمية للمشاركة في اللعبة السياسية - إلى جانب الأحزاب المرتدة وبعض الفرق البدعية الضالة - للمساهمة في عملية تعطيل حكم الله، وتشريع ما لم يأذن به الله، والحكم بغير ما أنزل الله.

وإن من أكبر الثغرات التي ينبغي على المؤمنين التنبه والحرص على عدم الإتيان من قبلها، هو المداهنة في الحق، والانصياع للباطل، مهما حاول الشيطان أن يضخِّم من قيمة بعض المكتسبات الموهومة؛ لأنها ستنقلب في الدنيا سرابًا وأوهامًا، وفي الآخرة ندامة وآلامًا، نعوذ بالله من الخذلان ومن خزي الشيطان»(١).

• ومن موازين البشر المعوجة للمداراة والتسامح: ما يطرح في هذه السنوات الأخيرة؛ إما عن جهل من طارحيه أو عن علم وخبث ومكر، ألا وهو ما يسمى بالتسامح الديني والتقريب بين الأديان وتوحيدها، والسكوت عن كفر الكافرين، أو تحسين مناهجهم، أو عدم البراءة منهم ومن شركهم. كل ذلك بحجة التسامح واجتماع أصحاب الديانات السماوية في مواجهة الإلحاد وجحود الرب سبحانه وتعالى. وهذه دعوة خبيثة إن كان قائلها يعي ما يقول

---

(١) عن موقع شبكة أنا المسلم للحوار الإسلامي، لأبي سعد العاملي في ١/ ٤/ ٢٩هـ.

ويعرف عقائد اليهود والنصارى التي تكفر بالله ﷻ وتنسب له الولد وتؤله عزير والمسيح عليه السلام، فليراجع إيمانه فقد فقده، وليبادر إلى التوبة وتجديد إسلامه وتوحيده. ألم يسمع قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]؟! ألم يسمع قول الله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤]؟!

وللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء فتوى مطولة تشنع على القائلين بوحدة الأديان أو التقريب بين الأديان، ومنها قولهم: «ومن أصول الإسلام أنه يجب اعتقاد كفر من لم يدخل في الإسلام من اليهود والنصارى، وتسميته كافرًا، وأنه عدو لله ورسوله والمؤمنين، وأنه من أهل النار؛ كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ [البينة: ١].

وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

وثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ـ يهودي ولا نصراني ـ ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**» ولهذا من لم يكفر اليهود والنصارى فهو كافر طردًا لقاعدة الشريعة (من لم يكفر الكافر فهو كافر.. إلخ الفتوى) الفتوى رقم (٩٤٠٢) في ٢٥/ ١/ ١٤١٨هـ.

وكذلك للشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله تعالى ـ فتوى مشابهة يقول فيها: «فاليهود والنصارى لمَّا لم يصدقوا محمدًا ﷺ صاروا بذلك كفارًا ضلالًا، وإن بعضهم وحد الله؛ فإنهم ضالون كفار بإجماع المسلمين؛ لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ، فلو قال شخص: إني أعبد الله وحده، وأصدق مُحمدًا في كل شيء إلا في تحريم الزنا، بأن جعله مباحًا، فإنه يكون بهذا كافرًا

حلال الدم والمال بإجماع المسلمين»[١].

ولصاحب الظلال ـ رحمه الله تعالى ـ كلامًا جيدًا في الرد على أصحاب الموازين المعوجة للمداراة والتسامح الذين يريدون تمييع الدين بموازينهم المنحرفة ويرون إمكانية التقارب مع الأديان الأخرى، والتحالف والتناصر مع أهلها في وجه المادية الملحدة. فيقول ـ رحمه الله تعالى ـ: «وسذاجة أية سذاجة، وغفلة أية غفلة أن نظن أن لنا وأهل الكتاب طريقًا واحدًا نسلكه للتمكين للدين أمام الكفار والملحدين؛ فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة مع المسلمين.

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان، وفي كل زمان، حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد بوصفنا جميعًا أهل دين، ناسين تعاليم القرآن كله، وناسين تعاليم التاريخ كله؛ فأهل الكتاب هؤلاء هُم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألَّبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم درعًا وردءًا، وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين شنُّوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام. وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذين شرَّدوا المسلمين في فلسطين، وأحلُّوا اليهود محلهم، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية، وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يُشَرِّدون المسلمين في كل مكان... في الحبشة والصومال وأريترية، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية في يوغسلافية والصين والتركستان والهند، وفي كل مكان.

ثم يظهر بيننا من يظن أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء

---

(١) مجموع فتاوى ابن باز ٢/ ١٨.

ولاء وتناصر ندفع به المادية الإلحادية عن الدين. إن هؤلاء لا يقرأون القرآن، وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام، فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن.. إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم؛ لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها، ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم، كما وقفت له بالأمس الموقف الذي لا يمكن تبديله؛ لأنه الموقف الطبيعي الوحيد.

إن نداء الله موجه إلى كل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة، موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، لقد نزل القرآن ليبث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته، ولينشئ تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة، ولا يقف تحت رايتها؛ المفاصلة التي لا تنهي السماحة الخلقية، فهذه صفة المسلم دائمًا، ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله ولرسوله والذين آمنوا... الوعي والمفاصلة اللذان لا بُدَّ منهما للمسلم في كل أرض، وفي كل جيل؛ فهذا مفرق الطريق، وما يمكن أن يتميع حس المسلم في المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا يرفع راية الإسلام، ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملًا ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف أول ما تستهدف إقامة نظام واقعي في الأرض فريد، يختلف عن كل الأنظمة الأخرى، ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى.

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية يخطئون في فهم معنى الأديان، كما يخطئون في فهم معنى التسامح؛ فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله، والتسامح يكون في المعاملات الشخصية، لا في التصور الاعتقادي، ولا في النظام الاجتماعي.

إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل دينًا

إلا الإسلام، وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام، ولا يقبل دونه بديلًا، ولا يقبل فيه تعديلًا ـ ولو طفيفًا ـ هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران ٨٥]، ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وفي القرآن كلمة الفصل.. ولا على المسلم من تميّع المتميعين وتمييعهم لهذا اليقين»(١).

❑ ❑ ❑

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن، أحمد فائز ص٦٢ ـ ٦٤.

المبحث السابع عشر

ميزان الفتنة

تأتي الفتنة في ميزان الكتاب والسُّنَّة لعدة معان؛ من أهمها ما يلي:

١ ـ **(الفتنة) بمعنى الامتحان والاختبار**: ومنه قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

ومنها: فتنة النساء التي قال الرسول ﷺ عنها: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»[١].

ومنها: فتنة الدنيا ومناصبها وجاهها وزخرفها.

ومنها: فتنة الدخول على السلاطين.

ومن ذلك: الفتنة بالمصائب والمكاره؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

٢ ـ **(الفتنة) بمعنى الشرك والكفر**: ومنه قوله سبحانه: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ﴾ [الأنفال: ٣٩]. وقوله سبحانه: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ﴾ [البقرة: ١٩١].

٣ ـ **(الفتنة) بمعنى الأذى والعذاب**: ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾ [الذاريات: ١٣]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

٤ ـ **(الفتنة) بمعنى الاقتتال والاختلاف بين الناس**: وهذا كثير في

---

(١) البخاري (٥٠٩٦)، مسلم (٢٧٤٠).

تحذيرات الرسول ﷺ وكلام السلف، ومنه قوله ﷺ: «**فإني لأرى الفتن خلال بيوتكم**»(١)، وكذلك قوله ﷺ: «**ستكون فتنٌ؛ القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي**... الحديث»(٢).

٥ ـ **(الفتنة) بمعنى الإثم والضلال**: ومنه قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصافات: ١٦٢، ١٦٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩].

ويقول الأزهري في تهذيب اللغة: «وجماع الفتنة في الابتلاء والامتحان»(٣).

ولو تأملنا أنواع الفتن السابق ذكرها لرأيناها إما أن تكون سببًا في وقوع الإثم فهذا فتنة، أو هي الإثم نفسه، وهذه أيضًا فتنة، أو هي ما يترتب على الوقوع في الإثم وهو العذاب في الدنيا والآخرة وهذه فتنة أيضًا(٤).

ونستطيع القول بأن الميزان الإلٰهي للفتنة هو حسب معانيها السابقة. والموقف منها هو المقت لها، والتحذير منها.

والفتنة إذن وهي كل ما من شأنه أن يكون وسيلة للوقوع في الإثم الذي يترتب عليه عذاب الله ﷻ: إما بترك واجب، أو فعل محرم من الشرك وما دونه، أو هو الإثم نفسه، أو العذاب المترتب عليه.

وسواء كان هذا السبب دنيا مغرية، أو نساء وأولادًا، أو أذى من الناس وعذابًا، أو اختلافًا، أو شبهات وأفكارًا، أو مصيبة ومكروهًا؛ فكل ما كان سببًا في ترك طاعة الله ﷻ أو فعل محرم يؤدي إلى عذاب الله تعالى فهو الفتنة يجب الحذر منها. وقد تكون الفتنة عظيمة؛ كالتي توقع في الكفر والكبائر، وقد تكون دون ذلك.

---

(١) البخاري (٧٠٦٠)، ومسلم (٢٨٨٥).
(٢) البخاري (٣٦٠٢)، ومسلم (٢٨٨٦). (٣) تهذيب اللغة ١٤/٢٩٩.
(٤) يرجع لمعرفة أنواع الفتن إلى كتاب: (ففروا إلى الله) للمؤلف.

موازين البشر المعوجة للفتنة:

تتسم هذه الموازين بالتلبيس في أمر الفتنة، بحيث يتورط أصحاب هذه الموازين في الفتن التي حذر الله ﷻ ورسوله ﷺ منها، أو ما يترتب عليها من إثم وعقوبة، وبدلًا من اعتراف أصحابها بالوقوع فيها، وبذل السبب في النجاة منها، فإن أصحاب هذه الموازين يحاولون تأصيل مواقفهم بشبه شرعية يبررون بها شرعية أفعالهم، ويظهرون ذلك بأنه فرار من الفتنة، أو مواجهة وإخماد لها، أو منعٌ من ظهورها.

أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس صنعوا، وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم دم أخي. فقالا: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله»[(١)].

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي ظبيان قال: «جاء رجل إلى سعد فقال له: ألا تخرج تقاتل مع الناس حتى لا تكون فتنة؟ فقال سعد: قد قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى لم تكن فتنة، فأمّا أنت وذا البطين تريدون أن أقاتل حتى تكون فتنة»[(٢)].

والأمثلة التالية توضح الخلل في موازين الفتنة عند بعض الطوائف:

المثال الأول والثاني: مثالين من فرقتين ضالتين في هذه الأمة؛ **إحداهما** تركت واجبًا شرعيًا وشعيرة عظيمة ـ ألا وهي شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ـ خوف الفتنة بزعمهم؛ وهؤلاء هم المرجئة وأهل الفجور، **والأخرى** ارتكبت محرمًا كبيرًا بخروجها على الأمة بالسيف ـ حتى لا تكون فتنة بترك الأمر والنهي بزعمهم ـ وهؤلاء هم الخوارج ومن شابههم من المعتزلة ونحوهم.

---

(١) البخاري (٤٥١٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن ابي حاتم، سورة الأنفال، الآية ٣٩.

ومن أحسن ما جاء في وصف هاتين الطائفتين وتفنيد موازينهم المعوجة للفتنة ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ عنهم؛ حيث يقول: «ونهى رسول الله ﷺ عن قتال أئمة الجور، وأمر بالصبر على جورهم، ونهى عن القتال في الفتنة. فأهل البدع من الخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم يرون قتالهم والخروج عليهم إذا فعلوا ما هو ظلم أو ما ظنوه هم ظلمًا، ويرون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وآخرون من المرجئة وأهل الفجور قد يرون ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظنًا أن ذلك من باب ترك الفتنة، وهؤلاء يقابلون لأولئك»(١).

ويقول في موطن آخر مبينًا أن لزوم جماعة المسلمين ودرء الفتنة لا يعني ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك قول كلمة الحق: «ومع ذلك فيجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب إظهار السنة والشريعة، والنهي عن البدعة والضلالة بحسب الإمكان. كما دل على وجوب ذلك الكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمة.

وكثير من الناس قد يرى تعارض الشريعة في ذلك، فيرى أن الأمر والنهي لا يقوم إلا بفتنة، فإما أن يؤمر بهما جميعًا، أو يُنهى عنهما جميعًا، وليس كذلك، بل يؤمر وينهى ويصبر عن الفتنة؛ كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

وقال عبادة رضي الله عنه: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيث ما كنا، ولا نخاف في الله لومة لائم»(٢). فأمرهم بالطاعة ونهاهم عن منازعة الأمر أهله، وأمرهم بالقيام بالحق.

ولأجل ما يُظن من تعارض هذين تَعْرِض الحيرة في ذلك لطوائف من الناس. والحائر الذي لا يدري ـ لعدم ظهور الحق، وتميز المفعول من

---

(١) الآداب الشرعية ١/١٧٧.

(٢) البخاري في الفتن (٧١٩٩)، مسلم في الإمارة (١٧٠٩).

المتروك ـ ما يفعل إما لخفاء الحق عليه، أو لخفاء ما يناسب هواه عليه»[١].

وإن مما يشبه موازين أهل الإرجاء والفجور للفتنة: ما يرفع اليوم في وجه بعض الدعاة المصلحين الآمرين والناهين في أكثر بلدان المسلمين من تهم باطلة وإشاعات كاذبة تصفهم بالخوارج تارة، وإثارة الفتن وزعزعة الأمن تارة، وبالابتداع تارة؛ وكون هذه التهم تصدر من دعاة العلمانية والفساد فهذا أمر متوقع وغير مستغرب، لكن أن يصدر هذا من بعض المتحمسين للعلم والدعوة فإنه من العجائب، والعجائبُ جمَّةٌ!

إن قومة لله ﷻ صادقة مخلصة بعيدة عن التعصب والحزبية والغوغائية لتقود صاحبها إلى صدق الدعاة المصلحين وصحة معتقدهم، وأنهم خائفون على أمتهم، ومشفقون عليها من عذاب الله ﷻ، وليسوا دعاة خروج ولا فرقة ولا فتنة.

بل الفتنة، والله، في ترك الدعوة والأمر والنهي، وإسلام الأمة لأهل الشر والفساد ليفسدوا دينها ودماءها وعقولها وأموالها وأعراضها؛ فأي الفريقين أحق بالفتنة وزعزعة أمن الأمة؟ آلذين يواجهون الفساد والمفسدين لتأمن الأمة على دينها وأعراضها وأموالها، أم الذين يسعون في زعزعة أمنها في هذه الضروريات التي هي أساس حياتها وبقائها؟ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

فبالله: أين الفتنة والخروج فيمن يحذر الأمة من الشرك وآثاره؟ وأين الفتنة فيمن يحذر الأمة من هبوطها في وحل الرذيلة بما تبثه وسائل الإعلام والبث المباشر من القتل للأخلاق وتحريض على الفساد، وإغراء المرأة على السفور والعري وهجر لبيتها وعشها واختلاطها بالرجال؟ أين الفتنة فيمن يحذر الناس من الربا والبيوع المحرمة؟ أين الفتنة فيمن يحذر الناس من محبة الكافر وموالاة أعداء الله ﷻ؟ إن الفتنة في ترك الناس على هذه المفاسد وغيرها لا يؤمرون ولا يُنهون.

(١) الاستقامة ١/ ٤١، ٤٢.

وإن وصف الآمرين والناهين بالخروج على جماعة المسلمين مع براءتهم من ذلك هو في الحقيقة فتنة كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ في النقل السابق.

المثال الثالث: تغليب منهج السلامة:

إن من الموازين المختلة للفتنة موازين من يؤثر الراحة، ويغلب السلامة على الدعوة إلى الله ﷻ والجهاد في سبيله سبحانه؛ وذلك لما فيها من المشاق والأذى على النفس، ويرى أن ذلك من الفتن التي يجب التحرُّز منها، ويرى الاقتصار في الدعوة على ما لا يجلب على النفس الأذى والمصائب.

وهذا خلل في ميزان الفتنة، وقلة فهم لسنن الله ﷻ في الابتلاء والتمحيص؛ قال الله ﷻ عن نصيحة لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: ١٧]، وقال عن سنة الابتلاء التي لا تتبدل: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾ [محمد: ٣١].

وقال سبحانه عن سنته مع أنبيائه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مذكرًا بهذه السُّنَّة لنبينا محمد ﷺ: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤﴾ [الأنعام: ٣٤].

وشنع على الذين لا يثبتون على الأذى في سبيل الله ﷻ فينكصون ويزيغون عند تعرضهم لأذى الناس: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [العنكبوت: ١٠].

وفضح الله ﷻ المنافقين الذين احتجو لترك الجهاد في سبيل الله ﷻ بخوفهم من التعرض للفتنة، فقال: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٩﴾ [التوبة: ٤٩]، فأخبر سبحانه أن الفتنة الحقيقية التي سقطوا فيها هي تركهم للجهاد، وليست التي أظهروا خوفهم منها.

وفضح سبحانه أولئك الأعراب، الذين ربطوا دخولهم في الإسلام، وبقاءهم فيه بتحسن أمورهم المعيشية، ونماء أولادهم وأموالهم، فإذا لم يحصل لهم شيء من ذلك وحصل لهم شيء من البلاء تركوا الدين وارتدوا على أعقابهم؛ قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١١﴾ [الحج: ١١].

والمقصود أن من ينظر إلى الابتلاء والعقبات التي تواجه الداعية في طريقه بأنها من الفتن التي يجب أن تتجنب هو في الحقيقة غالط في ميزانه للفتنة جاهل بسنن الله ﷻ؛ لأن الفتنة في الحقيقة هي ترك الدعوة والأمر والنهي، وعدم مدافعة الفساد وأهله.

وعن الفرق بين سلامة المنهج ومنهج السلامة يحدثنا الدكتور عبد العزيز كامل فيقول: «دعونا نسأل بصراحة: هل يمكن أن توجد دعوة صحيحة وسليمة تبغي العمل للإسلام، ونصرته ونشره وهي مع ذلك لا تضحي، ولا تنتظر أن تبتلى، أو تواجه الشدائد والمحن، أو تدخل في صراعات مع الباطل؟ نجيب من خلال نقطتين:

الأولى: سنن الله الكونية:

إن الصراع بين الحق والباطل قائمٌ والباطل قائمٌ دائمًا، موجود ما وجدت البشرية؛ قال تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ [هود: ١١٩]، فهو إذا سنة الله في خلقه ليميز الخبيث من الطيب، والصادق من المدعي؛ قال تعالى: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ﴾ [سبأ: ٢١]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾ [البقرة: ١٤٣].

الثانية: دراسة تاريخ الدعوات عبر العصور:

لقد فهم حملة الدعوات والرسالات أن طريق الجنة محفوف بالمكارة، ومن ثم فإن الطريق إلى نصرة الدين لا يعبر بدون تضحيات، فهموا هذه

الحقيقة القرآنية من قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ٢]. وهاكم بعض النماذج من الدعوات عبر التاريخ:

* أبو الأنبياء وخليل الرحمٰن إبراهيم عليه السلام في دعوته لقومه: لماذا صدع بدعوته في وجه الباطل معرضًا نفسه ـ وهو لم يزل في سن الشباب ـ إلى مخاطر الصدام مع قوم شداد أقوياء ظالمين من المشركين الذين منهم أبوه وأهله وقبيلته؟ لماذا فاصل الباطل معلنًا البراءة منه، ومن أتباعه؟ ألم يكن أمامه طريق أخرى يمضي فيها بدعوته حفاظًا على شبابه، وأتباعه ومصلحة دعوته؟ لماذا لم يكتف بذم الأصنام وسبها، أو وعظ عابديها وإقناعهم حتى يهدموها بأنفسهم؟ لماذا لم يختر الطريق الأسلم، ويبق مقيمًا بين أهله دون أن يضطر إلى قطع الصحارى والقفار مهاجرًا من العراق إلى الشام؟ إن إبراهيم عليه السلام اختار المنهج الصحيح ثم تحمَّل تبعاته، ولهذا انتصرت دعوته وبقي في العالمين ذكره؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١]، إنه سلك الطريق المستقيم ولم يكتف بالطريق الآمن.

* وهذا موسى عليه السلام يقوم في قومه بالدعوة إلى الله، ومع ذلك يسلك طريقًا مملوءًا بالصراعات مع طغاة الأرض: فرعون وهامان، ويصدع بالحق في كل مكان، ويتحدى ويقبل التحدي، ويصبر على المكاره ويُصبِّر أتباعه: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ويمضي في طريق المواجهة مع الكفر، فإذا ما هلك فرعون وجنوده، استعد لمرحلة أخرى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝٢١﴾ [المائدة: ٢١].

* ولقد امتثل قدوة الداعين وإمام المجاهدين محمد ﷺ للأمر، واهتدى بهدي الأنبياء قبله، فأمضى عمره في بذل دائم، وجهد وجهاد لنصرة دعوة الإسلام، حتى تنزَّل الوحي يبشره بثمرة جهده في آخر عمره؛ قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١]، ألا نستطيع القول بأن النصر لهذه الأمة ولهذه الدعوة عبر التاريخ لم يتمَّ إلّا بعد سلوك طريق شاقٍّ محفوف بالمكاره،

كله بذل وتضحية؟ بديهي أن نُجيبَ بنعم، وإذا عبرنا تاريخ دعوات الأنبياء لننظر في سير أتباع الأنبياء ـ وأفضلهم صحابة رسوله ﷺ ـ فإننا سنرى عجبًا:

ـ أبو بكر الصديق رضي الله عنه يرسل مناديًا بعد وفاة رسول الله ﷺ بيوم ليتم بعث أسامة، ويُنفذ الجيش الذي أعدَّه رسول الله ﷺ بنفسه ليبدأ ملاحم الإسلام الكبرى ضد مشركي الروم بعد إنهاء المعركة ضد مشركي العرب، ثم يستعد أبو بكر في الوقت نفسه لدخول حرب مريرة على مستوى الجزيرة ليرد من ارتد، ويؤدب من ظن أن دعوة التوحيد كلأ مباحٌ لكل مستهتر عابث.. لم يكن أبو بكر الصديق هيابًا من النتائج، ولا وقافًا أمام المصاعب، لم يشأ أن يستمع إلى نصيحة من أشاروا عليه بالانحناء للعاصفة حتى تمر، لكنه عصف بالعاصفة، ثم انطلق يجهز الطلائع لفتح بيت المقدس وإعادة مسجده إلى كنف التوحيد، لقد كان طريقًا صعبًا لكنه سهَّل المهمات على من جاؤوا بعده.

ـ أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلم يكن أسهل مراسًا من سلفه الجاد المجاهد لم يقل دعنا نرتب أوراقنا داخل الجزيرة أولًا، أو ننكفي على بناء الذات والحفاظ على المنجزات، لا.. لقد سيَّر الجيوش شرقًا وغربًا، ليحضر لأكبر معركتين ضاربتين يكسر بإحداهما قرون الأكاسرة، وبالثانية يزلزل عروش القياصرة. وقد كان له ما أراد بمعونة الله، فانطفأت نيران فارس، وانكسرت صلبان الروم في أرض الشام، وتم تطهير المسرى الشريف من شرك الرومان؛ ولم تكن تلكم الخدمة العظيمة لدعوة الإسلام لتتم دون فداء ودماء وشهداء.

وإذا قال قائل: تذكرون الأنبياء وهم لا يخطون خطوة إلا بوحي، وتذكرون الصحابة وهم خير القرون حكامًا ومحكومين، فأين نحن في زمن الأزمات من أيام العز والتمكين تلك؟ أقول: سأضرب أمثلة أخرى من أزمنة مختلفة كانت الأمة تعاني فيها أيضًا كزماننا هذا:

ـ هل ننسى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أيام المغول والتتار؛ حيث استفاضت في العالمين سيرته الجهادية إلى جانب حياته العلمية والدعوية العامرة؟ لقد عاش زمن أزمة مستحكمة لا في بلاده ـ الشام ـ فقط، بل عمَّت العالم الإسلامي بأسره، ولم يكن استيلاء التتار على ذلك العالم في

أوضاع صحية أو ظروف سوية في الأمة، بل كان الضعف والتمزق والشتات مستشريًا في جنباتها، بدليل أنه لم يصمد شعب في أرض أمام الاجتياح التتري.. لم يؤثر ابن تيمية السلامة والبقاء بعيدًا عن المخاطر، لم يتذرع بالأعذار التي يلقيها مشايخ اليوم.. لم يقل: دع الخلق للخالق، فأنا رجل علم لا رجل جهاد، وكان يمكنه أن يقول: إن الزمان زمان فتنة، والتتار الكفار قد استولوا على كل الديار، وما باليد حيلة، أنخالف الأقدار؟ أم نصلح الكون؟.. لم يقل: إن الأمة تستحق ما يحدث لها لتفرقها فدعوها تتعلم!.. لم يقل: إن الله يعاقب الناس بتسليط حكام الجور والكفر عليهم وكما تكونوا يُولَّ عليكم.. لم يقل: ضاع العلم وضاعت التربية، والآن يجب أن ننشغل بنشر بعض العلم، ونتربى على بعض أنواع التربية التي لا تشكل خطرًا على أعداء الله التتار أو الصليبيين أو المرتدين.. لم يقل: هذا الجيل جيل تافه لا علم عنده.. لم يقل: ما لنا وللسياسة التي تفسد الدنيا، أقبلوا على شأنكم معاشر طلاب العلم، فمن الكياسة ترك السياسة لأهل النجاسة.. لم يقل: إن العزلة واجبة لفساد الزمان، ولا حل إلا بمجيء المهدي.. لم يقل: شغر الزمان عن خليفة ولا جهاد إلا بخليفة.. لم يقل: سقطت الدولة الشرعية والرسول ﷺ لم يبدأ الجهاد إلا بعد إقامة الدولة، لم يقل: نتغلغل في أوساط التتار ونلتحق ببعض المراكز لنحقق من خلالها بعض المصالح وندرأ بعض المفاسد.. لم يقل: كيف نقاتل التتار وفيهم من يعلن الإسلام ويصوم ويصلي، وهو وإن كان يتحاكم إلى الياسق، ويحارب دونه ويحميه، ولكنه موحد يقول لا إله إلا الله ودمه حرام.. لم يقل: نحن أمة دعوة فلندع الكفار، ولا نتكلم بفضح من له شوكة أو قدرة على أذيتنا، إنما نتكلم عن الكفار البعيدين أو السابقين.. لم يقل: دار الزمان كهيئته يوم كان المسلمون مستضعفين في مكة، فنحن مستضعفون والتكاليف ساقطة عنا لنصرة الدين وأهله.. لم يقل: لا قدرة لنا على مواجهتهم، فعلينا بالمسايرة والمداهنة والتنازل عن بعض ثوابت الدين؛ كالكفر بالطاغوت، أو الولاء والبراء، أو إثبات الحاكمية المطلقة لله وحده، وعدم الإقرار بأي حكم غير حكم الله.

إن شيخ الإسلام ابن تيمية وأتباعه الصالحين لم يقولوا شيئًا من هذا ولكنهم حملوا أعباء الدعوة كاملة، وكانت دعوتهم نبراسًا لكل العاملين الصادقين؛ يضيء الطريق أمام الباحثين عن سلامة المنهج لا منهج السلامة.

وهذا إمام دعوة التوحيد في جزيرة العرب في العصور الأخيرة: الإمام محمد ابن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ: هل اكتفى بنصرة هذه الدعوة بمؤلفاته ومناظراته ودروسه فقط؟ أم أنه قاد دعوة لها أبعادها البارزة على المحاور العلمية والسياسية والجهادية؟ ألم تكن للشيخ وإخوانه معارك لنصرة الدعوة ضد من يراهم أعداء لدعوة التوحيد الخالص من أهل الجزيرة وغيرهم؟ هل كان لهذه الحركة أن تعطي هذه الثمار والآثار لو اكتفت بالجوانب العلمية الوعظية، أو التأليفية والتنظيرية مهما كانت نقية وصافية؟

إني أدعو إلى إعادة النظر في مفهوم نصرة الدين، ثم إعادة النظر في برامج التحرك من أجل تلك النصرة بشكل متوازن وصادق مع الله ثم مع النفس؛ لأن الله ﷻ قال عن أقوام ادَّعوا الصدق في نصرة الدين: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: ٤٦]، إننا في حاجة أن نطالب أنفسنا ـ كدعاة وكطلبة علم، ومنتمين إلى هذا الدين حقيقة ـ أن نعيد قراءة تلك الفصول من تاريخ الدعوة، ثم نقيس عليها مناهجنا لنرى الفرق بيننا وبينهم، فالسلف وأتباعهم كانوا كثيرًا ما يقولون: لا نعدل بالسلامة شيئًا. ولكن مفهوم السلامة عندهم كان يعني نجاة الآخرة، أما عند كثير من المشايخ والجماعات والجمعيات الإسلامية اليوم، فهو نجاة الدنيا، وسلامة المرتب والوظيفة والمنصب والجاه والمال والمركز والجسد، ولذلك فإن رسول الله ﷺ لما سئل عن معنى الوهن الذي يتسبب في غثائية الأمة، قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»(١)، وفي رواية صحيحة أخرى: «**حب الدنيا وكراهية القتال**»(٢). وحب الدنيا هو أول فصول منهج السلامة، نسأل الله العفو والعافية(٣).

(١) أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد ٥/ ٢٧٨.
(٢) أحمد في المسند ٢/ ٣٥٩.
(٣) مجلة السنة.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والشكر لله سبحانه على توفيقه وإعانته على إتمام هذه الرسالة من الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم، والتي كانت مباحثها تدور على بيان الميزان الإلهي لبعض المصطلحات والمسائل التي انحرفت بها موازين البشر المعوجة عن حقائقها الشرعية المرضية لله ﷻ، أسأل الله ﷻ أن ينفع بها كاتبها وقارئها وأن يجعلها خالصة لوجهه تعالى، مباركة مقبولة.

ويحسن في ختام هذه الرسالة أن أشير إلى أهم الأفكار والوقفات التي تُيسِّر على القارئ الكريم أخذ فكرة سريعة عن مواضيعها وأهم مباحثها؛ وذلك حسب الوقفات التالية:

الوقفة الأولى:

ذكرت في المقدمة أهمية هذا الموضوع، وبخاصة في زماننا اليوم، والذي اختلت فيه الموازين، وكادت أن تسيطر موازين الجاهلية على كثير من المواقف والقيم.

ومن الأمور التي أوردتها في الدلالة على أهمية الموضوع: انفتاح الدنيا على الناس، وغلبة المادة على تصرفات الناس ومعاييرهم وموازينهم، وما نشأ عن ذلك من نسيان الآخرة أو الغفلة عنها. ولا يخفى ما للآخرة من أثر عظيم في تصحيح الموازين واستقامتها.

كما أن من بين الأمور التي تبين أهمية الموضوع. بيان نعمة الله ﷻ على عباده بهذا القرآن العظيم، الذي يهدي للتي هي أقوم، والذي يضبط تفكير العبد وتستقيم به موازينه وأخلاقه ومواقفه. والاعتراف بهذه النعمة يدفع

إلى شكر الله ﷻ عليها بالمحافظة عليها مما يحرفها عن مسارها، كما يدفع إلى الدعوة لهذا المنهج الحق والميزان العدل وبيانه للناس، كما يدفع إلى التحذير من سبيل المجرمين أصحاب الموازين الجائرة المعوجة التي تقود الناس إلى الهاوية، وإلى أن يعيشوا حياة العجماوات التي لا تنطلق إلا من ميزان الشهوة وشريعة الغاب.

ومن الأمور المهمة التي ذكرتها في أهمية هذا الموضوع، وخطورة شأنه: أن انتشار الموازين الأرضية الجاهلية لم تتوقف على جهلة المسلمين وفساقهم، بل سرت ـ وللأسف ـ إلى كثير من المنتسبين إلى العلم والدعوة، حتى أصبحنا نسمع ونرى من يضع اعتبارًا لموازين الدنيا والوطن والقوم والإنسانية وغيرها في تقويم الناس والأشياء، وفي كثير من المواقف والممارسات في دنيا الناس.

الوقفة الثانية:

تم في الفصل الأول بحث الألفاظ المجملة وإشكالية المصطلحات، وخطورة التلاعب بها من قبل الملبسين والمضللين الذين يستخدمون ذلك في التلبيس على الناس، وتضليلهم واضطراب موازينهم.

الوقفة الثالثة:

وفي الفصل الثاني كان الكلام عن خصائص الميزان الإلهي التي انفرد بها هذا الميزان الحق العدل، وذكرت أهم هذه الخصائص؛ والتي منها:

أ ـ خاصية الرَّبَّانيّة: أي أن هذا الميزان هو رباني المصدر؛ فالله سبحانه هو الذي أنزله وارتضاه، وبالتالي جاء متصفًا بصفات مُنْزِله ـ سبحانه ـ من تمام العلم، والحكمة، والعدل، والرحمة، مبرءٌ من صفات النقص والظلم والجهل.

ب ـ خاصية التوحيد: إذ بالتوحيد نزن كل شيء ونرجعه إليه.

ج ـ خاصية الثبات: فهو ثابت؛ لا يتأرجح ولا يضطرب، ولا يتغير، وهو صالح لكل زمان ومكان.

د ـ الشمول والتوازن: فهو ميزان شامل في توازنه، متوازن في شموله، لا يطغى فيه جانب على جانب، ولا يقتصر على بعض الجزئيات دون بعض. ولا غرابة في ذلك؛ فهو من عند الله ﷻ، الذي شمل علمه وسمعه وبصره وحكمته وخبرته لكل شيء.

هـ ـ الإيمان باليوم الآخر: وهذه الخاصية لها أثرها البالغ في وزن الأمور؛ حيث لا تستوي موازين من يؤمن باليوم الآخر، ورجوعه إلى الله ﷻ، ومعرفته لحقيقة الدنيا وفنائها، وحقيقة الآخرة ودوامها، وموازين من لا يؤمن بذلك. إنهما لا يستويان أبدًا؛ لا في تفكيرهما، ولا في موازينهما، ولا في مواقفهما، ولا في أخلاقهما.

الوقفة الرابعة:

في الفصل الثالث ـ وهو أطولها ـ كان الحديث عن أهم المسائل والمواضيع التي أصابها الاضطراب والخلل في وزنها. وقد وضعت لكل موضوع مبحثًا مستقلًا؛ بيَّنت فيه الميزان الإلهي العدل الحق، وموازين البشر الجاهلية المعوجة. وتأتي هذه المباحث حسب الترتيب التالي:

المبحث الأول: ميزان التكريم والإهانة:

وفيه بينت أن الميزان الإلهي للتكريم هو ميزان التقوى، وطاعة الله ﷻ وتوحيده. أما موازين البشر فهي مضطربة مُعوَّجة؛ فتارة تزن بميزان القوم والجنس، وتارة بالمال والجاه، وتارة بالشهرة والزعامة، وغيرها من معايير الدنيا الغافلة عن الدار الآخرة. وألحقت بهذا المبحث ميزان العزة والذلة لتقاربهما.

المبحث الثاني: ميزان الدنيا والآخرة:

وفيه بينت الميزان الإلهي لحقيقة الدنيا والآخرة كما جاء في الكتاب

والسنة، وموازين البشر المادية المتعلقة بالدنيا والغافلة عن الآخرة.

المبحث الثالث: ميزان العقل والعقلاء:

وفيه بيَّنت الميزان الإلهي للعقل، وأنه وسط بين المغرورين به المقدمين له على الوحي، وبين الملغين له التابعين لكل ناعق. وكما بينت أن العقلاء في ميزان الله ﷻ هم المؤمنون بالله ﷻ، المطيعون له، المؤمنون باليوم الآخر المستعدون له، ومن سواهم فهو الأعمى الذي لا عقل له، ولو بلغ ما بلغ من الذكاء والفطنة، وحاز علوم الدنيا. بينما العقل عند أهل الموازين الأرضية ندٌّ للوحي متقدمٌ عليه، والعاقل عندهم هو الذكي اللقن، العالم بالدنيا وعلوم المادة. وألحقت بهذا الميزان ميزان العمى والبصيرة؛ وذلك لتشابههما.

المبحث الرابع: ميزان الحرية والحضارة:

وفيه بينت الميزان الإلهي للحرية والحر والحضارة، وأنها هي الحرية والحضارة التي ينعتق فيها العبد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ويكون الحر على الحقيقة من لم يأسر قلبه شيء من أعراض هذه الدنيا. بينما الحرية والحضارة في موازين الجاهلية تكمن في الحرية والمادية الكفرية الفسوقية، التي ينظر أهلها بأن لا شيء يقيدهم ويقيد حرياتهم؛ ولو كان شرع الله ﷻ ووحيه. وما دروا أنهم بذلك يرتكسون في ظلمات الرق والعبودية لأهوائهم، أو أهواء غيرهم من البشر، مهما بلغ بهم التقدم المادي والعمراني والرفاهية.

المبحث الخامس: ميزان التجديد والتغيير:

وفيه بينت أن الميزان الإلهي للتجديد والتغيير يكون في تجديد ما اندرس من معالم هذا الدين، ورد الناس إليه، وتغيير ما في الأنفس مما لا يرضي الله ﷻ حتى يغير الله سبحانه ما بنا. أما موازين البشر المعوجة فتنظر إلى التجديد والتغيير على أنه إعادة النظر في مسلمات هذا الدين وأصوله، والتجديد والتغيير فيها بما يتفق مع متغيرات العصر. وهذا في حقيقته تبديل للدين وتفريغه من مضمونه.

المبحث السادس: ميزان الوسطية والتيسير:

وفيه بينت الميزان الإلهي للتيسير الذي بنيت عليه شريعة الله ﷻ، والوسطية فيها، كما جاء ذلك في الكتاب والسنة بضوابطها الشرعية. وأما في موازين البشر المعوجة فقد بينت انحرافها في ذلك بجعلهم قواعد التيسير ومفهوم الوسطية بابًا للتحلل من أحكام الدين، والإعراض عن النصوص الشرعية باستحسانات عقلية، أو أقوال شاذة ومهجورة، أو قياسات وآراء فاسدة.

المبحث السابع: ميزان الفرح:

وفيه بينت أن حقيقة الفرح في ميزان الله ﷻ إنما هو الفرح بهداية الله ﷻ ولزوم سنة رسوله ﷺ، والفرح بكل ما يؤدي إلى مرضاة الله ﷻ والجنة، والفرح بنصر الله ﷻ لدينه وأوليائه. بينما الفرح في موازين البشر غالبًا ما يكون في إقبال الدنيا وسعتها، مع الغفلة عن الآخرة ونعيمها، والفرح بالقعود عن الدعوة إلى الله ﷻ، والجهاد في سبيله، والفرح بنصرة أعداء الدين وهزيمة المؤمنين.

المبحث الثامن: ميزان الغنى والفقر:

وفيه بيَّنت الميزان الإلهي للغنى والفقر، وأن حقيقة الغنى غنى القلب بربه، وتوكله عليه، وحسن ظنه به، والاطمئنان لكفايته وتدبيره. والفقر المقابل لذلك فقر القلب المنقطع عن الله ﷻ المتعلق بغيره، وأن هذا هو الفقير على الحقيقة.

أما موازين البشر المعوجة فتنظر إلى الغنى بأنه غنى العَرَض، وكثرة الأموال، دون أي اعتبار لغنى القلب أو فقره.

المبحث التاسع: ميزان الربح والخسارة:

وفيه بيَّنت أن الرابح في ميزان الله ﷻ هو من ربح في يوم القيامة رضوان الله ﷻ وجنته، وربح قبل ذلك لذة الإيمان في الدنيا. وأن الخاسر على الحقيقة الذي خسر نفسه وأهله يوم القيامة؛ ألا ذلك هو الخسران المبين.

أما في موازين البشر، فالمعيار عندهم هو هذه الدنيا الفانية، وأعراضها الزائلة؛ فمن أخذ بحظ منها فهو الرابح عندهم، دون اعتبار لموازين الإيمان بالله واليوم الآخر.

المبحث العاشر: ميزان الحياة والموت:

وفيه بيَّنت الميزان الإلهي لحقيقة الحياة والموت، والمتمثل في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.. الآية [الأنعام: ١٢٢]. ويُقابل ذلك الموازينُ المعوجَّة التي تحصر حقيقة الموت والحياة في حياة الأجساد وموتها، دون الالتفات إلى حياة القلوب والأرواح وموتها.

المبحث الحادي عشر: ميزان الجمال والحسن:

وفيه بيَّنت أن ميزان الجمال والحسن عند الله ﷻ هو ما يقوم في القلوب من الإيمان والمحبة والإخلاص والإخبات والتعظيم لله تعالى، وما يكون في الظاهر من أخلاق حميدة يحبها الله ﷻ، بينما هو في ميزان البشر المادي جمال المظهر والصورة والجاه والمال، ومتع الدنيا الفانية.

المبحث الثاني عشر: ميزان السياسة:

وفيه بيَّنت الميزان الإلٰهي للسياسة، وأنها سياسة الناس وتدبير أمورهم في ضوء شرع الله ﷻ، ومقاصد الشريعة بما يحقق لهم مصالحهم أو يكملها، أو يدرأ عنهم المفاسد أو يقللها.. بينما هي في موازين البشر الجاهلية تقوم على الظلم والهوى والكذب والمكر والخداع بما يحقق مصلحة حفنة من البشر على حساب مصالح السواد الأعظم من البشر المظلومين.

المبحث الثالث عشر: ميزان السعادة

وفيه بيَّنت أن السعادة في ميزان الله ﷻ إنما هي في طاعته وتقواه، وأن ذلك إنما يكون للمؤمن في الدنيا والآخرة. وأما في موازين البشر المادية، فهي محصورة في الحصول على متاع الدنيا الزائل من: مال أو ولد أو جاه وسلطان.

المبحث الرابع عشر: ميزان الظواهر والكوارث الكونية:

وفيه بيَّنت أن الميزان الإلهي للظواهر والكوارث الكونية يقوم على أن الله ﷻ هو العالم المدبر المريد الخالق لكل شيء يحصل في هذا الكون، وأن كل ما يُقدِّره الله ﷻ، ويقضيه إنما هو بعلمه وحكمته البالغة، ومن ذلك:

تنبيه الناس إلى ما هم عليه من ذنوب وبعد عن الله ﷻ لعلهم يرجعون. أما تفسيرها في موازين البشر فهي مبتوتة عن هذا التفسير الشرعي، وإنما هي منطلقة من تفسيرات مادية بحتة، دون ربط لها بعلم الله ﷻ وحكمته، ودون ربط لها بما يُحْدِث الناسُ من ذنوب وفساد.

المبحث الخامس عشر: ميزان المراجعات:

وبيَّنت في هذا أن الميزان الإلهي للمراجعة هو ما يسمى في المصطلح الشرعي بالمحاسبة والتأمل، وهذا محبوب لله ﷻ كما في قوله سبحانه: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، ومن فوائد هذه المراجعات: التوبة والرجوع عن الخطأ، والانقياد للحق إذا تبين.

بينما هي في موازين البشر تتحول إلى تراجعات وانتكاسات تسمى عندهم بالمراجعات؛ فبينما هي في ميزان الله ﷻ محاسبة وإصلاح للنفس، نجدها في موازين البشر تأخر وفتور وتعثر.

المبحث السادس عشر: ميزان المداراة والتسامح:

وبيَّنت في ذلك حقيقة المداراة والتسامح في ميزان الله ﷻ، وأنها تعني الدفع بالتي هي أحسن، ودرأ السيئة بالحسنة؛ مما يحفظ للإنسان دينه أو دنياه دون التنازل عن الدين. بينما هي في موازين البشر المعوجة تتحول إلى مداهنة ونفاق على حساب العقيدة والدين.

المبحث السابع عشر: ميزان الفتنة:

وقد ذكرت في هذا المبحث أنواع الفتن في ميزان الله ﷻ، وبيَّنت أن الله ﷻ عندما حذَّرنا من الفتنة حذَّرنا من أسبابها، ومن آثارها وعقوباتها في الدنيا والآخرة.

وبيَّنت أنها في موازين البشر المعوَّجة تعني عند بعضهم ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله؛ تفاديًا للفتنة بزعمهم، وعند بعضهم تعني العكس؛ وذلك بالتورط في فتنة الدماء بحجة دفع الفتنة عن دين الله.

الفهرس

المقدمة	الصفحة
المقدمة	٥
أهمية موضوع الميزان الحق للأمور كلها	٧
الفصل الأول: إشكالية المصطلحات وخطورة التلاعب بها	١١
الفصل الثاني: خصائص الميزان الإلهي	١٩
١ ـ الربانية	٢٦
٢ ـ التوحيد	٢٦
٣ ـ الثبات	٢٨
٤ ـ الشمول والتوازن	٣٠
٥ ـ اعتبار الإيمان باليوم الآخر	٣١
الفصل الثالث: بين ميزان الله المستقيم وموازين البشر المعوجة	٣٥
المبحث الأول: ميزان التكريم والإهانة	٣٨
الآيات الواردة في بيان ميزان الله في التكريم والإهانة ...:............	٣٩
الأحاديث الواردة في بيان ميزان الله في التكريم والإهانة	٥٢
موازين أخرى تتفرع عن هذا الميزان	٥٤
١ ـ ميزان الحب والموالاة وميزان البغض والمعاداة	٥٥
٢ ـ ميزان العزة والذلة	٦٩
المبحث الثاني: ميزان الدنيا والآخرة:	٧٦
أولًا: الميزان الإلهي للدنيا والآخرة	٧٧
من ثمرات الأخذ بالميزان الإلهي للدنيا والآخرة	٨٤
ثانيًا: موازين البشر للدنيا والآخرة	٨٧
المبحث الثالث: ميزان العقل والعقلاء:	٨٩
ذكر بعض صور موازين الجاهلية للعقل والعقلاء	٨٩
ملامح من منهج أدعياء التنوير وأساليبهم في ترويج أفكارهم	٩٤

الموضوع | الصفحة

الميزان الإلهي للعقل والعقلاء والتنوير ٩٧
المبحث الرابع: ميزان الحرية والتقدم والتحضر: ١١٦
من موازين الجاهلية للحرية والتقدم والتحضر ١١٦
ميزان الله ﷻ للحرية والتقدم والتحضر ١٢٤
المبحث الخامس: ميزان التجديد والتغيير: ١٣١
من موازين الجاهلية للتجديد والتغيير ١٣١
ميزان الله ﷻ للتجديد والتغيير ١٤٠
المبحث السادس: ميزان الوسطية والتيسير والتشديد: ١٥٢
ميزان الله ﷻ للتيسير والوسطية والتشديد ١٥٤
ميزان الناس في التيسير والوسطية ١٦٠
أهم منطلقات دعاة التيسير المعاصرين: ١٦٠
١ ـ الأخذ بالأيسر من أقوال العلماء ١٦١
٢ ـ التهوين من قاعدة سد الذرائع ١٦٥
٣ ـ التوسع في فتح الذرائع بما يسمونه: الحيل الشرعية ١٦٦
٤ ـ التوسع في استعمال قواعد شرعية وتطبيقاتها دون ضوابطها ١٧١
٥ ـ اعتبارهم أن الوسطية والاعتدال هي ما يقابل الحزم والقوة في تطبيق أحكام الشرع ١٧٢
٦ ـ وصف الملتزمين بأحكام الدين بالمتطرفين والأصوليين ١٧٥
المبحث السابع: ميزان الفرح والسرور: ١٧٧
١ ـ ميزان الله ﷻ للفرح ١٧٧
٢ ـ موازين البشر المعوجة للفرح والسرور ١٨٥
المبحث الثامن: ميزان الغنى والفقر: ١٨٨
١ ـ من سمات الميزان الإلهي للغنى والفقر ١٩٠
٢ ـ من سمات موازين البشر المعوجة للغنى والفقر ١٩٧
المبحث التاسع: ميزان الربح والخسارة: ٢٠٠
١ ـ الميزان الإلهي للربح والخسارة ٢٠٠
آيات تدل على الربح والفوز الحقيقيين ٢٠٠
آيات بيَّنت حقيقة الخسران والخاسرين ٢٠٦
أحاديث وردت في ذكر الربح والخسران الحقيقيين ٢١٠

الموضوع | الصفحة

من ثمار الميزان الإلهي للربح والخسارة ٢١٥
٢ ـ موازين البشر المعوجة للربح والخسارة ٢٢١
المبحث العاشر: ميزان الحياة والموت: ٢٢٦
١ ـ الميزان الإلهي للحياة والموت ٢٢٦
ثمار الميزان الإلهي للحياة والموت ٢٢٩
٢ ـ ميزان البشر للحياة والموت ٢٣٢
المبحث الحادي عشر: ميزان الجمال والحسن: ٢٣٥
١ ـ من سمات الميزان الإلهي للجمال والحسن ٢٣٥
٢ ـ موازين البشر للجمال والحسن ٢٤٠
المبحث الثاني عشر: ميزان السياسة: ٢٤٦
١ ـ سمات الميزان الإلهي للسياسة ٢٤٧
٢ ـ الموازين الجاهلية للسياسة ٢٤٩
المبحث الثالث عشر: ميزان السعادة: ٢٥٧
١ ـ من سمات الميزان الإلهي للسعادة ٢٥٨
٢ ـ موازين البشر المعوجة للسعادة ٢٦٤
المبحث الرابع عشر: ميزان تفسير الظواهر الطبيعية ٢٦٩
١ ـ من سمات الميزان الإلهي في تفسير الظواهر الطبيعية ٢٦٩
٢ ـ موازين البشر المادية في تفسير الحوادث الطبيعية ٢٧٢
المبحث الخامس عشر: ميزان المراجعات: ٢٧٨
١ ـ من سمات الميزان الشرعي للمراجعات ٢٧٩
٢ ـ من سمات الموازين البشرية للمراجعات ٢٨٤
المبحث السادس عشر: ميزان المداراة والتسامح: ٢٨٧
١ ـ الميزان الإلهي للمداراة ٢٨٨
٢ ـ الميزان البشري للمداراة ٢٩٠
المبحث السابع عشر: ميزان الفتنة: ٣٠٠
معاني الفتنة في ميزان الكتاب والسنة ٣٠٠
موازين البشر المعوجة للفتنة ٣٠٢
الخاتمة ٣١١
الفهرس ٣١٨

الميزان

في الحكم على الأعيان

عبد العزيز بن ناصر الجليّل

بسم الله الرحمن الرحيم

الموضوع — الصفحة

المقدمة ٧
تمهيد ١١
المقدمة الأولى ١١
المقدمة الثانية ١٧
المقدمة الثالثة ١٩
أصول الميزان في الحكم على الأعيان ٢٩
الأصل الأول: الحكم على المعين يجب أن يكون بعلم وعدل . ٢٩
الأصل الثاني: المرجع في تعريف الإيمان وما ينقضه بيان الله ورسوله ﷺ
بفهم السلف الصالح ٣٩
الأصل الثالث: من ثبت إسلامه بيقين فلا يجوز إخراجه منه إلا
بيقين مثله ٥٧
الأصل الرابع: تجري الأحكام في الدنيا على الظاهر وعلى آخر الأمر ٦٣
الأصل الخامس: الحكم المطلق لا يستلزم الحكم على المعين .. ٦٩
الأصل السادس: لا تجري أحكام التكفير إلا بعد انتفاء الموانع
وتحقق الشروط ٧٣
أولًا: الموانع: ٧٤

المانع الأول: الجهل وعدم بلوغ الخطاب الشرعي ٧٤
ضابط العذر بالجهل ٧٥
خلاصة الكلام في مبحث العذر بالجهل ٨٦
المانع الثاني من موانع التكفير: الخطأ: ٩٢
المانع الثالث من موانع التكفير: التأويل: ٩٦
أولًا: التأويل الذي يعذر صاحبه: ١٠١
أقسام التأويل الذي يعذر صاحبه: ١٠١
الأول: ما لا يكفر صاحبه ولا يأثم: ١٠٢
الثاني: ما يأثم صاحبه ويضلل ولا يكفر: ١٠٣
ثانيًا: التأويل الذي لا يعذر صاحبه: ١٠٥
المانع الرابع من موانع التكفير: الإكراه: ١٠٦
ثانيًا: شروط إجراء الأحكام: ١٠٨
الشرط الأول: التحقق من انتفاء الموانع: ١٠٩
الشرط الثاني: التثبت من الفعل والقصد: ١٠٩
الشرط الثالث: قيام الحجة على وجهها الصحيح: ١١٠
الأصل السابع: لا يحكم على المعيَّن بمآلات كلامه أو فعله، ولا يُلزم
بلوازم ذلك إلا بعد التزامها ١١٣
تعقيبات ١١٩

التعقيب الأول: ليس لكل من تبين له الحكم على معين إعلان ذلك وبيانه ١١٩
التعقيب الثاني: النظر إلى المعَيَّن المراد الحكم عليه بعيني الشرع والقدر ١٢٣
التعقيب الثالث: وجود بعض أخلاق أهل البدع عند المعين لا يعني بالضرورة أنه على عقيدتهم ١٢٥
أبرز صفات المرجئة وأخلاقهم ١٢٦
أبرز صفات الخوارج وأخلاقهم ١٢٧
الخاتمة ١٢٨

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فلا يفوت المراقب اليوم في واقعنا المعاصر كثرة الفتن، وضخامتها، ومفاجآتها، وتسارعها، وموجها كموج البحر. وهذا مصداق قوله ﷺ: «... **إن أمتكم هذه جعلت عافيتها في أولها، وإن آخرهم يصيبهم بلاء وأمور تنكرونها، ثم تجيء فتن يرقق بعضها بعضًا، فيقول المؤمن: هذه مهلكتي. ثم تنكشف، ثم تجيء فتنة، فيقول المؤمن: هذه مهلكتي. ثم تنكشف...**»[1] **الحديث**.

وهذا ما كان يسأل عنه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ويتخوفه، ويحذره، كما جاء في الأثر الصحيح عن حذيفة رضي الله عنه، قال: كنا جلوسًا عند عمر رضي الله عنه، فقال: أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟ قلت: أنا، كما قاله. قال: إنك عليه أو عليها لجريء. قلت: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره، تكفرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر والنهي. قال: ليس هذا أريد، ولكن الفتنة التي تموج كما يموج البحر...)[2] الحديث.

(١) رواه مسلم (١٨٤٤) وسنن ابن ماجه (٣٩٥) وصححه الألباني، ورواه الإمام أحمد (٦٥٠٣).
(٢) البخاري (٥٢٥) [ط. طوق النجاة]، ومسلم (١٤٤)، ترتيب عبد الباقي.

وروي عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: (والله لا يأتيهم أمر يضجون منه، إلا أردفهم أمر يشغلهم عنه)[١].

وقال البخاري في صحيحه: (باب الفتن التي تموج كموج البحر)[٢]. وقال ابن عيينة عن خلف بن حوشب: كانوا يستحبون أن يتمثلوا بهذه الأبيات عند الفتن. قال امرؤ القيس:

الحرب أول ما تكون فتية ... تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها ... ولت عجوزًا غير ذات حليل
شمطاء ينكر لونها وتغيرت ... مكروهة للشم والتقبيل

وواحدة من أكبر الفتن المعاصرة التي عصفت بالأمة، وفرقت بين كثير من دعاتها ومجاهديها، وهلك فيها من هلك حتى آل الحال ببعضهم إلى الاحتراب وسفك الدماء المعصومة.

تلكم هي فتنة (**الانحراف في تكفير الأعيان**)، ومجانبة العدل في ذلك والمراوحة فيها بين الإفراط والتفريط، بين إفراط الغلاة وتفريط الجفاة.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (فاعلم أن مسائل التكفير والتفسيق هي من مسائل الأحكام، التي يتعلق بها الوعد والوعيد

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٣٦٢).
(٢) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب (الفتن التي تموج كموج البحر).

في الـدار الآخرة، ويتعلق بها الموالاة والمعاداة والقتل والعصمة وغير ذلك في الدنيا)[(١)].

ولقد أشار عليَّ بعض الإخوان الذين أقلقتهم هذه الفتنة أن أكتب ورقـات في التحذير من هذه الفتنة، وكشـف شـبهاتها، والموقف منها، فتهيبـت مـن الكتابة في هـذا الأمر الخطير، لأن بضاعتـي في هذا العلم مزجاة، وفي الساحة من الراسخين في العلم من هو أولى مني علمًا ودينًا وفهـمًا للواقـع، ولأن هذا الموضوع ليس كغيره مـن المواضيع العلمية، ففيه من الوعورة والدقة والمسؤولية ما لا يقدر عليه إلا كبار أهل العلم، فكيف بطويلب علم مثلي.

ثـم إنـه بعد تفكـير في هذا الأمر، ونـدرة ما كتب فيـه على أهميته وخطورتـه، وبعـد أن اطلعت على رسـالة قيمة كتبهـا الدكتور محمد يسري، أسـماها (الإحكام في قواعد الحكم على الأنام)[(٢)]، رأيت فيها بعض القواعد المهمة لهذا الموضوع، وبعد اسـتخارة الله ﷻ تشـجعت على الكتابة في هذا الأمر، مستعينًا بالله ﷻ، طالبًا منه الهدى والسداد، وعقـدت العزم بـإذن الله تعالى عـلى أن لا أنشر هذا الكتـاب إلا بعد عرضـه على بعـض من أثـق في علمه ودينه، لأسـتفيد من إرشـادهم وتصويباتهم، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب[(٣)].

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٦٨).
(٢) قد جعلت من هذا الكتاب مرجعًا أساسًا من مراجع هذا الكتاب.
(٣) قـد تـم هـذا بالفعل والحمـد لله، فقد قرأ هـذا الكتاب قبـل طباعته عـلى مجموعة من المشايخ، فاستفدت من ملاحظاتهم وتوجيهاتهم، جزاهم الله خيرًا.

أسـأل الله ﷻ أن ينفع بهذه الأوراق، وأن يضع لها القبول والأثر في جمـع كلمة الدعـاة والمجاهديـن وتوحيد صفهم، لنسـتنزل بذلك نـصر الله ﷻ الموعود، الذي أخبر ﷻ أنـه لا ينزله على القوم المتنازعين المتفرقـين، قـال سـبحانه وتعـالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

اللهـم رب جبرائيـل وميكائيـل وإسرافيـل، فاطـر السـموات والأرض، عالم الغيب والشـهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفـون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشـاء إلى صراط مستقيم.

تمهيد

في هذا التمهيد أذكر ثلاث مقدمات مهمة، تمهد للدخول في ذكر أصول الميزان العدل – إن شاء الله تعالى – في الحكم على الأعيان.

المقدمة الأولى

وفيها بيان أن دين الإسلام: عقيدته وأحكامه، كلها يسر وسماحة ورحمة، وأنها وسط بين الغالي والجافي، وبين الإفراط والتفريط.

يقول الدكتور محمد يسري حفظه الله تعالى: (فإنه مما لا شك فيه أن دين الله تعالى وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، فهو الهدى بين ضلالتين، وهو الوسط بين طرفين مذمومين، وهو الحق بين باطلين، باطل الغلو والإفراط، وباطل التَميُّع والتفريط.

والوسطية المقصودة في هذا الدين هي الوسطية الشرعية لا الوضعية، وهي الوسطية الإلهية لا البشرية، فالوسطية ليست معيارًا بشريًّا للفضائل، بقدر ما هي ميزة وخصيصة من خصائص هذا الدين القويم، وسطية عقيدة لا غلو فيها، ووسطية عبادة لا رهبانية فيها، ووسطية شريعة لا حرج فيها.

ذكر أهل التفسير في معنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي خيارًا عدولا(١).

وبهذه الوسطية تأهلت أمة الإسلام للقيام برسالة البلاغ والشهادة على الناس، فهي حجة الحق على الخلق، سواء السابق منهم واللاحق.

وعن هذه الوسطية ينبثق يسر الإسلام وتنبع سماحته، ورحمته وتراحم أهله بينهم، فعقيدته عقيدة سهلة واضحة ميسرة لا لبس فيها، ولا غموض ولا تعقيد، وذلك إنفاذًا لإرادة الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

فسمة هذا الدين ونهجه هو اليسر والسماحة.

قال ﷺ: «**إن هذا الدين يسر، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه**»(٢).

وقال ﷺ: «**أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة**»(٣).

فشريعة الإسلام انتفى فيها الحرج والضيق عن المكلفين، وارتفعت فيها الآصار والأغلال، التي كانت على من سبقنا من الأمم.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٧-٨)، تفسير القرطبي (٢/ ١٥٣-١٥٤)، تفسير ابن كثير (١/ ١٩٠).

(٢) البخاري: (١/ ١٦)، كتاب الإيمان، باب: الدين يسر، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البخاري معلقًا (١/ ١٦)، ووصله من الأدب المفرد (١٠٩)، (٢٨٨).

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ثم إن هذه الوسطية الربانية تعني الوقوف عند حدود الله تعالى، وتحكيم كتابه الكريم، والفيئة إلى سنة رسوله الأمين ﷺ في دقيق الأمر وجليه، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥]، كما تعني التمسك بالأحكام الشرعية وأخذها بقوة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، وقال سبحانه: ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة: ٦٣].

وأخذ الدين وتلقيه إنما يكون من غير تهاون أو تفريط، ولا تشدد أو تنطع، وهذا معنى الاستقامة التي بها أمر الله تعالى في كتابه، فقال ﷻ: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢].

ولقد جرَّت الطّرفية في الفكر والممارسة منذ بزوغ فجر الإسلام وإلى يومنا هذا ويلات كثيرة، الخلاف في حقيقة الإيمان أول خلاف نشأ بين أهل القبلة، منذ أن خرجت الخوارج الأولى على الأمة ببدعة التكفير بما ليس مكفرًا من المعاصي والذنوب، فاستحلت بالتكفير الغالي دماء المسلمين المسالمين، وتخوَّضت فيها بغير برهان مبين، وتراوحت ردود الأفعال إزاء غلو الخوارج: ما بين تجهم غالٍ يقصر الإيمان على مجرد المعرفة والإقرار، ويخرج عمل القلب والجوارح من حقيقة الإيمان، أو إرجاء جافٍ يغضُّ الطرف عن نصوص الوعيد إلى نصوص الوعد، ويخرج أعمال الجوارح من مسمى الإيمان بالكلية، ويقتصر الإيمان على مجرد التصديق.

يقول العلامة أبو بطين رحمه الله تعالى: (وقد استزل الشيطان أكثر الناس في هذه المسألة، فقصر بطائفة فحكموا بإسلام من دلت نصوص الكتاب والسنة والإجماع بكفره. وتعدى بآخرين فكفروا من حكم الكتاب والسنة والإجماع بأنه مسلم، فيا مصيبة الإسلام من هاتين الطائفتين ومحنته من تلك البليتين)[١].

ولقد شهدت ساحة الأمة الإسلامية في تاريخها صراعًا بين الخوارج الغلاة وبين خلوف أهل التجهم والإرجاء، ووقعت بعض

(١) فتاوى الأئمة النجدية (٣/ ٣٣٦) ط ابن خزيمة باختصار وتصرف يسير ص(٥-١٠).

المجتمعات بين رحى من يستبيح حرماتها وينتهك أمنها، وبين من يلبِّس عليها دينها ويجرئها على المحرمات، كما شاع في أوساط العاملين للإسلام اليوم التنابز باتهامات التكفير والخروج والتراشق بمنكرات الإرجاء والتجهم، ولكل أسبابه ومسوغاته، وعند الله تجتمع الخصوم)[1].

(١) انظر: الإحكام في قواعد الحكم على الأنام، د. محمد يسري، ص (٦-٨).

المقدمة الثانية

إن التكفير حكم من أحكام الشرع، ليس في إنزاله على مستحقه انحراف، وإلا لم يذكر أهل العلم أحكام المرتد في كتبهم، وغالب الخلاف الحاصل اليوم في مسألة التكفير لم يكن في الأصول والنواقض المكفرة، بل إن هناك اتفاقًا في الغالب على نواقض الإسلام، وأنها كفر مخرج من الملة(١)، وإنما الخلاف الحاصل اليوم يتركز في إنزال هذه النواقض والمكفرات على المعين بذاته، فذهبت طائفة إلى وضع شروط في تكفير المعين لم يشترطها أهل العلم من السلف، عدها بعضهم عشرة شروط، وعندهم أنه لا يكفر إلا الجاحد للقطعيات، المستحل للمقطوع بحرمته، ثم قالوا: والورع ترك تكفير المعين، ولو تحققت هذه الشروط. وذهبت طائفة أخرى فسارعت إلى تكفير المعين، دون اعتبار للضوابط والشروط التي ضبط بها أهل العلم مسألة تكفير المعين. وهدى الله أتباع السلف الذين يعلمون الحق ويرحمون الخلق، لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فكانوا عدولًا ووسطًا بين الطائفتين

---

(١) قلت هنا: (إن هناك اتفاقًا في الغالب على نواقض الإسلام) لأن هناك فئة – وهم قليل – من يكفر بما ليس مكفرًا، ولا سيما في بعض صور (الموالاة للكفار)، حيث إن أهل العلم فرقوا بين الصور المكفرة، منها: كمظاهرة الكفار على المسلمين، وبين من ليس مكفرًا – وإن كان حرامًا – كالانبساط للكافر أو التشبه بهم في بعض عاداتهم، ونحو ذلك.

المذكورتين، فلا يتوقفون في تكفير المعين متى استوفى شرائط التكفير وانتفت عنه موانعه، ولا يكفرونه متى ما وجدوا مانعًا من موانع التكفير يمنع من تكفيره.

المقدمة الثالثة

إن أكبر أسباب الانحراف في (أبواب التكفير) سواء كان إلى الإفراط أو التفريط: إما أن يكون شبهة صادفت قلة علم عند صاحبها، فجعلها أصلًا في التكفير.

أو شهوة وهوى صادف حظًّا للنفس، وميلًا مع مرادها، أو مراد من يحب من شخص أو طائفة أو حزب، وغالبًا ما تكون مزيجًا من شبهة وشهوة، نعوذ بالله من ذلك.

وإن علاج الشبهة يكون بالعلم بالشرع والواقع وسؤال الراسخين في العلم، الذين جمعوا بين الفهم والورع، وأن لا يتسرع في إيقاع حكم على معين، حتى يتضح له الدليل من الشرع وحال المعين. ومثل هذا قد ينتفع بما في هذه الرسالة من قواعد وضوابط بإذن الله تعالى.

وأما الشهوة والهوى وأثرهما في التكفير، فإن علاجهما في كثير من الأحيان لا ينفع فيه العلم الشرعي، ووضوح الحق والدليل، فقد يتضح الدليل والحق لصاحب الهوى، ولكنه يعرض عنه ويحكم هواه.

والمسالك المتطرفة سواء إلى الغلو أو التساهل والتفريط غالبًا ما تجلب حظوظًا للنفس استعلاءً وظهورًا على الآخرين، إذ إن طبيعة النفوس حب الرياسة، فتميل إلى التفرد والتمايز عن عموم الناس،

سواء في المطاعم والمشارب والملابس والمراكب أو الآراء والديانات والعبادات(١)، وفي هذا مسلك خطير من مسالك الهوى، ومثل هؤلاء لا ينفع فيهم معرفة القواعد والضوابط، وإنما علاجهم في أن يخوفوا الوقوف بين يدي الله ﷻ والرجوع إليه، وأن يتذكروا فناء الدنيا، وإقبال الآخرة، وسؤال الله ﷻ لهم عن الصغيرة والكبيرة، حين يأتي كل واحد إلى ربه فردًا، يجادل عن نفسه، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

ونظرًا لخطورة الهوى وأثره في رد الحق بعد العلم به، أسوق كلامًا نفيسًا للعلامة (المعلمي) رحمه الله تعالى، يبين فيه خطورة الهوى وأسبابه وعلاجه. يقول رحمه الله تعالى:

(ومخالفة الهوى للحق من وجوه:

الوجه الأول: أن يرى الإنسان أن اعترافه بالحق يستلزم اعترافه بأنه كان على باطل، فالإنسان ينشأ على دين أو اعتقاد أو مذهب أو رأي يتلقاه من مربيه ومعلمه على أنه حق؛ فيكون عليه مدة ثم إذا تبين له أنه باطل شق عليه أن يعترف بذلك، وهكذا إذا كان آباؤه أو

---

(١) انظر: الاعتصام (١/ ٤٩) ص(٢١٥-٢١٧)، (ت: مشهور).

أجداده أو متبوعه على شيء، ثم تبين له بطلانه، وذلك أنه يرى أن نقصهم مستلزم لنقصه، فاعترافه بضلالهم أو خطئهم اعتراف بنقصه.

الوجه الثاني: أن يكون قد صار له في الباطل جاه وشهرة ومعيشة، فيشق عليه أن يعترف بأنه باطل، فتذهب تلك الفوائد.

الوجه الثالث: الكبر، يكون الإنسان على جهالة أو باطل فيجيء آخر فيبين له الحجة، فيرى أنه إن اعترف كان معنى ذلك اعترافه بأنه ناقص، وأن ذلك الرجل هو الذي هداه، ولهذا ترى من المنتسبين إلى العلم من لا يشق عليه الاعتراف بالخطأ إذا كان الحق تبين له ببحثه ونظره، ويشق عليه ذلك إذا كان غيره هو الذي بيَّن له.

الوجه الرابع: الحسد، وذلك إذا كان غيره هو الذي بين الحق، فيرى أن اعترافه بذلك الحق يكون اعترافًا لذلك المبين بالفضل والعلم والإصابة، فيعظم ذلك في عيون الناس، ولعله يتبعه كثير منهم، وإنك لتجد من المنتسبين إلى العلم من يحرص على تخطئة غيره من العلماء، ولو بالباطل حسدًا منه لهم، ومحاولة لحط منزلتهم عند الناس...)[1].

ثم أخذ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى بعد ذلك يذكر بعض الصور التي تكون عند بعض أهل العلم، ويكون دافعها الهوى والتعصب، فيقول: (.. فتجد

---

(١) التنكيل لعبدالرحمن المعلمي اليماني (٢/ ١٠٨-١٨٢) باختصار.

ذا الهوى كلما عرض عليه دليل لمخالفيه، أو ما يوهن دليلًا لأصحابه، شق عليه ذلك واضطرب واغتاظ، وسارع إلى الشغب، فيقول في دليل مخالفيه: هذه شبهة باطلة مخالفة للقطعيات، وهذا المذهب مذهب باطل، لم يذهب إليه إلا أهل الزيغ والضلال... ويؤكد ذلك بالثناء على مذهبه وأشياخه، ويعد المشاهير منهم، ويطريهم بالألفاظ الفخمة، والألفاظ الضخمة، ويذكر ما قيل في مناقبهم ومثالب مخالفيهم، وإن كان يعلم أنه لا يصح أو أنه باطل، ومن أوضح الأدلة على غلبة الهوى على أكثر الناس - أنك تراهم - على أديان مختلفة ومقالات متباينة، ومذاهب متفرقة، وآراء متدافعة ثم تراهم كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، فلا تجد من ينشأ على شيء من ذلك ويثبت عليه يرجع عنه إلا القليل، وهؤلاء القليل يكثر أن يكون أول ما بعثهم على الخروج عما كانوا عليه أغراض دنيوية...)[١].

واستمر في ذكر بعض صور اتباع الهوى، فقال:

- (... افرض أنك قرأت آية فلاح لك منها موافقة قول لإمامك، وقرأت أخرى فلاح لك منها مخالفة قول آخر له، أيكون نظرك إليهما سواء؟ لا تبالي أن يتبين منهما بعد التدبر صحة ما لاح لك أو عدم صحته.

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٨٧).

- افـرض أنـك وقفـت عـلى حديثـين لا تعـرف صحتهما ولا ضعفهـما، أحدهمـا يوافـق قـولًا لإمامـك والآخـر يخالفه، أيكون نظرك فيهما سـواء، لا تبالي أن يصح سند كل منهما أو يضعف؟.

- افـرض أن رجـلًا تحبـه وآخـر تبغضـه، تنازعـا في قضيـة، فاسـتفتيت فيها ولا تسـتحضر حكمها، وتريد أن تنظر. ألا يكون هواك في موافقة الذي تحبه؟

- افـرض أنك تعلم من رجـل منكرًا، وتعذر نفسـك في عدم الإنـكار عليـه، ثم بلغـك أن عالمًا أنكر عليه وشـدد النكير، أيكون استحسـانك لذلك سواء فيما إذا كان المنكر صديقك أم عدوك، والمُنْكَر عليه صديقك أم عدوك؟.

- فتش نفسك تجدك مبتلى بمعصية أو نقص في الدين، وتجد من تبغضه مبتلى بمعصية أو نقص آخر ليس في الشرع بأشد مما أنت مبتلى به. فهل تجد استشناعك ما هو عليه مساويًا لاستشناعك ما أنت عليه، وتجد مقتك نفسك مساويًا لمقتك إياه؟.

وبالجملة فمسـالك الهوى أكثر من أن تحصى، وقد جربت نفسي أننـي ربـما أنظر في القضية زاعـمًا أن لا هوى لي فيلـوح لي فيها معنى، فأقـرره تقريرًا يعجبني، ثم يلـوح لي ما يخدش في ذاك المعنى، فأجدني

أتبرم بذلك الخدش، وتنازعني نفسي إلى تكلف الجواب عنه، وغض النظر عن مناقشة ذاك الجواب، وإنما هذا لأني لما قررت ذاك المعنى أولًا تقريرًا أعجبني صرت أهوى صحته هذا مع أنه لم يعلم بذلك أحد من الناس، فكيف إذا كنت قد أذعته في الناس ثم لاح لي الخدش؟ فكيف لو لم يلح لي الخدش، ولكن رجلًا آخر اعترض عليَّ به؟ فكيف لو كان المعترض ممن أكرهه.

والواجب على العالم وطالب العلم أن يفتش عن هوى نفسه حتى يعرفه، ثم يحترز منه، ويمعن النظر في الحق من حيث هو حق، فإن بان له أنه مخالف لهواه آثر الحق على هواه...)[1] ا.هـ.

وبعد هذا الكلام الجيد عن أسباب الوقوع في الهوى ورد الحق والتعصب للباطل، وبعد ذكر الأمثلة لذلك، يحسن ذكر بعض الوسائل المعينة على تجنب الهوى وقبول الحق.

إن الوقوع في الباطل والضلال بسبب الجهل يكون علاجه بالعلم والبصيرة في الدين. أما البقاء على الباطل بعد تبين بطلانه ورد الحق بعد ما تبين أنه الحق فإن علاج هذا المرض الخطير كما سبق بيانه لا ينفع فيه العلم وإزالة الشبهة، لأن سببه الهوى والتعصب وليس الجهل والشبهة، ومثل هذا لا ينفع فيه إلا أن يذكر بتقوى الله ﷻ والخوف من عقابه

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ١٨٦-١٩٨).

سبحانه، كما يذكر بشرف الحق واتباعه، والثواب العظيم الذي يكتبه الله ﷻ للمتبعين للحق والمؤثرينه على أهوائهم وشهواتهم، وفي ذلك يقول المعلمي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: (هذه أمور ينبغي للإنسان أن يقدم التفكير فيها، ويجعلها نصب عينيه.

- يفكر في شرف الحق وضعة الباطل، وذلك بأن يفكر في عظمة الله ﷻ وأنه رب العالمين، وأنه سبحانه يحب الحق ويكره الباطل، وأن من اتبع الحق استحق رضوان رب العالمين، فكان سبحانه وليه في الدنيا والآخرة، بأن يختار له كل ما يعلمه خيرًا له وأفضل وأنفع وأكمل وأشرف وأرفع، حتى يتوفاه راضيًا مرضيًّا، فيرفعه إليه ويقربه لديه، ويجعله في جواره مكرمًا منعمًا في النعيم المقيم، والشرف الخالد، الذي لا تبلغ الأوهام عظمته، وأن من أخلد إلى الباطل استحق سخط رب العالمين وغضبه وعقابه، فإن آتاه شيئًا من نعيم الدنيا، فإنما ذلك لهوانه عليه، ليزيده بُعدًا عنه، وليضاعف له عذاب الآخرة الأليم الخالد، الذي لا تبلغه الأوهام.

- يتدبر ما يرجى لمؤثر الحق من رضوان رب العالمين، وحسن عنايته في الدنيا والفوز العظيم الدائم في الآخرة، وما يستحقه متبع الهوى من سخطه ﷻ، والمقت في الدنيا والعذاب الأليم الخالد في الآخرة، وهل يرضى عاقل لنفسه أن يشتري لذة

اتباع هواه بفوات حسن عناية رب العالمين، وحرمان رضوانه والقرب منه والزلفى عنده والنعيم العظيم في جواره، وباستحقاق مقته وسخطه وغضبه وعذابه الأليم الخالد؟ لا ينبغي أن يقع هذا حتى من أقل الناس عقلًا، سواء أكان مؤمنًا موقنًا بهذه النتيجة، أم ظانًّا لها، أم شاكًّا فيها، أم ظانًّا لعدمها.

• يستحضر أن الذي يهمه ويُسأل عنه هو حاله في نفسه، فلا يضره عند الله تعالى ولا عند أهل العلم والدين والعقل أن يكون معلمه أو مربيه أو أسلافه أو أشياخه على نقص، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يَسلَموا من هذا، وأفضل هذه الأمة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورضي عنهم، وكان آباؤهم وأسلافهم مشركين.

هذا مع احتمال أن يكون أسلافك معذورين إذا لم ينبهوا ولم تقم عليهم الحجة، وعلى فرض أن أسلافك كانوا على خطأ يؤاخذون به، فاتباعك لهم وتعصبك لا ينفعهم شيئًا، بل يضرهم ضررًا شديدًا؛ فإنه يلحقهم مثل إثمك ومثل إثم من يتبعك من أولادك وأتباعك إلى يوم القيامة، كما يلحقك مع إثمك مثل إثم من يتبعك إلى يوم القيامة، أفلا ترى أن رجوعك إلى الحق هو خير لأسلافك على كل حال؟.

• يأخذ نفسه بخلاف هواها فيما يتبين له، فلا يسامحها في

تـرك واجـب أو ما يقرب منـه، ولا في ارتـكاب معصية أو ما يقرب منها، ولا في هجوم على مشـتبه، ويروضها على التثبت والخضوع للحق، ويشـدد عليها في ذلك حتى يصير الخضوع للحق ومخالفة الهوى عادة له[1].

(١) المصدر نفسه (٢/ ١٩٠–٢٠٠) باختصار.

أصول الميزان في الحكم على الأعيان

الأصل الأول

الحكم على المعين يجب أن يكون بعلم وعدل

إن الأحكام الجائرة أو المتساهلة التي يوقعها بعض المتسرعين على الناس إنما تنشأ في الغالب من ضعف العلم أو مجانبة العدل، وإن الله ﷻ يحب الكلام بعلم وعدل، ويكره الكلام بظلم وجهل. لذا يجب على من يتصدى للحكم على الأعيان أن يتقي الله ﷻ، وأن يكون حكمه صادرًا عن علم شرعي بأحكام التكفير وضوابطه وتفاصيله، وعلم واقعي بحال المحكوم عليه وظروفه، وأن يتثبت من كون هذا القول والفعل مكفرًا بميزان الشرع، لا شبهة فيه ولا خلاف، كما يتثبت من صدوره من المعين، وأن ينظر في ضبط وعدالة نقلة الأخبار ودقة فهمهم، وأن يكون على دراية بالظروف التي أحاطت به حتى صدر منه ما صدر، قال الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٩٤]، قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: (المؤمن وقَّاف حتى يتبين)[1].

وإن مما يلاحظ اليوم أن هناك من يتورع عن الفتيا في دقائق العبادات أو المعاملات أو غيرها من أبواب الفقه، لأنهم يعرفون أنه ثمة خلافًا يتطلب نظرًا طويلًا في الأقوال والأدلة، وما تقتضي ذلك من ضرورة امتلاك أدوات أصولية وفقهية ولغوية مسبقة، وهم لا يملكون ذلك، فيحيلون الأمر لأهله، ويعتادون أن يقولوا فيها: (لا أدري) تورعًا منهم، أو يحيلون السائل إلى من يثقون في علمه وديانته، أو ينقلون له فتوى من يقلدون من أهل العلم، مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾... الآية أما حين يأتي الحديث عن التكفير لبعض الأفراد أو الطوائف، فإن الأمر يتحول إلى عجلة في الحكم على الأعيان بالتكفير والردة، مع أن مسائل التكفير على المستوى النظري هي أشكل بكثير من مسائل العبادات، وعلى المستوى العملي فالأثر المترتب على الخطأ فيه أشد خطرًا وإثـمًا، إذ يترتب عليها هلاك نفوس وأموال، فمن الطبيعي أن يزداد التورع والاحتياط والتحفظ في هذه الأبواب، ومما جعل هذه الأبواب وكأنها أبواب سهلة وميسورة هو أن البعض يحفظ قواعد كلية عامة، ويحفظ نواقض للإسلام مشهورة،

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٣٩).

فيرى أن المسألة واضحة جدًّا، لأنها تتعلق بالتوحيد والكفر بالطاغوت، فلا تحتاج إلى بحث ونظر وتأمل وتدقيق وتثبت ومراعاة للضوابط، وعندما يعارضه أحد يسارع في اتهامه في دينه وعقيدته، ورميه بالإرجاء والتخذيل.

كما يجب على من يتصدى للحكم على الناس بعد العلم بأحكام الله ﷻ في الكفر والتكفير، وعلمه بحال من صدر منه الكفر أن يتقي الله ﷻ في أن يعدل وينصف في حكمه، ولا يميل في الحكم مع هواه أو هوى غيره، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام:] وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (والله يحب الإنصاف، بل هو أفضل حلية تحلى بها الرجل، خصوصًا من نصب نفسه حكمًا بين الأقوال والمذاهب، وقد قال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥])(١).

ويقول ابن حزم رحمه الله تعالى: (من أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه، فإنه يلوح له وجه تعسفه)(٢).

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٩٤).
(٢) الأخلاق والسير ص (١٨).

ويقول الشاعر:

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة بين الأنام وإن كانوا ذوي رحم

وهنا أمور تضاد الإنصاف وتناقضه، ينبغي لمن تصدى للحكم على الأعيان أن يتجنبها وأهمها:

- تصيد الأخطاء والمخالفات على المعين المراد الحكم عليه والفرح بالعثور عليها والشماتة به وغض الطرف عما معه من الحق، وحمله على أسوأ المحامل، وإغفال كل ما من شأنه أن يكون عذرًا له أو شبهة تمنع من تكفيره. والشعور نحوه بالعداوة والجفاء والغلظة ونسيان الرحمة والشفقة وإلزامه بلوازم قوله أو فعله، ولو لم يلتزم ذلك.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: (وأهل السنة والعلم والإيمان يعلمون الحق ويرحمون الخلق)[1].

وهذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول عنه النبي ﷺ: **(أرحم أمتي بأمتي أبو بكر)**[2].

- تعميم الأحكام، بأن يحكم على فرد بمجرد الحكم على الطائفة المنتمي إليها، أو الحكم على طائفة من خلال فرد فيها.

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٩٦).
(٢) مسند أحمد (٣/ ٢٨٨١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٢٤).

وهـذا ترجمـان القـرآن ابن عبـاس رضي الله عنهما لما شـتمه رجـل قال: (إنك لتشـتمني وإن فيَّ ثـلاث خصال: إني لآتي على الآية في كتاب الله عز وجل فلوددت أن جميع الناس يعلمون ما أعلم، وإني لأسـمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأفرح، ولعـلي لا أقاضي إليـه أبدًا، وإني لأسـمع بالغيث قد أصاب بلاد المسلمين فأفرح، وما لي به سائمة)(١).

• ومن نواقض الإنصاف: المبالغة والمجازفة في الأحكام، وذلك بحسـب حال الرضـا والموافقة، أو حال الغضـب والمخالفة، كحال يهود حين علموا بإيمان عبد الله بن سـلام رضي الله عنه، فبدلوا القـول من «سـيدنا وابـن سـيدنا» إلى «شرنا وابـن شرنا»(٢)، والأمثلـة عـلى كلا الأمرين قديمًا وحديثًـا أكثر من أن تحصر. وما أحسن ما قاله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

(أحبـب حبيبـك هونًا ما عسـى أن يكون بغيضـك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما)(٣).

• ومـن نواقض الإنصاف: محاكمة المجتهد إلى اجتهاده في أول أمـره دون آخره، مثل من ينسـب القـول بإباحة ربا الفضل،

(١) مجمع الزوائد (٩/ ٢٨٤).
(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري رقم (٤٤٠).
(٣) انظر صحيح الأدب المفرد (٥٦٤) ٢/ ٤٢، وصحح الألباني وقفه على علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أو حل نكاح المتعة لابن عباس رضي الله عنه، مع أنه قد ثبت رجوعه عنهما في آخر أمره وخاتمة عمره، والعبرة بآخر الأقوال.

- ومن نواقض الإنصاف الحكم على شخص بمرحلة سابقة من حياته، فمن حكم على أبي الحسن الأشعري مثلًا في أول مراحله قال: كان معتزليًّا، ومن حكم عليه في المرحلة الوسطى قال: كان مُلفِّقًا كلابيًّا، ومن حكم عليه في المرحلة الأخيرة قال: كان سلفيًّا!.

- ومن نواقض الإنصاف: عدم إعمال القرائن المحتفة بالأشخاص والأخبار قبل قبولها أو ردها، ومن ذلك عدم التفريق فيمن وقع في الخطأ والضلال بين من هو حسن السيرة والدين، وبين من هو مغموص بالفسق والنفاق، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (والكلمة الواحدة يقولها اثنان، يريد بها أحدهما أعظم الباطل، ويريد بها الآخر محض الحق، والاعتبار بطريقة القائل وسيرته ومذهبه، وما يدعو إليه ويناظر عنه)[١].

وقال السبكي: (فإذا كان الرجل ثقة مشهودًا له بالإيمان والاستقامة، فلا ينبغي أن يحمل كلامه وألفاظ كتاباته على

(١) مدارج السالكين (٣/ ٥٢١).

غـير مـا تُعُوِّد منه ومـن أمثاله؛ بـل ينبغي التأويـل الصالح، وحسن الظن الواجب به وبأمثاله)(١).

وقـد قال الله تعالى في حادثة الإفـك طالبًا التثبت: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ [النور: ١٣]، وأمر بتقديم حسن الظن، فقال: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور: ١٢].

والمقصود من ذلك كله أن يَزُمَّ المسلمُ لسانَه بزمامِ التقوى، وأن يربط على قلبه برباط الورع، وحسـن الظنِّ بالمسلمين، وأن لا يعجل على أحد بأمر حتى تقوم بينته، وتنقطع معذرته، وتُزال شـبهته، ثـم إذا ثبت خطـؤه، وبـان زَلَلُهُ، نظر في سـائر أمره، وعامـة أحواله، فإن كانت على وجه السـداد والمقاربة احتمل له ما لا يحتمل لغيره، وانغمرت زلته وهفوته في لُجة حسناته.

(وإذا الحبيبُ أتى بذنبٍ واحدٍ جاءتْ محاسنُه بألفِ شفيعِ)(٢)

- ومـن نواقـض الإنصـاف الكيـل بمكيالين: مكيـال للنفس يسـتوفي فيه، ومكيـال للمخالف يخسره فيه ويبخسـه حقه، وقد مر سـابقًا كلام (المعلمي) رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في مسالك الهوى:

(١) قاعدة في الجرح والتعديل ص (٩٣)، للإمام السبكي.
(٢) مدارج السـالكين (١/ ٣٢٨). وانظر: الإحـكام في قواعد الحكم على الأنام، د. محمد يسري، ص (١٦).

كيف تستنكر سلوكًا أو موقفًا أو فكرًا لرجل نخالفه، ثم تمر السنون، ويدور الزمان دورته، ويصدر السلوك نفسه أو الموقف في موقف مشابه من رجل نحبه ونتفق معه، فنعلل ونبرر ونحسن الظن، بل نكبر حكمته التي قد لا تدركها العقول القاصرة.

وقد نجد بعض الناس يبالغون في حب امرئ ومديحه، ويثنون على مواقفه ومؤلفاته، وتمر أوقات وتحدث أحداث، ويقف هذا المحبوب موقفًا يخالف هوى من كان يبالغ في حبه ومدحه، فيغدو المادح قادحًا، والمزكي جارحًا، والممدوح مذمومًا، ولا يذكر له حسناته.

- ومن نواقض الإنصاف ترك ما يظهر على لسان المخالف من الحق وغض الطرف عنه أو رده، وهذا من التكبر على الحق، قال ﷺ: (**الكبر بطر الحق، وغمط الناس**)[١]، قال رجل لابن مسعود رضي الله عنه: أوصني بكلمات جوامع، فكان مما أوصاه به أن قال: (.. ومن أتاك بحق فاقبل منه وإن كان بعيدًا بغيضًا، ومن أتاك بالباطل فاردده وإن كان قريبًا حبيبًا)[٢]، ويقول الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى: (التزم الإنصاف الأدبي بأن

(١) مسلم (٩١).
(٢) الإحكام في أصول الأحكام (٤/ ٥٨٦).

لا تجحد ما للإنسان من فضل، وإذا أذنب فلا تفرح بذنبه، ولا تتخذ الوقائع العارضة منهية لحال الشخص، وباتخاذها رصيدًا ينفق منه الجراح في الثلب والطعن، وأن تدعو له بالهداية، أما التزيد عليه وأما البحث عن هفواته وتصيدها، فذنوب مضافة أخرى، والرسوخ في الإنصاف بحاجة إلى قدر كبير من خلق رفيع ودين متين)[١].

- ومن نواقض الإنصاف اتهام المخالف في نيته وديانته، فالعدل في النقد يقتضي توجيه النقد للمقالات والمواقف دون التعرض للقائل ونيته وقصده، إلا إذا ظهرت قرائن قوية تدل على فساد النية وخبث الطوية.

- ومن نواقض الإنصاف عدم توخي الدقة والوضوح في التعبير والإفهام، مما يعود على السامع والناقل بعد ذلك بفهم الكلام على غير المراد.

(١) تصنيف الناس بين الظن واليقين ص (٧٧-٧٨).

الأصل الثاني

المرجع في تعريف الإيمان وما ينقضه بيان الله ورسوله ﷺ بفهم السلف الصالح

وهذا الأصل فرع عن الأصل السابق، حيث إنه لا يجوز الخوض في مسائل الإيمان والكفر إلا بعلم راسخ في معنى الإيمان والكفر وحدودهما.

الأصل في تعريف المصطلحات الشرعية الرجوع إلى بيان الشارع الحكيم لها وتعريفه إياها، فما هو تعريف الإيمان والكفر، وما هي أركانهما في نظر الشرع الشريف؟

أولًا: معنى الإيمان لغة:

الإيمان يأتي تارة بمعنى الأمان[1]، قال تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]، وفي الحديث: (**النجوم أمنة للسماء... وأنا أمنة لأصحابي... وأصحابي أمنة لأمتي...**)[2].

(١) لسان العرب ص (١٢/ ٢١).
(٢) مسلم (٤٥٩٦).

وتارة يأتي الإيمان بمعنى التصديق إذا تعدى بالباء أو اللام[١].

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف: ١٧]، أي مصدق لنا، وقال تعالى: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٦١].

والتصديق كما يكون بالقلب واللسان يكون بالجوارح أيضًا.

ففي الحديث: **(والفرج يصدِّق ذلك أو يكذبه)**[٢].

والتصديق في اللغة يقابله التكذيب، وأما مقابل الإيمان في اللغة هو الكفر، والكفر لا يختص بالتكذيب، بل قد يكون به وبغيره.

ثانيًا: معنى الإيمان شرعًا:

لقد بيَّن النبي ﷺ المراد بلفظ الإيمان وما يضاده بيانًا لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب، ونحو ذلك.. فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ﷻ وبيان رسوله ﷺ فإنه شافٍ وكاف، بل معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة؛ بل كل من تأمل ما تقوله الخوارج والمرجئة في معنى الإيمان علم بالاضطرار أنه مخالف للرسول ﷺ[٣].

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث (١/ ٦٩)، وانظر: قواعد الإحكام د. يسري ص (١٩) وما بعدها.
(٢) البخاري (٦٢٤٣)، مسلم (٢٦٥٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨٧).

ولقد اعتمدت كلمات السلف الصالح في تعريف الإيمان على الوحي المعصوم، وإن تنوعت عباراتهم، فتارة يقولون: هو قول وعمل، وتارة يقولون: قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية، وتارة يقولون: قول وعمل ونية واتباع السنة(١).

وكل هذا صحيح، فليس بين هذه العبارات اختلاف معنوي، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ قائلًا: (إذا قالوا: قول وعمل، فإنه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعًا، وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ونحو ذلك إذا أطلق، فإن القول المطلق والعمل المطلق في كلام السلف يتناول قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، فقول اللسان بدون اعتقاد القلب هو قول المنافقين، وهذا لا يسمى قولًا إلا بالتقييد، كقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح: ١١]، وكذلك عمل الجوارح بدون أعمال القلوب، هي من أعمال المنافقين، التي لا يتقبلها الله، فقول السلف يتضمن القول والعمل الباطن والظاهر، ومن زاد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر، -أو خاف ذلك- فزاد الاعتقاد بالقلب، ومن قال: قول وعمل ونية، قال: القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد

---

(١) أثر الإيمان لأبي عبيد ص (٥٦)، والإيمان لابن أبي شيبة ص (٤٦).

ذلك، ومن زاد اتباع السنة فلأن ذلك كله لا يكون محبوبًا لله إلا باتباع السنة، وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل.

والذين جعلوه أربعة أقسام، فسروا مرادهم، كما سئل سهل بن عبدالله التستري عن الإيمان: ماهو؟ فقال: (قول وعمل ونية وسنة؛ لأن الإيمان إذا كان قولًا بلا عمل فهو كفر، وإذا كان قولًا وعملًا بلا نية فهو نفاق، وإذا كان قولًا وعملًا ونية بلا سنة فهو بدعة)[1].

وبناءً على ما سبق، فإن الإيمان هو: قول القلب وقول اللسان، وعمل القلب وعمل الجوارح. فأما قول القلب فهو علمه وتصديقه ويقينه، وأما قول اللسان فهو: نطقه بالتوحيد وإقراره، وأما عمل القلب فهو: انقياده وخضوعه، وإخلاصه، ومحبته، وتوكله، وأما عمل الجوارح: فسائر العبادات من الصلاة والصيام والحج وغيرها، وقد حكى غير واحد الإجماع على ذلك.

تعريف الكفر:

الكفر أو التكفير كلاهما حكم شرعي، والحكم بهما حق لله تعالى وحده، فالكافر من كفَّره الله ورسوله.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٧٠) بتصرف يسير، انظر قواعد الإحكام د. محمد يسري ص (٢٠-٢١).

يقـول ابـن تيميـة: (الكفـر حكـم شرعـي متلقى عـن صاحب الشريعـة، والعقل قد يعلـم به صواب القول وخطـؤه، وليس كل ما كان خطـأ في العقـل، يكون كفـرًا في الشرع، كما أنه ليـس كل ما كان صوابًا في العقل، تجب في الشرع معرفته)[١].

ويقول ابن الوزير: (إن التكفير سمعي محض لا مدخل للعقل فيه، وإن الدليل على الكفر لا يكون إلا سمعيًّا قطعيًّا، ولا نزاع في ذلك[٢].

قال ابن القيم:

الكفـرُ حـقُّ الله ثـم رسـوله　　بالنـصِّ يثبـتُ لا بقـولِ فـلان
مـن كان ربُّ العالمين وعبـدهُ　　قـد كفَّراه فـذاك ذو الكفـرانِ[٣]

معنى الكفر لغة:

أصل الكفر: تغطية الشيء وسـتره، وسمي الليل كافرًا؛ لتغطيته كل شيء، وسـمي الفلاح كافرًا، لتغطيته الحَبَّ، قال سبحانه وتعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢].

والكفـر: جحود النعمة وهو نقيض الشـكر، وكفّره بالتشـديد: نسبه إلى الكفر، أو قال له: كفرت بالله، وأكفره إكفارًا: حكم بكفره[٤].

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٤٢).
(٢) العواصم والقواصم (٤/ ١٧٨).
(٣) الكافية الشافية.
(٤) لسان العرب (٥/ ١٤٤).

معنى الكفر اصطلاحًا:

حقيقة الكفر بالله أنه: نقيض الإيمان، وهو اعتقادات أو أقوال أو أفعال، حكم الشارع بأنها تنقض الإيمان، وتوجب الخلود في النيران.

وكما يكون الكفر بالفعل يكون بالترك والامتناع أيضًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الكفر يكون بتكذيب الرسول فيما أخبر به، أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه، مثل كفر فرعون واليهود ونحوهم)[1].

وقد اتفق أهل السنة على كفر من ترك النطق بالشهادتين مع قدرته، قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى: (وإن الكفر يكون بالاعتقاد وبالقول وبالفعل وبالشكِّ وبالترك، وليس محصورًا بالتكذيب بالقلب كما تقوله المرجئة، ولا يلزم من زوال بعض الإيمان زوالِ كلِّه كما تقوله الخوارج)[2].

نخلص مما سبق أن الإيمان يقوم على أربعة أجزاء إذا انتفى واحد منها انتفى الإيمان؛ ألا وهي:

١- قول القلب (اعتقاده وتصديقه).

٢- عمل القلب (إذعانه وقبوله ومحبته).

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٤٢).

(٢) درء الفتنة ص (٢٧).

٣- قول اللسان.

٤- عمل الجوارح.

وبهذا يتضح أن تعريف الإيمان وحقيقته يتضمن الآتي:

أ) **قول القلب**: وهو الاعتقاد والإقرار والتصديق فلا بد من تصديق الرسول ﷺ فيما أخبر به بالجملة وعلى الغيب، فإذا زال تصديق القلب زالت معه بقية الأجزاء.

ب) **عمل القلب**: وهو إذعانه واستسلامه وقبوله المستلزم لآثار ذلك، مثل: الإخلاص والحب والخوف والرجاء والتعظيم وغيرها.

(وإذا زال عمل القلب بالكلية مع اعتقاد الصدق، فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب)[1] ا.هـ.

وينبه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى على هذا الجزء العظيم من الإيمان، فيقول: (إن الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار والطمأنينة، وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط، فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر

(١) كتاب الصلاة لابن القيم ص (٥٤).

يستوجب الانقياد والاستسلام وهو عمل القلب، وجماعه الخضوع والانقياد للآمر، وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل أصل الإيمان في القلب، وهو الطمأنينة والإقرار، فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد)(١) ا.هـ. والإقرار باللسان فقط؛ إن انتفى عنده التصديق والإذعان الباطن، فهذا هو كفر المنافقين، الذين وقع منهم الإقرار في الظاهر، ولكن انتفى عنهم الإذعان لعدم وجود التصديق ولوازمه في القلب.

جـ) **قول اللسان**: وهو النطق بالشهادتين والإقرار بلوازمهما، لأنهما الأصل في ثبوت وصف الإيمان في الظاهر، فمن امتنع من النطق بالشهادتين دون عذر شرعي كتقية أو بكم ونحوهما فلا يصح إيمانه، ولو كان يعتقد الإيمان بقلبه، ويقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (من لم يصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى في لغة القوم مؤمنًا، كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان)(٢) ا.هـ.

ويقول في موطن آخر: (وكذلك لو قيل: إن رجلًا يشهد أن محمدًا رسول الله باطنًا وظاهرًا، وقد طلب منه ذلك، وليس هناك رهبة ولا رغبة يمتنع لأجلها، فامتنع منها حتى قتل، فهذا يمتنع أن

(١) الصارم المسلول (٥١٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٣٧).

يكون في الباطن يشهد أن محمدًا رسول الله، ولهذا كان القول الظاهر من الإيمان الذي لا نجاة للعبد إلا به عند عامة السلف والخلف من الأولين والآخرين إلا الجهمية)[1] ا.هـ.

د) **أعمال الجوارح**: والمقصود هنا بأعمال الجوارح بيان المعنى الشرعي للإيمان، وما يتركب منه، وهو في مقابلة ما درج عليه المرجئة من فصلهم العمل عن الإيمان خلافًا لأهل السنة القائلين: إن الأعمال نفسها هي في الحقيقة أجزاء للإيمان، كما دلت على هذا نصوص الكتاب والسنة، بل خالفوا في ذلك حتى مرجئة الفقهاء القائلين: إن الأعمال هي ثمار الإيمان لا هو، ومن هذا الوجه فأعمال الجوارح هي الركن الرابع من أركان مسمى الإيمان، فكما يجب على العباد أن يصدقوا الرسل عليهم السلام، فعليهم أن يلتزموا طاعتهم فيما أمروا، فيلتزموا بأن العمل واجب عليهم إذا جاء وقته.

ومن هذا الوجه احتج الأئمة أحمد والشافعي وأبو ثور وغيرهم على المرجئة بمثل قول الله ﷻ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥]، وقال الحميدي ردًّا على من قال: (من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئًا حتى يموت، أو يصلي مستدبر القبلة فهو مؤمن ما لم يكن جاحدًا!!).

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢١٩).

قال: هذا الكفر الصراح، وخلاف كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وفعل المسلمين قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥][(١)] ا.هـ.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: (من الممتنع أن يكون الرجل مؤمنًا -إيمانًا ثابتًا في قلبه- بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة، ولا يصوم من رمضان، ولا يؤدي زكاة، ولا يحج إلى بيته، فهذا ممتنع، ولا يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقة، لا مع إيمان صحيح، ولهذا إنما يصف سبحانه بالامتناع من السجود: الكفار؛ كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [القلم: ٤٢-٤٣])[(٢)] ا.هـ.

وهذه المسألة بخلاف مسألة ترك آحاد الأعمال مع بقاء الإذعان والقبول، فلا ينقض هذا الإيمان من التروك إلا ما دلت الأدلة على أن هذا الترك مكفر بخصوصه، مثل ترك الصلاة على الصحيح من قولي العلماء، ومثل ترك الحكم بما أنزل الله ﷻ إذا كان على وجه التبديل، والإلزام بذلك، وعلاقة الإيمان بالعمل مسألة كبيرة هي فرق بين أهل السنة وعامة المرجئة من وجه، وبين أهل السنة والخوارج من وجه آخر.

---

(١) شرح أصول السنة للالكائي (٥/ ٩٥٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦١١).

فإذا تقرر أن أعمال الجوارح من أجزاء الإيمان، وأن من انتفى عنه جنس العمل بالكلية فقد انتفى عنه الإيمان؛ يتبين لنا غلط الجهمية وضلالهم، حيث زعموا أن الإيمان مجرد معرفة قلبية بالله تعالى، وإن لم يكن هناك قول باللسان ولا عمل بالجوارح، كما يتبين غلط عموم المرجئة الذين فصلوا العمل عن الإيمان فلم يجعلوه شطرًا منه.

ويتبين لنا كذلك ضلال عامة الخوارج الذين لم يفرقوا بين الأعمال، فجعلوها كلها شرطًا في صحة الإيمان، وأن من ترك ولو واجبًا واحدًا أو فعل محرمًا فهو كافر مخلد في النار لو مات بدون توبة.

أما أهل السنة فقد فرقوا بين آحاد الأعمال وميزوا بينها؛ فمنها ما هو مكفر كما تقدم، ومنها ما يعد تاركه مفرطًا في كمال الإيمان الواجب؛ فيكون معه إيمان ناقص بحسب ما ترك من الواجب أو فعل من المحرم، ومنها ما يعد تاركه مفرطًا في كمال الإيمان المستحب.

وبهذا التلخيص السريع لمعنى الإيمان يتبين لنا حقيقة الإيمان وأركانه، وما معنى كونه قولًا وعملًا، وأن المنهج الحق هو ما هدى الله ﷻ أهل السنة والجماعة إليه، والذي هو مذهب الصحابة ﵃.

وبمعرفة حقيقة الإيمان وأركانه يتبين حقيقة الكفر المضاد للإيمان: فما دام أن حقيقة الإيمان وأجزاءه الأربعة قد تجلت والحمد لله؛ فإن الوصول إلى معرفة حقيقة الكفر أصبحت سهلة وميسرة؛

فهـي باختصـار عدم الإيمان بالله ورسـوله، وذلـك بتخلف ركن من أركان الإيمان المذكورة آنفًا أو الإتيان بما يضادها.

يقـول شـيخ الإسـلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (إنـما الكفـر يكـون بتكذيب الرسـول ﷺ فيـما أخبر به، أو الامتناع عن متابعتـه مع العلم بصدقه؛ مثل كفر فرعون واليهود ونحوهم)[(١)] ا.هـ.

ومما سبق من كلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى نستخلص: (أن الكفر - وهـو نقيض الإيمان - قد يكـون تكذيبًا في القلب؛ فهو مناقض لقول القلـب - وهو التصديـق - وقد يكون الكفر عمـلًا قلبيًّا كبغض الله تعالى أو آياته أو رسـوله ﷺ؛ والـذي يناقض الحب الإيماني، وهو آكد أعـمال القلوب وأهمها، وكالإباء والاسـتكبار الـذي يناقض الانقياد والإذعـان والقبـول، كـما أن الكفر يكون قـولًا ظاهـرًا يناقض قول اللسان ونطقه بالشهادتين، ويناقض عمل القلب.

وتـارة يكون عملًا ظاهرًا؛ كالإعراض عن دين الله تعالى والتولي عـن طاعـة الله تعـالى ورسـوله ﷺ بالكليـة، وهو بهـذا يناقض عمل الجوارح القائم على الانقياد والخضوع والقبول لدين الله تعالى)[(٢)].

فكل ما من شأنه أن ينقض ركنًا من أركان الإيمان الأربعة السابق ذكرها فهـو ناقض من نواقض الإيمان، فهـذه أصول نواقض الإيمان

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٤٢).
(٢) انظر (نواقض الإيمان القولية والعملية) د. عبدالعزيز آل عبداللطيف (١/ ٢٩).

الأربعة، وأما مفردات النواقض وآحادها فكثيرة، ذكرها أهل العلم في كتبهم... وهنا بعض المسائل لابد من معرفتها:

- **المسألة الأولى: الكفر يُطلق في الشريعة ويُراد منه: الكفر الأكبر أو الكفرُ الأصغر.**

فالكفر الأكبر: هو الكفر الذي يخرج صاحبه من ملة الإسلام، ويرتفع عن دمه وماله عصمة الإسلام وحرمته، فتجري عليه في الدنيا أحكام الكفر إن كان كفره أصليًّا، أو أحكام الردة إن كان كفره طارئًا بعد إسلامه، وفي الآخرة يكون في النار من الخالدين، ولا تنفعه شفاعة الشافعين إن مات على ذلك.

والكفر الأكبر يطلق، ويراد به الكفر المخرج من الملة أو الكفر البواح.

وهذا النوع من الكفر له أمثلة كثيرة في القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [البقرة: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢].

الكفـر الأصغـر: هو ما يطلـق عليه كفرٌ دون كفـر؛ حيث أتى في النصـوص مـا يدل على أنـه كفر أو شرك، ولم يصـل إلى حد الشرك أو الكفر الأكبر، وصاحبه لا يزال داخل دائرة الإسلام في الدنيا والآخرة، وأمره في الآخرة إن مات بلا توبة متروك لمشيئة الله ﷻ، إن شاء عذبه، وإن شـاء عفا عنه، ولا يخلِّد صاحبه في النار، وهو ممن تنالهم الشـفاعة يـوم القيامة بعد أن يأذن الله لمن شـاء ويرضى، ويطلـق على هذا النوع من الكفر: الكفر الأصغر، وكفر النعمة، وكفر دون كفر.

قـال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وفي الحديث قوله ﷺ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[(١)].

وقولـه ﷺ: «**اثنتـان في النـاس هما بهـم كفر: الطعن في النسـب، والنياحة على الميت**»[(٢)].

ويفـرق بـين الكفر الأكبر والأصغـر بأمور منهـا: صريح النص على أنه الأصغر، كما في الحديث: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغـر**»[(٣)]، وكذلـك ما فهم الصحابة أنه أصغـر كالحلف بغير الله،

(١) البخاري (٤٨) ومسلم (٦٤).
(٢) مسلم (١٠٠).
(٣) أحمد في المسند (٢٢٥٢٣).

كما في قوله ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفـر أو أشرك**»(١)، والطيرة كما في قوله ﷺ: «**الطيرة شرك**»(٢).

• **المسألة الثانية: الإيمان والكفر لهما أصل وشعب:**

ثبت في الحديث الصحيح قوله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (إن الإيمان عند جمهور أهل السنة له شعب متعددة، كما أخبر بذلك أعلم الخلق ﷺ في حديث شعب الإيمان، وكل شعبة منه تسمى إيمانًا، فالصلاة وسائر أعمال الجوارح من الإيمان، والأعمال الباطنة: كالحياء، والتوكل، والرجاء من الإيمان، وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة، ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، منها ما يلحق بشعبة الشهادة، ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى، ويكون إليها أقرب)(٤).

---

(١) أحمد (٤٦٦٩)، وأبو داود (٢٨٢٩).
(٢) ابن ماجه (٣٥٢٨)، وأبو داود (٣٤١١).
(٣) مسلم (٥١).
(٤) الصلاة لابن القيم ص (٥٣) بتصرف يسير.

إذا تبين هذا فإن الناس يتفاوتون في الإيمان، فمنهم الظالم لنفسه، وهو: من أتى بأصل الإيمان وقصر في بعض الواجبات أو أتى ببعض المحرمات، فمعه مطلق الإيمان. ومنهم السابق بالخيرات بإذن ربه وهو: من أتى بالأركان والواجبات والمستحبات، فمعه الإيمان الكامل. ومنهم المقتصد الذي أدى الواجبات وترك المحرمات.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر: ٣٢].

ولقد تواترت النصوص الدالة على أن الإيمان يقبل التبعيض والتجزئة، كقوله ﷺ في إنكار المنكرات: (**وذلك أضعف الإيمان**)(١)، فإذا تقرر ذلك فإنه يمكن اجتماع إيمان وكفر غير ناقل عن الملة في الشخص الواحد؛ لأن الإيمان مراتب كما سبق، وقد دلت النصوص الكثيرة على إمكان ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾[الحجرات: ٩]، فأثبت الله تعالى لهم وصف الإيمان مع أنهم متقاتلون، وقتال المسلم كفر، كما قال ﷺ: (**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**)(٢)، وقوله ﷺ: (**لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب**

(١) مسلم (٧٠).
(٢) البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤).

بعضكم رقاب بعض)[١]، فدلت هذه النصوص بمجموعها على اجتماع الإيمان والكفر الأصغر في المسلم، فلا يلزم من قيام شعبة من شعب الكفر بالعبد أن يصير كافرًا الكفر المطلق، حتى تقوم به حقيقة الكفر، كما أنه ليس كل من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمنًا، حتى يقوم به أصل الإيمان[٢].

فلا توجد حقيقة الإيمان التي تنفع العبد إلا بوجود أصله، كما أنه لا يخرج العبد من الإسلام إلا عند وجود حقيقة الكفر الأكبر، الذي حكم الشارع بأنه ناقل عن المِلَّة.

حكم أصحاب المعاصي والكبائر:

اتفق أهل السنة والجماعة من لدن الصحابة وإلى يومنا هذا على أن المعاصي من أمور الجاهلية، ولا يكفر فاعلها ولو مع الإصرار عليها، إلا إذا استحلها، ويستثنى ما جاء به النص على أنه كفر كترك الصلاة، وأن أصحاب الكبائر إن لم يتوبوا فهم في مشيئة الله تعالى إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم[٣].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨و١١٦].

---

(١) البخاري (١٢١)، مسلم (٦٥).

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٠٨)، وكتاب الصلاة لابن القيم ص (٦٠).

(٣) بوب البخاري في صحيحه: باب: المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا الشرك، انظر: فتح الباري (١/ ٨٤).

ومن المعلوم أن الذين يكفرون بالكبيرة هم الخوارج، وأن الذين لا يـرون للمعاصي تأثيرًا في الإيمان هـم المرجئة، وكلتا الطائفتين على غير هدى، والحق ما عليه أهل السنة: أن مطلق المعاصي تنقص الإيمان ولا تنقضه.

هـذا هو فهـم السـلف الصالـح لمعنى الإيـمان وأركانـه والكفر وحدوده، فهل يحق لمن نقص علمه في هذا الباب أن يتجرأ على مسائل التكفـير والحكم على الناس بالتكفير أو عدمـه بلا علم ولا فهم لهذه المسائل المهمة في أبواب الإيمان وما يضاده؟.

وهل يجوز له أن يبني أحكامه ومواقفه على آراء الرجال وتقليدهم دون علم وبينة؟.

الأصل الثالث

من ثبت إسلامه بيقين
فلا يجوز إخراجه منه إلا بيقين مثله

وهـذا الأصل ينـدرج تحت قاعـدة عظيمة من قواعـد الشريعة، ألا وهي قاعدة (اليقين لا يزول بالشـك) من قواعد الشريعة الخمس الكـبرى، وذكـر بعـض أهل العلـم أن هـذه القاعدة تدخـل في جميع أبواب الفقه والمسـائل المخرجة عليها تبلغ ثلاثـة أرباع الفقه، ودليل هذه القاعدة ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا وجد أحدكم في بطنه شـيئًا فأشـكل عليـه، أخرج منـه شيء أم لا؟ فلا يخرجن من المسـجد حتى يسمع صوتًا أو يجد ريحًا**»[١].

وقـال أيضًـا: (**إذا شـك أحدكم في صلاته فلم يـدر: كم صلى؟، ثلاثًـا أم أربعًا؟ فليطرح الشـك، وليبـن على ما اسـتيقن**)[٢]. فإذا كان النبي ﷺ في هذين الحديثين حكم على من تطهر بيقين ثم شك في وقوع الحدث أنه لا ينتقل عن يقين الطهارة إلا بيقين الحدث، فإن تطبيق هذه القاعدة في مسائل الاعتقاد والإيمان والحكم على الناس أولى وأحرى،

(١) البخاري (١٣٧) ومسلم (٣٦٢) واللفظ له.
(٢) مسلم (٥٧١).

وعليـه فـلا ينتقل إلى الحكم بكفر مسـلم بعد ثبوت إسـلامه بيقين إلا بيقين مثله، فالإسلام الصريح لا ينقضه إلا الكفر الصريح.

يقول شـيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (فليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسـلمين، وإن أخطأ وغلط حتى تقوم عليه الحجة وتبين له المحجة، ومن ثبت إسـلامه بيقين لم يزل عنه ذلك بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة)(١).

وقال ابن نجيم الحنفي: (ثم ما تيقن أنه ردة يحكم به، وما يشـك أنـه ردة لا يحكـم بـه، إذ الإسـلام الثابـت باليقين لا يزول بالشـك، وينبغي للعالم إذا رفع إليه هذا ألا يبادر بتكفير أهل الإسلام)(٢).

ولقـد حذّر سـبحانه مـن اتهام النـاس بالباطـل وأخذهم بالظن وإطلاق الأحكام دون تريُّث، وتوَعَّد على ذلك.

قـال تعـالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

ومما يدل على هذه القاعدة:

قولـه تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النساء: ٩٤].

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٦٦).
(٢) البحر الرائق (٥/ ١٢٥).

فالخطأ في عدم التكفير أو التبديع أو التفسيق أهون من الخطأ في إثبات شيء منها ورمي بريء بها، والقاعدة الكلية الكبرى تقرر: أن اليقين لا يزول بالشك، فمن ثبت إيمانه بيقين لم يزل بشكٍّ.

وقال الشوكاني: (اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام، ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يُقْدِم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار)(١).

وصدق العلماء فيما قالوا فإن الخطأ في تكفير المسلم أغلظ من الخطأ في الحكم لكافر بإسلام؛ ذلك أنه يترتب على الحكم بكفر المسلم وردته إهدار عصمة دمه وماله، وانحلال عقدة نكاحه، فلا يحل لزوجته أن تبقى معه، بل ينفسخ عقد زواجهما؛ بينما الحكم على كافر بإسلامه فإن ذلك يحقن دمه وماله، ويعطيه ما للمسلمين من حقوق، والخطأ في العفو أهون من الخطأ في العقوبة، وإذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات؛ فإن درء الحكم بالتكفير أولى من درء الحدود من غير شك، فعن عائشة ﵂ قالت: قال ﷺ: «**ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة**»(٢).

---

(١) السيل الجرار (٤/ ٥٧٨).

(٢) الترمذي (١٤٢٤) وابن أبي شيبة (٢٩٠٩٤) وعبدالرزاق (١٨٦٩٨)، قال ابن الملقن في البدر المنير (٨/ ٦١٢): وقد ضعفه الحافظ أبو بكر البيهقي فقال في خلافياته: هذا حديث مشهور بين العلماء، وإسناده ضعيف.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٢٥٩).

وبناءً على ما تقدم فإن الاجتراء على تكفير مسلم من أخطر الأمور التي لا ينبغي الإقدام عليها إلا ببينة وبرهان، واليقين لا يزول إلا بيقين مثله[١].

إذا فهم هذا تبين خطأ من يتسرع بتكفير مسلم قد ثبت إسلامه بيقين، وذلك بأمور ظنية. إما ظنية الدلالة على كون العمل مكفرًا أو ظنية ثبوتها على المعين لاحتمال وجود مانع شرعي.

وهنا أمر مهم يجب التنبيه عليه، ألا وهو أن بعض المتسرعين في إيقاع الكفر على المعين قد يقول: إنه قد تبين لي بيقين كفر هذا المعين أو ذاك، وذلك بتوافر الشروط لديه وانتفاء الموانع. وآخر لم يتبين له ذلك، فلا يجوز له في مثل الحالة إن كان تكفيره عن أهلية وتحقيق واجتهاد أن يصادر رأي أخيه فيما وصل إليه، فيضلله في موقفه المخالف، لأنه لم يأخذ برأيه وحكمه، فضلًا عن أن يكفره مستندًا على قاعدة (من لم يكفر الكافر فهو كافر)، وهنا غلط في فهم قاعدة (من لم يكفر الكافر فهو كافر) وتطبيق لها في غير محلها، إذ إن هذه القاعدة تنطبق على من لم يكفر الكافر الأصلي المقطوع بكفره: كاليهود والنصارى والوثنيين، ممن كفرهم الله ﷻ ورسوله ﷺ، كما أنها تنطبق على من كانت ردته

(١) انظر: الإحكام في قواعد الحكم على الأنام ص (٤٥-٤٩) باختصار.

عن الإسـلام صريحة، قد أجمع عليها الراسخون في العلم، أما ما كان مختلفًا عليه في كونه مكفرًا أو في كون المتلبس به قد تخلفت عنه بعض الشروط، فحينئذ لا تنطبق هذه القاعدة.

وإذا كان الطرفان متفقين على أصول التكفير ونواقض الإسلام، فإن الخلاف في إنزال الحكم على المعين قد تختلف فيه الآراء والمواقف بحسـب توافر البينات وحجتها أو خفائها عنـد هذا الطرف أو ذاك، فمـن تبـين له بيقين كفر المعين لا يحق له أن يلـزم غيره ممن لم يتبين له، وإلا كان هـذا تحكـمًا ووصاية على عقول الناس ومصـادرة لآرائهم، و تنزيـل الحكـم عـلى المعين مما يسـعه الخـلاف إذا روعيـت الشروط والموانـع، والحكم عـلى المعين دين، وسيسـأل عنه العبد يـوم القيامة وعن برهانه في ذلك، ولا يعذره أن يقول: قد قلدت فلانًا في ذلك، فلا يجوز لطرف أن يصادر رأي أخيه، أو أن يلزمه برأيه، ولو كان متيقنًا، لأنـه قـد لا يكون يقينًـا عند الآخـر، وإلا أصبح هذا تحكـمًا وإعجابًا بالـرأي ورميًا للمخالـف بما هو منه بريء، ولا يخفـى ما في ذلك من الجور والعدوان، لأن لسـان حال من يلزم غـيره برأيه وموقفه مفاده أن يقطع بصحة رأيه، وأنه الصحيح لا غيره، وفي المقابل يقطع بخطأ رأي مخالفه وتسفيهه. ولنضرب على ذلك مثالًا يوضح المقصود:

شارك مُعَيَّن من الناس في المؤتمرات التي تدعو إلى التقارب بين الأديان والحوار بينها[١]. فاختلف في الحكم عليه شخصان: أحدهما يرى أن هذا الفعل منه كفر مخرج من الملة، لأنه يرى أن فاعل ذلك يحسن دين الكفار ويجعله مثيلًا للإسلام، والآخر لم يحكم عليه بالكفر، لأن إسلام هذا المعين ثابت بيقين، ودخوله في هذه المؤتمرات ليس دليلًا يقينيًّا على كفره بتحسين دين الكفار، لاسيما إذا كان هذا المعين معروفًا بالديانة والصلاح، لاحتمال أن يكون داخلًا لدعوة الكفار إلى الإسلام وبيان بطلان دينهم، أو احتمال درء شرهم عن المسلمين، أو غير ذلك من الاحتمالات. ومعلوم أنه إذا ورد الاحتمال بطل الاستدلال، ولما سبق ذكره من قاعدة أن: (اليقين لا يزول بالشك)، وحينئذ نقول لمن كفَّر هذا المعين المشارك في هذه المؤتمرات: اتق الله، وتأكد من توافر الشروط وانتفاء الموانع في تكفير هذا المعين. فإن تبين هذا لديك، وتيقنت من كفره الكفر البواح، فلك ذلك، وهذا بينك وبين الله ﷻ، ولكن لا يحق لك أن تلزم بحكمك هذا من لم يتبين له ما تبين لك، ورأى أن هناك مانعًا من الموانع في تكفيره، ولا يحق لك القطع بضلاله أو تكفيره، ورميه بما هو منه بريء، بمجرد أنه لم يوافقك في موقفك.

---

(١) الدعوة إلى حوار الأديان والتقارب بينها دعوة لها أهداف خبيثة، وينبغي أن تقاطع، ولكن الحديث هنا عن المشاركين فيها واختلاف مقاصدهم.

الأصل الرابع

تجري الأحكام في الدنيا على الظاهر وعلى آخر الأمر

يُفتَّش في بواطنهم، فمن كان ظاهره الإيمان حُكم له به، ومن كان ظاهره خلافه حكم عليه به، والمعتبر في ذلك آخر أمر المكلَّفِ وخاتمة حاله.

- **ومن الأدلة على الشق الأول من القاعدة (في أن الأحكام في الدنيا على الظاهر):**

قوله ﷺ: «**من صلَّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذاك المسلم، له ذمة الله وذمة رسوله**»[١]، وفي الصحيح أيضًا قوله ﷺ: «**إني لم أُومر أن أَنْقُبَ عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم**»[٢]، وقد قال النبي ﷺ لأسامة رضي الله عنه حين قتل رجلًا قال لا إله إلا الله: (**أشققت عن قلبه، حتى تعلم أقالها أم لا؟!**)[٣].

وفي رواية قال: (**وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟**)[٤].

---

(١) البخاري (٣٧٨).
(٢) البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤).
(٣) مسلم (٩٦).
(٤) مسلم (٩٧).

قال الإمام النووي: (وقوله ﷺ: (**أفلا شققت عن قلبه**) فيه دليل للقاعدة المعروفة في الفقه والأصول: أن الأحكام يعمل فيها بالظواهر، والله يتولى السرائر)[١].

ومن الأدلة على هذا الأصل المهم حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله أرأيت إن لقيت رجلًا من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يديَّ بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة، فقال: أسلمت لله. أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: «**لا تَقْتُلْه**»، قال: فقلت: يا رسول الله إنه قد قطع يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها، أفأقتله؟ قال: «**لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال**»[٢].

قال النووي: (في معنى قوله ﷺ: «**فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال**»، فأحسن ما قيل فيه وأظهره، ما قاله الإمام الشافعي وابن القصار المالكي وغيرهما، أن معناه: فإنه معصوم الدم محرم قتله بعد قوله لا إله إلا الله. كما كنت أنت قبل أن تقتله، وإنك بعد قتله غير معصوم الدم ولا محرم القتل، كما كان هو قبل قوله لا إله إلا الله)[٣].

---

(١) شرح مسلم للنووي (٢/ ١٠٧).
(٢) مسلم (٩٥).
(٣) شرح مسلم للنووي (٢/ ١٠٦).

وقال ابن تيمية: (ولا خلاف بين المسلمين أن الحربي إذا أسلم عند رؤية السيف وهو مطلق أو مقيّد يصح إسلامه، وتقبل توبته من الكفر، وإن كانت دلالة الحال تقتضي أن باطنه خلاف ظاهره)[١].

ويدل على أصل قبول الظاهر قوله ﷺ: «**فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**»[٢] أي في الآخرة.

قال ابن حجر: (وفيه دليل على قبول الأعمال الظاهرة والحكم بما يقتضيه الظاهر)[٣].

وقد كان النبي ﷺ يعامل الناس على ظواهرهم، فكان يقبل ظاهر المنافقين مع أنهم كفارٌ في الباطن، وعلى هذا جرى عمل الخلفاء من بعده، قال عمر رضي الله عنه: (إن ناسًا كانوا يؤاخذون بالوحي على عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، فمن أظهر لنا خيرًا أمَّنَّاه وقرَّبناه، وليس لنا من سريرته شيء، ومن أظهر لنا سوءًا لم نأمنه ولم نقربه ولم نصدقه، وإن قال: سريرته حسنة)[٤].

يقول الشاطبي: (إن أصل الحكم بالظاهر مقطوعٌ به في الأحكام خصوصًا بالنسبة إلى الاعتقاد في الغير عمومًا، فإن سيد البشر مع

(١) الصارم المسلول ص (٣٢٩).
(٢) البخاري (٢٤).
(٣) فتح الباري (١/ ٧٧).
(٤) البخاري (٢٦٤١).

إعلامه بالوحي، يجري الأمور على ظواهرها في المنافقين وغيرهم، وإن علم بواطن أحوالهم، ولم يكن ذلك بمخرجه عن جريان الظواهر على ما جرت عليه)(١).

وقد نقل الشوكاني إجماع العلماء على إجراء الأحكام الدنيوية على الظاهر(٢).

- **ومن الأدلة على الشق الثاني من القاعدة (وهي إجراء الأحكام في الدنيا على آخر الأمر):**

وهو أن العبرة في الحكم على المكلف بآخر أمره وخاتمة حاله: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [البقرة: ١٦١]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فعلَّق سبحانه وتعالى الحكم بامتناع المغفرة، وحصول اللعنة، والخلود في النار، بالموت على غير الإسلام.

(١) الموافقات (٢/ ٢٧١).
(٢) نيل الأوطار (٨/ ٢٠٥).

وفي الحديث قوله ﷺ: «**إن العبد ليعمل عمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة، وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم**»(١).

وفي المقابل فإن دخول الجنة معلَّق بالموت على التوحيد، كما في حديث: (**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة**)(٢)، وفي الحديث الآخر: «**لا عليكم أن لا تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يُختم له**»(٣)، فلا يشهد لمعين من الناس حال حياته بالخلود في النار، حتى ينظر بم يختم له، لاحتمال أن يوفق للتوبة من الكفر، وأن تحسن خاتمته قبل الموت - إلا أن يرد في حقه نص خاص كأبي لهب وزوجه -، كما لا يشهد لمعين من الناس حال حياته بالجنة حتى يختم له بالإسلام - إلا أن يرد في حقه نص خاص كالعشرة المبشرين بالجنة - ثم إن الجزاء على الأعمال في الآخرة موكول إلى الله، والاطلاع على القلوب موكول إلى علام الغيوب، والشهادة لأحد بالجنة لا تصح إلا بعلم، والعلم من الله، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، وهو سبحانه أعلم بمن اتقى، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، وعلى كل حال فيرجى لأهل الإسلام والسنة

---

(١) البخاري (١٦٣).
(٢) مسلم (٦).
(٣) مسند أحمد (١٢٢١٤).

الخير الكثير، ويقطع لهم بالنجاة من الخلود في النار، ويخشى على أهل الكبائر والابتداع من العذاب والعقاب، ويقطع لموتى أهل الكفر والإلحاد الذين ماتوا على ما عاشوا عليه بالخلود في النار أبد الآباد[١].

وهذا الأصل له علاقة بالأصل السابق، حيث إن الحكم على المعين يكون على الظاهر من أقواله وأفعاله، حتى يتبين لنا بيقين نقيض ما ظهر لنا من حاله، حيث لا يزول اليقين إلا بيقين مثله، ولا يفهم من الحكم على الظاهر إغفال ما قد يدل الظاهر فيه على فساد في الباطن، ذلك لأن العمل الظاهر من الأفعال أو الأقوال المكفرة له ارتباطات في أحوال معينة مع القصد الباطن، فتارة يكون العمل الظاهر كفرًا، ولا يحتمل القصد الباطن إلا الكفر كمن سب الله ﷻ أو سب نبيه ﷺ أو أهان المصحف عالمًا مختارًا، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (من سب الله تعالى أو سب رسوله ﷺ كفر ظاهرًا وباطنًا، سواء كان الساب يعتقد أن ذلك محرم أو كان جاهلًا عن اعتقاده، هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل)[٢]، وفي هذا رد على من يشترط الاستحلال لهذه المكفرات، ومن لا يرى الكفر بالعمل.

---

(١) انظر: الإحكام في قواعد الحكم على الأنام د. محمد يسري ص (٥٣-٥٦)، ومسألة القطع لأعيان من مات على الكفر بالنار مسألة خلافية.
(٢) الصارم المسلول ص (٥١٢).

الأصل الخامس

الحكم المطلق لا يستلزم الحكم على المعين

قال شيخ الإسلام: (إن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعيَّن، وإن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين، إلا إذا وجدت الشروط، وانتفت الموانع، يُبَيِّن هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات؛ لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه)[1].

يقول د. محمد يسري حفظه الله تعالى عن هذا الأصل:

فما ورد في النصوص مطلقًا أنه كفر أو فسق أو بدعة، أو من فعله كَفَر أو فسق أو ابتدع، لا يستلزم حمله على الشخص المعين الذي فعل ذلك الفعل، فلا يجوز وصفه بالكفر أو غيره، ولا الحكم به إطلاقًا حتى تجتمع فيه الشروط المرعيَّة في الحكم على الْمُعيَّن، ويُتحقق من انتفاء موانع الحكم بكفره أو فسقه أو بدعته.

وقد يصح القول بأن القول كفر وقائله غير كافر، وأن الفعل كفر وفاعله غير كافر، أو من قال كذا أو فعل كذا فهو كافر، فإذا تلبس

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٦٦-٤٨٧) باختصار.

شخص بعينه بهذا الفعل أو القول لم يكفَّر بعينه، لاحتمال قيام ما يمنع من الحكم عليه بذلك، أو لتخلف شروط هذا الحكم ولوازمه.

ويترتب على هذا أن التكفير العام المطلق يجب القول بعمومه وإطلاقه، وأما الحكم على المعيَّن بأنه كافر، فهذا متوقف على ثبوته في حق الشخص المعيَّن، فالكفر من الوعيد الذي يطلق القول به، ولكن لا يحكم للمعين بدخوله في ذلك المطلق، حتى يقوم فيه المقتضى الذي لا معارض له)[1].

وهذا الحكم عام في التكفير أو التفسيق أو التبديع، فكلُّ وعيد ورد على ارتكاب منهي بإطلاق، لا يستلزم بالضرورة الحكم به على فاعله أو مرتكبه، سواء كان المنهي عنه قولًا أم فعلًا أم اعتقادًا.

فقد صح أن النبي ﷺ لعن شارب الخمر وهذا مطلق، ولما لعن الصحابة رضي الله عنهم رجلًا كان يشربها كثيرًا، ويجلد فيها كثيرًا قال ﷺ: **(لا تلعنوه، فو الله ما علمت أنه يحب الله ورسوله)**[2].

فالمقصود أن مذهب أهل السنة وسط بين من يكفر المسلم بكل ذنب قيل إنه كفر دون نظر إلى توافر شروط التكفير وانتفاء موانعه، وبين من يقول لا نكفر أحدًا من أهل القبلة أبدًا بذنب مالم يستحله.

(١) انظر لمزيد من التفصيل مجموع الفتاوى (٣/ ٢٥١، ١٢/ ٤٩٨، ٢٨/ ٥٠٠).
(٢) البخاري (٦٧٨٠)، ومعنى (فو الله ما علمت) أي: (فو الله الذي علمت).

وقد طبق السلف هذا المفهوم فلم يكفر الإمام أحمد كثيرًا من أعيان الجهمية، الذين قالوا: القرآن مخلوق. ودعوا الناس إلى الإيمان بذلك، بل ترحَّم عليهم، واستغفر لهم لعلمه بأنهم لم يبن له أنهم مكذبون للرسول ﷺ، ولا جاحدون لما جاء به، ولكن تأولوا فأخطئوا، وقلدوا من قال لهم ذلك(١).

وعليه، فإن السلف متفقون على تكفير المعين وعقابه، بعد إزالة الشبهة وإقامة الحجة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

فلا تكليف إلا بوحي، ولا عقاب ولا عذاب إلا بعد قيام الحجة بإرسال الرسل، فمن انقاد لحجة الله قبولًا وإذعانًا، فإنه غير معذب في الآخرة، قال الله ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾[القصص: ٥٩].

وهذه النصوص تنفي وقوع العذاب الدنيوي والأخروي مطلقًا، فإن كان بعضها في سياق نفي العذاب الدنيوي فإنها تشمل الأخروي بطريق الأولى.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٩).

وقد أثبت القرآن الكريم أن كل أهل النار الذين يعذبون فيها إنما يعذبون بعد النذارة.

قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الملك: ٨-٩].

قال الشيخ الشنقيطي: (وهو دليل على أن جميع أفواج أهل النار ما عذبوا في الآخرة إلا بعد إنذار الرسول)[(١)][(٢)].

(١) أضواء البيان (٣/ ٣٣٤).
(٢) انظر: الإحكام في قواعد الحكم على الأنام ص (٥٨-٦٢) باختصار وتصرف يسير.

الأصل السادس

لا تجري أحكام التكفير إلا بعد انتفاء الموانع وتحقق الشروط

والمقصود من هذا الأصل التحقق من أهلية المكلف وصلاحيته الشرعية لإجراء الأحكام عليه، وهو ما يعبرون عنه عادة «بثبوت الشروط وانتفاء الموانع».

قال ابن تيمية: (ولعن المطلق لا يستلزم لعن المعيَّن، الذي قام به ما يمنع لحوق اللعنة له، وكذلك التكفير المطلق والوعيد المطلق، ولهذا كان الوعيد المطلق في الكتاب والسنة مشروطًا بثبوت شروط وانتفاء موانع)[١].

(وهذا الأمر مطرد في نصوص الوعيد عند أهل السنة والجماعة، فلا يشهد على معين من أهل القبلة بأنه من أهل النار، لجواز أن لا يلحقه، لفوات شرط أو لثبوت مانع)[٢].

وفيما يأتي عرض موجز لهذه الموانع وتلك الشروط:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٢٩).
(٢) المصدر نفسه (٣٥/ ١٦٥).

أولًا: الموانع:

وهي تلك الموانع التي إذا وجدت فإنها تمنع من إنزال الحكم المطلق على المعين، ومن أشهرها وأهمها ما يلي:

المانع الأول: الجهل وعدم بلوغ الخطاب الشرعي:

يأتي الجهل لمعان، منها: خلو النفس من العلم، وهو المقصود هنا، ومنها: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه[١].

ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦].

فمن وقع في النهي والمخالفة سواء أكانت كفرًا أم بدعة أم فسقًا بسبب عدم بلوغه الخطاب الشرعي وجهله به؛ فإنه لا يناله الوعيد، ولا يحكم عليه به، حتى يبلغه العلم الذي تقوم به الحجة عليه.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: (من الناس من يكون جاهلًا ببعض الأحكام جهلًا يعذر به، فلا يحكم بكفر أحد حتى تقوم عليه الحجة من جهة بلاغ الرسالة)[٢].

ومن أشهر الأدلة وأصرحها: الحديث الذي رواه أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (**كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت**

(١) المفردات للراغب ص (١٠٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٠٦).

قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذرّوني في الريح، فوالله لئـن قدر الله عليّ ليعذبني عذابًا ما عذبـه أحدًا، فلما مات فُعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يارب خشيتك، فغفر له)[١].

قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية: (فهذا الرجل ظن أن الله لا يقدر عليـه إذا تفرق هذا التفرق، وظن أنـه لا يعيده إذا صار كذلك، وكل واحد من إنكار قدرة الله تعالى، وإنكار معاد الأبدان وإن تفرقت كفرٌ، لكنـه كان مـع إيمانه بالله، وإيمانه بأمره، وخشـيته منـه جاهلًا بذلك، ضـالًّا في هذا الظن مخطئًا، فغفر الله لـه ذلك، والحديث صريح في أن الرجـل طمع ألا يعيـده إذا فعل ذلك، وأدنى هذا أن يكون شـاكًّا في المعاد، وذلك كفر، إذا قامت حجة النبوة على منكره حكم بكفره)[٢].

ضابط العذر بالجهل:

إن ضابـط العذر بالجهل هو: إمكان العذر بادعاء الجهل، وذلك على الصحيح من قولي العلماء من أن ما يعتد به في بلوغ الحجة وانقطاع المعذرة هو عدم إمكان الجهل.

---

(١) البخاري (٣٢٢٢)، مسلم (٤٩٥٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٠٩).

فحيث أمكن الجهل، فالأصل هو العذر، حتى تقام الحجة الرسالية؛ إذ الأصل في المكلف عدم العلم، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى عن صفة الإنسان: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وبناءً على هذا الأصل كان عمل الصحابة في عدم المؤاخذة مع تحقق الجهل من الشخص المعين(١).

وقد أخطأ من منع جريان العذر في مواطن الإجماع، أو ما علم من الدين بالضرورة بناء على ظهور الحجة وإمكان العلم، دون اعتبار لحال المعيَّن، مع أن ظهور الحجة وقطعيتها أمر نسبي إضافي، فما كان ظاهرًا قطعيًّا معلومًا عند بعض الناس وفي بعض الأزمنة والأمكنة والأحوال، قد يكون خفيًّا غير معلوم عند بعض الناس وفي بعض الأزمنة والأمكنة والأحوال، ولعل أظهر الأدلة على عدم اعتبار ظهور الحجة ضابطًا في العذر حديث أبي هريرة السابق.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق، وأما كون زيد بعينه وعمرو قامت عليه الحجة أم لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه، بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة

(١) انظر: الإحكام في قواعد الحكم على الأنام (القاعدة السابعة).

عليه بالرسول، هذا في الجملة، والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه، هـذا في أحـكام الثواب والعقـاب، وأما في أحكام الدنيـا فهي جارية على ظاهر الأمر: فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا، لهم حكم أوليائهم. وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة. وهو مبني على أربعة أصول:

الأصـل الأول: أن الله سـبحانه وتعـالى لا يعـذب أحـدًا إلا بعـد قيـام الحجة عليه، كما قـال تعـالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعـالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقـال تعـالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: ٨-٩]، وقـال تعـالى: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، وقـال تعـالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وهذا كثير في القـرآن، يخبر أنه يعذّب من جاءه الرسـول وقامت عليه الحجة، وهو المذنب الذي يعترف بذنبه، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، والظالم مـن عـرف ما جاء به الرسـول أو تمكن من معرفته بوجـه، وأما من لم يعـرف مـا جاء به الرسـول وعجـز عن ذلـك فكيف يقـال إنه ظالم؟

الأصل الثاني: أن العذاب يستحق بسببين، أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها. الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها. فالأول كفر إعراض، والثاني كفر عناد. وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل.

الأصل الثالث: أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان وفي بقعة وناحية دون أخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان يترجم له. فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئًا ولا يتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة، كما جاء ذلك في حديث الأسود وأبي هريرة[1].

---

(١) يقصد الحديث الذي رواه أبو هريرة والأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال: **(أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئًا، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة: فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئًا، وأما الأحمق فيقول: رب جاء الإسلام وما أعقل شيئًا والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئًا، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول. فيأخذ مواثيقهم فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفسي بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا، ومن لم يدخلها سحب إليها)**. رواه أحمد (١٦٣٠١)، وصححه ابن حبان (٧٣٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٨١).

الأصل الرابع: أن أفعال الله سبحانه وتعالى تابعة لحكمته التي لا يخل بها، وأنها مقصودة لغايتها المحمودة وعواقبها الحميدة، وليس في أفعاله خلل ولا عبث ولا فساد، يسأل عنه كما يسأل المخلوق، وهو الفعال لما يريد، ولكن لا يريد أن يفعل إلا ما هو خير ومصلحة ورحمة وحكمة، فلا يفعل الشر ولا الفساد ولا الجور ولا خلاف مقتضى حكمته، لكمال أسمائه وصفاته، وهو الغني الحميد العليم الحكيم)[١] اهـ.

ثم إن الجهل الذي به يعذر الإنسان هو الذي لا يقدر على إزالته ويعجز عنه، قال ابن تيمية: (إن العذر لا يكون عذرًا إلا مع العجز عن إزالته، وإلا فمتى أمكن الإنسان معرفة الحق فقصر فيه لم يكن معذورًا)[٢].

وقد عني العلماء بوضع ضوابط لما يعفى عنه بسبب عارض الجهل، وأهمها:

مشقة الاحتراز من الجهل:

فإن أهم ضابط ذكره العلماء في اعتبار الجهل عذرًا من عدمه، هو ضابط مشقة الاحتراز، فما شق الاحتراز منه في العادة، عُفي عنه وكان عذرًا، وأما ما لا يشق الاحتراز عنه فلا يصلح أن يكون عذرًا.

---

(١) طريق الهجرتين ص (٤١٤)، باختصار.
(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٩١).

ومن أهم الأمور التي تجعل الاحتراز عن الجهل أمرًا شاقًّا حرجًا ما يلي:

أ) حداثة العهد بالإسلام:

فالذي أسلم قريبًا - ولو في دار العلم والإسلام - يجهل أغلب أحكام الإسلام ابتداء، فإن ترك مأمورًا أو فعل منهيًّا جهلًا منه بالحكم، عذر حتى يتعلم أحكام الإسلام.

ب) النشأة في بيئة لم ينتشر فيها العلم:

قال السيوطي: (كل من جهل تحريم شيء مما يشترك فيه غالب الناس لم يقبل، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام أو نشأ ببادية خفي عليه مثل ذلك)[(١)].

كالأعراب ونحوهم ممن يعيش في البوادي والصحارى أو الأدغال والمجاهل، فالجهل في مثل هذه المواضع مما يشق الاحتراز منه، لذا فالواجب أن تنصرف الهمة إلى الدعوة والتعليم، لا إلى إجراء الأحكام في زمان الالتباس، وأماكن اندراس الشريعة[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: (وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة التي يندرس فيها كثير من علم النبوات؛

(١) الأشباه والنظائر ص (٢٢٠).

(٢) انظر: الإحكام في قواعد الحكم على الأنام، د. محمد يسري.

حتى لا يبقى من يبلّغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيرًا مما بعث الله به رسوله، ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر؛ ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان أو كان حديث عهد بالإسلام، فأنكر شيئًا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة، فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول، وهذا جاء في الحديث: (**يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا صومًا ولا حجًّا، إلا الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، يقولون: أدركنا آباءنا وهم يقولون: لا إله إلا الله**، فقيل لحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: ما تغني عنهم لا إله إلا الله؟، فقال: تنجيهم من النار)[1][2].

ومن نشأ في بيئة تغلب عليها البدعة، ويندر فيها العلماء الثقات من أهل السنة فله نفس الحكم من العذر عند تلبُّسه بالبدعة[3].

ويبين الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى فيما يعذر فيه من لم تبلغه الرسالة، فيقول عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]: (إن الله جل وعلا لا يعذب أحدًا من خلقه - لا في الدنيا

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٤٩)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٧٣)، وقال: صحيح على شرط مسلم. وسكت عليه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ١٢٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٠٨).
(٣) انظر الأشباه والنظائر ص (٢١٠).

ولا في الآخرة - حتى يبعث إليه رسولًا ينذره ويحذره، فيعصي ذلك الرسول، ويستمر على الكفر والمعصية بعد الإنذار والإعذار.. ولا بد أن يقطع حجة كل أحد بإرسال الرسل، مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم النار... ويوضح ما دلت عليه هذه الآية المذكورة وأمثالها في القرآن - من أن الله جل وعلا لا يعذب أحدًا إلا بعد الإنذار والإعذار على ألسنة الرسل عليهم السلام. - تصريحه جل وعلا في آيات كثيرة بأنه لم يُدخل أحدًا النار إلا بعد الإعذار والإنذار على ألسنة الرسل، ومن ذلك قوله جل وعلا: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الملك: ٨-٩])(١).

فبين هنا أن لا عذاب ولا عقوبة أو مؤاخذة في أصول الدين وفروعه حتى تقوم الحجة، ولا تقوم الحجة على وجهها الصحيح إلا بعد فهمها، وهذا ما يفهم أيضًا من كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عندما يقرر أن المكلف لا يكفر حتى تقوم عليه الحجة الرسالية. أي لا يكفر الكفر الذي يؤاخذ به ويعذب عليه في الدنيا والآخرة. فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عند قوله تعالى: ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[الأنعام: ١٩]، (بيّن سبحانه أنه لا يعاقب أحدًا حتى يبلغه ما جاء به الرسول، ومن

(١) أضواء البيان (٣/ ٤٧٢).

علـم أن محمدًا رسـول الله، فآمـن بذلك، ولم يعلم كثيرًا مما جاء به؛ لم يعذبْـه الله عـلى ما لم يبلُغْـه، فإنـه إذا لم يعذبه على ترك الإيـمان إلا بعد البلوغ، فألا يعذبه على بعض شرائطه إلا بعد البلاغ أولى وأحرى)[1].

ومن هذين النقلين يتبين أن إعذار المشرك الجاهل يتوجه إلى عدم مؤاخذتـه بالعذاب في الدنيا والآخـرة أو مقاتلته، قبل قيام الحجة. لا إعـذاره في كونـه مـشركًا في الدنيا يعامـل فيها بأحـكام المشرك كترك الصلاة عليه، وعدم حل ذبيحته، وترك الصلاة خلفه، ومناكحته.

وهـذا مـا يفهم من كلام الإمـام ابن القيم السـابق، الذي جاء فيه قولـه: (.. بـل الواجب على العبـد أن يعتقد أن كل مـن دان بدين غير الإسلام فهو كافر، وأن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجـة عليه بالرسـول، هذا في الجملـة، والتعيين موكـول إلى علم الله وحكمـه، هذا في أحكام الثواب والعقاب. وأمـا في أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر: فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم، وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة)[2].

ويزيـد هذه المسـألة إيضاحًا بعـض أئمة الدعـوة الذين واجهوا بعض جهلة المشركين من القبوريين والصوفية والرافضة في عصرهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤١).
(٢) طريق الهجرتين ص (٤١٤).

قال الشيخان حسين وعبد الله ابنا محمد بن عبد الوهاب رحم الله الجميع، في الجواب على مسألة وردت عليهم، ضمن مسائل عدة:

(المسألة الثالثة عشرة): فيمن مات قبل هذه الدعوة، ولم يدرك الإسلام، وهذه الأفعال التي يفعلها الناس اليوم يفعلها، ولم تقم عليه الحجة ما الحكم فيه؟ وهل يلعن أو يسب أو يكف عنه؟ وهل يجوز لابنه الدعاء له؟ وما الفرق بين من لم يدرك هذه الدعوة، وبين من أدركها، ومات معاديًا لهذا الدين وأهله؟

الجواب: أن من مات من أهل الشرك، قبل بلوغ هذه الدعوة، فالذي يحكم عليه أنه إذا كان معروفًا بفعل الشرك، ويدين به، ومات على ذلك فهذا ظاهره أنه مات على الكفر، فلا يدعى له، ولا يضحى له، ولا يتصدق عليه.

وأما حقيقة أمره فإلى الله تعالى، فإن كان قد قامت عليه الحجة في حياته، وعاند فهذا كافر في الظاهر والباطن، وإن كان لم تقم عليه الحجة فأمره إلى الله تعالى.

وأما سبه ولعنه فلا يجوز، بل لا يجوز سبُّ الأموات مطلقًا، كما في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (**لا تسبوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا**)[1]، إلاَّ إن كان أحدًا من أئمة

---

(١) البخاري (١٣٩٣) (٦٥١٦).

الكفر وقد اغتر الناس به، فلا بأس بسببه إذا كان فيه مصلحة دينية، والله أعلم(١).

وسئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء:

(السؤال الثاني من الفتوى رقم ٤٤٠٠)

س: هناك من يقول: كل من يتقيد برسالة محمد ﷺ واستقبل القبلة بالصلاة، ولو سجد لشيخه لم يكفر، ولم يسمِّه مشركًا حتى قال: إن محمد بن عبد الوهاب الذي تكلم في المشركين في خلودهم في النار إذا لم يتوبوا قد أخطأ وغلط، وقال: إن المشركين في هذه الأمة يعذبهم ثم يخرجهم إلى الجنة، وقال: إن أمة محمد لم يخلد فيهم أحد في النار.

ج: (كل من آمن برسالة نبينا محمد ﷺ، وسائر ما جاء به في الشريعة، إذا سجد بعد ذلك لغير الله من ولي وصاحب قبر أو شيخ طريق يعدُّ كافرًا مرتدًا عن الإسلام مشركًا مع الله غيره في العبادة، ولو نطق بالشهادتين وقت سجوده؛ لإتيانه بما ينقض قوله من سجوده لغير الله، لكنه قد يعذر لجهله، فلا تنزل به العقوبة حتى يعلم، وتقام عليه الحجة، ويمهل ثلاثة أيام إعذارًا إليه، ليراجع

(١) الدرر السنية (١٠/ ١٤٢).

نفسه عسى أن يتوب، فإن أصرَّ على سجوده لغير الله بعد البيان قتل لردته، لقول النبي ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**»(١)، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس.

فالبيان وإقامة الحجة للإعذار إليه قبل إنزال العقوبة به، لا ليسمَّى كافرًا بعد البيان، فإنه يسمَّى كافرًا(٢) بما حدث منه من سجود لغير الله، أو نذره قربة، أو ذبحه شاة مثلًا لغير الله.

وقد دل الكتاب والسنة على أن من مات على الشرك لا يغفر له ويخلد في النار لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، ولقوله: ﴿ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ [التوبة: ١٧]، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم)(٣).

نخلص مما سبق بيانه ونقله في مبحث العذر بالجهل إلى المسائل الآتية:

المسألة الأولى:

العذر بالجهل عذر معتبر عند أهل العلم، ودليلهم في ذلك الكتاب والسنة وأقوال السلف رحمهم الله تعالى، وذلك عندما يكون

(١) البخاري (٣٠١٧).
(٢) أي: قبل البيان.
(٣) فتاوى اللجنة الدائمة (١/ ٢٢٠).

الجهـل ممكنًا والعلم متعذرًا كحديث العهد بالإسـلام أو من نشـأ في بادية بعيدة ولم يسمع عن الإسلام شيئًا، أو من نشأ في بيئة بدعية، أما من كان جاهلًا بين المسلمين ويسمع عن الإسلام فأعرض عن سماع الحق ولم يرفع بذلك رأسًا فلا عذر له في جهله.

المسألة الثانية:

يختلف العذر بالجهل حسـب حال الشـخص وحسـب المسـألة المجهول بها، وذلك وفق التفصيلات الآتية:

أولا: إن كانت من مسائل الأحكام والحلال والحرام المجمع عليها، فإن الجهـل بالحكم عذر يمنع تكفير مسـتحلها حتى يعلم بحكمها، وتقام عليه الحجة في ذلك بشرط أن العلم بها من قبل كان متعذرًا لحديث العهد بالإسـلام أو من نشـأ في بادية بعيـده، والعذر هنا يشمل أحكام الدنيا والآخرة.

ثانيًا: إن كانت المسألة من مسائل العقيدة وأصول الإيمان، فإن العذر بالجهل فيها يكون حسـب جلاء هذه المسألة أو خفائها، وذلك على قسمين.

أ) إن كان من مسائل العقيدة الخفية التي لا تتضح إلا بالعلم وإقامـة الحجـة: كالـكلام في أسـماء الله الحسـنى وبعـض

أبواب القدر أو في مسائل الإيمان وَحدِّه وأركانه، وما كان من أمثال ذلك، فإن العذر بالجهل فيها مانع من التكفير والتبديع والتفسيق، حتى تقام الحجة، وتبين المحجة، ويزول الجهل عن صاحبه. فإن عاند واستكبر بعد البيان، فإنه لا عذر له بعد ذلك، ويحكم عليه بالكفر أو البدعة أو الفسق ويعاقب على ذلك، حسب المسألة التي عاند فيها.

ب) وإن كانت المسألة من مسائل العقيدة الجلية الواضحة، التي تنقض الإيمان من أصله: كالوقوع في الشرك الأكبر الجلي، كمن يستغيث بغير الله ﷻ فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، كمن يستغيث بالأموات والغائبين، وكمن يسب الله ﷻ أو يسب رسول الله ﷺ، أو يستهزئ بالدين، أو يهين المصحف ويلقيه في النجاسات، وهو يعلم أنه كلام الله ﷻ، أو من يظاهر الكفار على المسلمين مظاهرة جلية، يعلم أنها تسهم في انتصار الكفار على المسلمين وتمهد الطريق للكفار في احتلال بلدان المسلمين. فكل هذه النواقض الجلية إن كان فاعلها قاصدًا متعمدًا لفعله، فإنه بفعله هذا يكون كافرًا في أحكام الدنيا ولو كان جاهلًا بأن فعله الذي فعله يعد كفرًا مخرجًا من الملة، ويقصد بأحكام الدنيا ما يتعلق بالتعامل معه شخصيًّا كالامتناع من الصلاة عليه بعد

موتـه أو الصـلاة خلفه، وتـرك مناكحته، والتـوارث معه لـو مات عـلى فعله، أما الحكم عليـه في الآخرة بالخلود في النـار أو مقاتلته أو الحكـم عليه بالعقوبـة في الدنيا عقوبة شرعيـة بحد أو تعزير، فإنه يشـترط في ذلـك إقامة الحجة والاسـتتابة. ولـو مـات على ذلـك وكان جاهـلًا بالحكم جهـلًا يعذر بـه، وما يترتب عليه من عقوبـة، فإنه يمتحن يـوم القيامة، كـما في حديث الأربعة الذيـن يمتحنون يوم القيامة، وقد سـبق ذكره وتخريجه، لأن الله ﷻ عليم حكيم عدل، وقد قال في كتابه العزيز: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، والله أعلم بحاله.

إذن فلدينا هنا أربعة أحكام هي:

١- أحكام الدنيا وإطلاق اسم المشرك أو الكافر عليه.

٢- أحكام العقوبة بحد أو عقوبة إلهية في الدنيا.

٣- أحكام مقاتلته وجهاده إذا كان مع طائفة ممتنعة.

٤- أحكام العذاب والخلود في النار.

فأمـا ما يتعلق بالحكم الأول، وهـو أحكام الدنيا في التعامل معه وإطـلاق اسـم المشرك عليه ولـو كان جاهلًا، فهـذا لا نحتاج فيه إلى

إقامة الحجة، ولا عذر له في ذلك بجهله، إذ كيف يقال لمن سجد لغير الله أو ذبح له أو سب الله ورسوله بأنه مسلم لجهله بذلك؟.

وأما الأحكام الثلاثة الباقية فلابد في الحكم بها من العلم وزوال الجهل وإقامة الحجة، وهي التي كررها أهل العلم في كتبهم كشيخ الإسلام وأئمة الدعوة والشيخ الشنقيطي في أضواء البيان، فقد مر بنا قول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (بين سبحانه أنه لا يعاقب أحدًا حتى يبلغه ما جاء به الرسول ﷺ). ا.هـ.

وقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها، فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل) ا.هـ. وقال عنهم في موطن آخر: (هذا في أحكام الثواب والعقاب، وأما في أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر، فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا حكم أوليائهم) ا.هـ.

كما مر بنا قول الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (إن الله جل وعلا لا يعذب أحدًا من خلقه - لا في الدنيا ولا في الآخرة - حتى يبعث إليه رسولًا، ينذره ويحذره، فيعصي الرسول ويستمر على الكفر والمعصية بعد الإنذار والإعذار). ا.هـ.

فبينوا رحمهم الله تعالى أن إقامة الحجة بإرسال الرسل شرط في وقوع العذاب، وليس شرطًا في تسميته كافرًا.

وقد مر بنا ما صرحت به فتوى اللجنة الدائمة في الفتوى رقم (٤٤٠٠)، وذلك في قولهم: (فالبيان وإقامة الحجة للإعذار إليه قبل إنزال العقوبة به لا ليسمى كافرًا قبل البيان، فإنه يسمى كافرًا بما حدث منه من سجود لغير الله أو نذره قربة أو ذبحه شاة مثلًا لغير الله)[1] ا.هـ.

وبهذا البيان يزول بحمد الله الإشكال الذي قد يكون عند بعض من يقرأ لشيخ الإسلام أو أئمة الدعوة، فيجدهم تارة يعذرون، وتارة لا يعذرون، وقد يرى في ذلك تناقضًا في أقوالهم، والحقيقة أنه لا تناقض.

فقولهم بعذر الجاهل في أصل التوحيد والمتلبس بالشرك الأكبر واشتراطهم في ذلك قيام الحجة الرسالية، يتوجه إلى العذر الذي يرفع عنهم العقوبة في الدنيا والآخرة أو البداءة في قتالهم قبل الإنذار.

وأما قولهم بعدم الإعذار، فإنه يتوجه إلى أن الجهل لا يرفع عنهم اسم المشركين، وأنهم يعاملون بأحكام المشركين في الدنيا، ولو كانوا جهالًا، إذ من المحال أن يسمى من يستغيث بغير الله ﷻ ويذبح له

(١) سبق ذكر هذه النقولات فليرجع إليها.

وينذر له أو من يسب الله ﷻ ويهين المصحف، محال أن يسمى مسلمًا، وإنما يسمى مشركًا أو كافرًا.

ومع ذلك فهناك من أهل العلم من يعذر بالجهل في جميع الأحكام الدنيوية والأخروية من تلبس بالشرك الأكبر من المنتسبين إلى الإسلام، ممن يشهد الشهادتين، ويصلي ويؤدي، أحكام الإسلام، إذا لم يجد من يعلمه التوحيد، ويسميه مسلمًا. ومع مخالفة هذا القول لما سبق بيانه من الأدلة، وأقوال الكثير من أهل العلم، فإن هذا موطن اجتهاد من بعض أهل العلم، لا ينبغي أن يكون سببًا في الفرقة وتضليل كل طرف للآخر.

أما أمرهم في الآخرة فهو إلى الله ﷻ، حيث يمتحنهم الله ﷻ، كما مر بنا في حديث الأربعة الذين يدلون بحجتهم يوم القيامة.

المانع الثاني من موانع التكفير: الخطأ:

الخطأ في اللغة ضد الصواب، قال أهل اللغة: المخطئ: من أراد الصواب فصار إلى غيره[1].

وقال الراغب في مفرداته: (الخطأ: العدول عن الجهة، ثم ذكر بعض صور الخطأ فقال: كمن يريد ما يحسن فعله، ولكن يقع منه خلاف ما يريد)[2].

---

(١) انظر: لسان العرب (١/ ٦٥).
(٢) المفردات ص (١٥١).

وقد وردت نصوص من الكتاب والسنة في عذر المخطئ، ورفع المؤاخذة عنه، ومن هذه النصوص ما يلي:

١- قوله سبحانه: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥].

قال الحافظ في الفتح: (... قال ابن التين: أجرى البخاري قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِۦ ﴾، في كل شيء.

وقال غيره: هي في قصة مخصوصة، وهي: ما إذا قال الرجل: يا بُني وليس هو ابنه... ولو سلّم أن الآية نزلت فيما ذكر، لم يمنع ذلك من الاستدلال بعمومها، وقد أجمعوا على العمل بعمومها في سقوط الإثم)(١).

٢- قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣]، فاختص الوعيد بقاتل المؤمن عمدًا، وفرّقت الآيات والنصوص بين القتل العمد، والقتل الخطأ في الإثم وأحكام الآخرة.

٣- قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وثبت

---

(١) فتح الباري (١١/ ٥٥١).

في الحديث الصحيح أن الله سبحانه استجاب لهذا الدعاء، فقال: **(فقد فعلت)**(١).

٤- قوله ﷺ: **(إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه)**(٢)، قال ابن رجب في شرحه لهذا الحديث: (الخطأ: هو أن يقصد بفعله شيئًا فيصادف فعله غير ما قصده، مثل أن يقصد قتل كافر فصادف قتله مسلمًا، والنسيان أن يكون ذاكرًا الشيء فينساه عند الفعل، وكلاهما معفوٌّ عنه)(٣).

٥- قول الرجل الذي أيس من راحلته بعد أن أضلَّها وعليها طعامه وشرابه: (اللهم أنت عبدي، وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح)(٤).

والمستفاد من الأدلة السابقة أن كلًا من الإثم والمؤاخذة مرفوع، فالعذر هنا بمعنى عدم التأثيم.

قال ابن رجب عن المخطئ والناسي: (وكلاهما معفوٌّ عنه: يعني: لا إثم فيه، ولكنّ رَفْع الإثم لا ينافي أن يترتب على نسيانه حكم، ولو قتل مؤمنًا خطأً فإن عليه الكفّارة والدية بنص الكتاب، وكذا لو أتلف مال غيره خطأً بظنه أنه مال نفسه، والأظهر - والله أعلم - أن الناسي

(١) مسلم (١٢٦).
(٢) ابن ماجه (٢٤٠٥)، والحاكم (٢/ ١٩٨)، وصححه ولم يتعقبه الذهبي.
(٣) جامع العلوم والحكم ص (٣٥٢).
(٤) مسلم (٤٩٣٢).

والمخطئ إنما عفي عنهما بمعنى رفع الإثم عنهما؛ لأن الإثم مرتب على المقاصد والنيات، والناسي والمخطئ لا قصد لهما فلا إثم عليهما، وأما رفع الأحكام عنهما، فليس مرادًا من هذه النصوص، فيحتاج في ثبوتها ونفيها إلى دليل آخر)[١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: (فمن كان خطؤه لتفريطه فيما يجب عليه من اتباع القرآن والإيمان مثلًا، أو لتعدِّيه حدود الله بسلوك السبل التي نهي عنها، أو لاتباع هواه بغير هدى من الله، فهو الظالم لنفسه، وهو من أهل الوعيد، بخلاف المجتهد في طاعة الله ورسوله باطنًا وظاهرًا، الذي يطلب الحق باجتهاده، كما أمره الله ورسوله، فهذا مغفور له خطؤه)[٢].

وأوضح مثال على العذر بالخطأ ما ورد في الحديث السابق الذي جاء فيه خطأ ذلك الرجل الذي وجد راحلته بعد أن أيقن بالموت، فقال من شدة الفرح: (اللهم أنت عبدي، وأنا ربك) زل لسانه وأخطأ في تعبيره في الثناء على ربه، حيث أراد أن يقول (اللهم أنت ربي، وأنا عبدك) فأخطأ في التعبير من شدة الفرح، ولم يكن قاصدًا وداعيًا لما يقول، فمثل هذا يعذر ولا شك، ومثله من عبر عن إسلامه أو ثنائه لله عَزَّوَجَلَّ ممن لم يفهم العربية بكلمات في سب الله عَزَّوَجَلَّ ولكنه لم يقصد السب، بل كان قصده الثناء على الله عَزَّوَجَلَّ، فأخطأ في التعبير لجهله بالعربية.

---

(١) جامع العلوم والحكم ص (٣٥٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣١٧).

ومـن الأمثلـة الواضحـة في ذلك أيضًـا من أهـان المصحف بأن وطـئ عليه أو ألقاه في أماكن الوسـخ، ولم يعلم بأنه قرآنًا، ظنًّا منه أنه كتـاب فلك أو جغرافيا أو قاموس أعجمـي، فمثل هذا يعذر بخطئه لأنـه لم يقصـد الإهانة لعدم علمه بأنه مصحف. أمـا لو كان عالمًا بأنه قـرآن، ولما أنكر عليه قال: إنه لم يكـن يعلم بأن فعله هذا كفر. فإنه لا يعـذر بذلك، ففرق بين من يهين المصحف قاصدًا عالمًا بأنه كلام رب العالمـين، وبين من يهينه جاهلًا أنه مصحف، ولو علم أنه قرآن لبجله وأكرمه، فالأول غير معذور والثاني معذور.

المانع الثالث من موانع التكفير: التأويل:

يقصـد بالتأويل: ما يعرض للشـخص من فهم خاطئ لنصوص الوحـي، ممـا يكـون مخالفًا لمـا فهمـه السـلف الصالح مـن الصحابة والتابعين وأئمة الدين؛ ومنه ما يذم ويأثم صاحبه، ومنه دون ذلك.

أما التأويل الذي ذمه السلف وكفروا أهله فهو ما يفضي إلى تعطيل أحكام الشريعة، لأنه من أكبر أصول الضلال والانحراف، حيث كان ذريعـة لغلاة الجهمية والباطنية والمتصوفة في تأويل التكاليف الشرعية على غير حقيقتها أو إسقاطها، والإلحاد في أسماء الله تعالى وصفاته بنفيها جميعًا.

أمـا إذا كان مما لا يعطـل الشريعـة لكن يـؤدي إلى المخالفة دون قصد، فهو من قبيل الخطأ في الفهم الذي قد يكون سببه الجهل، وهذا مورد مـن موارد الاجتهاد عند إصدار الأحـكام، وينزل منزلة الخطأ في الاجتهاد.

ولهذا كان من التأويل نوع يُعذر به، ونوع آخر لا يُعذر به، وذلك بالنظـر إلى حقيقـة كل منهـما، ويظهـر الفرق بـين ما كان منـه تعطيلًا للشريعة وتكذيبًا، وما كان من قبيل الخطأ، مع حسن الاعتقاد وقصد الموافقة للشريعة، ومن أمثلة ذلك:

أولا: مـاورد في الصحيحين من حديث أبي سـعيد الخدري رضي الله عنه قـال: جـاء بلال إلى ا لنبـي ﷺ بتمر بـرني[١] فقال له النبـي ﷺ: **(من أيـن هذا)**؟ قال بلال: كان عندنا تمر رديءٌ، فبعت منه صاعين بصاع لنطعـم بـه النبـي ﷺ، فقـال ﷺ: **(أوّه أوّه، عـين الربا، عـين الربا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيع آخر، ثم اشتره)**[٢].

ثانيًـا: عمل بعـض الصحابـة والتابعين ببيع الصاعـين بالصاع؛ لقولـه ﷺ: **(إنما الربا في النسـيئة)**[٣]، مثل ابن عباس وعطاء وطاوس وابـن جبـير وغيرهم، وقد عـذر النبي ﷺ بـلالًا، وعذر أهلُ العلم

(١) البرني: نوع من التمر الجيد.
(٢) البخاري (٢١٤٥).
(٣) مسلم (٢٩٩١).

مـن بعد من قَـصَرَ الربا على النسـيئة، لعدم بلوغهم الخبر، أو لشـبهة عرضـت في فهم قوله ﷺ: **(إنما الربا في النسـيئة)** حين عملوا بمفهوم المخالفة مع وجود النص على تحريم ربا الفضل في الأصناف الربوية.

ثالثًـا: ما وقـع من قدامة بـن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تأويله لاسـتحلال الخمر، مما درأ عنه حد الردة بالاسـتحلال إلى حد شارب الخمر، وقد روى هذه القصة بعض أئمة الحديث، وهذا نصها:

عـن عامـر بـن ربيعـة وكان أبـوه قـد شـهد بـدرًا: أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استعمل قدامة بن مظعون على البحرين، وهو خال حفصة وعبدالله ابـن عمـر، فقدم الجارود سـيد عبد القيـس على عمر، فقـال: يا أمير المؤمنـين إن قدامـة شرب فسـكر، وإني رأيـت حـدًّا مـن حـدود الله حقًّـا عـليَّ أن أرفعه إليك، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من شـهد معك؟ قال: أبو هريـرة. فدعـا أبا هريرة فقال: بم تشـهد؟ قـال: لم أره شرب، ولكنِّي رأيته سكران يقيء. فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد تنطعت في الشهادة. قال: ثم كتـب إلى قدامـة أن يقدم عليه من البحرين، فقـدم فقام إليه الجارود، فقال: أقم على هذا كتاب الله. فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخصمٌ أنت أم شهيدٌ؟ قال: بل شـهيد. قال: فقد أديت الشهادة. فصمت الجارود حتى غدا عـلى عمـر، فقال: أقم على هـذا حد الله. فقال عمـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أراك إلا خصـمًا، وما شـهد معك إلا رجـلٌ. فقال الجـارود: إنِّي أنشـدك الله.

فقال عمر: لتمسكن لسانك أو لأسوءنك. فقال أبو هريرة: إن كنت تشكُّ في شهادتنا، فأرسل إلى ابنةِ الوليد فسلها، وهي امرأة قدامة. فأرسل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى هند بنت الوليد ينشدها، فأقامت الشهادة على زوجها، فقال عمر لقدامة: إنِّي حادُّك. فقال: لو شربتُ كما يقولون ما كان لكم أن تجلدوني. فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لم؟ قال قدامة: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ الآية. قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنك أخطأت التأويل، إن اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله عليك. قال: ثم أقبل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الناس، فقال: ماذا ترون في جلد قدامة؟ قالوا: لا نرى أن تجلده ما كان مريضًا. فسكت عن ذلك أيامًا، ثم أصبح يومًا وقد عزم على جلده، فقال لأصحابه: ما ترون في جلد قدامة؟ فقال القوم: ما نرى أن تجلده وجعًا. فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لأن يلقى الله عَزَّ وَجَلَّ تحت السياط أحب إليَّ من أن يلقاه وهو في عنقي. ائتوني بسوط تام. فأمر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقدامة فجلد)(١).

فالتأويل عذر معتبر عند إجراء الأحكام، (لا أدل على ذلك من إجماع الأئمة الأربعة وجماهير السلف على عدم تكفير أصحاب الأهواء، من كان منهم على أصل الإيمان بالله ورسوله، برغم أن ما

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٣١٥)، النسائي في سننه الكبرى (٢/ ٢٥٣)، عبدالرزاق في المصنف (٩/ ٢٤٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٥٤٦)، وأصله في البخاري.

ينتحلونه من العقائد لو انتحلها غيرهم بلا تأويل؛ بل لمجرد الرد لنصوص الشريعة، لكان كافرًا بلا نزاع، لاسيما من اجترأ منهم على استحلال دماء المسلمين، كالخوارج وأمثالهم، فإن من استحل دم المسلم - لا سيما إذا تقرب إلى الله بقتله - فهو كافر بالإجماع، ولكن الخوارج لم يكفروا بذلك عند جمهور أهل العلم؛ اعتبارًا لما قام لديهم في ذلك من التأويلات برغم فسادها) (١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (لكن المقصود هنا: لا يُجْعَلُ أحدٌ بمجرد ذنب يذنبه ولا ببدعة ابتدعها - ولو دعا الناس إليها - كافرًا في الباطن، إلا إذا كان منافقًا، فأما من كان في قلبه الإيمان بالرسول وما جاء به، وقد غلط في بعض ما تأوله من البدع، فهذا ليس بكافر أصلًا. والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالًا للأمة وتكفيرًا لها، ولم يكن في الصحابة من يكفرهم، لا علي بن أبي طالب ولا غيره؛ بل حكموا فيهم بحكمهم في المسلمين الظالمين المعتدين، كما ذكرت الآثار عنهم بذلك في غير هذا الموضع)(٢).

وينقسم التأويل إلى:

١- تأويل يعذر صاحبه. ٢-تأويل لا يعذر صاحبه.

---

(١) الثوابت والمتغيرات د. صلاح الصاوي ص (٢٠٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢١٧).

أولًا: التأويل الذي يعذر صاحبه:

هو الذي لا مؤاخذة على صاحبه، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أمثلة لذلك، منها استحلال ابن عباس رضي الله عنه بيع الصاعين بصاع، يدًا بيد مع وجود النصوص الشرعية على تحريمه. ومنها ما وقع بين الصحابة رضي الله عنهم من قتال في صفين والجمل وغيرها، مع ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**)[(١)]، ثم قال رحمه الله تعالى بعد ما سرد أمثلة أخرى غير ما ذكر: (وهذا باب واسع، فإنه يدخل فيه جميع الأمور المحرمة بكتاب أو سنة، إذا كان بعض الأمة لم يبلغهم أدلة التحريم فاستحلوها، أو عارض تلك الأدلة عندهم أدلة أخرى رأوا رجحانها عليها، مجتهدين في ذلك الترجيح بحسب عقلهم وعلمهم)[(٢)].

أقسام التأويل الذي يعذر صاحبه:

وهذا النوع من التأويل باعتبار انتفاء الإثم أو الكفر عن صاحبه، حيث ينقسم إلى قسمين:

---

(١) البخاري (٣١)، مسلم (٢٨٨٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٦٣-٢٦٨) باختصار.

الأول: ما لا يكفر صاحبه ولا يأثم:

وهو التأويل السائغ[١]، وهو ما كان من جنس التأويلات التي تتعلق بالفروع، سواء أكانت في العقيدة أم في الشريعة، ما دامت داخل دائرة السنة؛ ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة: أنه لا إثم على المجتهد وإن أخطأ.

يقول الإمام الشافعي: (لم نعلم أحدًا من سلف هذه الأمة يقتدى به ولا من التابعين بعدهم ردّ شهادة أحد بتأويل، وإن خطّأه وضلّله، ورآه استحل فيه ما حرم عليه، ولا ردّ شهادة أحد بشيء من التأويل كان له وجه يحتمله، وإن بلغ فيه استحلال الدم والمال أو المفرط من القول)[٢].

ومثال ذلك من أوَّل في صفة لاشتباه الأدلة عليه، أو لعدم بلوغها إياه، كما وقع من بعض السلف القول بتأويل صفة العجب، أو الصورة، ونحو ذلك من غير اعتماد التأويل كأصلٍ في تعطيل الصفات، فإن هذا لا يوجب تضليلًا ولا تبديعًا. قال شيخ الإسلام: (ولا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة، وإن كان في المسائل العلمية، ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء هذه الأمة)[٣]. ومع ذلك يبين الحق، ويرد على المخطئ.

---

(١) يعني: التأويل الذي لصاحبه شبهة توجب عذره وتدرأ الإثم عنه، لا أن تأويله جائز وصواب.
(٢) الأم للشافعي (٦/ ٣٠٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٦٦).

الثاني: ما يأثم صاحبه ويضلل ولا يكفر:

وذلك مثل تأويلات أهل البدع والفرق الضالة، فإنه وإن كان لا يحكم بكفرهم في الجملة، إلا أنه لا ينتفي عنهم الإثم، ولا يدرأ عنهم الحكم بالتبديع والمخالفة، فالاحتجاج بالتأويلات لنفي وصف الابتداع عنهم خطأ، وإهدارها وإطراحها والحكم بكفرهم خطأ أيضًا، فهي على فسادها تقبل في نفي الكفر، ولا تقبل في نفي البدعة، والدليل على ذلك اتفاق أهل العلم على تبديع عامة الفرق الضالة الثنتين والسبعين من ناحية، وترك الحكم بتكفيرها من ناحية أخرى.

قال ابن قدامة: (ومن اعتقد حل شيء أجمع على تحريمه وظهر حكمه بين المسلمين، وزالت الشبهة فيه للنصوص الواردة فيه، كلحم الخنزير والزنا وأشباه هذا، مما لا خلاف فيه كفر، لما ذكرنا في تارك الصلاة، وإن استحل قتل المعصومين وأخذ أموالهم بغير شبهة ولا تأويل فكذلك. وإن كان بتأويل كالخوارج، فقد ذكرنا أن أكثر الفقهاء لم يحكموا بكفرهم، مع استحلالهم دماء المسلمين وأموالهم، وفعلهم لذلك متقربين به إلى الله تعالى، وكذلك لم يحكم بكفر عبدالرحمن بن ملجم مع قتله أفضل الخلق في زمنه متقربًا بذلك، ولا يكفر المادح له على هذا، المتمِّني مثل فعله، فإن عمران بن حطان قال فيه يمدحه لقتل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يا ضربةً من تقي ما أرادَ بها   إلا ليبلغَ عند الله رِضوانًا
إني لأذكرهُ يومًا فأحسبُه   أوفى البريةِ عند الله ميزانًا

وقد عرف من مذهب الخوارج تكفير كثير من الصحابة ومن بعدهم، واستحلال دمائهم، وأموالهم، واعتقادهم التقرب بقتلهم إلى ربهم، ومع هذا لم يحكم الفقهاء بكفرهم لتأويلهم، وكذلك يُخَرَّج في كل مُحرم استُحِلَ بتأويل مثل هذا)[(١)].

ومن الأمثلة المعاصرة التي يعذر فيها المتأولون، وقد يأثمون لكنهم لا يكفرون: دخول بعض الدعاة من المسلمين المجالس البرلمانية الكفرية في الحكومات العلمانية التي لا تحكم بشرع الله ﷻ اجتهادًا منهم في أنهم يحاولون الإصلاح ودرء الفساد أو تخفيفه ظانين أنهم سيعيدون شرع الله إلى هذه المجالس بدخولهم فيها، أو أنهم يراغمون دعاة العلمنة فيها، وأن ذلك من باب المصلحة الضرورية وارتكاب أهون المفسدتين ومع تخطئتهم في ذلك أو تضليلهم لتلبسهم بما لازمه الكفر، إلا أنه لا يجوز تكفيرهم لمانع التأويل وقيام الشبهة لديهم، وقد مر بنا قاعدة: أن اليقين لا يزول بالشبهة وإنما بيقين مثله، وسيأتي في الأصل السابع بيان أن المعين لا يحكم عليه بمآل قوله ولازمه إلا إذا التزمه.

---

(١) المغني لابن قدامة (١٠/ ٨٣).

ثانيًا: التأويل الذي لا يعذر صاحبه:

أمـا التأويـل الـذي لا يقبـل في الـشرع ولا يعـذر صاحبـه، ولا ينفـي عنـه الكفر والإثم، فهـو الذي - في حقيقة أمـره - ينطوي على التكذيب لما جاء به الرسـول ﷺ: إمـا بتكذيب الدين جملة وتفصيلًا، وإما بجحود أصل لا يقوم الدين إلا به.

ومن هـذا القبيل تأويـلات الباطنية والفلاسـفة ونحوهم، التي تدور على الإلحاد والكفر باليوم الآخر، إذ من تأويلاتهم ما يؤدي إلى القول بأن الله تعالى لا يعلم الجزئيات، وإنكار حشر الأجساد.

ومنهـا ما يفـضي إلى تعطيل الأحكام العمليـة، كتأويل الفرائض والأحـكام بما يخرجها عن حقيقتها الشرعية، بما يستبيحون معه ترك الفرائض واسـتحلال المحرمات، حيث قالوا بسـقوط التكاليف عن بعضهم وحلّ الموبقات والمحرمات لهم.

قال ملا علي القاري: (وأما من يؤول النصوص الواردة في حشر الأجسـاد وحدوث العالم، وعلم الباري بالجزئيات؛ فإنه كفر، لما علم قطعًا من الدين أنها على ظواهرها)[١][٢].

(١) شرح الفقه الأكبر ص (٦٩).
(٢) انظر: الإحكام في قواعد الحكم على الأنام ص (٨٧-٨٩).

المانع الرابع من موانع التكفير: الإكراه:

الإكراه هو: حمل الغير قهرًا على ما ينافي رضاه واختياره.

قال ابن حجر: (هو إلزام الغير بما لا يريده)[١].

وقال علاء الدين البخاري هو: (حمل الغير على أمر يمتنع عنه بتخويف يقدر الحامل على إيقاعه، ويصير الخائف فائت الرضا بالمباشرة)[٢].

والإكراه معتبر عند إجراء الأحكام باتفاق أهل العلم، وإن اختلفوا في صوره، وأحكام كل صورة، وشروط الإكراه المعتبر.

يدل على هذا الأصل قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [النحل: ١٠٦].

والمشهور في سبب نزولها: ما ورد عن محمد بن عمار بن ياسر قال: (أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، ثم تركوه، فلما أتى رسول الله ﷺ قال: **(ما وراءك؟)** قال: (شرٌّ يا رسول الله، ما تُركت حتى نلتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير)، قال: **(كيف تجد قلبك؟)**، قال: (مطمئنًا بالإيمان)، قال: **(إن**

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٢١٣).
(٢) انظر: نواقض الإيمان الاعتقادية، د. الوهيبي.

عادوا فعد) [١]. قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (واتفقوا على أنه -أي عمارًا- نزل فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾) [٢].

قال أبو بكر الجصاص عن هذه الآية: (هذا أصل في جواز إظهار كلمة الكفر في حال الإكراه) [٣]، بل إن هذا أصل العذر بالإكراه في الأصول والفروع، قال ابن العربي: (لما سمح الله تعالى في الكفر به [٤]، وهو أصل الشريعة عند الإكراه ولم يؤاخذ به؛ حمل العلماء عليه فروع الشريعة، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به) [٥].

وفي الحديث: (**إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)** [٦].

شروط الإكراه المعتبر:

يكون الإكراه عذرًا معتبرًا في إجراء الأحكام بشروط ملخصها ما يلي:

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٢٢). ورواه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، (٢/ ٣٥٨)، ط الهندية، ورواه البيهقي في السنن الكبرى (١٧٣٥٠).

(٢) الإصابة لابن حجر (٧/ ٧٦٥)، نقلاً عن (موسوعة الرد على الصوفية) (٤٠/ ٢٣).

(٣) أحكام القرآن (٣/ ١٩٢).

(٤) أي: (في الكفر بالإيمان بالله).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١١٨٠).

(٦) سبق تخريجه.

١ - أن يكون المكرِه قادرًا على إنفاذ وعيده.

٢ - أن يكون المكرَه عاجزًا عن الدفع عن نفسه بأي صورة.

٣ - أن يغلب على ظن المكرَه وقوع الوعيد المهدَّد به إن لم يفعل ما طلب منه.

٤ - أن يكون الضرر المترتب على الإكراه كبيرًا كالقتل، والضرب الشديد، والحبس الطويل ونحو ذلك، بخلاف الحبس اليسير والشتم ونحو ذلك)[١].

والإجماع منعقدٌ على جواز التلفظ بالكفر تحت تأثير الإكراه[٢]، ووقع بين الفقهاء خلاف في جوازه بالفعل دون القول، ولعل الراجح الجواز، وإن كان (الأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله)[٣].

وبعارض الإكراه ننتهي من موانع التكفير المعتبرة عند أهل العلم، وننتقل ثانيًا إلى الضابط الثاني من ضوابط التكفير، ألا وهو:

ثانيًا: شروط إجراء الأحكام:

وبين هذه الشروط والموانع المذكورة سابقًا تلازم وارتباط.

وتتلخص هذه الشروط فيما يلي:

(١) المغني لابن قدامة (٧/ ١٢٠).
(٢) فتح الباري (١٢/ ٢١٤)، إحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١١٧٨).
(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٨)، المغني (٨/ ١٤٦).

الشرط الأول: التحقق من انتفاء الموانع:

يتعين التحقق أولًا من انتفاء موانع الكفر بحق من تلبس بعقيدة أو قـول أو فعل كفري، بحيث لا يكـون معذورًا بأي مانع من موانع الأهلية، التي تمنع إجراء الأحكام على المكلف، كما سبق بيانه.

الشرط الثاني: التثبت من الفعل والقصد:

كما يتعين التثبُّت والتحقق من القول أو الفعل وحقيقته وملابسات ذلـك، وقد تقـدم الحديث عن القصـد وأحواله في الحكـم على أعمال المكلّف، إذ الأصل فيمن ينتسب إلى الإسلام بقاؤه عليه، حتى يتحقق زوال ذلك عنه بمقتضى الدليل الشرعي، ولا يجوز التساهل أو التهاون في إطلاق أحكام الكفر أو الفسق أو البدعة على أحد؛ لما يتضمنه ذلك مـن افتراء الكذب عـلى الله في الحكم، وعلى المحكـوم عليه بالوصف الـذي لا يرضـاه، كـما أن من كفَّر مسـلمًا من غير حـق ولا تثبُّت، فقد تعـدى حـدود الله فيه، وتعـرض للوعيد الشـديد، وفي الحديث: «**من دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدو الله. وليس كذلك إلا حار عليه**»(١).

وفي وجـوب التثبُّـت والتحـرِّي يقـول الله تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].

(١) مسلم (٦١).

وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحجرات: ١٢]، وقد حذر الله تعالى المؤمنين من مسلك الأخذ بالشبهة والتهمة والظنة في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[النساء: ٩٤].

الشرط الثالث: قيام الحجة على وجهها الصحيح:

إن التكليف لا يَثْبُتُ إلا بالشرع، فوجوب الواجبات وتحريم المحرمات لا يثبتان إلا بالشرع، فلا تُعَدُّ الفطرة ولا العقل ولا الرأي مناطًا للتكليف تقوم به الحجة على الخلق؛ بل لا يكون ذلك إلا بالوحي وإرسال الرسل.

ثم إن الشرع قد يرد، ولكنه لا يثبت في حق المكلّف التكليف به إلا بعد بلوغه له، فمن لم يبلغه أمر الله ورسوله بشيء معين أو نهيهما عنه؛ لم يثبت حكم وجوبه أو تحريمه عليه، على الصحيح من أقوال أهل العلم(١).

(١) انظر: الإحكام في قواعد الحكم على الأنام د. محمد يسري ص (٩٣).

يقـول ابن القيـم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: (إن قيـام الحجة يختلـف باختلاف الأزمنـة والأمكنـة والأشـخاص، فقد تقوم حجة الله عـلى الكفار في زمـان دون زمـان، وفي بقعـة وناحيـة دون أخرى، كما أنهـا تقوم على شـخص دون آخـر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغـير والمجنون، وإما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب، ولم يحضر ترجمانًا يترجم له، فهذا بمنزلة الأصمّ الذي لا يسـمع شـيئًا ولا يتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة، كما تقدم في حديث الأسود وأبي هريرة وغيرهما)(١).

وقد سـبق ذكـر هذه الشروط عنـد الحديث عن مانـع الجهل في موانع التكفير.

---

(١) طريق الهجرتين ص (٤١٤)، وسبق تخريج الحديث.

الأصل السابع

لا يحكم على المعيَّن بمآلات كلامه أو فعله ولا يُلزم بلوازم ذلك إلا بعد التزامها

يقصد بمآل الكلام ما يفضي إليه كلام المتكلم من المعاني، ولو لم يقصدها، والعلماء متفقون على عدم جواز الحكم على المكلف بتكفيره أو تبديعه بمآل كلامه ولازم قوله، إلا أن يُعرَض عليه هذا المآل فيقول به أو اللازم فيلتزمه.

ويقصد بالتكفير بالمآل: أن يقول قولًا يؤدي سياقه إلى كفر، وهو إذا وقف عليه لا يقول بما يؤول كلامه إليه، كحال بعض أهل البدع والمتأولين[١].

يقول ابن رشد: (ومعنى التكفير بالمآل: أنهم لا يصرحون بقول هو كفر، ولكن يصرحون بأقوال يلزم عنها الكفر، وهم لا يعتقدون ذلك اللزوم)[٢].

وقد منع العلماء التكفير بالمآل، يقول الشاطبي: (والذي كنا نسمعه من الشيوخ: أن مذهب المحققين من أهل الأصول: أن الكفر

(١) انظر: الإحكام في قواعد الحكم على الأنام ص (١٠١).
(٢) بداية المجتهد (٢/ ٤٩٢).

بالمآل ليس بكفر في الحال، كيف والكافر ينكر ذلك المآل أشد الإنكار، ويرمي مخالفه به؟!)(١).

ويبطل ابن حزم التكفير بالمآل، فيقول: (وأما من كفّر الناس بما تؤول إليه أقوالهم فخطأ؛ لأنه كذب على الخصم وتقويل له ما لم يقل به، وإن لزمه فلم يحصل على غير التناقض فقط، والتناقض ليس كفرًا؛ بل قد أحسن، إذ قد فر من الكفر..)(٢).

ويقول ابن تيمية: (لازم قول الإنسان نوعان: أحدهما: لازم قوله الحق، فهذا مما يجب عليه أن يلتزمه، فإن لازم الحق حق، ويجوز أن يضاف إليه إذا علم من حاله أنه لا يمتنع من التزامه بعد ظهوره، وكثير مما يضيفه الناس إلى مذهب الأئمة من هذا الباب.

والثاني: لازم قوله الذي ليس بحق، فهذا لا يجب التزامه؛ إذ أكثر ما فيه أنه قد تناقض، وقد بينت أن التناقض واقع من كل عالم غير النبيين، ثم إن عرف من حاله أنه يلتزمه بعد ظهوره له فقد يضاف إليه، وإلا فلا يجوز أن يضاف إليه قول لو ظهر له فساده لم يلتزمه، لكونه قد قال ما يلزمه، وهو لم يشعر بفساد ذلك القول ولا يلتزمه.

وهذا التفصيل في اختلاف الناس في لازم المذهب: هل هو مذهبٌ أو ليس بمذهب؟ هو أجود من إطلاق أحدهما، فما كان من

---

(١) الاعتصام (٢/ ١٩٧).

(٢) الفصل في النحل والملل (٣/ ٢٩٤).

اللوازم يرضاه القائل بعد وضوحه له فهو قوله، وما لا يرضاه فليس قوله)[١].

وأورد السخاوي مقالة شيخه ابن حجر، حيث قال: (والذي يظهر أن الذي يحكم عليه بالكفر من كان الكفر صريح قوله، وكذا من كان لازم قوله، وعرض عليه فالتزمه، أما من لم يلتزمه وناضل عنه، فإنه لا يكون كافرًا، ولو كان اللازم كفرًا)[٢].

وخلاصة ما سبق: أن لازم أقوال المذاهب والعلماء له ثلاث حالات:

- **الحالة الأولى:** أن يذكر اللازم للقائل ويلتزم به، فهو يعد قولًا له.
- **الحالة الثانية:** أن يذكر له اللازم ويمنع التلازم بينه وبين قوله، فهذا ليس قولًا له، بل إن إضافته إليه كذب عليه، ولكن ذكر لازم القول يذكر لإثبات تناقض قائله.
- **الحالة الثالثة:** أن يكون اللازم مسكوتًا عنه، فلا يذكر بالتزام ولا مَنْع، فحكمه في هذه الحال ألا ينسب إلى القائل؛ لأنه يحتمل لو ذكر له أن يلتزم به أو يمنع التلازم، ويحتمل لو ذكر فتبين له لزومه وبطلانه أن يرجع عن قوله[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٠٦-٣٠٧).
(٢) فتح المغيث (١/ ٣٣٤).
(٣) القواعد المثلى، للشيخ ابن عثيمين ص (١٥).

وبهذا يعلم أنه لا يصح التكفير بلازم المذهب بإطلاق، خاصة إذا كان مَنْ تلبس به ينفي ذلك اللازم وينكره، أو كان يجهله، أو يغفل عنه.

من الأمثلة على ذلك:

١- من المعلوم أن غلاة المرجئة يقولون: إن الإيمان هو التصديق. ولا يدخلون العمل في مسمى الإيمان، ولازم هذا المعتقد القول بإيمان إبليس وإيمان من أقر وصدق من اليهود بنبوة محمد ﷺ ولم يتبعه، ولكن لا يجوز نسبة هذا القول إلى المرجئة وإن كان هو لازم عقيدتهم، لأنهم لا يلتزمون به ويرفضونه، ولكن ذكر لازم القول للخصم يستخدم في المناظرة لإظهار تناقضه، وبيان فساد مقالته.

٢- وهذا مثال من واقعنا المعاصر، ألا وهم أولئك الذين يشاركون في مؤتمرات وحدة الأديان وتقاربها والحوار معها، ويحضر ملتقياتها التي تعقد لذلك، فهل يجوز الحكم بكفر من يحضرها ويدعو إليها، بدعوى أن لازم فعله تصحيح دين الكفار؟ فالجواب: كلا. لأنه لا يلزم من دعا إلى ذلك وحضر مؤتمراتها أنه يصحح دين الكفار، بل إن كثيرًا ممن يحضرها من المنتسبين إلى العلم يرى كفر كل الديانات سوى الإسلام، ولكنه يحضر بنية الدعوة إلى الإسلام، وبيان بطلان ما يخالفه، ويستدل على ذلك بقوله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران: ٦٤]، نعم إن حضور هذه المؤتمرات فيه تلبيس على المسلمين، وهي دعوة خبيثة، يجب أن تقاطع، ويحذر منها. لكن لا يجوز المسارعة بتكفير من دخلها، لأن لازم القول والفعل ليس بلازم، ولأن نوايا الداخلين فيها تختلف، فمن حضرها ليقول الحق ويبين بطلان جميع الأديان ما عدا الإسلام امتثالًا لقوله تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾ الآية [آل عمران: ٦٤]، ويدعو الحاضرين إلى الإسلام فهو مجتهد مأجور، ومن حضرها وسكت عما يقال فيها من باطل مع إنكاره بقلبه، فهو على إثم كبير، إذ كان عليه أن يفارقهم، ومن حضرها ليداهن الكفار ويصحح أديانهم، فهذا كفر وضلال.

تعقيبات

في ختـام هذا البحـث أذكر هنا بعض التعقيبـات المهمة على هذا الموضوع المهم تتمة للفائدة:

التعقيب الأول

ليس لكل من تبين له الحكم على معين إعلان ذلك وبيانه

بـوب البخاري رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ في الجامـع الصحيح، فقال: (باب من ترك بعـض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، فيقعوا في أشـد منه)[١]، وذكر في هذا الباب الحديث الذي روته عائشـة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أن النبي ﷺ قال: (**يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم - قال ابن الزبير بكفر - لنقضت الكعبة، فجعلت لها بابين: باب يدخل الناس، وباب يخرجون**)، ففعله ابن الزبير[٢].

كما بوب بابًا آخر قال فيه: (باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا)[٣].

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٣٥).
(٢) البخاري (١٢٦).
(٣) البخاري (١/ ٣٧).

وذكر في هذا الباب الأثر الوارد عن علي رضي الله عنه: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله)[١].

يقول ابن حجر رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الأثر عن علي رضي الله عنه: (وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة، ومثله قول ابن مسعود رضي الله عنه: (ما أنت محدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)[٢]، وممن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات[٣] وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة، كما تقدم عنه في الجرابين، وأن المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة. وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس رضي الله عنه للحجاج بقصة العرنيين، لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي)[٤].

كما ذكر البخاري أيضًا في باب (حفظ العلم)[٥] الأثر المشهور عن أبي هريرة رضي الله عنه: (حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين: فأما أحدهما

---

(١) البخاري (١٢٧).
(٢) مسلم (باب النهي عن الحديث بكل ما سمع) (١/ ١١).
(٣) حمل بعض أهل العلم كلام الإمام مالك في كراهته للتحدث بأحاديث الصفات على الضعيف منها أو بما لا تقدر عقول العامة على فهمه، وما سوى ذلك فتعريف الناس بصفات ربهم عز وجل أمر مطلوب.
(٤) فتح الباري (١/ ٢٢٥).
(٥) البخاري (١/ ٣٥).

فبثثتـه، وأمـا الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعـوم)[١]، وذكر بعض أهل العلم أن الوعاء الذي لم يبثه أبو هريرة رضي الله عنه هو ما جاء في أن الأحاديث التي فيها ذكر الفتن وبيان أسماء أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم، وقد كان أبـو هريـرة رضي الله عنه يكني عن بعضهـا، ولا يصرح خوفًا على نفسـه منهم، كقوله: أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان. يشير إلى خلافة يزيد ومعاوية[٢].

وقال ابن الجوزي في كشف المشكل: (إن هذا الذي كتمه أبو هريـرة رضي الله عنه ليس مـن أمر الشريعـة فإنه لا يجـوز كتمانهـا...، إنما هذا المكتـوم مثل أن يقول فلان منافق وستقتلون عثمان، و(هلاك أمتي على يـدي أغيلمـة مـن قريش) هـم بنو فـلان، فلو صرح بأسمائهم لكذبوه وقتلوه)[٣].

وبعد هذه النقولات من الآثار وشروحها يتبين لنا أهمية النظر في مآلات إعلان الحكم على المعين لمن تبين له كفره أو بدعته أو فسقه، فإن كان سيترتب على ذلك مفاسد وفتنة على المبين أو على الناس الذين يبين لهم، فإنه يجوز والحالة هذه كتم هذا العلم وهذا الحكم، درءًا لمفسدة أكبر من مفسدة السكوت، قد تقع على صاحبها أو على من يسمعها، لاسيما إذا

---

(١) البخاري (١٢٠).
(٢) البخاري (١/ ٢١٦).
(٣) كشف المشكل من حديث الصحيح (١/ ١٠١٤).

لم يكـن في الإعلان مصلحة أو حاجـة، تدعو إلى اتخاذ موقف سريع من المحكوم عليه.

وكم سـمعنا ورأينـا من مفاسـد وفتن وبلايا حلـت بالمتسرعين في إظهـار قناعاتهم في حكمهم على الأعيـان، لا تكافئ تلك المصالح التـي يتوهمون بتحقيقها من جراء إعلانهم ذلك، والمقصود إعمال فقه الموازنات في مآلات الأقوال والأفعال، والعاقل هو الذي يعرف خير الخيرين فيأتيه، وشر الشرين فيدعه.

التعقيب الثاني:

النظر إلى المعَيَّن المراد الحكم عليه بعيني الشرع والقدر

يلاحظ على كثير ممن يبحث في تكفير الأعيان والأدلة على ذلك الحرص على تصيد الهفوات والسقطات لهذا المعين أو ذاك، بل والفرح بها، وكأن الباحث في ذلك يريد أدنى شبهة ليكفر بها المعين، ولا يخفى ما في ذلك من دخول الهوى وحظ النفس والتشفي من الخصم، والغفلة عما يجب أن يكون بين المسلمين من التراحم والتغافر والشفقة وحب الخير لهم، لذلك يجب على من احتاج إلى الحكم على معين ما أن ينظر إلى من يبحث من أحواله وأدلة الحكم عليه بنظرين متوازيين:

النظر الأول: ينظر إليه بعين الشرع، حيث يتثبت من الأدلة الحاكمة بتكفير أو تبديع أو تفسيق هذا المعين، بعد مراعات القواعد والأصول السابق ذكرها، ثم يعامله بالحكم الشرعي المناسب لحاله.

النظر الثاني: ينظر إليه بعين القدر، حيث يرحم المتلبس بكفر أو بدعة أو فسق، ويشفق عليه، ويرفق به، ويدعوه إلى الله ﷻ، ويتمنى هدايته، ويحاول أن يزيل عنه الشبهات لعل الله ﷻ أن يهديه وينجيه من عذابه. كما أن النظر بعين القدر تطامن من يتصدى للزائغين والحكم

عليهم، وتجعله يتواضع لربه سبحانه، ولا تعتريه آفة العجب، وذلك إذا أيقن أن القلوب بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ويحمد الله ﷻ أن سلمه مما وقع فيه غيره من الانحرافات، وأن الله ﷻ لو شاء كان كمثلهم، فكل هذا يثمر التواضع لله ﷻ ولخلقه، كما يثمر الرحمة والشفقة بالمنحرفين، وهذا يؤدي إلى توجيه الهم والفكر في دعوتهم وردهم إلى الحق أكثر من البحث عن هفواتهم والحكم عليهم وتكفيرهم أو تبديعهم أو تفسيقهم، وما أحسن ما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في نونيته العصماء في تنبيهه على هذين النظرين:

فانظر بعين الحكم وارحمهم بها	إذ لا ترد مشيئة الديان
وانظر بعين الأمر واحملهم على	أحكامه فهما إذن نظران
واجعل لقلبك مقلتين كلاهما	من خشية الرحمن باكيتان
لو شاء ربك كنت أيضًا مثلهم	فالقلب بين أصابع الرحمن[1]

(١) شرح قصيدة ابن القيم (١/ ١٣١).

التعقيب الثالث

وجود بعض أخلاق أهل البدع عند المعين
لا يعني بالضرورة أنه على عقيدتهم

مر بنا في إحدى القواعد السـابقة بأنه لا يلزم من قيام شـعبة من شـعب الكفر بالعبد أن يصير كافرًا الكفر المطلق حتى تقوم به حقيقة الكفر، كما أنه ليس كل من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمنًا حتى يقوم به أصل الإيمان.

وبناء على هذه القاعدة ومن باب أولى يمكن القول: إنه قد يوجد مـن بعض الدعاة والمجاهدين المتحمسـين بعـض صفات من صفات أهل البدع كالخوارج والمرجئة، ولكن لا يعني هذا أنهم بذلك ينتحلون عقيدتهـم، فيصنفون بأنهم منهم، إن من يرميهم بهذا قد جانب العدل والإنصـاف، نعم إن السـلامة والعافية أن يسـلمك الله ﷻ، ويعافيك من صفات أهل البدع عقائدهم وأخلاقهم وسلوكهم.

والمقصود: أنه قد يوجد من تظهر عليه بعض أخلاق الخوارج أو المرجئـة، وإن كانوا لا يقولون بعقيدتهـم، ولا ينطلقون من أصولهم، والمطلـوب من الداعية والمجاهـد أن يلتزم بمنهج أهل السـنة عقيدة

وسلوكًا وأخلاقًا، وأن يتجنب منهج أهل البدع عقيدة وسلوكًا، ونظرًا لظهور بعض سلوكيات وأخلاق الخوارج وبعض أخلاق وسلوكيات المرجئة اليوم على بعض المنتسبين للعلم والدعوة والجهاد، أذكر نفسي وإخواني بأبرز هذه الصفات حتى نحذر منها، ونسلم من الازدواجية والفصل بين العقيدة والسلوك.

فمن أبرز صفات المرجئة وأخلاقهم ما يلي:

١- التساهل في أخذ أحكام الدين وشرائعه بحجة قواعد التيسير ورفع الحرج والمشقة بدون الأخذ بضوابطها.

٢- الانفصام بين القول والفعل وبين السريرة والعلانية، حيث نجد الكلام الكثير والدعوة إلى مكارم الأخلاق والأعمال الصالحة وعند العمل تختفي هذه الأقوال وتبقى كلامًا أو نوايا.

٣- الوقوع في بعض المعاصي وترك بعض الواجبات بحجة أن الإيمان في القلب وليس في الظاهر.

٤- التهوين من شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو تركه بحجة أن في ذلك فتنة وفرقة.

٥- لمز الدعاة والمحتسبين والمجاهدين الصادقين ورميهم بالغلو وبدعة الخوارج ونشر الفتنة، وقد يكفرونهم في الوقت الذي يسكتون فيه عن بعض المبتدعة والمرتدين، بل قد يتكلفون العذر لهم.

ومن أبرز صفات الخوارج وأخلاقهم:

١- الجفـاء والغلظـة والفظاظة وعدم الرفـق بالمخالف وضعف وازع الرحمة والشفقة بالناس.

٢- مصادرة رأي المخالف وحقه في إبداء حجته وتسفيه رأيه وعقله.

٣- الكـبر والعجب والثقـة المفرطة بالنفس، وأن رأيـه هو الحق الذي لا مرية فيه ورأي مخالفه هو الباطل. وأن من ليس معه فهو ضده.

٤- التسرع في التكفير دون اكتمال الشروط ووجود بعض الموانع.

٥- لمـز الدعاة والعلماء الذيـن يتثبتون في الحكم على الناس، ويأخذون بفقه الموازنـات والمآلات وقواعد الترجيح من المصالح والمفاسـد بأنهم مخذلون أو مرجئة مداهنون.

الخاتمة

وبعد:

فهـذا ما يسره الله ﷻ من الكتابة في هذا الموضوع الدقيق الخطير، فما كان فيه من الصواب فمن الله ﷻ، وهو المان به، وأحمده سبحانه، وأشكره على توفيقه وامتنانه، وما كان فيه من خطأ وخلل، فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله ﷻ، وأتوب إليه من ذلك. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

صباح الأربعاء

٢٢/ ١١/ ١٤٣٥هـ